اتباع الهوى.. وفرقة المسلمين

بكتبه الشيخ : عبده أحمد الأقرع

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه . وبعد :

فإن من أعظم الآفات التي قد يُصاب بها المسلم اتباع الهوى ، لذا فقد تضافرت النصوص الشرعية والآثار السلفية في ذم الأهواء المضلة ، والتحذير من اتباعها ، ومن ذلك ما خاطب الله تعالى به نبيه داود – عليه السلام – بقوله : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] .

وقال في حق نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٦] ، وقال تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين ومحذرًا لهم من اتباع الهوى : ﴿ فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ ﴾ [النساء : ١٣٥] ، وأخبرنا تعالى بأنه لا أحد أضل ممن يتبع هواه بغير هدى ولا علم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الروم : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وإن كثيرًا ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ ، وقد بين ربنا سبحانه أن اتباع الهوى سبب لفساد الأمور ، فقال تعالى : ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

وأنه سبب الضلال عن الهدى والهوان في الدنيا ، فقال سبحانه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥، ١٧٦] .

وإنه موجب للعقوبة من الله ، فيطبع على قلبه ، ويختم على سمعه ، ويجعل على بصره غشاوة ، فقال سبحانه : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، وقد أخبرنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن اتباع الهوى من المهلكات ، فقال – عليه السلام – : " ثلاث

منجيات : خشية اللّه تعالى في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وثلاث مهلكات : هوى مُتبع ، وشح مُطاع ، وإعجاب المرء بنفسه » [« صحيح الجامع » (٥٨٣/١)] .

ولقد حذر السلف - رحمهم اللّه - من الهوى واتباعه ، ورهبوا من مجالسة أهله وأصحابه ، ومن ذلك ما ذكر عن علي بن أبي طالب - رضي اللّه عنه - قال : (إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان : طول الأمل واتباع الهوى ، فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق) [ذكره الإمام أحمد في « الزهد » (ص٩٢)] .

(ومن مظاهر اتباع الهوى فرقة المسلمين وانقسامهم على أنفسهم ، فإن فرقة المسلمين كانت ومازالت السبب الأول في ضعفهم وعجزهم وانهزامهم في كل معارك الحياة ، إنها فرقة منكرة خطيرة قسمت الأمة الواحدة إلى أمم ، والدولة إلى دويلات ، والجماعة الواحدة إلى جماعات ، والطريقة الواحدة إلى طرق ، والمذهب الواحد إلى مذاهب شتى ، ويا للأسى والأسف معًا ، وسبحان اللّه ! كيف رضيها المسلمون لأنفسهم مع أن الشرائع الإلهية كلها قد أجمعت على ضرر الفرقة وسوء أثرها في الأمم والجماعات ، واعتبرتها داءً عضالاً ، ومحنة قاسية شديدة تصاب بها الأمم والشعوب فتدمرها وتقضي على حياتها ووجودها) [من « اقتضاء الصراط المستقيم في الكلام على الاختلاف والافتراق »] .

وهذا القرآن الكريم ينعاها على أهلها ، ويحذر المسلمين من الوقوع فيها فيقول : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] ، ويقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، ويقول : ﴿ وأطيعوا اللّه ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن اللّه مع الصابرين ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، ويقول : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] .

(وكان رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - شديد التحذير من عواقب الاعتزال والفرقة ، وكان في حله وترحاله يوصي بالتجمع والإتحاد ، وقد رأى في سفره أن القافلة عندما تستريح يتفرق أهلها هنا وهناك كأنما ليس بينهم رباط ، فكره هذا المنظر ونفر منه ، وقال - عليه الصلاة والسلام - : « إن تفرقكم هذا من الشيطان » ، فلم ينزلوا بعد إلا انضم بعضهم إلى بعض ، حتى يُقال : لو بسط عليهم ثوب لعمَّهم) . [أخرجه أبو داود] .

فيا إخواني : إن توحيد الصفوف واجتماع الكلمة هي الدعامة الوطيدة لبقاء الأمة ، ودوام دولتها ، ونجاح رسالتها ولئن كانت كلمة التوحيد باب الإسلام فإن توحيد الكلمة سر البقاء فيه ، والإبقاء عليه ، والضمان الأول للقاء اللّه بوجه مشرق وصفحة نقية . [بتصرف من كتاب « خلق المسلم » للغزالي - رحمه اللّه - (ص ١٩٠)] .

فيا إخواني : ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يومٌ لا مردَّ له من الله ما لكم من ملجإٍ يومئذٍ وما لكم من نكير ﴾ [الشورى : ٤٧] ، استجيبوا لربكم : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، استجيبوا لربكم : ﴿ واعتصموا بالله هو مولاكم فنعمَ المولى ونعمَ النصير ﴾ [الحج : ٧٨] ، استجيبوا لربكم : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، استجيبوا لربكم واحذروا الفرقة حتى تنالوا رحمة الله ، قال تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ [هود : ١١٩] ، وتذكروا قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم !؟ أفشوا السلام بينكم » . [أخرجه مسلم (٥٤)] .

وقوله – عليه السلام –: « والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا » . [البخاري (٦٠٢٦)] .

وقوله – عليه السلام –: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . [أخرجه مسلم (٢٥٨٦)] .

ويكون ذلك بواسطة العودة بالمسلمين إلى أصلي الدّين الإسلامي وهما : كتاب الله تعالى وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – تعلمًا وتعليمًا وعملاً ، والعودة بهما إلى ما كانت عليه أيام الراشدين ، ممتثلين أمر الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ [النساء : ٥٩] ، وقوله – عليه السلام –: « وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » . [أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)] .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٤-٦] .

وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

احذروا الغيبة فإنها منتنة

بقلم الشيخ / عبده أحمد الأقرع

أخي في الله ، اعلم هداني الله وإياك سبيل الرشاد أن الغيبة من الأمراض التي انتشرت في المحافل والمجالس ، حتى صارت المجالس لا تخلو ولا تطيب إلا إذا ذكر فيها الناس بما يكرهون ، ألا فاعلم أن الله ، تبارك وتعالى ، قد نهى عن الغيبة ، وصوّرها بأقبح صورة لينفر ذوي الطباع السليمة منها ، فقال تعالى : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضًا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه ﴾ [الحجرات : ١٢] أي : كما تكرهون هذا طبعًا ، فاكرهوا ذاك شرعًا ، فإن عقوبته أشد من هذا ، ففي حجة الوداع وقف النبي صلى الله عليه وسلم خطيبًا جموع المسلمين الوافدة من شتى أقطار العالم فقال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، ألا هل بلغت »[1] .

وحذر ، عليه الصلاة والسلام ، من الغيبة فقال : « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه ؛ لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته ، يفضحه ولو في جوف بيته »[2] .

فلننظر بتدبر وتمحص ، ولننظر بعين الرهبة والتعظيم لأوامر الله تعالى ، وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم ، إن حرمة الغيبة عند الله تعالى كحرمة يوم النحر ، في شهر ذي الحجة في منى ، فهل علمتم ، إخواني في الله ، حرمة عرض المسلم ؟ فهل علمتم مدى حرمة عرض المسلم يا أصحاب الغيبة ، ويا آكلي لحوم المسلمين ؟

الله أكبر ، أين العقول ؟ الله أكبر ، أين الإيمان الذي يعمر النفوس ؟ أين الإيمان الذي يمنع الاستطالة في أعراض المسلمين ؟ وعن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم »[3] .

أين ذهبت عقول هؤلاء المغتابين ؟ كيف بهم ينهشون أعراض المسلمين ويأكلون لحومهم ، وهم يسمعون هذا الحديث ؟ فليبشروا بأظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، إنها أظفار فاقت أظفار الوحوش الضارية ، ليزدادوا عذابًا ، جزاءً وفاقًا على أفعالهم القبيحة ، وأعمالهم السيئة ؛ فأقلوا أو استكثروا أيها المغتابون بعد هذا من غيبتكم .

ولقد عظم الله ورسوله الغيبة تعظيمًا ؛ حتى قالت عائشة ، رضي الله عنها : قلت :

يا رسول اللّه حسبك من صفية كذا وكذا - قال بعض الرواة : تعني قصيرة - فقال صلى اللّه عليه وسلم : « لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته »[٤] . ومعنى « مزجته » : خالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها .

اللّه أكبر ؛ كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته ، كلمة واحدة تفعل هذا الفعل وتؤثر هذا التأثير ، فما أدراك بما يفعله المغتابون اليوم وألسنتهم لا تكلّ ولا تملّ مما يفعلون ، أيّ بحار تمزج كلماتهم لو مزجت بها ، وأي مياه تُنتن ؟ وأي طيب عيش يفسدون ؟

والمغتاب ينتن الريح ؛ يشهد لذلك ما جاء في الحديث ؛ عن جابر ، رضي اللّه عنه ، قال : كنا عند النبي صلى اللّه عليه وسلم فهبت ريح منتنة ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين »[٥] .

كما أن المغتاب جبان ضعيف الشخصية ؛ لأنّه لا يستطيع المواجهة ، ولا يقوى على المصارحة ، ولو كان شجاعًا لذكر المرء بما فيه أمامه ، وبين له بالحسنى صفاته وأفعاله ، لماذا لا يكون الواحد منا شجاعًا يواجه صاحب العيب بعيبه ؟ فيكون مأجورًا مشكورًا ، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر ، محققًا في نفسه قول اللّه تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى اللّه وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين ﴾ [فصلت : ٣٣] .

كما أن المغتاب ناقص الإيمان ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[٦] .

فيا أيها المغتاب أأحببت لأخيك ما أحببت لنفسك من الخير عندما اغتبته ؟ أتحب أن يذكرك أحدٌ من خلفك بما تكره ؟ فكيف تفعل ما تكره أن يفعل بك ؟ وسبحان اللّه القائل : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ﴾ [الكهف : ١٠٣] .

فترى المغتاب يقول : نحن نذكر ما فيه من خلفه لصالحه ولمنفعته التي يجهلها ، وربما قال بعضهم : نفعل ذلك حرصًا على المصلحة العامة ، فاستطالوا بذلك على أعراض إخوانهم ، فلهؤلاء نقول : إن العمل الذي يُعمل ينبغي أن يكون مشروعًا ، ولا يكفي للنجاة من عذاب اللّه تعالى أن يحسن المرء نيته وحدها ويترك ما سوى ذلك ، فالمشركون - كما يزعمون - كانت نواياهم طيبة جدًا ، وجاء بيان هذا في القرآن العظيم ، قال اللّه تعالى عن المشركين : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى ﴾ [الزمر : ٣] ، غير أن تلك النية الطيبة النبيلة - وهي التقرب إلى اللّه زلفى - لم تكن لتمنع الرسول صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه الكرام ، رضي اللّه عنهم ، من قتالهم ، والعمل الصالح لنية تحقيق مصلحة الفرد والجماعة لا يكون بغيبة الناس ونشر أسرارهم ، ثم إنه لو كانت الدعاوى صادقة بحسن النية لصدق العمل والأسلوب ، ويتم ذلك بالتحدث أمام الشخص بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأمره بالحسنى أن يستجيب لتعاليم الإسلام ، واجتناب الهوى ، وربما تكررت النصيحة والموعظة ، فإن لم تر نفعًا من هذا ، فابحث عن ناصح آخر ، فلعلك لم تُوفق في الأسلوب والطريقة ، واطلب من هذا الناصح أن يُسر ويكتم ما ذكرته عن ذلك الشخص ، وليتخير مختلف الأساليب النافعة حسب الحاجة والظروف ، فقد يكون التوجيه بأسلوب مباشر أو غير مباشر ، فإن لمست أن صاحب العيب لم يترك عيبه وذنبه وحتى بعد تكرار الذكرى ، فما عليك إلا أن تترك هذا الرجل الذي أسر ذنبه ولا تفضح أمره ، وإلا تفعل حققت كثيرًا من الفتن في العالم الإسلامي ؛ منها مخالفة النصوص الآمرة بالستر ،

ومنها ؛ التسبب في تعميم الشك وتعميقه في خُلق المسلمين ، وعدم الثقة بخيارهم ، ومنها ؛ اشتغال المسلمين بغيبة بعضهم بعضًا وانتشار الأحقاد بينهم ، وانشغالهم عن العمل بالأوليات التي تفرج كروبهم وكروب الأمة ، ومنها ؛ تشجيع صاحب العيب والذنب المستر بذنبه على المجاهرة ، فإن هذا الشخص ربما أضحى ببعض هؤلاء الذين نالوا منه في غيبته ، فأصبحت الحالة كما قال الشاعر :

لا نسب اليوم ولا خلةٌ
اتسع الخرق على الراقع

وترى آخر يقول : إنما أذكره بما فيه لا أتقول عليه ، فله نقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : ما الغيبة ؟ فقال : « ذكرك أخاك بما يكره » ، قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »[٧] .

فيا أخي الكريم : ليتفكر كل منا في نفسه ، مَنْ منا أوتي العصمة ؟ مَن منا حمي من الخطأ والزلل والذنب والعيب ؟ واعلم أخي في الله ، هداني الله وإياك ، أنه يتعين على من سمع غيبة أخيه أن يردها وينهى قائلها ، وحسبه في ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : ((من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة »[٨] .

وقوله عليه السلام : « من ذب عن عرض أخيه الغيبة كان له حجابًا من النار »[٩] .

وإلا يفعل كان شريكًا في الإثم كالمغتاب تمامًا ، قال الله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذًا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا ﴾ [النساء : ١٤٠] .

فاتق الله يا أخي ، وإياك وأعراض الناس ، فقد قيل :

إذا شئت أن تحيا سليمًا من الأذى
وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرئ
فكلك عورات وللناس ألسن

وحسبك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أتدرون ما المفلس ؟ » . قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : « إن المفلس من آمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار »[١٠] .

وفي هذا يقول القائل :

يشاركك المغتاب في حسناته
ويعطيك أجري صومه وصلاته

حينذاك يعض المغتاب على يديه يقول : ﴿ يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ۞ يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانًا خليلاً ۞ لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٩] .

فيا أخي في الله : « أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك »[١١] .

---

(١) متفق عليه
(٢) ((صحيح الجامع)) (٧٨٦١)
(٣) أبو داود (٤٨٧٨) .
(٤) أبو داود (٤٨٧٥) .
(٥) ((غاية المرام)) (٤٢٩) .
(٦) متفق عليه .
(٧) مسلم ٢٥٨٩ .
(٨) ((صحيح الترغيب والترهيب)) لشيخنا الألباني .
(٩) ((صحيح الجامع)) (٦١٣٩) .
(١٠) مسلم (٢٥٨١) .
(١١) الترمذي (٢٤٠٨) .

وقفة مع النفس

إعداد
عبده الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده، صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد:

فإنَّ رأس مال المسلم في هذه الدنيا هو الوقت، والوقت أنفس من المال وأغلى، أرأيت لو أن محتضرًا وضع موالـه جميعًا ليزاد في عمره يومًا واحدًا، أو ساعة، أو دقيقة واحدة هل يحصل له ذلك التمديد وتلك الزيادة ؟

الجواب: لا، فإن ذلك لن يكون.

والأيام مراحل ومطايا، تُبْعِدُ من الدنيا وتُدني من الآخرة.

إنَّا لنفرحُ بالأيام نقْطعُهَا ... وكُلُّ يوم مَضَى يُدْني مِنَ الأجلِ

نعم كلُّ يوم يُدني من القبور، ويبعدُ عن عامرِ الدُّور، فهل من وقفة مع النفس؟

إنَّ الموفَّق من يسعى لصلاح حاله، بحيثُ يكونُ غدُهُ خيرًا مِنْ يومِهِ، ويومُهُ أفضلَ من أمسه، وعامُهُ الجديدُ أفضلَ من عامِهِ الماضي، والكيس من حاسبَ نفسَهُ، وراجَعَ حساباتِهِ، وفتحَ صفحةً جديدةً من حياتِهِ، وتعهَّدَ رصيدهُ الأُخرويَّ، وتزوَّدَ من العمل الصالح، وقدَّر لخطاهُ مواضعَهَا، فعمر الإنسان هو موسم الزرع في هذه الدنيا، والحصاد هناك في الآخرة، فلا يحسن بالمسلم أن يضيع أوقاته، وينفق رأس ماله فيما لا فائدة فيه، ومَن جَهل قيمة الوقت الآن فسيأتي عليه حينٌ يعرف فيه قدره ونفاسته وقيمة العمل فيه، ولكن بعد فوات الأوان، وفي هذا يذكر القرآن موقفين للإنسان يندم فيهما على ضياع وقته حيث لا ينفع الندم:

الموقف الأول: ساعة الاحتضار، حيث يستدبر الإنسان الدنيا ويستقبل الآخرة، ويتمنى لو مُنح مهلة من الزمن، وأخِّر إلى أجل قريب ليصلح ما أفسده ويتدارك ما فاته، قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠].

وهل يجاب لطلبه؟ ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

يقول تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

والموقف الثاني: في الآخرة، حيث تُوفَّى كل نفس ما عملت وتُجزى بما كسبت، ويدخل أهل الجنَّةِ الجنَّة، وأهل النارِ النار، هناك يتمنى أهل النار لو يعودون مرة أخرى إلى حياة التكليف، ليبدأوا من جديد عملاً صالحًا.

هيهات هيهات لما يطلبون؛ فقد انتهى زمن العمل وجاء زمن الجزاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧- ٢٨].

أخي الحبيب: الزمن كالسيف إن لم تقطعه قطعك، يجب الحرص عليه والاقتصاد في إنفاقه وتدبير أمره، وإن كان المال يمكن جمعه وادخاره بل وتنميته، فإنَّ الزمن عكس ذلك، وإذا كان الزمن مقدرًا بأجل معين وعُمر محدّد لا يمكن أن يُقدَّم أو يؤخَّر، وكانت قيمته في حُسن إنفاقه، وجب على كل إنسان أن يحافظ عليه ويستعمله أحسن استعمال ولا يفرط في شيء منه قلَّ أو كثر.

ولكي يحافظ الإنسان على وقته يجب أن يعرف أين يصرفه، وكيف يصرفه، وأعظم المصارف وأجلها طاعة الله عز وجل، فكل زمن أنفقته في تلك الطاعة لن تندم عليه أبدًا.

وليكن شعارك: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

قال الحسن: من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه خذلانًا من الله عز وجل.

فينبغي للمؤمن أن يتخذ من مرور الليالي والأيام عبرة لنفسه، فإنَّ الليل والنهار يُبْليان كلَّ جديد، ويُقَرِّبان كل بعيد، ويطويان الأعمار، ويُشيبان الصغار، ويفنيان الكبار، قال بلال بن سعد: يُقال لأحدنا: تريد أن تموت ؟ فيقول: لا، فيقال له: لِمَ؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحًا، فيقال له: اعمل؟ فيقول: سوف أعمل، فلا يحب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله تعالى ولا يؤخر عمل الدّنيا.

فيا أخي الحبيب: استثمر وقتك ولا تضيع دقيقة منه، ولا تكن كمن إذا جاءه هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾، ولكن الرجعة مستحيلة، والعود بعيد، «كلا».

فاعمل - أخي - لهذا اليوم، واستعد له، واعلم أنه لن يصوم عنك أحد، ولن يصلِّي عنك أحد، ولن يُرضي عنك ربك أحدًا، فاعمل لنفسك، وأحسن فيما بقي يُغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذت بما مضى وما بقي.

جعلني الله وإياك ووالدينا في روضات الجنات، وبارك في أعمالنا وأوقاتنا، وجعل خير أعمالنا آخرها، وخير أعمارنا خواتمها، وخير أيامنا يوم لقائه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

ماذا تعرف عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه؟

الحمدُ لله وكفى، والصلاة والسلام على النبيِّ المصطفى، صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعدُ:

فإنَّ قراءة سير الصحابة والاقتداء بهم، نهجٌ غفل عنه البعض وطواه النسيان عند آخرين، ومعرفة سيرتهم وفضائلهم سببٌ لمحبتهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب». ويتأكد الفضل والخير في الخلفاء الأربعة لسابقتهم في الإسلام وبلائهم وجهادهم، عاشُوا مع نبيِّهم محمد ﷺ: ﴿آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إعداد/
عبده الأقرع

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «وأما الخلفاء الراشدون والصحابة، فكل خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإيمان والإسلام والقرآن والعلم والمعارف والعبادات، ودخول الجنَّة، والنجاة من النار، وعلو كلمة الله، فإنما هو ببركة ما فعله الصحابة الذين بلَّغوا الدِّين وجاهدوا في سبيل الله، وكل مؤمن آمن بالله، فللصحابة - رضي الله عنهم - الفضل عليه بإذن الله إلى يوم القيامة، وخير الصحابة تبع لخير الخلفاء الراشدين، فهم كانوا أقوم بكل خير في الدِّين والدنيا، كانوا والله أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم، وقد أثنى الله عليهم وأعدَّ لهم الحسنى فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وأثنى عليهم رسول الله ﷺ فقال: «خير الناس قرني، ثمَّ الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». [متفق عليه: البخاري: ٢٦٥٢، ومسلم: ٢٥٣٣].

وهذه وقفةٌ مع سيرةِ رجلٍ من هؤلاءِ الرِّجال، بل إنه رجلٌ لا كالرجالِ، إنه الصديقُ أبو بكرٍ خليفةُ رسولِ الله ﷺ.

أول من أسلم من الرجال، وقد وصفه الرسول ﷺ بالصديق.

«صَعِدَ رسولُ الله ﷺ أُحدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال ﷺ: «أثبت أُحد، فإنما عليك نبي وصدِّيق وشهيدان». [البخاري: ٣٦٧٥].

وأبو بكر - رضي الله عنه - أول من دعا إلى الله من الصحابة، فأسلم على يديه أكابر الصحابة، ومنهم عثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة - رضي الله عنهم أجمعين-. فمن سرَّه أن ينظرَ إلى عتيقٍ من النَّار فلينظر إلى أبي بكر، كيف لا، وقد أعلنَ رسول الله ﷺ وهو على منبره خطيبًا: «إنَّ أمنَّ الناسِ عليَّ في صحبتهِ وماله: أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً غيرَ ربي لاتخذت أبا بكرٍ، ولكن أُخوَّةُ الإسلامِ ومودتُهُ، لا يبقى بابٌ في المسجدِ إلا بابَ أبي بكرٍ». [متفق عليه: البخاري: (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢).].

وقال ﷺ: «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدق وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟.» [البخاري: ٣٦٦١].

ويزدادُ الأمرُ وضوحًا حين يقول عليه الصلاة والسلام: «ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه، ما خلا أبا بكرٍ، فإنَّ له عندنا يدًا يُكافئه الله بها يومَ القيامة، وما نفعني مالُ أحدٍ قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنتُ متخذًا خليلاً، لاتخذت أبا بكرٍ خليلاً، ألا وإنَّ صاحبكم خليل الله». [أخرجه الترمذي وصححه الألباني. صحيح الجامع: ٥٦٦١].

لقد كان - رضي الله عنه - يسابقُ إلى الخيراتِ، ويبادرُ إلى صنوفِ البرِّ والإحسان، ومواساةِ ذوي

الحاجاتِ، صلى رسول الله ﷺ الفجرَ ذاتَ يومٍ بأصحابه، فلما قضى صلاته قال: «أيُّكم أصبحَ اليومَ صائمًا؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن تبع منكم اليومَ جنازةً؟» قال أبو بكرٍ: أنا. قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن عاد منكم اليومَ مريضًا؟» قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئٍ إلا دخلَ الجنة». [مسلم: ١٠٢٨].

فكان رضي الله عنه أتقى الأمة بدلالة الكتاب والسُّنة.

قال الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ١٧-٢٠].

قد ذكر غير واحد من أهل العلم أنها نزلت في أبي بكر، ولقد كان أبو بكرٍ أسرعَ إلى الفطنةِ والإدراكِ فيما يُعرِّضُ به النبيُّ ﷺ لأصحابه من التلميح دونَ التصريح.

يُحدِّثُ أبو سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه يقول: جلس رسول الله ﷺ على المنبر يومًا فقال: «عبدٌ خيَّرهُ اللَّهُ أنْ يؤتيَه زهرةَ الدنيا وبين ما عندهُ فاختارَ ما عندهُ». فبكى أبو بكرٍ، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّرَ. وكان أبو بكرٍ أعلَمَنا به. [البخاري: ٣٩٠٤، ومسلم: ٢٣٨٢].

ولقد كان رضي الله عنه خيرَ خليفةٍ، أرحمَ الناسِ وأحناهم عليهم في عفةٍ وصدقٍ ودعةٍ وحزمٍ، وأناةٍ وكياسة، ويقظةٍ ومتابعةٍ، وهذه خطبته بعد أخذ البيعة: «أيها الناس، إني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإنْ أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قومٍ قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

عاتب اللهُ جميع الناس في النبيِّ ﷺ إلا أبا بكرٍ رضي الله عنه، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

قال الحسن: والله لقد عاب الله عز وجل أهل الأرض جميعًا إلا أبا بكر رضي الله عنه.

[ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٠٠].

إنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه بأفعاله الجميلة، ومبادراتِهِ المتنوعةِ يدخلُ الجنةِ ليس من بابٍ واحدٍ، ولكن من أبواب الجنة جميعها، فلقد عدَّدَ رسول الله ﷺ أبوابَ الجنةِ، فكان مما قال: «من كان من أهل الصلاةِ دُعِيَ من بابِ الصلاةِ، ومن كان من أهل الجهادِ دُعِيَ من بابِ الجهادِ، ومن كان من أهلِ الصدقةِ دُعِيَ من بابِ الصدقة، ومن كان من أهلِ الصيام دُعِيَ من بابِ الصيام». فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: ما على الذي يُدعى من تلك الأبوابِ من ضرورةٍ، وهل يدعى من كلِّها أحدٌ يا رسولُ اللهِ؟ قال: «نعم، وأرجو الله أن تكون منهم يا أبا بكر».

[البخاري: ١٨٩٧، ومسلم: ١٠٢٧].

ومن أجلِ هذا فلا جرمَ أنْ يقولَ عمرُ وعليٌّ رضي الله عنهما: ما سبَقْنَا أبا بكرٍ إلى خيرٍ قطُّ إلا سَبَقَنَا إليه.

وقد حث رسول الله ﷺ على الصدقة، فأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله

[الترمذي وأبو داود وحسنه الألباني].

ومع هذا كان رضي الله عنه إذا مدَحَهُ مادحٌ قال: «اللهم أنت أعلم مني بنفسي، واغفر اللهم لي ما لا يعلمون، واجعلني خيرًا مما يظنون».

[البيهقي في شعب الإيمان].

والحديثُ يطولُ في مسيرةٍ لا ينقضيْ منها العجبُ، فهل تعي الأمةُ في أعقابِ الزمنِ، وفي مواضعِ الفتنِ المجيدَ من تاريخها؟ أم هل يعي شبابُها أنَّ روحَ التاريخ يكمنُ في سيرِ الرِّجال الأفذاذِ؟ ولكن ما الحيلةُ إذا كان الرِّجالُ لا يقدِّرون الرجال؟

عن مسروق رضي الله عنه أنه قال: حُب أبي بكرٍ وعمر ومعرفة فضلهما من السنة. وقيل للحسن: حب أبي بكر وعمر من السنة ؟ قال: لا، بل فريضة.

وقد ذكر ابن الجوزي: أنَّ السلف كانوا يُعلِّمون أولادهم حب أبي بكرٍ وعمر كما يعلمونهم السور من القرآن، وعلى هذا يتأكد بيان علم الصحابة ودينهم وفضائلهم، رضي الله عن أبي بكر وعمر وجميع أصحاب رسول الله ﷺ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

رمضان والتوبة إلى الله

الحمد لله الملك الوهاب الغفور التواب، أحمده حمد من تاب إليه وأناب، وأشكره على نعمه التي تفوق العدّ والحساب، وأشهد أنَّ نبينا محمدًا خير من استغفر ربه وأناب، وبعد:

إعداد/ عبده الأقرع

فإنَّ من أعظم نعم الله عز وجل أن فتح باب التوبة وجعله فجرًا تبدأ معه رحلة العودة بقلوب منكسرة، ودموع منسكبة، وجباه خاضعة، قال تعالى:﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]. وقال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

ودعا الله عباده إلى التوبة فقال تعالى:﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وأخبرَ سبحانه أنه غفَّارٌ لذنوب التَّائبين، فقال عزَّ شأنه:﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، ولقد اختار الله من الأزمان مواسمَ للطاعات، واصطفى منها أيامًا ولياليَ وساعات فضلاً منه وإحسانًا، تُضاعف فيها الحسناتُ، وتكفَّرُ فيها السيئاتُ، وتُقالُ فيها العثراتُ، وتُرفعُ فيها الدَّرجاتُ، وتُجابُ فيها الدَّعواتُ، ولقد كان النبيُّ ﷺ يوصي المسلمين باغتنام هذه الفرص والتَّعرُّض فيها لنفحات الله عز وجل، فكان يقول: «افعلُوا الخيرَ دهركم، وتَعَرَّضُوا لِنَفَحاتِ رحمةِ الله، فإنَّ لله نفحاتٍ من رحمتِه، يصيب بها من يشاء من عباده، وسَلُوا الله أنْ يَستُرَ عوراتِكم، وأن يُؤَمِّنَ رَوعاتِكم». [الصحيحة: رقم ١٨٩٠].

وما من شهر تكثرُ فيه نفحاتُ رحمةِ الله كشهر رمضان، بل إنَّ أبواب الرحمة كلّها تفتح في شهر رمضان، قال ﷺ: «إذا كانَ أولُ ليلةٍ من شهرِ رمضان صُفِّدتِ الشياطينُ ومَرَدَةُ الجنِّ، وغُلِّقتْ أبوابُ النَّارِ فلمْ يفتحْ منها بابٌ، وفُتحت أبوابُ الجنةِ، فلم يغلقْ منها بابٌ، وينادي منادٍ كلَّ ليلةٍ: يا باغيَ الخيرِ أقبلْ، ويا باغيَ الشرِّ أقصِرْ، ولله عتقاءُ منَ النَّارِ، وذلكَ كلَّ ليلةٍ». [صحيح الجامع رقم ٧٥٩].

لذا كلما لاح هلالُ رمضان أعاد إلى الأمة الإسلامية ذكرى أيامهِ المباركات، وما يكون فيها من النفحات، مغفرة الذنوب ورفع الدَّرجات، وها هو ذا رمضان يهل بعد مسير الناس أشهرًا في مسالك الحياة ينالون منها وتنالُ منهم، ما أسرع ما عادت الأيام يشيب الطفل ويهرَم الشيخ، وينظر المرء إلى عمره فلا يجد إلا ماضيًا لن يعود، ومستقبلاً لا يدري ما الله فاعل فيه.

وإنَّ من نعم الله عليك - أخي - أن مَدَّ في عمرك وجعلك تدرك هذا الشهر العظيم، فكم غيَّب الموت من صاحب، ووارى الثرى من حبيب، فإنَّ طول العمر فرصة للتزود من الطاعات والتقرب إلى الله بالأعمال الصالحات، رُبَّ ساعة قبولٍ أدركت عبدًا فبلغ بها درجات الرضا والرضوان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رجلان من بلي من قُضاعة أسلما على عهد رسول الله ﷺ فاستُشهد أحدهما وأُخِّرَ الآخر سنةً، فقال طلحة بن عبيد الله: فأُريتُ الجنة فرأيت المؤخَر منهما أُدخِلَ قبل الشهيد، فتعجبت لذلك، فأصبحت فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، أو ذُكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «من أي ذلك تعجبون ؟ فقالوا: يا رسول الله، هذا كان أشدَّ الرَّجلين اجتهادًا ثُمَّ اسْتُشْهِدَ ودخلَ هذا الآخرُ الجنةَ قبلهُ، فقال ﷺ: «أليسَ قد مكثَ هذا بعدهُ سنةً؟» قالوا: بَلَى، قال: «وأدْرَكَ رَمَضَانَ فَصَامَ وصلَّى كذا وكذا من سَجْدَةٍ في السنةِ، قالوا: بلى، قال: «فَمَا بينهُمَا أبْعَدُ مِمَّا بين السَّمَاء والأرضِ». [صحيح ابن ماجه (٣١٧١)، وصحيح الجامع (١٣١٦)].

فإدراكُ رمضانَ فرصةٌ عظيمةٌ للتزود من الطاعات، والإقلاع عن السيئات، فلا تكن أخي - ممن - رغم أنفه وخسر هذه الفرصة العظيمة، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «رَغِمَ أنفُ رجُلٍ دخلَ عليه رمضانُ ثُمَّ انسلَخَ قَبْلَ أنْ يُغْفرَ لهُ». [صحيح الجامع ٣٥١٠].

فكم من أُناسٍ كانوا يتمنَّون إدراك رمضان فلم يدركوه.

قال أحد الصالحين عند موته: «إنما أبكي على أن يصوم الصائمون لله ولستُ فيهم ويصلي المصلون ولستُ فيهم».

فاقصد - أخي - باب التوبة، واطرق جادة العودة، وقل: لعله آخر رمضان في حياتي، ولا

تستكثر عليك هذا التصور.

فكم من صحيح مات من غير علةٍ

وكم من عليلٍ عاش حينًا من الدهر

فيا من مدَّ الله في عمره وبلَّغه رمضان، لقد آتاك الله ما لم يؤت كثيرًا من خلقه، فجدّ في التوبة وسارع إليها فليس للعبد مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد، فسارع إلى التوبة، وهُبَّ من الغفلة، واعلم أن خير أيامك يوم العودة إلى الله عز وجل، نعم - كُلنا أصحاب ذنوب وخطايا وليس منا من هو معصوم عن الزلل والخطأ، ولكن خيرنا من يسارع إلى التوبة ويبادر إلى العودة: تحثه الخُطى، وتسرع به الدمعة، لقد جعلَ الله في التوبة ملاذًا مكينًا وملجأً حصينًا، يلجُه المذنبُ مُعترفًا بذنبه، مُؤملاً في ربِّه، نادمًا على فعلِه، غيرَ مُصرٍّ على خطيئته، قال يحيى بن معاذ - رضي الله عنه-: من أعظم الاغترار عندي: التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القُرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النَّار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط، ومن أحبَّ الجنة انقطع عن الشهوات، ومن خاف النار انصرف عن السيئات.

وقال الحسن البصري: إنَّ قومًا ألهتهم أماني المغفرة، حتى خرجوا من الدُّنيا بغير توبة، يقول أحدهم: إني أُحسن الظن بربي - وكذب - لو أحسن الظن لأحسن العمل.

فمنْ كان يرجو لقاءَ ربه فليقلعْ عن ذنبه، ولْيَحُلَّ عقدة الإصرار، وليبادر بالتوبة والاستغفار، فالتوبة الصادقة تمحو الخطيئات مهما عظُمت حتى الكفرَ والشركَ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

فتح ربُكم أبوابَه لكلِّ التائبين: «يبسُطُ يدهُ بالليل ليتوب مسيءُ النهار ويبسُطُ يدهُ بالنهار ليتُوبَ مسيءُ الليل حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها». [مسلم: ٢٧٥٩، ٤/٢١١٣].

فمن تدنَّس بشيءٍ من قَذَر المعاصي فليبادرْ بغَسْلِه بماءِ التوبة والاستغفار، فإنَّ الله يحبُّ التوابين ويحبُّ المتطهرين، ومن ظنَّ أنَّ ذنبًا لا يتسعُ لعفو الله فقد ظنَّ بربِّه ظنَّ السوء. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فسارع - أخي - إلى التوبة النصوح، ودع عنك لعل وسوف، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

وقد مدح اللهُ تعالى التائبين من قريب ووعدهم بالمغفرة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

هذا، وإنَّ للتوبة النصوح شروطًا:

الأول: الإقلاعُ عن الذنب، الثاني: الندمُ على ما فات. الثالث: العزمُ على ألا يعودَ إلى هذا الذَّنب أبدًا. الرابع: إذا كان الذَّنب مُتعلِّقًا بعباد الله فإنَّ على التَّائب أن يردَّ على العباد حُقوقهم إذا استطاع، وأن يتحلَّلهم إن أمكن.

فسارع إليها - أخي - فيا لهَا من فرصة عظيمة، ومناسبةٍ كريمةٍ، تصفُو فيها النفوسُ، وتهفُو إليها الأرواحُ، وتكثُرُ فيها دواعي الخير، تُفتحُ الجنَّاتُ، وتتنزلُ الرَّحماتُ، وترفعُ الدَّرجاتُ، وتغفرُ الزَّلاَّت.

فالكيِّس من سارع إليها قبلَ فواتِ الأوان، وانقضاءِ الأعمار، فباب التوبة مفتوح، وعطاء ربك ممنوح، والعاجزُ من فتح على نفسهِ باب التَّسويف، واكتفى بالآمالِ والأمانيِّ، فيندمُ حيثُ لا ينفعُهُ النَّدمُ، حين يدركه الموتُ فيقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، فيقال له: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، أو يقول: ﴿رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١].

يا أيها التاركونَ لما أوجبَ اللهُ، من صلاةٍ وزكاةٍ وصلةٍ، المرتكبونَ ما حرَّمَ من شركٍ أو تركٍ للصلاةِ، أو ووقُوع في دَم، أو عرض، أو مالٍ، أو شرب مُسكرٍ أو مُخدِّرٍ، أو قطيعةٍ وعقوقٍ وسوءِ خلقٍ، أو عكوفٍ على اللهو واللغو وغير ذلك مما حرَّمه الله، بادروا بالتوبة قبل أن يواريكم الثَّرى، وتكونوا جثثًا هامدة وجيفًا بالية، لا ينفعكم حينذاك إلا عملكُم المتوجُ بالتوبة النَّصوح، والمحروم من أدرك شهر رمضان فلم يُغفر له، جعلني الله وإياكم ممن إذا أذنب تاب، وأن يرزقنا توبة نصوحًا قبل الممات.

والحمد لله أولاً وآخرًا.

ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟

إعداد / عبده الأقرع

الحمد لله الذي وعد على مقابلة الإساءة بالإحسان خير الجزاء، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خاتم الرسل وسيد الأنبياء، أما بعد:

فإنَّ العيد في الإسلام - أيها الإخوةُ غبطةٌ في الدِّين والطاعة، وبهجةٌ في الدنيا والحياة، ومظهر القوة والإخاء.

وقد قيل: من أراد معرفة أخلاق الأمة فليراقبْها في أعيادها، إذ تنطلقُ فيه السجايا على فطرتها، وتبرزُ العواطفُ والميولُ والعاداتُ على حقيقتها، والمجتمعُ السعيدُ الصالحُ هو الذي تسمو أخلاقُه في العيد إلى أرفع ذروة، وتمتدُّ فيه مشاعرُ الإخاءِ إلى أبعد مدى.

فالإسلام يريد للمسلمين أن يحيوا سعداء في الدنيا قبل سعادتهم في الآخرة، ومن أعظم أسباب سعادة الدنيا أن تسودهم المحبة، وتنتشر بينهم المودة حتى يكون المجتمع كله على قلب رجل واحد، كما قال رسول الله ﷺ: «مثلُ المؤمنينَ في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمى». [مختصر مسلم ١٧٧٤].

ولكن الناظر المتأمل في واقعنا اليوم يجد أنه قد غلب الجفاء، واستحكمت القطيعة، لأتفه الأسباب، فأذهبت الودّ والصفاء، وأدى ذلك إلى الشِّقاق والمرافعات، وعمَّت الأَثَرةُ والأنانية وحبُّ الذات..

أهذه تعاليمُ الأُخوةِ الإسلامية الصادقة؟ شقاق بين الأخ وأخيه، والابن وأبيه، والزوج وزوجه، والجار وجاره، والرَّجل وصهره، تُرى ما سبب هذا الوباء؟

ربما كان السبب الأول عصيان الرحمن، وطاعة الشيطان، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]. ومن عداوته- لعنه اللهُ - أنه يغيظُهُ ما يكون عليه المسلمون من الأُخوةِ والأُلفةِ والمحبةِ والمودّة، فهو يسعى جاهدًا لتفريقِ جمعهم وإيقاع العداوة بينهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ

الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ٩١]. وقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم».

[مسلم ٢٨١٢/٤/٢١٦٦].

أي: في الخلاف والشرور والعداوة والبغضاء بينهم حتى تكون من ذلك الفتن العظيمة والخطوبُ الجسيمة.

عن أبي ثعلبةَ الخشنيِّ قال: كان الناسُ إذا نزلوا منزلاً تفرَّقوا في الشعاب والأودية، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ تفرقكُم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان». فلم ينزلوا بعدَ ذلك منزلاً إلا انضمَّ بعضُهم إلى

بعض، حتى يقال: لو بُسط عليهم ثوبٌ لَعَمَّهُمْ. [صحيح أبي داود: ٢٢٨٨].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ إبليسَ يضعُ عرشهُ على الماءِ ثُمَّ يبعث سراياه فأدناهم منه منزلةً أعظمهم فتنةً يجيءُ أحدُهم، فيقولُ: فعلتُ كذا وكذا، فيقولُ: ما صنعتَ شيئًا، قال: ثم يجيءُ أحدهم، فيقولُ: ما تركتُهُ حتَّى فرقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيُدنيه منه ويقولُ: نِعْمَ أنتَ». [مسلم: ٢٨١٣].

وهذا نبي الله يوسف عليه السلام، قال الله تعالى في شأنه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فمن خطوات الشيطان إحداث القطيعة بين المسلمين، وكثيرون أولئك الذين يتبعون خطوات الشيطان، فيهجرون إخوانهم المسلمين لأسباب غير شرعية، إما لخلاف مادي، أو سوء ظنّ، وتستمر القطيعة دهرًا، وقد يحلف ألا يكلمه، وينذر ألا يدخل بيته، وإذا رآه في طريق أعرض عنه، وإذا لقيه في مجلس تخطاه ولم يصافحه، وهذا من أسباب الوهن في المجتمع الإسلامي، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، لأن هذا العمل أذى للمسلم، والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الاحزاب: ٥٨].

إذا ضَعُفَ الوازعُ الديني تجرَّأ المرءُ على الاستخفافِ بالمحرمات، وقلَّ عنده احترامُ الناسِ، لذا كان الحكم الشرعي حاسمًا والوعيد شديدًا، قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يهجرَ أخاهُ فوق ثلاث، فمن هَجَرَ فوق ثلاثٍ فماتَ دَخَلَ النارَ». [صحيح: أبي داود (٤١٠٦)].

وقال ﷺ: «مَنْ هَجَرَ أخاه سنةً كسفكِ دمه». [صحيح أبي داود ٤٩١٥].

وحسبك من آثار القطيعة بين المسلمين الحرمان من مغفرة الله عز وجل، قال رسول الله ﷺ: «تُعرضُ الأعمالُ في كلِّ اثنين وخميس، فيغفرُ الله لكلِّ امرئٍ لا يشركُ بالله شيئًا، إلاَّ امرأً كانت بينه وبين أخيه شحناءُ، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا» [مسلم ٢٥٦٥].

وقال ﷺ: «يطلع الله إلى جميع خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمُشركٍ أو مُشاحن». [صحيح الترغيب ٢٧٦٧].

ولذلك وصف رسول الله ﷺ خيرَ الرَّجلين بأنه الذي يبدأ بالصلة وقطع الخصومة، فقال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثِ ليالٍ، يلتقيان، فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام». وقال ﷺ: «لا يحلُّ لمؤمن أن يهجر مؤمنًا

فوق ثلاثٍ، فإن مرت به ثلاثٌ فليلقه فليسلم عليه، فإن ردَّ عليه السلام فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يُرد عليه فقد باءَ بالإثم وخرجَ المسلم من الهجرةِ». [صحيح الترغيب ٢٧٥٧].

فاصطلحوا أيُّها المتشاحنون، وتواصلوا أيها المتقاطعون، وأفيضوا جميعًا إلى ظلال المحبة والسلام والتَّعاون والأُخوة والوئام، تُحققوا ما تصبون إليه من رُشدٍ وخير، في دُنياكم وأُخراكم، إذًا لابد من العفو عن الزلات، والغضِّ عن الهفوات، ويبادر كلُّ متشاحنين إلى التسامح والصفاء، فإن كل إساءة تقابل بالإحسان سوف يكون له الأثر الطيب في محو أثرها، ومعالجة ما أحدثته من صدع وجفاء، من أجل ذلك أمر رب العزة سبحانه بإتباع السيئة الحسنة فقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

والمعنى: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك حتى يصير كأنه ولي لك حميم، ومقابلة السيئة بالحسنة مرتبة عظيمة لا يرتقي إليها من عباد الله إلا من امتلك زمام نفسه ؛ إذ فيها خيره وسعادته في العاجلة والآجلة وصلاح مجتمعه.

فمن خالف هواه وأخذ بتوجيه مولاه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]،

﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤]، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فقد فاز وأنْجَحَ، وفي جعل أجر العافي على الله، مما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحبّ أن يعفو الله عنه، فَلْيعفُ عنهم، وكما يحبّ أن يسامحه الله فليسامحهم، فإنَّ الجزاء من جنس العمل، فمن عفا، عفا الله عنه، ومن صفح، صفح عنه، ومن عامل الله بما يحب، وعامل عباده بما يحبون، نال محبة الله، ومحبة عباده، وتلك سعادة يرجوها كل من عاش على الغبراء في قطع مرحلة الحياة.

لذا لا يرتقي إلى هذه المرتبة العظيمة إلا من صبر على كظم الغيظ وقابل الإساءة بالإحسان: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، والعفو عند المقدرة من شيم الرَّجل الكريم، قال الله تعالى حكاية عن نبيه يوسف عليه السلام وإخوته: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩١-٩٢]، والعفو عن المسيئ عزة، قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله عز وجل».

[مسلم ٢٥٨٨ باب استحباب العفو والتواضع].

وحسبُ العافي قول النبي ﷺ: «من كظم غيظًا، وهو قادرٌ على أن يُنْفذَه، دعاهُ الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يُخيره من الحور العين ما شاء».

[أبو داود ٤٧٧٧، وهو في صحيح الجامع ٦٥١٨].

فهل أنتم منتهون أيها المتخاصمون ؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «ما توادَّ اثنانِ في الله فيُفرَّق بينهما إلا بذنب يُحدثهُ أحدهما».

[صحيح الجامع ٥٦٠٣].

نسأل الله أن يؤلِّف بين قلوبنا، وأن يُصلح ذات بيننا، وأن يهدينا سُبل السلام.

واجب الأمة نحو علمائها

الحمد لله رافع أهل العلم درجات، والمفضلِ ذوي العلم في الحياة والممات، وأصلي وأسلم على سيد الدعاة وإمام الأنبياء وعلى آله وأصحابه ومن استن بسنته واهتدى بهداه، أما بعد:

فالعلم منةٌ يمنّ الله به على من شاء من عباده، قال تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢]، وقال تعالى عن كليمه موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤]، وقال تعالى عن داود وسليمانَ عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، فخصّ العلمَ بالذكر مع أنه آتاهما مالاً وملكًا، ﴿وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، ذكر سبحانه أنهما قالا: «الحمد لله» لاعتقادهما أنّهما بالعلم فُضِلا على كثير من عباده المؤمنين، وامتن سبحانه على نبينا محمد ﷺ: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فمن أورثه الله علمَ الكتاب والسنة فقد اصطفاه، قال ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين».

إذن فالعلماء وارثوا علم النبوة، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وهم مثالُ الاستقامة، بالعلم عاملون، وعلى الحق سائرون، يهدون بالحق وبه يعدلون، مصابيح الدجى، وأعلام الهدى، بهم يُهتدى ويُقتدى، وعلى خطاهم تعيش الأمم على هدى وبصيرة من أمرها بعيدًا عن البدع والخرافات ودروب الجهل والضلال، استشهد الله بهم دون غيرهم من البشر على أجل مشهودٍ به وأعظمه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُواْ الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأخبر سبحانه أنهم أهل خشيته: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وأمر سبحانه رسوله ﷺ أن يستشهد بهم على رسالته ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

إعداد/
عبده أحمد الأقرع

[الرعد: ٤٣]، واستشهد بهم سبحانه على صحة ما أنزل على رسوله ﷺ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٨٤]، وجعل سبحانه كتابه آيات بينات في صدورهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩]، ونفى سبحانه التسوية بين العالمين والجاهلين فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]،

﴿ العلماء وارثوا علم النبوة، وهم مثال الاستقامة، بالعلم عاملون، وعلى الحق سائرون؛ بهم يُهتدى ويُقتدى، وعلى خطاهم تعيش الأمم على هدى وبصيرة من أمرها، بعيدًا عن البدع والخرافات ﴾

وأمر تعالى نبيه ﷺ أن يكتفي بشهادة أهل العلم ولا يعبأ بالجاهلين، فقال تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء: ١٠٦- ١٠٨].

وأخبر سبحانه عن رفعة درجات أهل العلم، فقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما خصّ اللهُ العلماء في شيء من القرآن ما خصّهم في هذه الآية، فضّل اللهُ الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم». [الدر المنثور: ٣/٨٣].

ودعا الله الناس إلى سؤالهم فيما يجدُّ من مسائلَ وقضايا فإجابتُهم تزيل الشبهات، قال الله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

وأخبر سبحانه أنهم المنتفعون بضرب الأمثال، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، لذا كان بعضُ السلف إذا مَرّ بمثلٍ لا يفهمه يبكي ويقول: لست من العالمين.

وأخبر سبحانه أنّ العلماءَ سيشهدون للأنبياء على أممهم يومَ القيامة، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والخطابُ وإن كان للأمّة إلاّ أنه من العامّ المخصوص، لأنّ الجاهلَ شهادتُهُ مردودة، ولذلك قال الإمام البخاري - رحمه الله في صحيحه: (باب «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» وما أمر النبيُّ ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم، وقد مدح رسول الله ﷺ أهل العلم، فقال عليه الصلاة والسلام: «وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر». [متفق عليه].

وقد وصى رسول الله ﷺ باغتنام حياة العلماء، وأخذ العلم عنهم قبل أن يموتوا، فقال ﷺ: «إنّ الله لا يقبضُ العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبق عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جُهالاً، فَسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فضَلّوا وأضلُّوا». [متفق عليه].

وقد قيل لسعيد بن جبير: ما علامةُ هلاكِ الناس؟ قال: إذا هلك علماؤها. ومع هذا الثناء من الله ورسوله ﷺ وسلم على أولي العلم - فإنهم لم يسلموا من أقوامٍ يحطُّون من أقدارهم ويجترئون على مقامهم، وينزعُون من مهابتهم، يطعنون في أعمالهم وجهودهم، ويشككون في قدراتهم وكفاءاتهم، ويبلبلون على العامة، يوزعون الاتهامات، ويتبعون المعايب، والأشدُّ من ذلك والأنكى اتهام النيات، والحكمُ على المقاصد، والتطاول على السرائر التي لا يعلمها إلا الله، ولا شك أن هذا ضرر على الدين، فالطعن في العلماء ليس طعنًا في شخوصهم، إنما هو طعن في العلم الذي يحملونه، وبالتالي طعن في الإسلام.

احذروا التطاول على مناهج الأئمة، وعلماء الأمة، أو التهوين من فقه السلف، ومن ظفر بخطأ عالم فلا يفرح، ولا يتبع العثرات

فاحذروا - إخواني - كل الحذر من التطاول على علماء الأمة، فالتجريحُ بغير حقّ لا يجوز، ورفضُ الدليل محرمٌ لا يسوغ، والمنهجُ الحقُّ الأخذُ بالدليل مع وافر الحرمة والتقدير لأئمة العلم والدِّين، ومن كانت له نادرة ينبغي أن تدفن في بحر علمه، وتُنسى في جانب عظيم فضله، فالعصمةُ غير مضمونة لأي عالمٍ، ولكن المضمون لهم - إن شاء اللهُ - الأجرُ على اجتهادهم - أصابوا أم أخطئوا.

قال الحافظ الذهبيّ - رحمه الله-: لو أنّا كلّما أخطأ إمامٌ في اجتهادٍ في آحاد المسائل خطأً مغفورًا له، قمنا عليه، وبدَّعناه وهجرْناه لما سلم معنا لا ابنُ نصرٍ ولا ابن منده، ولا من هو أكبرُ منهما، واللهُ هو هادي الخلقِ إلى الحقِّ، وهو أرحمُ الراحمين، ونعوذ بالله من الهوى والفظاظة. اهـ.

احذروا التطاولَ على مناهج الأئمة، وعلماء الأمة، أو التهوينَ من فقه السلف، ومن ظَفِر بخطأ عالمٍ فلا يفرح، ولا يتبعْ العثراتِ، ولكن ليصحِّح الخطأ، وليتبينه إلى الصواب يحيطُ ذلك سياجٌ من الخلق الفاضل، في لسانٍ عفيف، ونظرٍ متورع، وقبل ذلك وبعدَه هو بحاجة إلى إخلاص القصدِ لله وحده، وليحذر التشهير والتشنيع، وألا يظنَّ بهم إلا خيرًا: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، وبخاصةٍ أولئك الأعلامُ الذين يُعلِّمونَ الناسَ الخير، يجبُ على الأمةِ أن تحفظ حقوقَهم، وتعرفَ مكانتَهم، وتَقْدُرَهم حقّ قدرهم، وتلتزمَ الأدبَ معهم، إنهم العلماءُ وارثوا علم النبوة خلفاءُ النبيِّ ﷺ في أمته، المحيون لما ماتَ من سنته، فمعلم الناس الخير يصلي عليه الله وملائكته ويستغفر له كل شيء حتى الحيتان في جوف البحر، والنملة في جحرها، فعليكم - إخواني - بتبجيل العلماء أهل الفضل والإيمان، قال الإمام الطحاويُّ - رحمه الله-: «وعلماءُ السَّلفِ من السابقينَ ومن بعدهم من التابعين أهلُ الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يُذكرون إلا بالجميل، ومَن ذَكَرَهُم بسوءٍ فهو على غير السبيل».

[الطحاوية ص٥٨ بتعليق شيخنا الألباني - رحمه الله].

وقال الحافظ ابن عساكر: "اعلم وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حقّ تُقاته أنّ لحُومَ العُلماءِ مَسْمومة، وعادةُ الله في الانتقام من مُنْتَقصِهم معلومة، ومن أطلقَ لسانه في العلماءِ بالثَّلبِ ابتلاهُ اللهُ قبلَ موتهِ بموت القلب".

[مقدمة المجموع شرح المهذب ١/٢٤].

ومن قبلُ قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «من آذى فقيهًا فقد آذى رسول الله ﷺ، ومن آذى رسول الله ﷺ فقد آذى الله عز وجل».

فيا إخواني: العلماءَ أنزلُوهم منازلهم وأجلّوهم واحترموهم، قال ﷺ: «ليس منّا من لم يُجلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه».

[صحيح الجامع ٥٣١٩، ٥٤٤٣].

ومن وصايا لقمان: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإنّ الله يُحيي القلوبَ بنورِ الحكمة، كما يُحيي الأرضَ بوابلِ المطر». ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

من فضائل الحج

إعداد/
عبده الأقرع

الحمد لله خص بيته بمزيدٍ من التكريم، وافترض حجّه على من استطاع إليه السبيل، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد الموحى إليه في أشرف تنزيل: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، وبعد:

فهذه كلمة تشتمل على ذكر بعض فضائل الحج، فأقول وبالله التوفيق:

الحج عبادة من العبادات التي افترضها الله وجعلها إحدى الدعامات الخمس التي يرتكز عليها الدِّين الإسلامي والتي بينها الرسول ﷺ بقوله: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت». [متفق عليه].

وقد حج رسول الله ﷺ بالناس في السنة العاشرة من الهجرة حجته التي رسم لأمته فيها كيفية أداء هذه الفريضة، وحث على تلقي ما يصدر منه من قول وفعل، فقال ﷺ: «لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه». (مسلم ١٢٩٧/٢/٩٤٣).

فسميت حجته ﷺ حجة الوداع، وقد رغب ﷺ أمته في الحج وبيّن فضله وما أعده الله لمن حج وأحسن حجه من الثواب الجزيل، فقال ﷺ: «من حجَّ فلم يرفث، ولم يَفْسُقْ، رجع من ذنوبه كيوم ولدتهُ أمُّه». [متفق عليه].

وقال ﷺ: «العمرةُ إلى العمرة، كفارةٌ لما بينهما، والحج المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنة». [متفق عليه].

وقد سُئل ﷺ: أيُّ العملِ أفضلُ؟ قال: «إيمانٌ باللهِ ورسولِهِ». قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حجٌ مبرور». [متفق عليه].

وعن ابن شماسة قال: حَضَرْنا عَمرو ابنَ العاصي وهو في سياقة الموت، فبكى طويلاً، وقال: فلما جعل الله الإسلامَ في قلبي أتيتُ النبيَّ ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ابسُط يمينك لأبايعكَ. فبسطَ يده، فقبضتُ يدي. فقال: «ما لكَ يا عمرو؟» قال: أردتُ أن أشترطَ. قال: «تشترطُ ماذا؟» قال: أن يُغفر لي. قال: «أما علمتَ يا عَمرُو أن الإسلام يَهدمُ ما كان قبله، والهجرة تَهدمُ ما كان قبلها، وأنّ الحج يهدمُ ما كان قبله؟».

[رواه مسلم، وهو في صحيح الترغيب رقم ١٠٩٧].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

قلت: يا رسول الله، نرى الجهادَ أفضلَ الأعمال، أفلا نجاهد؟ فقال: «لكنَّ أفضل الجهادِ حجٌ مبرور». [البخاري ٣/٣٠٢].

وقال ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنَّهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكيرُ خَبثَ الحديد والذهب والفضةِ، وليس للحجَّة المبرورة ثوابٌ إلا الجنة».

[صحيح الجامع ٢٨٩٩].

وقال ﷺ: «الحاجُّ والعُمَّارُ وفدُ الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم».

[صحيح الجامع ٣١٧٣].

وقال ﷺ: «استمتعوا بهذا البيت، فقد هُدم مرتين، ويُرْفعُ في الثالثة».

[صحيح الجامع ٣١٧٣].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنت جالسًا مع النبيِّ ﷺ في مسجد مِنى، فأتاه رجلٌ من الأنصار ورجل من ثقيف، فسلما، ثُمَّ قالا: يا رسول الله، جئنا نسألك فقال: «إنْ شئتُما أخبرتُكما بما جئتما تسألاني عنه فَعَلْتُ، وإن شئتما أن أمسكَ وتسألاني فعلتُ». فقالا: أخبِرْنا يا رسول الله، فقال الثقفي للأنصاري: سل. فقال: أخبرني يا رسول الله. فقال: «جئتني تسألُني عن مخرجك من بيتكَ تَؤُمُّ البيتَ الحرامَ ومالكَ فيه، وعن ركعتيك بعد الطوافِ ومالك فيهما، وعن طوافِك بين الصفا والمروة ومالك فيه، وعن وقوفك عَشيَّة عرفةَ ومالك فيه، وعن رميك الجمار ومالك فيه، وعن نحرك ومالك فيه، مع الإفاضة، فقال: والذي بعثك بالحق، لَعَنْ هذا جئتُ أسألك. قال: فإنك إذا خرجت من بيتك تَؤُمُّ البيتَ الحرامَ، لا تضعُ ناقتُك خُفًا، ولا ترفعه، إلا كتب «الله» لك به حسنةً، ومحا عنك خطيئة، وأما ركعتاك بعد الطواف، فكعتق رقبة من بني إسماعيل، وأما طوافُكَ بالصفا والمروة، فكعتق سبعين رقبة، وأما وقوفُك عشية عرفة، فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة يقول: عبادي جاؤني شُعثًا من كل فَجٍّ عميق يَرجون رحمتي، فلو كانت ذنوبُكم كعدد الرمل، أو كَقَطْرِ المطرِ، أو كزبد البحر، لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفورًا لكم، ولمن شفعتم له، وأما رميكَ الجمارَ، فلكَ بكلِّ حصاةٍ رَمَيْتَها تكفيرُ كبيرة من الموبقات، وأما نحرُك، فمدخورٌ لك عند ربك، وأما حِلاقُكَ رَأسَك، فلك بكل شعرةٍ حلقتها حسنةٌ، وتمحى عنك خطيئةٌ، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك، فإنك تطوفُ ولا ذنبَ لك يأتي ملكٌ حتى يضعَ يديه بين كتفيك فيقول: اعملْ فيما تستقبلُ، فقد غُفِرَ لك ما مضى».

[صحيح الترغيب ١١١٢].

وإذا مات الحاج كُتب له ثواب الحاج إلى يوم القيامة. قال ﷺ: «من خرجَ حاجًا فمات، كُتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمرًا فمات، كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة».

[صحيح الترغيب ١١١٤].

وقال ﷺ: «في المُحرِمِ الذي وقصته ناقته فمات: اغسلوه بماء وسدر، وكفِّنوه بثوبيه، ولا تُخمرُوا رأسه، ولا تُحنطوه، فإنه يُبعث يوم القيامة ملبيًا». [متفق عليه].

فهل بعد هذا الجزاء جزاءٌ؟

أسأل الله إنه خير مسئول وأكرم مأمول، أن يكتب لي ولكل متشوق حج بيته الحرام، وألا يحرمنا من دعوات الصالحين، وترحمات المؤمنين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

جزاء المحسنين

الحمد لله عالم السرِّ والنجوى، المطلع على الضمائر وكل ما يخفى، أحمده سبحانه، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد أفضل مَن أحسن العمل، وراقب مولاه في السرِّ والعلن، وبعد:

فالإحسان في اللغة: ضد الإساءة، وهو مصدر أحسن، إذا أتى بما هو حسن.

واصطلاحًا: الإتيان بالمطلوب شرعًا على وجه حسن. وقد أوضح رسول الله ﷺ الإحسان في حديث جبريل عليه السلام المشهور حين سأله عن الإحسان؟ فكان جوابه ﷺ: «أن تَعْبُدَ اللَّهَ كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تَكُنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ». [رواه مسلم ٨].

فبين ﷺ معنى الإحسان، وهو أن يفعل الإنسان ما تعبّده الله به كأنه واقف بين يدي الله، وذلك يستلزم تمام الخشية والإنابة إليه سبحانه، ويستلزم الإتيان بالعبادة على وفق الخطة التي رسمها رسوله عليه الصلاة والسلام ؛ لأن من مقتضى الإيمان بالله عز وجل الإيمان بأنه تعالى مطلع على جميع الخلائق يعلم أحوالهم ويشاهد تصرفاتهم وأعمالهم، ويسمع أقوالهم، لا يفوته شيء من ذلك، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، «شيء» نكرة في سياق النفي في قوله: «لا يخفى» فتعمُّ كل شيء، فكل شيء لا يخفى على الله في الأرض ولا في السماء، وقد فصّل الله هذا في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

تفيد هذه الآيات وغيرها من آي الكتاب العزيز إلى جانب ما تقرره من شمول علم الله وكماله واطلاعه ومراقبته وعظيم قدرته ورعايته وهيمنته، تفيد إلى جانب ذلك تعليم عباده بأن يراقبوه ويستحضروا قربه ويستشعروا على الدوام أنَّ الله عز وجل مطلع على حركاتهم وسكناتهم، على أقوالهم وأفعالهم وما يختلج في صدورهم، ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣، ١٤]، ويتأكد ذلك الاستشعار عندما يشرع المسلم في عبادة من العبادات بحيث يقوم فيها بين يدي خالقه ومولاه مقام من آمن واستشعر أن الله تعالى يراه أو كأنه هو الذي يرى الله عز وجل، وهذه أعلى درجات السلوك مع الله تعالى ؛ لأن العاقل إذا تذكر أنَّ الله رقيب عليه أحسن عمله رغبة فيما عند الله من الثواب للمحسنين، خوفًا من العقاب الذي أعده للمسيئين، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ومن رحمته وفضله سبحانه أن جعل الجزاء من جنس العمل، ومن ذلك أنه جعل ثواب الإحسان إحسانًا: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فمن أحسن عمله أحسن الله جزاءه، وقد أوضح سبحانه في كتابه العزيز جزاء المحسنين وأنه أعظم جزاء وأكمله، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وهذه الآية فسرها رسول الله

إعداد/ عبده الأقرع

ﷺ بما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب- رضي الله عنه- بأنَّ الحسنى الجنَّة، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل.

ولا يخفى ما بين هذا الجزاء وذلك العمل الذي هو الإحسان من المناسبة، فالمحسنون الذين عبدوا الله كأنهم يرونه جعل جزاءهم على ذلك العمل النظر إليه عيانًا في الآخرة، وعلى العكس من ذلك الكفار الذين طُبع على قلوبهم، فلم تكن محلاً لخشيته ومراقبته في الدنيا، فعاقبهم الله على ذلك بأن حجبهم عن رؤيته في الآخرة، ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، كما أنَّ جزاء الذين أحسنوا الحسنى، فإنَّ عاقبة الذين أساءوا السوأى كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى﴾ [الروم: ١٠]، ولمزيد عناية الإسلام بالإحسان وعظيم منزلته، نوَّه سبحانه بفضله وأخبر أنه يحب المحسنين وأنه معهم، وكفى بذلك فضلاً وشرفًا فقال سبحانه: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]،

وقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]،

وقد ضمّن رسول الله ﷺ جوابه عن الإحسان بيان السبب الحافز على الإحسان لمن يبلغ هذه الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة، ألا وهو تذكير فاعل العبادة بأنَّ الله مطلع عليه لا يخفى عليه شيء من أفعاله، وسيجازيه على ذلك، فعلى العبد أن يأخذ نفسه بمراقبة الله تبارك وتعالى، ويلزمها إياها في كل لحظة من لحظات عمره، حتى يتم لها اليقين بأنَّ الله مطلع عليها، عالم بأسرارها، رقيب على أعمالها، قائم عليها وعلى كل نفس بما كسبت، وهذا أرفع مراتب الدين، وقد مدح الله الذين يخشونه بالغيب، وبيَّنَ جزاءهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يونس: ١١].

وقد عدَّ رسول الله ﷺ خشية الله في السر والعلانية من المنجيات، فقال ﷺ: «ثلاثٌ منجياتٌ: خَشْيَةُ الله في السِّرِّ والعلانية، والعدل في الرِّضا والغَضَبِ، والقَصدُ في الفَقْرِ والغنى».

[الصحيحة ١٨٠٢، وصحيح الجامع ٣٠٣٩].

فخشية الله في السِّر والعلانية أساس عمل المسلم كله ومعاملاته، لأنه بإيمانه بالغيب سيعمل كل خيرٍ طمعًا في ثواب الله، وبمخافة الله بالغيب سيتجنب كل سوء، وقد ذمَّ اللهُ أولئك الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، فقال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

فعظِّم- أخي- حرمات الله في السِّر والعلانية: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]،

واحذر كل الحذر ممن قال فيهم رسول الله ﷺ: «لأعلَمَنَّ أقوامًا من أُمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة(١)، بيضاءَ فيجعلها الله عز وجل هباءً(٢) منثورًا».

قال ثوبان: يا رسول الله، صفهم لنا، جلِّهم لنا، ألا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «أما إنَّهم إخوانُكم ومن جلدتكم ويأخذونَ من الليل كما تأخذون، ولكنَّهم إذا خَلَوْا بمحارم الله انتهكوها».

[ابن ماجه في كتاب الزهد ٤٢٤٦، والصحيحة ٥٠٥].

وحسبك قول القائل:

إذا ما خلوتَ الدهر يومًا فلا تقل
خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أنَّ ما تُخفي عليه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهبٍ
وأنَّ غدًا للناظرين قريب

اللهم ارزقنا خشيتك في السرِّ والعلن.

هوامش

١- معنى تِهَامة: أرض منخفضة بين ساحل البحر وسلسلة الجبال في الحجاز واليمن.

٢- معنى هباءً: التراب الذي تُطيره الريحُ، وقد ينبث في الهواء فلا يبدو إلا في ضوء الشمس، ويقال: ذهب عمله هباءً، أي هدرًا جمعها.

الأئمة الأربعة وتعظيم الدليل

إعداد/
عبده الأقرع

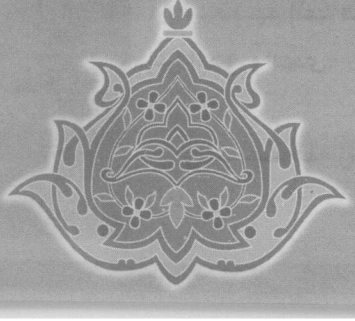

الحمد لله الموصوف بصفات الجلال والكمال، من تمسك بكتابه عزَّ وساد، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خير من هدى إلى سبيل الرشاد، وبعد:

فالذين اشتهروا في الفقه كثيرون، ومن أشهرهم الأئمة الأربعة، وهم: الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة (١٥٠هـ)، والإمام مالك بن أنس المتوفى سنة (١٧٩هـ)، والإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤هـ)، والإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة (٢٤١هـ)، وحقيقة القول في الأئمة- رحمهم الله- أنهم من خيار المسلمين، وأنهم ليسوا معصومين، فكل ما اجتهدوا فيه فهم مأجورون على كل حال، لا يلحقهم ذم ولا عيب ولا نقص في ذلك، ولكن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حاكمان عليهم وعلى أقوالهم، فكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ هما الينبوعان الصافيان النقيان، وهما مصدر كل خير وأساس كل صلاح وفلاح، ومنهما تستنبط الأحكام في الأصول والفروع، فإذا وُجد نص فيهما على مسألة من المسائل تعيَّن المصير إليه والأخذ به، وقد جاء عن الأئمة الأربعة- رحمهم الله- نصوص فيها وصاياهم لغيرهم بأن يأخذوا بما دلت عليه الأدلة ويتركوا أقوالهم، منها قول الإمام أبي حنيفة: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه، فاتركوا قولي لكتاب الله، فقيل: إذا كان خبر رسول الله ﷺ يخالفه ؟ قال: اتركوا قولي لخبر رسول الله ﷺ، فقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة، وقوله: لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعرف مأخذه من الكتاب والسنة أو إجماع الأمة أو القياس الجلي في المسألة، وقوله: «إذا صح الحديث فهو مذهبي».

ومنها قول الإمام مالك: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه، وقوله: «كلٌّ يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر». يشير إلى قبر رسول الله ﷺ.

ومنها قول الإمام الشافعي: «ما من أحد إلاَّ وتذهب عليه سنةٌ رسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قاله رسول الله ﷺ وهو قولي، وقوله: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ، فخذوا سنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت، وقوله: أجمع الناس على أنَّ من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد، وقوله: كل مسألة صحَّ فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلت، فأنا راجع عنها في حياتي وبعد مماتي، وقوله: إذا صح الحديث فهو مذهبي».

ومنها قول الإمام أحمد وقد قيل له: الأوزاعي هو أتبع أم مالك؟ قال: لا تقلد دينك أحدًا من هؤلاء، ما جاء عن النبيِّ ﷺ وأصحابه فخذ به، ثمَّ التابعين بعدُ الرجلُ فيهم مخير، وقوله: لا تقلدني، ولا تقلد مالكًا ولا الشافعي ولا الثوري، وخُذ من حيث أخذوا».

قال الإمام ابن القيم في كتابه «الروح» (ص٣٩٥-٣٩٦): «فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النص لم يُهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم، بل اقتدى بهم، فإنهم كلهم أمروا بذلك، فمتبعهم حقًا من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم، فخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا ودعوا إليها وهي تقديم النص على أقوالهم». اهـ.

وهذه الوصايا المذكورة في كلام الأئمة الأربعة تدل على فضلهم ونبلهم واتباعهم للسنة ودعوة غيرهم إلى اتباعها وألاَّ يصار إلى أقوالهم وأقوال غيرهم إذا وَجد سنة عن رسول الله ﷺ بخلافها، ومن وُجد له من الأئمة الأربعة وغيرهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فإنَّ لهم في ذلك أعذارًا أوضحها العلماء، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية فقد ألف في ذلك رسالة خاصّة وهي «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، قال فيها: «وليُعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين قبولاً عامًا يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته، دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقًا يقينيًا على وجوب اتباع الرسول، وعلى أنَّ كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويُترك إلاَّ رسول الله ﷺ، ولكن إذا وُجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلابد له من عذر في تركه». اهـ.

فرحم الله أئمة الإسلام ومن أقام المعاذير للأئمة، وعلم أنَّ سعيهم إنما هو إلى الحق والهدى.

والحمد لله رب العالمين.

نعمة النطق

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله، وأصلي وأسلم على مَن أرسله الله بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، فدلَّ أمته على كل خيرٍ، وحذَّرها من كلِّ شرٍّ، صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد:

فنِعَمُ الله على عباده لا تُعدُّ ولا تحصى، ومن أعظم هذه النعم نعمة النطق التي يُبين بها الإنسان مراده، ومن فقدها لا يمكنه التفاهم مع غيره إلا بالإشارة أو الكتابة إن كان كاتبًا، قال الله عز وجل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

وقد أقسم الله تعالى بنفسه على تحقيق البعث والجزاء على الأعمال، مثلما أنَّ النطق حاصلٌ واقعٌ من المخاطَبين، وفي ذلك تنويه بنعمة النطق، قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣- ٤]، وفسَّر الحسنُ البيانَ بالنطق، وفي ذلك تنويهٌ بنعمة النطق التي يحصل بها إبانة الإنسان عمَّا يريده، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨- ٩]، ومن المعلوم أنَّ هذه النعمة إنما تكون نعمة حقًّا إذا استُعمل النطق بما هو خير، أمَّا إذا استُعمل بشرٍّ فهو وبالٌ على صاحبه، ويكون مَن فقد هذه النعمة أحسنَ حالاً منه، ولذا كثرت وصايا رسول الله ﷺ بحفظ اللسان، والتحكم فيه، فقال ﷺ: «مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخرِ فليقُلْ خيرًا أو ليصمت». متفق عليه.

وقال ﷺ: «مَنْ يَضْمَنُ لي ما بين لحييه وما بينَ رجْليه أضْمَنُ له الجنةَ». رواه البخاري.

وعن عقبة بن عامر- رضي الله عنه- قال: قلتُ: يا رسول الله، ما النجاة ؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك». [الترمذي ح٢٤٠٦، والصحيحة ح٨٩٠].

وقال ﷺ: «وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم أو على مناخِرهم إلا حصائدُ ألسنتهم».

قال الحافظ ابن رجب في شرحه: «والمرادُ بحصائد الألسنة: جزاءُ الكلام المحرَّم وعقوباته، فإنَّ الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات، ثُمَّ يحصد يوم القيامة ما زرع، فمن زرع خيرًا من قولٍ أو عملٍ حَصَدَ الكرامة، ومن زرع شرًا من قولٍ أو فعل حصد الندامة، وهذا يدلُّ على أنَّ كف اللسان وضبطه وحبسَه هو أصل الخير كلِّه، وأنَّ من ملك لسانه قد ملك أمره وأحكمه وضبطه». اهـ.

وعن أبي عبد الرحمن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الرَّجُلَ ليتكلمُ بالكلمةِ من رضوانِ الله تعالى ما كانَ يظُنُّ أن تبلُغَ ما بلغتْ يكتبُ اللهُ بها رضوانَه إلى يوم يلقاهُ، وإنَّ الرَّجلَ ليتكلَّم بالكلمة من سَخَطِ الله ما كانَ يظُنُّ أن تَبلُغَ ما بلغت يكتبُ اللهُ بها سَخَطه إلى يوم يلقاهُ». [صحيح الجامع ١٦١٩]. فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: والذي لا إله غيرُه ما على ظَهْرِ الأرض شيءٌ أحوجُ إلى طولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ.

وعن أبي وائلٍ عن عبد الله رضي الله عنه: أنَّه ارتقى

الصَّفا، فأخذَ بلسانِه فقال: يا لسانُ، قُلْ خيرًا تَغْنَمْ، واسْكُتْ عن شرٍ تسْلَم، من قَبْلِ أنْ تَنْدَمَ. ثُمَّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أكثرُ خطايا ابنِ آدَمَ في لسانه». [صحيح الترغيب ٢٨٧٠].

وعن أسلم: أنَّ عمرَ دخَل يومًا على أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنهما، وهو يجْبِذُ لِسانَهُ. فقال عمر: مَهْ، غَفَر الله لك. فقال له أبو بكر: إنَّ هذا أوْرَدني الموارِدَ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا كُتب عليه حتى أنينه في مرضه، فلما مرض الإمام أحمد فقيل له: إن طاووسًا كان يكره أنين المرض، فتركه.

الله أكبر- أنين المريض يكتب ؟ نعم، فكيف بالغيبة والنميمة والكذب والفحش وهتك العورات وقذف المحصنات... وغير ذلك.

قال عطاء بن أبي رباح: إن من كان قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو تنطق في معيشتك التي لا بد منها، أتنكرون أنَّ عليكم حافظين، كرامًا كاتبين ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧- ١٨]، أما يستحي أحدكم لو نُشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره، وليس فيها شيء من أمر آخرته ؟

فالزم الصمت- أخي- فإنه يكسبك صنوف المحبة، ويؤمنك سوء المغبة، ويلبسك ثوب الوقار، ويكفيك مؤنة الاعتذار، قال ﷺ: «عليك بحسنِ الخُلُق، وطولِ الصَّمتِ، فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلائقُ بمثلهما». [صحيح الجامع ٤٠٤٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: ومن العجب أنَّ الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزِّنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يُشار إليه بالدِّين والزُّهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجلٍ مُتورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول. اهـ.

إي- ورب الكعبة- إنَّ في الناس من يعيشُ صفيق الوجه، شرسَ الطبع، لا تحجزُه مروءةٌ، ولا يردعُه دينٌ أو أدبٌ، جَرَّدَ لسانَه مِقراضًا للأعراض بكلماتٍ تنضحُ فحشًا، وألفاظٍ تنهشُ نهشًا، يسرفُ في التجني على عباد الله، وكأنه قد وُكِلَ إليه تجريحُ عبادِ الله.

وقد حذَّر الله تعالى من انتهاك حُرُماتِ المسلمين وإيذائهم. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٢].

فيا أخي: أمسك عليك لسانك، فقد صرَّح رسول الله ﷺ بأنَّ المسلمَ الكاملَ الإسلامِ هو الذي لا يؤْذي المسلمين، فقد سُئل ﷺ: أيُّ المسلمين خيرٌ ؟ قال: «مَن سَلِمَ المُسلمون من لسانه ويده». [رواه مسلم].

وإذا لم يملكْ الإنسانُ نفسَه كان فمُه مدخلاً لكلِّ ما يعابُ فتتلوثُ السيرةُ، ويغلظُ الحجابُ على القلب. قال ﷺ: «لا يستقيم إيمانُ عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه». [صحيح الترغيب ٢٨٦٥].

فلسانُ العاقل يكون وراء قلبه، فإذا أرادَ القولَ رجع إلى القلب، فإن كان له قال، وإلاَّ فلا.

عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: «ما صلح منطقُ رجل إلا عرفت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطقُ رجل قطُّ إلا عرفت ذلك في سائر عمله».

فيا أخي: «قُلْ خيرًا تَغْنَمْ، واسْكُتْ عنْ شرٍ تَسْلَمْ، من قَبْلِ أنْ تَنْدَمَ»، وليكُنْ حَظُ المؤمن منك ثلاثة: إنْ لم تَنفعهُ فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمَّه، وإن لم تمدحه فلا تذمه. فرحم الله من حفظ لسانه ليوم فقره.

اللهم نزِّه ألسنتنا عما يشين، وسخرها في طاعتك يا كريم.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

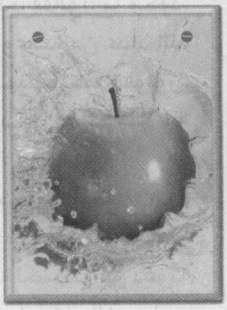

تفاحة القلب و ريحانة العين

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله المنعم المتفضل بجزيل العطايا والإحسان، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلقد كانت البشرية في فترة من عصورها قد التوت بها سبل الحياة، فانطفأت في قلبها مشاعل الرحمة والفهم المستنير، وأظلمت في نفسها معاني السمو والشفقة، فقتلت الأبناء مخافة الفقر، ووأدت البنات خشية العار، كان ذلك شذوذًا خرجت به البشرية عن دائرة العقل السليم، وعاطفة الأبوة الرحيمة، وخسرت بسببه كثيرًا من النعم، هذا الأمر الذي عبر عنه القرآن الكريم: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ «الأنعام: ١٤٠».

وجاء عرب الجاهلية فأكملوا الجرم بوأد البنات خشية من عار التزوج بزوجٍ دون أبيها في المكانة والشرف، أو عار الفاحشة.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ «الأنعام: ١٣٧».

انظر إلى هذه القسوة وغلظ القلب وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر والعار، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ «النحل: ٥٨- ٥٩»، وجاء الإسلام فانتقل بهذه الأمة الجاهلية نقلة كبيرة واسعة، فبعد أنْ كانت البنات عارًا يلاحقهم، صاروا يُكَنَّوْنَ بهنَّ ولا يجدون في ذلك حرجًا أو ضيقًا ولا عيبًا أو أذى، وربما رضي بالبنت- واحدة قسمًا وحظًا من الذرية، فأبو أُمامة صدى بن عجلان الباهلي، وأبو أُمامة إياسُ بن ثعلبة الأنصاري الحارثي، وأبو رقية تميم بن أوس الداري، وأبو كريمة المقدام بن معد يكرب وغيرهم، رضي الله عنهم جميعًا.

وكان من أثر هذه الوثبة: أن صار أدباء الصدر الأول يصوغون في مدحهن ما هو أبهى من عقود الجمان، فمن ذلك قول معن بن أوس:

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم
وفيهن لا نُكْذب نساء صوالح
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى
خوادمُ لا يَمْلَكْنَهُ ونوائحُ

وحُكِيَ أنَّ عمرو بن العاص رضي الله عنه دخل على معاوية رضي الله عنه وعنده ابنته، فقال: من هذه يا معاوية ؟ فقال: هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف.

وفي رقعة للصاحب بالتهنئة بالبنت: أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء وأم الأبناء وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار، والمبشرة بإخوة يتناسقون، ونجباء يتلاحقون.

والآن من الزوجات من تُبكر ببنت، وتُثنِّي ببنت، وتُثلث ببنت، وقد تربع ببنت، فلا تجد هذه الحالة قبولاً لدى كثير من الأسر، فيهجرها زوجها، ويقاطعها أو يجبرها على أخذ مانع يمنعها من الحمل، وتصبح الزوجة وتُمسي وهي تسمع عبارات عدم الرضى واللوم والنقد والتوبيخ تقرع أذنها، وتنظر النساء في الأسرة إليها نظرة ازدراء واستخفاف، وتصبح حياتها حياة تعسة لما ترى من المعاملة، ولما تحس من التحقير، إننا نؤكد أنَّ هذه النظرة نظرة جاهلية حرمها الإسلام تحريمًا قاطعًا، لأنها تحمل في طياتها الأمور التالية:

أولاً: الرجوع إلى الجاهلية الظالمة التي تبرأ منها المجتمع الإسلامي منذ العصر النبوي.

ثانيًا: الاعتراض على قدر الله، والسخط على عطائه.

والسبب في ذلك يعود إلى ضعف الإيمان، وزعزعة اليقين، لكونهم لم يرضوا بما قسمه الله لهم من إناث، لم يملكوا هم ولا نساؤهم، ولا مَن في الأرض جميعًا، أن يغيروا من خلق الله تبارك وتعالى في تدبيره المبرم، وإرادته النافذة ومشيئته المطلقة وأمره الغالب في شأن الإناث، وشأن الذكور: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ «الشورى: ٤٩-٥٠»، فهو سبحانه وتعالى بحكم سلطانه على الأرض والسماء، يتصرف كيف يشاء، وهذا ناتج عن علم أحاط بكل شيء، وقدرة أخضعت لها كل شيء، فالواجب أن يُسلمَ العبد لربه فيما وهبه وأعطاه، ومن السفه الاعتراض على حكم الله، فالتشاؤم من البنات مرفوض شرعًا وعقلاً.

عن حذيفة بن أُسيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرَّ بالنُّطفةِ اثنتانِ وأربعونَ ليلةً، بعثَ الله إليها ملكًا فصوَّرها، وخلق سمعَها وبصرَها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا ربِّ أذكرٌ أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتبُ الملكُ، ثم يقولُ: يا ربِّ أجله، فيقول ربك ما شاءَ، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقه، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصَحيفةِ في يَدِه، فلا يزيدُ على أمرٍ، ولا ينقصُ». «صحيح الجامع ٧٩٧».

فيجب على الأسرة المسلمة الرضى بما قسم الله لها من البنين والبنات، وترضى كذلك إذا حرمها فلا تسخط إذا جاء القسم على غير هواها ومرادها وهذا الرضى ينم عن إيمان عميق في القلب، ولكي يقتلع رسول الله ﷺ من بعض النفوس الضعيفة جذور الجاهلية خصَّ البنات بالذكر، وأمر الآباء والمربين بحسن صحبتهن والعناية بهنَّ، والقيام على أمورهنَّ، ليستأهلوا دخول الجنة وبالتالي حتى تكون تربية البنات وتحقيق الخير لهنَّ على الوجه الذي يرضي الله سبحانه، ويأمر به الإسلام، وإليكم بعض التوجيهات النبوية في وجوب العناية بالبنات والاهتمام بهن:

عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَالَ جَارِيتين حتى تَبلغا جاء يومَ القيامة أنا وهو كَهَاتَيْنِ، وضَمَّ أصابعهُ». «مسلم ١٤٣٢ في النكاح».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحدٌ من أمتي يعول ثلاث بنات، أو ثلاثَ أخواتٍ، فيحسنُ إليهن، إلا كُنَّ له سترًا من النار». «صحيح الجامع ٢٦٣٠».

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له ثلاث بنات يؤويهنَّ ويكفيهنَّ ويرحمهنَّ فقد وجبتْ له الجنةُ البتة». فقال رجل من بعض القوم: وثنتين يا رسول الله ؟ قال: وثنتين». «الصحيحة ١٠٢٧».

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عال جاريتين حتى يُدركا، دخلتُ أنا وهو الجنة كهاتين، وأشار بأُصبعيه».

«صحيح الجامع ٦٣٩١».

فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها، وهل بعد هذا الفضل فضل في تربية البنات؟

العبادة المقبولة

إعداد/ عبده الأقرع

الحمدُ لله أكملَ لنا الدِّينَ، وأتمَّ علينا النعمةَ، ورضي لنا الإسلامَ دينًا، وأصلي وأسلم على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، جعلنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغُ عنها إلا هالك،

وبعد:

فقد خلق الله تعالى الخلق ليعبدوه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والعبادة تكون مقبولة عند الله إذا اشتملت على أمرين أساسيين: أولهما: أن تكون العبادة لله خالصة لا شريك لغيره فيها، وكما أنه تعالى ليس له شريك في الملك، فليس له كذلك شريك في العبادة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

ومحل الإخلاص القلب، فهو حصنه الذي يقطن فيه، فمتى كان صالحًا عامرًا بسكناه وحده تبع ذلك الجوارح، ومتى كان خرابًا سكن فيه الرياء وملاحظة الناس وكسب ودهم وتحصيل ثنائهم والطمع فيما عندهم، وتبع ذلك سعي الجوارح لتحصيل هذه الأغراض الدنية، وليس أدل على ذلك وأوضح بيانًا من قوله ﷺ: «ألا وإنَّ في الجَسد مُضغةً إذا صَلَحَت صلح الجسدُ كلهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». [متفق عليه]. فالإخلاص مطلوب في كل ما شرعه الله من قول أو فعل، فيقوم الإنسان بتأدية ما شرع الله له، والباعث له عليه امتثال أمر الله خوفًا من عقابه وطمعًا فيما لديه من الأجر والثواب والإخلاص هو أساس النجاح والظفر بالمطلوب في الدنيا والآخرة، فهو للعمل بمنزلة الأساس للبنيان، وبمنزلة الروح للجسد، فكما أنه لا يستقر البناء ولا يتمكن من الانتفاع به إلاَّ بتقوية أساسه وتعاهده من أن يعتريه خلل، فكذلك العمل بدون الإخلاص، وكما أن حياة البدن بالروح، فحياة العمل وتحصيل ثمراته بمصاحبته وملازمته للإخلاص، وقد أوضح الله ذلك في كتابه العزيز: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

ولما كانت أعمال الكفار التي عملوها عارية من توحيد الله وإخلاص الله له سبحانه، جعل وجودها كعدمها، فقال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، فالإخلاص هو سرّ نجاح العبد وفلاحه في دنياه وآخرته، فالطاعات قد تكون في ظاهرها وهيئتها سواء، ولكنها في باطنها متفاوتة فهي خير للمخلصين، وشرّ للمرائين، فالناس يقفون جميعًا للصلاة في مصلى واحد وخلف إمام واحد يركعون ويسجدون

سواء، ومنهم المقبول لإخلاصه، ومنهم المردود لريائه، ويقفون في صف الجهاد تحت قيادة واحدة ويقتلون، ومنهم مَن تروح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يُسحب على وجهه ويلقى في النَّار، فالأول: جاهد إخلاصًا لله وفي سبيل الله ولإعلاء كلمة الله، والثاني: جاهد مفاخرة ورياء ومباهاة، فقبل أن تخطو خطوة واحدة- أخي المسلم- عليك أن تعرف السبيل التي فيها نجاتك، فلا تتعب نفسك بكثرة الأعمال، فربَّ مُكثر من الأعمال لا يفيده إلا التعب منها في الدنيا والعذاب في الآخرة، قال الفضيلُ بن عياض- رحمه الله-: العمل من أجل الناس شركٌ، وتركُ العملُ من أجلِ الناس رياءٌ، والإخلاصُ أن يعافيك الله منهما، وقال بعض السلف: من ترك العملَ خوفًا من عدم الإخلاص فقد ترك الإخلاصَ والعمل جميعًا.

فمن أصلحَ سريرته فاحَ عبيرُ فضله، وعبقتْ القلوبُ بنشر طيبه. قال الحافظُ ابنُ الجوزي- رحمه الله-: والله لقد رأيتُ من يكثرُ الصومَ والصلاةَ والصدقة ويتخشعُ في نفسه ولباسه، والقلوبُ تنبُو عنه، وقدرُه عند الناس ليس بذاك، ورأيتُ من هو دونَ ذلك بمراتبٍ، والقلوبُ إليه تتهافتْ، وعلى محبته تَجْتَمعُ، فازهد- أخي- في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كلّ الزين في مدحه وكل الشين في مدحه، واعلم أنَّ الخلق لا يكرمون أحدًا إلا بقدر ما جعل الله له في قلوبهم، عن ابن عمر- رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ قُلُوب بَنِي آدمَ كَقَلبٍ واحدٍ، يُصَرِّفهُ حَيثُ شَاءَ». [صحيح الجامع: ٢١٤١].

فعلى الإنسان أنّ يعمل على إصلاح نيته، وذلك بأن تصدر منه جميع الأقوال والأفعال خالصة لوجه الله، وابتغاء مرضاته، ليس فيها شائبة رياء، أو سمعة، أو قصد نفع، أو غرض شخصي، فالأعمال مع الإخلاص تنمو وتزكو ويبارك فيها وتقبل، وبدونه تقل بركتها وتضمحل وتفشل وتُرد على صاحبها، نَصَبٌ بلا فائدة، وعملٌ من غير أجر، والله أغنى الشركاء عن الشرك: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

الثاني: أن تكون العبادة على وفق الشريعة التي جاء بها رسوله محمد ﷺ، ولا يكفي أن يقول الإنسانُ أنا أعمل بهذا العمل وإن لم يأتِ عن النبيِّ ﷺ لأن قصدي طيبٌ، والدليل على هذا أنَّ النبيَّ ﷺ لما بلغه أنَّ رجلاً ذبح أُضحيته قبل صلاة العيد قال له عليه الصلاة والسلام: «شاتُك شاةُ لحم». [متفق عليه]. أي: ليست أضحية ؛ لأنها لم تقع طبقًا للسُّنَّة، إذ أنَّ السّنة أن يبدأ ذبح الأضاحي بعد صلاة العيد، أما الذبح قبل الصلاة فإنَّه يكون في غير وقته فلا يعتبر، وعليه: فإن العمل وإن وافق نيةً حسنة لم يصح إلا إذا وقع على وفق الشرع، ومما يوضح ذلك أيضًا أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه صاحب الرسول ﷺ جاء إلى أُناس وقد تحلَّقوا في المسجد، ومع كل واحد منهم عدد من الحصى، وفيهم رجل يقول: سبِّحوا مائة، هلِّلوا مائة، كبِّروا مائة، فيعدون بالحصى حتى يأتوا بهذا الذكر، يعدونه بذلك الحصى، فوقف على رؤوسهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: «ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن حصى نعدُّ به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد: ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابُه لم تَبْلَ، وآنيتُه لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملَّة هي أهدى من ملة محمد ﷺ أو مفتتحو باب ضلالة ؟ قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه». [الصحيحة ٢٠٠٥].

وقال الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلاَّ بما صلح به أولها».

وقال رحمه الله: «من ابتدع في الإسلام بدعةً يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمدًا خان الرسالة ؛ لأن الله يقول: ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا ». (الاعتصام للشاطبي ١/٢٨).

وعليه: فلا بدَّ في أيِّ عملٍ من الأعمال أن يكون لله خالصًا، وأن يكون لسنة نبيه محمد ﷺ موافقًا ومطابقًا، فإذا اختلَّ أحدُ هذين الشرطين بأن فُقد الإخلاصُ، أو فُقدت المتابعةُ، أو فُقدَا معًا فإنَّ العمل مردودٌ على صاحبه، ولا يقبل عند الله عز وجل.

نسأل الله الإخلاص في القول والعمل، والمتابعة لمن لا ينطق عن الهوى، ﷺ.

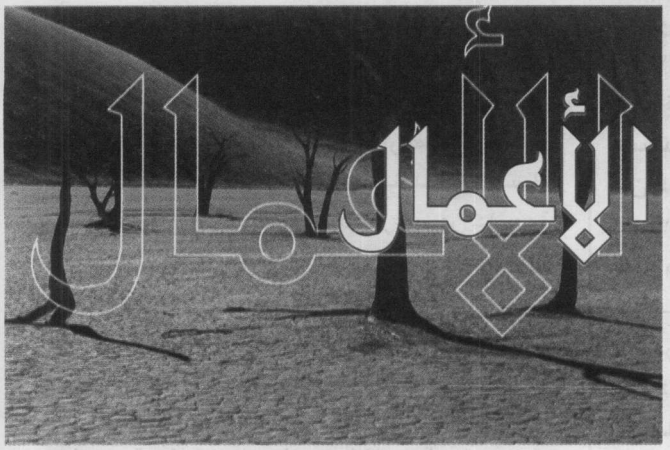

محبطات الأعمال

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله، معز من أطاعه واتقاه، ومذل من أضاع أمره وعصاه، وفق أهل طاعته لما يحبه ويرضاه، وأصلي وأسلم على خير عبد اجتباه، وأفضل رسول اصطفاه، نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وبعد:

فقد تحدثت في العدد الماضي عن شروط قبول الأعمال، وتأسيًا بالصحابي الجليل حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- في قوله: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأل عن الشر مخافة أن يدركني». متفق عليه.

وقول الشاعر الحكيم:

عرفت الشَّرَ لا للشر لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

أحببت أن أذكّر نفسي وإخواني وأخواتي بمحبطات الأعمال، نسأل الله السلامة والعافية لنا وللمسلمين والمسلمات من أي قول أو عمل من شأنه يحبط أعمال العبد، لأن الحسرة تكون كبيرة عندما يقوم العبد بعملٍ من الأعمال، وقد يبذل فيه جهدًا ثُمَّ لا ينال من ورائه خيرًا.

ولقد كان السَّلَفُ الصالح يخافُونَ ألا يُتقبَّل منهم عَمَلُهُمْ.

سألت أم المؤمنين عائشةُ- رضي الله عنها- رسول الله ﷺ عن أهل هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أهمُ الذين يزنون ويسرقون ويشربون الخمر؟ قال: «لا يا ابنة الصِّديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ويخافون ألا يُقبل منهم». [صحيح ابن ماجه: ٣٣٨٤].

من أسباب محبطات الأعمال: «الشرك»

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

والمعنى: لئن أشركت ليبطلنَّ عملك الصالح، ولتكونَنَّ في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك، وهذا على سبيل الفرض والتقدير، وإلا فالرسول ﷺ قد عصمه الله وحاشاه له أن يشرك بالله، وهو الذي جاء لإقامة صرح التوحيد.

وقال تعالى بعد ذكر جملة من الأنبياء: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا

لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

والمعنى: أنَّ هؤلاء الأنبياء المذكورين لو أشركوا بالله لحبطت أعمالهم، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع.

فالشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧]، فالعبادة لا تُسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك فيها فسدت كالحدث إذا دخل في الصلاة.

وقد وعد الله تعالى بالمغفرة لمن لقيه لا يشرك به.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثُم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرةً». (صحيح الجامع: ٤٣٣٨).

وقد دلَّ هذا الحديث على أنَّ الإنسان مهما أتى من ذنوب، واقترف من آثام، ولكنه سلم من الإشراك بدَّل الله سيئاته حسنات، وآتاه بدل هذه الذنوب مغفرة، فظهر أنَّ الذنوب تتضاءل أمام عقيدة التوحيد، وأن بركتها تغشى المذنب فتمحو خطاياه، كما أن للشرك شؤمًا وظلمة تغطي على جميع الحسنات، وتحبط جميع العبادات، فكان الفاسق الموحد خيرًا من المتقي المشرك.

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتى جبريل، فقال: بشِّر أمتك أنه من مات لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنة، قلت: يا جبريل، وإن سرق وإن زنا؟ قال: نعم، قلت: وإن سرق وإن زنا؟ قال: نعم، قلت: وإن سرق وإن زنا؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر». [صحيح الجامع: ٦٦].

والشرك يمنع من شفاعة النبي ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلِّ نبي دعوةٌ مستجابة، فتعجل كلُّ نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يُشرك بالله شيئًا». [رواه مسلم].

ألا وإنَّ من مظاهر الشرك دُعاء غير الله: فمن دعا أحدًا غير الله فقد عبده، فإنَّ الله سمى الدعاء عبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال رسول الله ﷺ: «الدُّعاءُ هو العبادة». [صحيح أبي داود ١٣٢٩].

وقال تعالى حاكيًا عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٨، ٤٩]، فسمى الله الدعاء عبادة.

وقد أفصح القرآن في مواضع بالنهي عن دعاء غير الله: فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وأخبر سبحانه أنَّ دعاء غيره ظلم، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ [الرعد: ١٤]، والمعنى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله من سائر المعبودات، ﴿لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ

بِشَيْءٍ﴾ أي: لا يجيبونهم بإعطائهم شيئًا مما يطلبون منهم، ﴿إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ أي: إلا كاستجابة من بسط يديه، أي: فتحهما ومدهما إلى الماء، والماء في قعر البئر فلا كفاه تصل إلى الماء ولا الماء يصل إلى كفيه وهو عطشان، ويظل كذلك حتى يهلك عطشًا، هذا مثل من يعبد غير الله تعالى بدعاء أو ذبح أو نذر أو خوف أو رجاء فهو محروم الاستجابة خائب في مسعاه، ولن تكون له عاقبة إلا النار والخسران، فليس هناك معبود مع الله يصح أن يُدعى، فهو سبحانه دافع الضر ومالك النفع، المتفرِّدُ بالملك والقهر والعطاء، بيده وحدَهُ ملكوتُ كل شيء، قضاؤه نافذٌ، وقدرُهُ كائنٌ، لا مانعَ لما أعطى، ولا معطي لما منعَ، هو سبحانه المؤمِّل وحده لكشف كلِّ بلاءٍ، ودفع كلِّ بأساءٍ، ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، ومنها: النذر لغير الله، مثل أن يقول: لفلان عليَّ نذر، أو لهذا القبر عليَّ نذر، وحكم النذر لغير الله شرك، لأنه عبادة للمنذور له، وإذا كان عبادة، فقد صرفها لغير الله، ومنها: الذبح لغير الله: الذبحُ عبادة أمر الله بها وقرنها بأهم أركان الدين: الصلاة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ١، ٢]، والمراد بالنحر: الذبح، أي: اجعل نحرك لله، كما أنَّ صلاتك له، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، فلا يجوز لمسلم أن يذبح لغير الله، فإنْ فعلَ فقد أشرك، وقد لعن رسول الله ﷺ من ذبح لغير الله، عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لَعَنَ اللهُ من ذبح لغير الله، لعن اللهُ من لَعَنَ والديه، لعن اللهُ من آوى محدثًا، لعن الله مَن غيَّرَ منارَ الأرض». [رواه مسلم].

واللعن من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

منها: الطواف حول الأضرحة والقبور.

الطواف عبادة، وقد تعبَّدنا الله بالطواف حول بيته العتيق. قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

وعليه: فمن طاف ببيت غير بيت الله من قبر أو ضريح أو مشهد أو غير ذلك معظمًا لما يطوف متقربًا إليه أو به، فقد ابتدع وأشرك، وطوافه ذلك شرك أكبر، وبدعة ضلالة، ومن أشنع البدع وأقبحها لما فيه من التشريع، وهو حق الله تعالى وحده دون سواه، فلا يجوز لمسلم أن يطوف بأي بناء، أو أن يتمسح بأي جدار، أو يُقبِّل حجرًا غير الحجر الأسود، فالذي يطوف بالقبور والقباب، ويُقبِّل الأعتاب، ويتمسح بالجدران، والحديد المنصوب حول الضريح فقد أشرك.

فالتوحيد التوحيد، قال ابن عيينة- رحمه الله-: ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرَّفهم «لا إله إلا الله»، فالهدايةُ للتوحيد فضلُ الله يؤتيه من يشاء، قال الله تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

«اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». [صحيح الترغيب ٣٦].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

محبطات الأعمال

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه، أما بعد:

فمع المحبط الثاني للأعمال وهو:

«الرياء»

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشُّركاء عن الشرك، مَن عَمِلَ عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه». [رواه مسلم].

قال النووي رحمه الله: ومعناه: أنا غني عن المشاركة وغيرها، فمن يعمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير، والمراد أن عمل المرائي باطل، لا ثواب فيه، ويأثم به.

قلت: جاء عن أبي سعيد بن أبي فضالة أن النبي ﷺ قال: «وإذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله أحدًا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». [صحيح الجامع ٤٨٢، والمشكاة ٥٣١٨].

ففي هذا دلالة على رد العمل على صاحبه، فالإخلاص للأعمال كالروح للأجسام، والأعمال معه ذاتُ كثرة وبركة، وبفقدانها له ذاتُ قلّة وفشل، ولقد ضرب الله تعالى مثلين لمن ينفق رياء الناس ولمن ينفق ابتغاء مرضاة الله، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٤، ٢٦٥].

والمعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ أي: لا تحبطوا أجرها بالمنِّ والأذى.

﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي: كالمرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء.

﴿وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي: لا يصدّق بلقاء الله ليرجو ثوابًا أو يخشى عقابًا.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ أي: مثل ذلك المرائي بإنفاقه، كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب، يظنه الظانُّ أرضًا طيبةً منبتةً.

﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي: فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلدًا أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً كذلك هذا المنافق يظنّ أنّ له أعمالاً صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت، ولهذا قال تعالى: ﴿لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لا يجدون له ثوابًا في الآخرة فلا ينتفع بشيء منها أصلاً. وذم الله المرائين، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢].

وتوعد الله المرائين بالويل، فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦)

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

عن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء». [صحيح الجامع: ١٥٥٥].

وعن جندب بن عبد الله بن سفيان رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَن سَمَّعَ، سَمَّعَ الله به، ومن يرائي ؛ يرائي الله به». [متفق عليه].

ومعنى سَمَّعَ: أي: أشهر عملَهُ للناس رياءً.

سَمَّعَ الله به: أي: فَضَحَهُ يومَ القيامة.

ومعنى: «من رَاءَى» أي: مَنْ أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم، «راءى الله به» أي: أظهر سريرتهُ على رؤوس الخلائق.

فالإخلاص هو سرّ نجاح العبد وفلاحه في دنياه وآخرته، فالطاعات قد تكون في ظاهرها وهيئتها سواء، ولكنها في باطنها متفاوتة، فهي خير للمخلصين، وشرّ للمرائين، فالناس يقفون جميعًا للصلاة في مصلى واحد، وخلف إمام واحد، يركعون ويسجدون سواء، ومنهم المقبول لإخلاصه، ومنهم المردود لريائه، ويقفون في صف الجهاد تحت قيادة واحدة ويقتلون، ومنهم مَن تروح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يسحب على وجهه ويلقى في النَّار، فالأول: جاهد إخلاصًا لله وفي سبيل الله ولإعلاء كلمة الله، والثاني: جاهد مفاخرة ورياء ومباهاة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه: رجلٌ استشهد، فأُتي به، فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم وعلمته، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسَّع الله عليه وأعطاهُ من أصناف المال فأُتي به فعرفه نعمته، فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار». [مسلم ١٩٠٥].

فقبل أن تخطو خطوة واحدة- أخي المسلم- عليك أن تعرف السبيل الذي فيها نجاتك، فلا تتعب نفسك بكثرة الأعمال، فربَّ مُكثر من الأعمال لا يفيد منها إلا التعب منها في الدنيا والعذاب في الآخرة، فلتعلم قبل كل شيء ماذا يشترط للأعمال حتى تقبل، لا بد من أمرين هامين عظيمين أن يتوفرا في كل عمل وإلا فلا يُقبل.

أولهما: أن يكون صاحبه قد قصد به وجه الله عز وجل.

ثانيًا: أن يكون موافقًا لما شرعه الله تعالى في كتابه، أو بيَّنه رسول الله ﷺ في سنته.

فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل صالحًا ولا مقبولاً ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا لله، وصوابًا على شريعة رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا: لم يُقبل، حتى يكون خالصًا وصوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ

أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله، والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهي الأعمال التي كانت على غير السنة، أو أريد بها غير وجه الله.

فيجبُ على الإنسان العاقل صادق الإيمان أن يعلم علمًا يقينًا لا يشُوبُهُ الظنُ أن الأمر كله دنيا وأخرى لله وحده لا شريك له، وأن العالم كله أعجز من أن يدفع أجلاً أو يكثر رزقًا أو يجير من نائبةٍ تنزلُ على الإنسان، قال ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك». [صحيح الجامع: ٧٩٥٧].

فإذا كان الخلق بهذا الضعف فلا يلتفت لمراآتهم إلا ضعيف الدين، على أن رياء المُرائي لا يخفى حتى على الخلق غالبًا.

فازهد في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: العمل من أجل الناس شركٌ، وتركُ العملُ من أجل الناسِ رياءٌ، والإخلاصُ أن يعافيكَ الله منهما.

وقال بعض السلف: من ترك العمل خوفًا من عدم الإخلاص فقد ترك الإخلاص والعمل جميعًا.

وثمَّتَ جانبٌ آخرُ: وهو أن المسلم يعملُ العملَ وقد أخلص لله فيه ثُمَّ ينشرُ الله له الثناء الحسنَ في قلوب المؤمنين وعلى ألسنتهم فليفرح بفضل الله، وليستبشر بذلك.

فقد سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يعملُ العملَ من الخيرِ يحمدهُ الناسُ عليه، قال ﷺ: «ذلك عاجل بشرى المؤمن». [مسلم ٤/ ٢٠٣٤].

يقولُ الحافظُ ابنُ الجوزي- رحمه الله-: ولقد رأيتُ من يكثرُ الصومَ والصلاةَ والصدقة ويتخشعُ في نفسه ولباسه، والقلوبُ تنْبُوا عنه، وقدره عند الناس ليس بذاك، ورأيت من هو دون ذلك بمراتب، والقلوبُ إليه تتهافت، وعلى محبته تَجْتَمعُ.

فمن أصلح سريرته فاحَ عبيرُ فضلِه، وعبقتْ القلوبُ بنشرِ طيبِه، فالله الله في السرائرِ فما ينفعُ في فسادها صلاح الظاهر.

فاعلم أيها العاقل: أن الخلق لا يكرمون أحدًا إلا بقدرِ ما جعل الله له في قلوبهم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحدٍ، يُصرفهُ حيثُ شاء». [صحيح الجامع ٢١٤١].

وإن من خُذلان الله للعبد أن يعمي بصيرته فيتقربَ للمخلوقين بفعل ما يحبونه، وإن أَغْضَبَ ربَّه واستحقَّ مقتهُ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَن أرضى الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس». [صحيح الجامع ٦٠١٠].

من قصد رضا المخلوق بإغضاب الخالق حجبَ الله عنه فضله ووكله إلى نفسه، ومن أصلح ما بينه وبين الخلق وأهمل ما بينه وبين ربه انتكس عليه مقصوده، وعاد حمدُه ذمًا، فلا دينًا أقام، ولا دنيا أصاب، نَصَبٌ بلا فائدة، وعمل من غير أجر، والله أغنى الشركاء عن الشرك.

فعلى الإنسان أن يعمل على إصلاح نيته، وذلك بأن تصدر منه جميع الأقوال والأفعال خالصة لوجه الله، وابتغاء مرضاته، ليس فيها شائبة رياء، أو سمعة، أو قصد نفع، أو غرض شخصي، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فالأعمال مع الإخلاص تنمو وتزكو ويبارك فيها وتقبل، وبدونه تقل بركتها وتضمحل وتفشل وتُرد على صاحبها.

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل، والهرم، والقسوة والغفلة، والعيلة والذلة، والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر، والفسوق والشقاق والنفاق، والسمعة والرياء، وأعوذ بك من الصمم، والبكم، والجنون، والجذام، والبرص، وسيء الأسقام».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محبطات الأعمال

كراهة القرآن الكريم

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله، مَن اعتصم بحبله وفقَّهُ وهداه، ومن اعتمدَ عليه حفظَه ووقاه، وأصلي وأسلم على النبي محمد عبده ورسوله ومصطفاهُ، وبعد:

فمع المحبط الثالث للأعمال وهو: كراهة القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٨، ٩].

والمعنى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ أي: تعسوا تعسًا وهلكوا هلاكًا، وخابوا وخسروا. والتعس: الشقاء، ويطلق على الهلاك والخيبة والسقوط والانحطاط.

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾: فلم يعثروا عليها ولم يروا لها أدنى فائدة، «ذلك» الجزاء وتلك العقوبة، «بأنهم» أي: بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: من القرآن من آيات التوحيد والشرائع والأحكام.

«فأحبط» أي: لذلك «أعمالهم» فخسروا في الحياتين. [أيسر التفاسير ٥/٧٤].

يرجع الإضلال والتعس للذين كفروا بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من القرآن الذي أنزله صلاحًا للعباد وفلاحًا لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه، وكرهوه فأحبط أعمالهم. [تيسير الكريم الرحمن ٨/٦٧].

القرآن: هو كلام الله الذي عجزت الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

وهو الكتاب المبين الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، نزل به في ليلة مباركة- هي: ليلةُ القدر- جبريلُ الأمين وحيًا من الله رب العالمين على نبيه سيد ولد آدم محمد ﷺ ؛ ليكون رحمةً للعالمين، وهداية للخلق عامة، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

فكانوا به خير أُمةٍ أُخرجت للناس، وأفضلَ جيل وطئت قدمُه الأرض.

وهو الملاذُ عند الفتن لمن استمسك به، وهو المنقذُ عند المصائب والمحن لمن اهتدى بهديه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

وهو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية:

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

يفهم من مفهوم هذه الآيات: أنَّ غير المؤمنين ليس هذا القرآن هدًى لهم ولا شفاء، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

لما سمعت الجنُّ رسول الله ﷺ يقرأ القرآن آمنوا به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

وإنَّ من جملة ما وصف الله به كتابه العزيز: أنَّه مهيمن على ما جاء قبله من الكتب، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وحقيقة هيمنة القرآن على ما قبله من الكتب: هي المحافظة على ما كان فيها من الحق، وإبطال ما أُدخل فيها أو نُسب إليها من الباطل.

ومن لوازم ذلك أنَّ الدِّين الذي جاء به القرآن ليس بدين جديد، بل هو امتداد للدِّين الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب من لدن آدم عليه السلام إلى زمن محمد ﷺ.

وهذا واضحٌ في القرآن والسنة ومتفق عليه بين أهل الإسلام، فالدِّين واحد عند الله سبحانه وتعالى في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال النبي ﷺ: «الأنبياء إخوة لعلَّات، أمهاتُهم شتَّى ودينُهم واحد». [متفق عليه].

ومفهوم هيمنة القرآن على ما قبله من الكتب تتضح جليًا بقوله تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، مع ضمه إلى ما قبله الذي طلبه فيه من اليهود أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة، فإنَّ ذلك يفيد أنَّ الذي عليه أهل الكتاب منه ما هو مُنَزَّلٌ من الله سبحانه وتعالى، وهو الحق، ومنه ما اخترعوه أو اختاروه من عند أنفسهم، وهو الذي عبَّر عنه بالأهواء، فالقرآن الكريم نزل مصدقًا للأول، ونافيًا للثاني.

وهذا المعنى موجودٌ في القرآن إجمالاً وتفصيلاً.

يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، ويقول عنهم: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٣، ٤٤].

فجاء هذا الطلب- طلب تحكيم ما أنزل الله في التوراة- بجنب ما صرَّح به الله سبحانه وتعالى عن اليهود بأنهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

وأنهم: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

فبين أنهم لبسوا الحق بالباطل، وزادوا في الدِّين ما ليس منه، ثُمَّ دلَّهم على ما يعرفون به حقَّهم من باطلهم، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فجعل محمدًا ﷺ وما جاء به من القرآن معيارًا يعرفون به حقهم من باطلهم، ولذلك قال لهم في صراحة وصرامة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ

مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

كتابٌ كريم أودعَ الله قوتَهُ في ذاته، حاولَ الأعداءُ قديمًا وحديثًا العبثَ به، والتشويشَ في صدقه، فأجلبوا وتنادوا ﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

شككوا في تَنَزُّله، وطعنوا في جمعه وتدوينه، ولكنها محاولاتٌ هزيلةٌ، رجعوا على أعقابهم خاسئين.

استمعوا إلى القرآن وهو يسجل هذه الدعاوى المخزية في أسلافهم وأخلافهم: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦].

ولما عجزوا واندحروا رضوا لأنفسهم بالدنية والنقيصة فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

فهل يعي المسلمون هذه المعاني؛ إن الأمة تحتاجُ إلى أن تراجعَ مواقفَها من قرآن ربها عز وجل، فالقرآنُ حقٌ من عند الله، من بين دفتيه انطلقت خيرُ أمةٍ أخرجت للناس: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]، أمةٌ خيرةٌ تربتْ على مائدة القرآن، أخذتْ كتابَ ربها بقوة، وسارتْ على نهجه بعزم، خضعتْ لتعاليمه بإيمان فهداها للتي هي أقوم.

هؤلاء الأسلافُ من الروادِ قرءوا القرآن فأحيوا به ليلهم رهبانًا، وعمروا به نهارهم فرسانًا، تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق، يغشاهُم الخشوعُ، ويكسوهُم الوقارُ، كان القرآنُ ربيعَ قلوبهم، ونورَ صدورهم، وجلاءَ أحزانهم، تأدبتْ به أخلاقُهم، وعمرتْ بالتقوى مسالكُهم، قوةً في الحق، وورعًا في المطاعم والمشارب وبصرًا بأهل الزمان: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

لهم من قرآنهم ما يحثُّ عزائمهم إذا كلَّتْ، ويحفزُ هممهم إذا ضعفت، ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالقرآنُ عمدة الملة، وكلية الشريعة، وينبوعُ الحكمة، وآية الرسالة، لا طريق إلى الله سواه، ولا سبيل إلى النجاة بغيره.

هل يُدْعَى إلى الله بغير كتاب الله؟ وهل يرجى صلاحُ عباد الله بغير كتاب الله؟

هو البيانُ والفرقانُ، والروحُ والذكرُ، هدًى للمتقين، ورحمةٌ للمؤمنين، آياتٌ بيناتٌ في صدور الذين أوتوا العلم، وذكرى لمن كان له قلب، أحسنُ الحديث، وأصدق الكلام، وشفاء لما في الصدور.

نعمةُ الله السابغةُ، وحجتُهُ الدامغةُ، نور الأبصار والبصائر، أنزله ربنا وصرَّفه وعدًا ووعيدًا، وأمرًا وزجرًا، وحكمًا وعلمًا، ورحمةً وعدلاً.

كتابٌ لا تفنى عجائبه، وبحرٌ لا يدرك غَوْرُه، وكنزٌ لا تنفدُ دررُه، وغيثٌ لا تُقْلِعُ عن المدرار سحائبُه، أنزله ربنا لنقرأه تدبرًا، ونتأمله تبصرًا، ونسعد به تذكرًا، ونلتزمَ بأوامره طمعًا، ونجتنبَ نواهيه خوفًا.

تحيا القلوبُ بمواعظه، وتطمئنُّ النفوسُ بترتيله، وتقومُ الحياة بأحكامه، وتعمُّ السعادةُ بآدابه.

أسلوبُه رفيعٌ ونظمُه بديعٌ، لفظُه معجزٌ، ونظمُه باهرٌ: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

لم يَشُبْ بيانه غموضٌ ولم يعبْ لفظَهُ ضعفٌ، ولم يدخلْ معانيهُ قصورٌ: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. اهـ. (بتصرف من توجيهات وذكرى، للشيخ صالح بن حميد ٤/٢٣).

وبذلك يظهر لنا جليًا أن الحيرة التي يتردَّدُ فيها العالمُ، والظلمات التي يتخبَّطُ فيها، والضنك الذي سُلِطَ عليه إنما سببه الأوحد: هو الإعراض عن القرآن، فإن صدقت النوايا في الخروج من هذه الحيرة وهذه الظلمات، والتخلص من هذا الضنك، فإن الحلَّ الأوحدَ: هو الإقبالُ على القرآنِ تلاوةً وتدبرًا وفهمًا وعملاً وتعليمًا.

ومن أحبَّ أن يعلم حاله ويختبر عمله، فليعرض نفسه على كتاب الله.

يقول الحسن البصري رحمه الله: رحم الله امرءًا عرضَ نفسه وعمله على كتاب الله، فإن وافق كتاب الله حمد الله وسأله المزيد، وإن خالف أعتبَ نفسه وحاسبها ورجع من قريب.

«اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حُكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي».

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

مسبطات الأعمال

«عقوق الوالدين»

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله وكفى، والصلاةُ والسلامُ على نبيه المصطفى، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واقتفى، أما بعد:

فمع المحبط الرابع للأعمال، وهو: «عقوق الوالدين»:

عن عمرو بن مرة الجهني - رضي الله عنه - قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليتُ الخمس، وأديت زكاة مالي، وصُمت رمضان، فقال النبي ﷺ: «مَن مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصب أصبعيه - ما لم يَعُقَّ والديه». [صحيح الترغيب (٢٥١٣)].

فقوله ﷺ: «ما لم يعق والديه» أفادت هذه الجملة أن الصلوات الخمس وصيام الشهر، وإيتاء الزكاة لا ينفع ذلك صاحبه إذا كان عاقًا لوالديه، يؤيد ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «ثلاثة لا يقبل الله عز وجل منهم صرفًا ولا عدلاً: عاقٌ، ومنانٌ، ومكذب بقدر». [صحيح الترغيب والترهيب (٢٥١٣)].

برُّ الوالدين فريضة لازمةٌ، وفضيلة جازمة، وجُوبها حتمٌ، وأداؤها عزم، لا عذر لأحد في التساهل بها، والتهاون بشأنها، فإحسان الوالدين سابق، وفضلهما عظيم، فليس أعظم إحسانًا ولا أكثر فضلاً بعد الله سبحانه وتعالى من الوالدين، لله سبحانه نعمة الخلق والإيجاد، وللوالدين بإذنه نعمة التربية والإيلاد. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاث آياتٍ مقروناتٌ بثلاث: لا تقبل واحدةٌ بغير قرينتيها: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يُقبل منه. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فمن صلى ولم يزكِّ لم يقبل منه. ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، فمن شكرَ الله ولم يشكرْ لوالديه لم يُقبل منه. فرضى الله في رضى الوالدين، وسخط الله في سخط الوالدين، نهى سبحانه وتعالى عن أدنى مراتب الأذى، نبه به على ما سواه فقال سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

ألا وإنَّ من العار والشنار والويل والثبور أن يُفجأ الوالدان بالتنكر للجميل، كانا يتطلعان للإحسان، ويؤملان الصلة بالمعروف، فإذا بهذا المخذول، قد تناسى ضعفه وطفولته، وأُعجبَ بشبابه وفتوَّته، وغرَّهُ تعليمُه وثقافتُه، يؤذيهما بالتأفف والتبرم، ويجاهرهما بالسوءِ وفُحش القولِ، يقهرُهما وينهرُهما. بل ربَّما لطمَ بكفٍ أو رفسَ برجلٍ. يريدان حياته، ويتمنى موتهما، وكأني بهما قد تمنيا أن لو كانا عقيمين، تئن لهما الفضيلةُ، وتبكي من أجلهما المروءةُ، فيا من كان حاله كذلك: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، يا من كان هذا حاله أين أنت من قول الجبار سبحانه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن

قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧-١٨].

أيها العاق: أما علمت أن عقوق الوالدين من أكبر كبائر الذنوب؟!

عن أبي بكرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائرِ؟ (ثلاثًا) قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراكُ باللهِ، وعقوقُ الوالدين - وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقولُ الزور، وشهادةُ الزور».

فمازال يُكرِّرها حتى قلنا: لَيْتَهُ سَكَتَ. متفق عليه.

أيها العاق: أما علمت أنَّ الله لا ينظر إلى العاق يوم القيامة، قال ﷺ: «ثلاثةٌ لا ينظرُ الله إليهم يومَ القيامةَ: العاقُّ لوالديه، ومدمنُ الخمرِ، والمنَّانُ عطاءَه». [صحيح الترغيب (٢٥١١)].

أيها العاق: أما علمت أنَّ الله حرَّم الجنَّة على العاق، قال ﷺ: «ثلاثةٌ حرَّمَ الله تبارك وتعالى عليهم الجنةَ: مدمن الخمرِ، والعاق، والديوث: الذي يقرُّ الخبث في أهله». [صحيح الترغيب (٢٥١٢)].

أيها العاق: أما علمت أنَّ دعاءَ الوالدين مستجاب، قال ﷺ: «ثلاثُ دعواتٍ مُستجاباتٍ لهنَّ، لا شكَّ فيهنَّ: دعوةُ المظلومِ، ودعوةُ المسافر، ودعوةُ الوالدِ على ولَدِه». [صحيح الجامع: (٥٧٠٤)].

أيها العاق: أما علمت أنَّ عقوبة العقوق مُعجلة، قال ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخرُه له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم». [صحيح الجامع (٥٧٠٤)].

فمن برَّ بوالديه برَّ به بنوه، ومن عقَّهما عقوه، ولسوف تكونُ محتاجًا إلى بر أبنائك، وسوف يفعلون معك كما فعلتَ مع والديك، وكما تدينُ تدانُ، والجزاءُ من جنس العمل.

فاتقوا الله أيها الأبناء، وبادروا للبرِّ بوالديكم مهما كانت الأحوالُ ومهما كان على الأبوين من تقصير، فبرهم واجبٌ، والإحسان إليهم مُتعين، قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

واعلم أيها الابن مهما فعلت في بر الوالدين والإحسان إليهما فلن تقوم بواجبهما أو توفِّ حقوقهما فقد قال ﷺ: «أنت ومالك لأبيك». صحيح الجامع (١٤٨٦).

وقال ﷺ: «وأطع والديك وإن أمرك أن تخرج من دُنياك فاخرج لهما». [الإرواء (٢٠٨٦)].

لقي ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً في المطاف يحمل أمه على ظهره يطوف بها، فقال: يا ابن عمر، أتراني جزيتها؟ قال: ولا بزفرةٍ واحدة.

الله أكبر، ما أعظم الحق، وما أشد تقصير الخلق. ولله در القائل:

إن للوالدين حقًا علينا
بعد حقِّ الإله في الاحترام
أوْلَدانا وربيانا صغارًا
فاستحقا نهاية الإكرام

فحق على كل من كان مقصرًا في حق والديه أو أحدهما أن يبادر من الآن فيطبع قبلة حارةً على جبين أبيه أو أمه، ويندم على ما مضى، ويعتذر عما سلف قبل فوات الأوان، قبل ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، وحسب العاق نكدًا وخسرانًا أن يبوءَ بسخط الله ويُحرم من رضاه، قال ﷺ: «رغم أنف ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما، فلم يدخل الجنة». [رواه مسلم].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

بر الوالدين خُلُقُ الأنبياء

الحمدُ لله، أمَرَ ألا نعبدَ إلا إيَّاهُ، وبالوالدين إحسانًا، وأصلي وأسلم على أشرف المرسلين نبينا محمد، أما بعد:

فقد تحدثنا في العدد الماضي عن جزاء عقوق الوالدين، وموعدنا في هذا العدد عن جزاء البرِّ بهما، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إعداد/ عبده الأقرع

برُّ الوالدين: مَنهجُ الأنبياءِ والمرسلينَ، وعملُ الكرامِ والصالحين، يقول الله تعالى عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]، ويقول تعالى عن نبيه يحيى بن زكريا - عليهما السلام -: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤]، والدُّعاءُ لهما - دأبُ المؤمنينَ المتقين، قال الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].

وقال عن خليله إبراهيم - عليه السلام -: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقال عن نبيه سليمان - عليه السلام -: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩].

وقال تعالى عن الذي بلغ أشده: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وبر الوالدين وصية الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وعن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثلاثًا، إن اللهَ يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب». [صحيح الأدب المفرد: ٤٤].

وفي مشكاة النُّبوة يأتي برُّ الوالدين قرينًا للصلاة عمود الإسلام، ومُتقدمًا على الجهاد ذروة سنام الإسلام، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قُلْتُ: ثم أيّ، قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أيّ، قال: «الجهاد في سبيل الله». [متفق عليه].

ويشهد لذلك - أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال ﷺ: «أحَيٌّ وَالداكَ؟» قال: نَعَمْ، قال: «ففيهما فجاهد». [متفق عليه].

برُّ الوالدين من أسباب سعة الرزق

قال ﷺ: «مَن سره أن يُمد له في عمره، ويُزاد في رزقه، فليبر والديه، وليصل رحمه». [صحيح الترغيب: ٢٤٨٩].

وهو من أسباب طول العمر. قال ﷺ: «لا يَرُدُّ القَضَاءَ إلا الدعاء، ولا يزيدُ في العمر إلا البر». [صحيح الترغيب: ٢٤٨٩].

كما أن بر الوالدين من أسباب رضى الربِّ سبحانه؛ قال ﷺ: «رضا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما». [صحيح الجامع: ٣٥٠٧].

بر الوالدين من أسباب مغفرة الذنوب

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ، فقال: إني أذنبت ذنبًا عظيمًا، فهل لي من توبة؟ فقال: هل لك من أُمٍّ؟ قال: لا، قال: فهل لك من خالة؟ قال: نعم. قال فبرها. [صحيح الترغيب: ٢٥٠٤].

وعن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه

أتاهُ رجلٌ فقال: إني خطبتُ امرأةً فأبت أن تنكحني وخطبها غيري فأحببتْ أن تنكحه فَغرت عليها فقتلتها؟ فهل لي من توبة؟ قال: أمُّك حيَّةٌ؟ قال: لا. قال: تُب إلى الله عز وجل وتقرب إليه ما استطعت، قال عطاء: فذهبتُ فسألت ابن عباس: لِمَ سألتهُ عن حياة أمه، فقال: إني لا أعلمُ عملاً أقرب إلى الله عز وجل من برِّ الوالدة. [صحيح الأدب المفرد، والصحيحة: ٢٧٩٩].

بر الوالدين من أسباب إجابة الدعاء

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أُويسُ بن عامرٍ مع أمداد أهل اليمن من مُرَاد، ثم من قرنٍ كان به برصٌ، فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدةٌ هو بها بَرّ لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل». [رواه مسلم].

الله أكبر، عمر الفاروق الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قطُّ سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك». رواه مسلم. يطلب من أويس التابعي أن يستغفر له، ومما أوصله إلى هذا بره لأمه.

بر الوالدين من أسباب دخول الجنة

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «دخلتُ الجنة فسمعتُ فيها قراءةً، فقلتُ: مَنْ هذا ؟ قالوا: حارثةُ بن النعمان، كذلكم البر، كذلكم البر». [صحيح الجامع: ٣٣٧١].

بر الوالدين سبب تفريج الكربات

جاء في حديث الثلاثة الذين آواهم المبيتُ إلى غارٍ فدخلوه، فانحدرت صخرةٌ من الجبل فسدتْ عليهمُ الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكمْ من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. قال رجلٌ منهم: «اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنتُ لا أغبقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلبُ الشجر يومًا فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبتُ لهما غبوقهما فوجدتُهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو ولدًا، فلبثتُ - والقدحُ على يدي - أنتظر استيقاظهما حتى برَقَ الفجرُ والصبيةُ يتضاغون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا». متفق عليه. ثم توسل الثاني والثالث: «فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».

معنى: «لا أغبق»: لا أقدم في الشراب قبلهما أهلاً. ومعنى: «أُرِحْ»: أرجع. ومعنى: «يتضاغَون»: يصيحون من الجوع.

يُفهم من هذا الحديث أنَّ الرجل البارَّ بوالديه كره أن يسبب لوالديه أدنى إزعاج. فمع أن في إيقاظه لهما مصلحة لهما، وهي الشرب من اللبن، إلا أنه نظر في أرجح الأمرين وأفضلهما لهما فرأى أن النوم أنفع لهما من الشراب فتركهما نائمين، ومع هذا ظل طَوَالَ الليل قائمًا والقدح على يده ينتظر استيقاظهما. فمن باب أَوْلى لا يجوز لابن أن يقلق والديه وقت الراحة، ولا يُدخل عليهما من الأحزان ما يكون سببًا في إزعاجهما.

وتأمل - رحمك الله - في برِّ الوالد والإحسان إليهما كيف كان سببًا في عطف نبيِّ الله موسى عليه السلام وإحسانه ؟ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٣، ٢٤]، والمتأمل في صنيعهما يعجبُ من برِّهما لأبيهما وإحسانهما إليه وخدمتهما له مع أنهما امرأتان، هذا الأمر الذي عجز عنه الكثير من الرجال، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإلى الله المشتكى.

وها هم إخوة نبيِّ الله يوسف عليه السلام يتوسلون إليه بشيخوخة أبيهم واستجلابهم عطفه فيقولون: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨].

فاستيقنوا هذا - رحمكم الله -، فالبرُّ بجميع وجوهه: زيادةٌ في العمر، وكثرةٌ في الرزق، وصلاحٌ في الأبناء، فمن برَّ والديه برَّهُ أبناؤُه، والعقوقُ خيبةٌ وخسارةٌ وخذلان. فقوموا - رحمكم الله - بحقوق والديكم والإحسان إليهما، وأطيعوهما بالمعروف، وقدموا لهما غاية البر والرعاية، وامتثلوا أمر ربكم في قوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

من محبطات الأعمال

«قطيعة الرحم»

إعداد/ عبده الأقرع

الحمدُ لله الذي خلق من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهرًا، وأصلي وأسلم على سيد ولد آدم يوم الدِّين، وخير من وصل الأقربين، نبينا محمد وآله وسلم، وبعد:

فمع المحبط الخامس للأعمال، وهو: «قطيعة الرحم».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أعْمالَ بني آدَم تُعْرضُ كلَّ خميس ليلَةَ الجُمعة، فلا يقبل عملُ قاطعِ رحم». [صحيح الترغيب ٢٥٣٨].

يهدف الإسلام إلى بناء مجتمع إسلامي متراحم متعاطف، تسوده المحبة والإخاء، ويهيمن عليه حبُّ الخير والعطاء، والأسرة هي وحدةُ المجتمع، وقاعدةُ الحياة البشرية، تسعدُ بتقوى الله ورعايةِ الرحم.

والإسلامُ عُني بتوثيقِ عرى الأسرة، وتثبيت بنيانها، والإحساس بحقها، وعدم هضمها وظلمها، والتحرج من خدشها أو الإضرار بها، وأتى بالأسس التي تكفلُ تماسكَ الأسرِ واطمئنان الأفراد، جعل صلةَ الرحم من الأسس التي عليها البناء، وسعى إلى حمايتها من المؤثرات التي توهن بناءَها، فدعا الإسلام إلى صلة الرحم، ومعاملة الأرحام معاملةً تتفق مع ما شرّع الله من أحكام، وما وضع من آداب.

فقرنت الرحم بحقِّ الله تعالى في التقوى، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

وقرن الله الأمر بتوحيده والنهي عن الإشراك بالإحسان إلى الوالدين والأقربين، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ [النساء: ٣٦].

وبصلة الرحم أمر الله من سبقنا من الأمم: وهي من الميثاق الذي أُخذ على بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

واهتم رسول الله ﷺ بالأسرة من أول دعوته المشرقة. فعن أبي سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصة هرقل:... فماذا يأمركم - يعني النبي ﷺ - قال أبو سفيان: قلتُ: يقول: «اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق، والعفاف والصلة». [متفق عليه].

لأن أسرة الإنسان وقرابته هم عدتُه وسنده، وهم أصلُه وقوته، يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عشيرتُك هم جناحك الذي بهم تُحلِّق، وأصلك الذي به تتعلَّق، ويدُك التي بها تصولُ، ولسانك الذي به تقولُ، هم العُدة عند الشدة، أكرم كريمَهم، وعُد سقيمهم، ويسِّر على معسرهم، ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك.

فرحم الإنسان هم أولى الناس بالرعاية وأحقهم

بالعناية، وأجدرهم بالإكرام والحماية.

وإذا فُقد ذلك، تقطعت الأوصال التي حذّر الله من قطعها، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

فقطيعة الرحم شؤمٌ وخرابٌ، وسببٌ للعنة وعمى الأبصار. قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

وقد تكفل الله للرحم بأن يصل من وصلها ويقطع من قطعها. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرحمُ مُعلقةٌ بالعرشِ تقولُ: مَن وصلني وصلهُ الله، ومن قطعني قطعهُ الله». [متفق عليه].

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: أنا الله، أنا الرحمن، خلقتُ الرَّحم، وشققتُ لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلتُه، ومن قطعَها قطعته - أو قال: بتَتُّهُ». [صحيح الترغيب: ٢٥٢٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقامُ العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضينَ أن أصل من وصلك، وأقطع من قَطَعَكِ؟ قالت: بَلَى، قال: فذلك لك، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]. (صحيح الترغيب: ٢٥٢٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرحم شُجنة من الرحم تقول: يا ربِّ إني قُطعت، يا رب إني أُسيء إليَّ، يا رب إنِّي ظُلمت، يا رب، يا رب، فيجيبُها: ألا ترضين أن أصلَ مَنْ وصلَكِ، وأقطعَ مَنْ قَطعَكِ». [البخاري ١٠/ ٣٤٩ / ١٣ / ٣٩٢، ومسلم ٢٥٥٤].

معنى «شجنة»: أي: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق وأفرع الشجرة.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الرحم حَجنة متمسكة بالعرش، تكلم بلسان ذلق: اللهم صلْ مَنْ وصلني، واقطع من قطعني، فقول الله تبارك وتعالى: أنا الرحمن الرحيم، إني شققت للرحم من اسمي، فمن وصلها وصلته، واقطع من قطعني، فيقولُ الله تبارك وتعالى: أنا الرحمنُ الرحيمُ، إني شَقَقْتُ للرحمِ من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن بتكها بَتَكْتُه». [صحيح الترغيب ٢٥٣١]. وقوله: «من بتكها بتكته» أي: زمن قطعها قطعته.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن تقطيع الأرحام من أعظم كبائر الذنوب، وعقوبتها معجلةٌ في الدنيا قبل الآخرة.

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ ذنبٍ أجدرُ أن يعجِّلَ اللهُ لصاحبِه العقوبةَ في الدنيا - مع ما يدخرُ له في الآخرة - من البغي وقطيعة الرحم». [البخاري ٥٩٨٤- باب إثم القاطع، ومسلم ٢٥٥٦ في البر والصلة].

وأخبر ﷺ أن قاطع الرحم لا يدخل الجنة. فعن أبي محمد جُبَير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع». [البخاري ٥٩٨٤ باب إثم القاطع، ومسلم ٢٥٥٦ في البر والصلة].

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «إنَّ من أربى الربا الاستطالة في عِرْضِ المسلم بغير حق، وإن هذه الرحم شجنةٌ من الرحمن عز وجل، فمن قطعها حرَّم عليه الجنة». [صحيح الترغيب ٢٥٣٢].

وفي المقابل بين رسول الله ﷺ أن صلة الرحم من أسباب دخول الجنة. فعن أبي يوسف عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناسُ، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيامٌ، تدخلوا الجنة بسلام». [صحيح: الترمذي ٢٤٨٥ في صفة القيامة، وصحيح الجامع ٧٨٦٥، والصحيحة ٥٦٩].

وعن أبي أيوب رضي الله عنه: أن أعرابيًا عَرَضَ لرسول الله ﷺ وهو في سفرٍ، فأخذ بخطام ناقته، أو بزمامها، ثم قال: يا رسول الله - أو يا محمد - أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني من النار؟ قال: فكفَّ النبي ﷺ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «لقد وُفِّقَ - أو: لقد هُدِي». قال: كيف قلت؟ قال: فأعادَها، فقال النبي ﷺ: «تعبدُ الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصلُ الرحم، دع الناقة».

وفي رواية: «وتصلَ ذا رَحِمِكَ». فلما أدبر قال رسول الله ﷺ: «إن تمسك بما أُمر به دخل الجنة». [صحيح الترغيب ٢٥٢٣].

وبين رسول الله ﷺ أن صلة الرحم، محبةٌ في الأهل، ومثراةٌ في المال، ومنسأةٌ في الأثر، وبركةٌ في الرزق، وتوفيق في الحياة، وعمارةُ للديار، يكتب الله بها العزة، وتُملأ بها القلوب إجلالاً وهيبة.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أحبَّ أن يبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليَصِلْ رحمه». [متفق عليه].

وعن عائشة رضي الله عنها، أنَّ النبي ﷺ قال لها: «إنَّه من أعطي حَظَه من الرفق، فقد أُعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الجوار، أو: حُسن الخُلق - يعمر الديار، ويزيدان في الأعمار». [صحيح الترغيب: ٢٥٢٤].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهلَ البيت ليكونون فجَرَةً، فتنموا أموالهم، ويكثر عددهم إذا تواصلوا». [صحيح الترغيب ٢٥٣٧].

وبيّن رب العزة سبحانه وتعالى أن أفضل النفقة؛ النفقة على الأقارب. قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾[الإسراء: ٢٦].

فقد جعل الله تعالى لذي القربى حقًا في الأعناق، فليس هو تفضلاً إنما هو الحق الذي فرضه الله.

وبين رسول الله ﷺ أن الصدقة على الرحم ثوابها مبرور، وأجرُها مضاعف، فعن سلمان بن عامر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة». [صحيح الجامع: ٣٨٥٨، والمشكاة: ١٩٣٩، وصحيح الترغيب: ٨٨٣].

وعن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «أفضلُ الصدقة على ذي الرحم الكاشح». [صحيح الجامع: ١١١٠، والإرواء ٨٩٢، وصحيح الجامع: ٢٥٣٥].

يعني: أن أفضل الصدقة الصدقةُ على ذي الرحم المضمر العداوةَ في باطنه، وهو في معنى قوله ﷺ: «وتَصِلُ من قطعك».

وعن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها أنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبي ﷺ، فلما كان يومها الذي يدورُ عليها فيه، قالت: يا رسول الله، إني أعتقتُ وليدتي؟ قال: «أو فعلت؟» قالت: نعم. قال: «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك». [متفق عليه].

قريبك قطعةٌ منك، إن أحسنت إليه فإنما تحسن إلى شخصك، وإن بَخِلْت عليه، فإنما تبخل عن نفسك، وإذا لم يجد إنسان ما يؤدي به حقَّ الأقربين، فليقل لهم قولاً ليناً، ففي القول الميسور، عوضٌ وأملٌ وتجمل.

قال الله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٨].

ولكن ذوي الرَّحم، ليسوا ملائكة ولا أنبياءَ معصومين، يتعرضون للزلل، وينطقون بالخطأ، وتصدر منهم الهفوة، ويقعون في الكبيرة، فإن بدر منهم شيءٌ من ذلك،فالزم جانبَ العفو معهم، فإن العفو من شيم المحسنين، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وقابل إساءتهم بالإحسان، واقبلْ عذرَهم إذا أخطأوا.

لقد فعل إخوةُ يوسفَ مع يوسفَ ما فعلوه، وعندما اعتذروا، قبل عذرهم وصفح عنهم الصفح الجميل، ولم يوبِّخهم، بل دعا لهم، وسأل الله المغفرة لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

لأن مقابلة الإحسان بالإحسان، مكافأة ومجازاة، ولكنَّ الواصل من يتفضلُ على صاحبه ولا يتفضلُ عليه صاحبه.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصلُ بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها». [البخاري: ٥٩٩١ في الأدب: باب: ليس الواصل بالمكافئ].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني لي قرابة أصلُهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك». [مسلم: رقم (٢٥٥٨) باب صلة الرحم، وتحريم قطيعتها].

معنى «تُسِفُّهم المل»: أي: كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيهٌ لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرمادِ الحارِّ من الألم، ولا شيء على هذا المحسن إليهم، لكن ينالهم إثمٌ عظيمٌ بتقصيرهم في حقه، وإدخالهم الأذى عليه.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي ﷺ بخصالٍ من الخير: أوصاني أن لا أنظر إلى من هو فوقي، وأن أنظر إلى ما هو دوني، وأوصاني بحب المساكين والدنو منهم، وأوصاني أن أصل رحمي وإن أدبرت، وأوصاني لا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مرًا، وأوصاني أن أكثر من: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فإنها كنزٌ من كُنوز الجنة». [صحيح الترغيب: ٢٥٢٥].

فالصفح عنهم ونسيان معايبهم وإن لم يعتذروا، من كرم النفس، وعلوِّ الهمة، ومن أخلاق الأكابر، وأهل الفضل، والكريم يعطي الناس حقوقهم ويتغاضى عن حقه فهذا أدبُ الفضلاء، ودأبُ النبلاء، فالزم جانب العفو معهم، ودع الخصام فإن معاداة الأقارب شر وبلاء، الرابح فيها خاسر، والمنتصر مهزوم، وكل رحم آتية يوم القيامة أمام صاحبها تشهد له بصلة إن كان وصلها وتشهد عليه بقطيعة إن كان قطعها.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يستوحشون من الجلوس مع قاطع الرحم.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «أُحرِّج على قاطع رحم لما قام من عندنا».

وكان ابن مسعود رضي الله عنه جالسًا في حلقة بعد الصبح، فقال: أنشدك الله قاطع رحم لما قام عنا، فإنا نريد أن ندعو ربنا، وإن أبواب السماء مُربحة - أي مغلقة - دون قاطع رحم.

فاتقوا الله عباد الله وصلوا أرحامكم، وقدموا لهم الخيرَ ولو جَفْوًا، وصلوهم وإن قطعوا.

وصلةُ الرحم والإحسان إلى الأقربين، ذاتُ مجالات واسعة، ودروبٍ شتى، فمن بشاشةٍ عند اللقاء، ولين في المعاملة، إلى طيب في القول، وطلاقةٍ في الوجه، زيارات وصلات، تفقدٌ واستفسارات، مهاتفةٌ ومراسلة، مشاركةٌ في الأفراح، ومواساةٌ في الأتراح، وإحسانٌ إلى المحتاج، وبذلٌ للمعروف، والمعنى الجامعُ لذلك كلِّه: إيصالُ ما أمكن من الخير، ودفعُ ما أمكنَ من الشر.

حُكي عن بنتِ عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحةَ بن عبد الرحمن بن عوف - وكان أجودَ قريشٍ في زمانه - قالت: يا طلحةُ ما رأيتُ قومًا ألأَمَ من إخوانك؟ قال: ولمَ ذاك؟ قالت: أراهم إذا أيْسَرْت وكثرُ مالك زارُوكَ ولزموكَ، وإذا أعسرتَ تركوك؟ قال: هذا والله من كرمهم، يأتوننا في حال القوة بنا عليهم، ويتركُوننا في حال الضعف بنا عليهم.

فانظروا - كيف تأوَّل بكرمه هذا التأويل، وفسرَّ بنبيل أخلاقه هذا التفسير، حتى جعل قبيح فعلهم حسنًا، وظاهر عذرهم وفاءً، وهذا محضُ الكرم ولبابُ الفضل، وبمثل هذا يظهر ذوو الفضل.

وللحديث بقية إن شاء الله.

من محبطات الأعمال

«أذى الجار»

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد المرسلين وإمام المتَّقين، نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، وبعد:

فمع المحبط السادس للأعمال وهو: «أذى الجار»:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نَزَلَ بالنبي ﷺ أضيافٌ من البحرين فدعا النبي ﷺ بوضوئه فمسحوا منه وجوههم ورءوسهم وصدورهم، فقال لهم النبي ﷺ: «ما دعاكم إلى ذلك ؟» قالوا: حُبُّنَا لك، لعل الله يحبنا يا رسول الله، فقال ﷺ: «إن كنتم تريدون أن يحبكم الله ورسوله فحافظوا على ثلاث خصال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الجوار، فإن أذى الجار يمحو الحسنات كما تمحو الشمس الجليد». [الصحيحة ٢٩٩٨].

فقد شاع بين ضعاف النفوس الإساءة إلى الجار ومضارته، وتناسى الكثير حقوق الجار وعظم حقه.

وأن الله تعالى قد أوصى بالجار من فوق سبع سماوات، فقال تعالى: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا» [النساء: ٣٦].

وتناسى الكثير أن إيذاء الجيران من مبطلات الأعمال الصالحة ومحبطات أجرها وثوابها كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فقال رسول الله ﷺ: «فإن أذى الجار يمحو الحسنات كما تمحو الشمس الجليد».

وعظم الإسلام حق الجار

عن ابن عمر وعائشة رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». [متفق عليه].

وعن رجل من الأنصار قال: خرجتُ مع أهلي أريدُ النبي ﷺ، وإذا أنا به قائم، وإذا رجلٌ مقبل عليه، فظننت أن لهما حاجة، فجلست، فوالله لقد قام رسول الله ﷺ حتى جعلت أرثي له من القيام، ثم انصرف، فقمت إليه، فقلت: يا رسول الله، لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثي لك من طول القيام. قال: «أتدري من هذا ؟» قلت: لا. قال: «ذاك جبريل ﷺ ما زال يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه، أما إنك لو سلمت عليه لرد عليك السلام». [صحيح الترغيب: ٢٥٧٢].

ونفى رسول الله ﷺ الإيمان عن الذي لا يأمن جاره شره: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن». قيل: من يا رسول الله ؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه». [متفق عليه].

وعن أبي شريح الكعبي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن». قيل: يا رسول، لقد خاب وخسر، من هذا ؟ قال: «من لا يأمن جاره بوائقه». قالوا: وما بوائقه ؟ قال: «شره». [صحيح الجامع: ٧١٠٢].

والذنب يعظم إذا ارتكب في حق الجار ويضاعف إثم صاحبه

عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا ؟» قالوا: حرامٌ، حرَّمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ: «لأن يزني الرجل بعشرة نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره».

قال: «ما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرَّمها الله ورسوله فهي حرام، قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات، أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره». [رواه أحمد ٦ / ٨].

وبين ﷺ أن حسن الجوار يعمر الديار، ويزيد في الأعمار

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «صلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار يعمرن الديار، ويزدن في الأعمار». [صحيح الجامع:٣٧٦٧].

وجعل ﷺ الإحسان إلى الجار عنوان الإيمان

عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليسكت». [مسلم ٤٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يأخذ عني هذه الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن؟» فقال أبو هريرة: قلت: أنا يا رسول الله. فأخذ بيدي فعد خمسًا، فقال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب». [صحيح الجامع: ١٠٠].

وجعل ﷺ عدم أذية الجار عنوان الإيمان أيضًا

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليسكت». [متفق عليه].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة حتى يأمن جاره بوائقه». [صحيح الترغيب: ٢٥٥٤].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن من أمنه الناس، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر السوء، والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة عبدٌ لا يأمن جاره بوائقه». [صحيح الترغيب: ٢٥٥٥].

وفي هذا دليل على تحريم العدوان على الجار، سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل، أما بالقول فأن يسمع منه ما يزعجه ويقلقه، وإن من شر ما ابتلي به الجيران من جيرانهم رفع صوت المسجل والتلفاز، فإن هذه الأصوات العالية تشوش على المصلي، وتؤذي الطالب، وتزعج المريض، وهذا لا يحل.

وهل المؤمنُ إلا من أمنهُ الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وهل الإيمان إلا من الأمن؟ فإذا كان الجار لجاره حربًا، وعليه ضدًا فكيف يكون من المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله؟ لقد كان الواجب عليه أن يتفقد أمور جاره، ويساعده بكل ما استطاع، ويعمل على جلب الخير له ودفع ما يضره، حتى يكون في عيشة راضية وحياة طيبة، كما يعمل بعض الجيران المحسنين الذين يألفون ويؤلفون.

ومن الأذية بالقول أن تؤذيه بالسب وغير ذلك فإن ذلك يحبط الأعمال.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها.

قال: «هي في النار». قال: يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها. قال: هي في الجنة. [صحيح الترغيب: ٢٥٦٠].

الأثوار: جمع ثور وهي القطعة من الأقط.

الأقط: هو شيء يتخذ من مخيض اللبن الغنمي.

فاصبر على جارك السوء وصابر واحذر أن يضيق صدرك عليه فتؤذيه بلسانك فيحبط عملك.

وأما بالفعل فيكون بمضايقته في بناء أو ممر أو بميزاب يصب عليه، أو بقذر أو وسخ تلقيه أمام منزله، أو إغلاق الباب دونه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كم من جار متعلق بجاره يقول: يا رب، سل هذا: لم أغلق عني بابه ومنعني فضله». [صحيح الترغيب: ٢٥٦٤].

فاحذر كل الحذر أن تؤذي جارك بقول أو فعل.

وحسبك أن شهادة جارك بالخير من أسباب مغفرة الذنوب

قال ﷺ: «ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنين أنهم لا يعلمون عنه إلا خيرًا، إلا قال الله تبارك وتعالى: قد قبلت قولكم، أو قال: شهادتكم، وغفرت له ما لا تعلمون». [أحمد ٣ / ٢٤٢].

ويعرف المسلم نفسه إذا كان قد أحسن إلى جيرانه، أو أساء إليهم.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجلٌ للنبي ﷺ: يا رسول الله، كيف لي أعلم إذا أحسنتُ أو أسأتُ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «إذا سمعت جيرانك يقولون: قد أحسنت، فقد أحسنت، وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأت؛ فقد أسأت». [صحيح الجامع: ٦١٠].

فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بإهداء ما تيسر، وبداءته بالسلام والصفح عن زلاته، وإظهار البشر له، وعيادته وتعزيته عند المصيبة وتهنئته بما يفرحه، ويستر ما انكشف له من عورة، ويغضُّ بصره عن محارمه، ويمنع أولاده وأهله من أذية أولاد جاره وأهلهم.

ويعمل كل ما فيه نفعٌ لهم ويقدر عليه، ويدفع عنهم ما يضرهم ما استطاع.

فبهذه الأشياء تقع بإذن الله الألفة والمحبة، وبها تحصل المودة ويصبحُ المرء بين جيرانه محبوبًا موقّرًا يتفقدونه إذا غاب ويسألون عنه.

وحسب المسلم أن الصبر على أذى الجار يجلب لصاحبه محبة الله ورسوله ﷺ: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره، فقال له: «اذهب فاصبر».

فأتاه مرتين أو ثلاثًا، فقال: «اذهب فاطرح متاعك في الطريق»، ففعل، فجعل الناس يمرون ويسألونه، فيخبرهم خبر جاره، فجعلوا يلعنونه: فعل الله به وفعل، وبعضهم يدعو عليه، فجاء إليه جاره فقال: ارجعْ فإنك لن ترى مني شيئًا تكرهه. [البخاري في الأدب المفرد: ١٢٤].

عن مطرِّف - يعني ابن عبد الله - قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديثٌ، وكنت أشتهي لقاءه، فلقيته، فقلت: يا أبا ذر، كان يبلغني عنك حديثٌ، وكنت أشتهي لقاءك. قال: لله أبوك، لقد لقيتني فهات، قلت: حديثٌ بلغني أن رسول الله ﷺ حدثك، قال: «إن الله عز وجل يُحب ثلاثة ويبغض ثلاثة». قال: فما إخالني أكذب على رسول الله ﷺ. قال: فقلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل؟ قال: «رجل غزا في سبيل الله صابرًا محتسبًا فقاتل حتى قُتل، وأنتم تجدونه عندكم مكتوبًا في كتاب الله عز وجل». ثم تلا: «يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ» [الصف: ٤]، قلت: ومن؟ قال: «رجل كان له جار سوء يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يكفيه الله إياه بحياة أو موت». [صحيح الترغيب: ٢٥٦٩].

وعن عبد الرحمن بن أبي قراد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحببتم أن يحبكم الله تعالى ورسوله فأدوا إذا ائتمنتم، واصدقوا إذا حدثتم، وأحسنوا جوار من جاوركم». [صحيح الجامع: ١٤٠٩].

قال ابن عبد البر: ثلاثٌ إذا كن في الرجل لم يشك في عقله وفضله: «إذا حمده جاره وقرابته ورفيقه».

فاطلب لنفسك جيرانًا تسرُّ بهم لا تصلح الدار حتى يصلح الجارُ.

وحسبك قول ابن مسعود رضي الله عنه لرجل أتاه وقال له: إن لي جارًا يؤذيني ويشتمني ويضيق عليَّ. فقال له: اذهب فإن عصى الله فيك فأطع الله فيه.

وقول الحسن: ليس حسن الجوار كف الأذى، ولكن حسن الجوار احتمال الأذى. [جامع العلوم والحكم ص١٢١].

وللحديث بقية إن شاء الله.

من محبطات الأعمال

مشاقة الرسول

صلى الله عليه وسلم

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبيَّ بعده، نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد:

فمع المحبط السابع للأعمال وهو:

مشاقة الرسول ﷺ

قال الله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ » [محمد: ٣٢].

يخبر الله تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول ﷺ وشاقَّه، أي: عاداه وخرج عن طاعته من بعد ما ظهر لهم صدقُه وأنه رسول الله ﷺ ؛ إنه لن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسَه ويخسرها يوم معادها وسيحبط الله عمله فلا يثيبه عليه.

فعدم احترام النبي ﷺ والاستخفاف به أو الاستهزاء به ردّة عن الإسلام وكفر بالله.

قال الله تعالى في الذين استهزءوا بالنبي ﷺ وسخروا منه في غزوة تبوك لما ضلت راحلته: « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وأخبر الله تعالى أن من كفر برسوله ﷺ، فهو كمن كفر بالله عز وجل، ومن كذّب رسوله ﷺ، فقد كذب الله عز وجل.

فقال تعالى في قصة المنافقين: « وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » [التوبة: ٨٤].

وقال تعالى: « وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [التوبة: ٩٠].

ثم أخبر الله تعالى أن من خان رسول الله ﷺ فهو كمن خان الله عز وجل، قال تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » [الأنفال: ٢٧].

ثم حذر الله الخلق عن إيذاء رسول الله ﷺ، في حياته، أو بعد موته، وأخبر سبحانه أن المؤذي لرسول الله ﷺ كمن آذى الله عز وجل، وأخبر سبحانه أن المؤذي لله ولرسوله ﷺ مستحق للعنة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ

تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا » [الأحزاب: ٥٣].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه من حادَّ الرسول ﷺ بالعداوة فقد حادَّ الله عز وجل، قال تعالى: « لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » [المجادلة: ٢٢].

وبين سبحانه وتعالى عاقبة من حاد الله ورسوله، فقال سبحانه: « إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » [المجادلة: ٥].

وقال تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ » [المجادلة: ٢٠].

وقال تعالى: « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ » [التوبة: ٦٣].

وقال تعالى: « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » [النساء: ١١٥].

وأخبر سبحانه وتعالى عن أهل النار - إذا دخلوها - كيف يتأسَّفون ويتحسرون على ترك طاعتهم لله عز وجل ولرسوله ﷺ فندموا حيث لم ينفعهم الندم، وأسفوا حيث لم ينفعهم الأسف، فقال تعالى: « يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ » [الأحزاب: ٦٦].

وقال تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» [النساء: ٤١، ٤٢].

وفرض الله سبحانه على جميع الخلق طاعته، وحرَّم عليهم معصيته، وقرن طاعة رسوله ﷺ بطاعته عز وجل، وأعلمهم أنه من عصى رسول الله فقد عصى الله. فقال تعالى: « قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » [آل عمران: ٣٢].

وقال تعالى: « وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » [آل عمران: ٣١، ١٣٢].

وقال تعالى: « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ » [النساء: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ » [محمد: ٣٣].

وأوجب الله تعالى على كل من حكم عليه النبي ﷺ حكمًا، ألا يكون في حَرَج أو ضيق مما حكم به الرسول ﷺ، بل يسلم لحكمه ويرضى، فقال سبحانه: « فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » [النساء: ٦٥].

وأخبر سبحانه وتعالى عن أهل الكتابين؛ اليهود والنصارى، أنهم يجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل، وأنه نبي، وأوجب عليهم اتباعه ونصرته.

فقال تعالى: «قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

وقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع الأنبياء إذا بعث محمدًا ﷺ وهم أحياء أن يتبعوه وأقروا بذلك. قال تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» [آل عمران: ٨١].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه يظهر دين نبيه محمد ﷺ على كل دين خالفه. فقال سبحانه: « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » [التوبة: ٣٣].

ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يتم لأحد الإيمان بالله عز وجل وحده حتى يؤمن بالله ورسوله: فقال تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى

يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» [النور: ٦٢]. وقال تعالى: « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » [الحجرات: ١٥].

ثم إن الله عز وجل رفع قدر نبيه ﷺ وأوجب على الناس أن يصلوا على رسول الله ﷺ وأخبرهم سبحانه أنه يصلي عليه هو وملائكته. فقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » [الأحزاب: ٥٦].

كما أوجب الله تعالى تقديم حب النبي ﷺ على كل شيء: فقال تعالى: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» [التوبة: ٢٤].

عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذٌ بيد عمر بن الخطاب ؟ فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبيُّ ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك». فقال عمر: فإنه الآن والله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر». [البخاري: ٦٦٣٢].

وإليك أخي بعض فضائل نبينا الكريم لتحفزنا على أن نتخذه قدوة حسنة لنا في كل شئون حياتنا.

ومنها: أنه ﷺ ساد الكلَّ

قال ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة».

[البخاري: ٤٧١٢/٣٩٥/٨، ومسلم: ١٩٤/١٨٤/١].

وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع». [صحيح الجامع: ١٤٦٧].

والسيدُ: من اتصف بالصفات العليَّة والأخلاق السنيَّة، ولما كانت مناقب النفس إنما تذكر افتخاراً في الغالب، أراد ﷺ أن يقطع وَهمَ من توهم من الجهلة أن يذكر ذلك افتخاراً، فقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر». [صحيح الجامع: ١٤٦٨، والصحيحة: ١٥٥٧].

ومنها: أنه ﷺ أول شافع، وأول مشفع

قال ﷺ: «أنا سيدُ ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ ؛ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول شافع، وأول مشفع، ولا فخر». [صحيح الجامع: ١٤٦٨].

ومنها: إيثاره ﷺ أمته على نفسه

وقال ﷺ: «لكل نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يُشرك بالله شيئًا». [مسلم: ١٩٩].

ومنها: أن الله تعالى أقسم بحياته ﷺ ولم يثبت هذه لغيره ﷺ

فقال تعالى: « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» [الحجر: ٧٢]، والإقسام بحياة المُقْسَم به يدل على شرف حياته وعزتها عند المُقْسِم بها.

ومنها: أن الله أرسل كل نبي إلى قومه خاصة، وأرسله ﷺ إلى الجن والإنس

قال الله تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ» [الأنبياء: ١٠٧].

وقال ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يُعطهن أحدٌ قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

[البخاري: ٣٣٥، ومسلم: ٥٢].

ومنها: أن الله أثنى على خلقه

فقال تعالى: « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » [القلم: ٤].

ومنها: أنَّ كتابه ﷺ مشتمل على ما اشتملت عليه التوراة والإنجيل والزبور:

قال ﷺ: «أُعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصَّل». [صحيح الجامع: ١٠٥٩].

ومنها: أنه يدخل من أمته الجنة سبعون ألفًا بغير حساب

ولم يثبت ذلك لغيره ﷺ، قال ﷺ: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بلا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألفٍ سبعون ألفًا، وثلاث حثيات من حثيات ربي». [صحيح الجامع: ٧١١١].

ومنها: أن أمته ﷺ أقل عملاً ممن قبلهم، وأكثر منهم أجرًا

قال ﷺ: «مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له عملاً إلى الليل،

فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا لك، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوه، فاستأجر أجراء بعدهم، فقال: اعملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا، حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال: أكملوا بقية عملكم، فإنما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا، فاستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم، ومثل ما قبلوا من هذا النور». [البخاري ٥٥٨].

قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٤٦): «والمراد من هذا التشبيه بالعمال تفاوت أجورهم، وأنَّ ذلك ليس منوطًا بكثرة العمل وقلته؛ بل بأمور أخرى معتبرة عند الله تعالى، وكم من عمل قليل أجدى ما لا يجديه العمل الكثير، هذه ليلة القدر العمل فيها أفضل من عبادة ألف شهر في سواها، فهذه الأمة إنما شرفت وتضاعف ثوابها ببركة سيادة نبيها وشرفه وعظمته، كما قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

ومنها: أن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين

فأمهل عصاة أمته ولم يعاجلهم إبقاء عليهم، قال الله تعالى: « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » [الأنفال: ٣٣].

فَأَمَّنَ أعداءه من العذاب مدة حياته - عليه السلام - فيهم، فلم يُعذِّبهم مع استعجالهم إياه تحقيقًا لما نعته به، فلما ذهب عنهم إلى ربه تعالى أنزل الله بهم ما عذبهم به من قتل وأسر، وذلك قوله تعالى: « فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ » [الزخرف: ٤١].

بخلاف من تقدمه من الأنبياء، فإنهم لما كُذِّبوا عوجل مكذِّبهم، كما وقع لقوم نوح وغيرهم، قال تعالى: « فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ » [الأعراف: ٦٤].

وقال في هود وقومه عاد: « فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ » [الأعراف: ٧٢].

وقال في ثمود قوم صالح: «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ» [الأعراف: ٧٨، ٧٩].

ومنها: أنَّ الله تعالى نزَّل أمته منزل العدول من الحكام، وهذه الخصيصة لم تثبت لأحد من الأنبياء

قال ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدْعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيُدْعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فصدقناه، فذلك قوله: « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » [البقرة: ١٤٣].

ومنها أن الكتاب المنزل عليه ﷺ محفوظ في التحريف والزيادة والنقصان

قال الله تعالى: « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » [الحجر: ٩].

وأما غيره من الكتب فلم يثبت لها هذا.

قال تعالى: « أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » [البقرة: ٧٥].

ومنها أنه ﷺ كمال الأنبياء

قال ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين». [البخاري: (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦)].

ومنها أنه ﷺ أكثر الأنبياء تبعًا

قال ﷺ: «أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة». [صحيح الجامع: ١٤٥٠].

وقال ﷺ: «آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك». [مسلم: ١٩٧].

فبعثته ﷺ رحمة للعالمين، فتح الله به أعينًا عُميًا، وآذانًا صُمًا، وقلوبًا غُلفًا، وهدى به بعد ضلالة، قال الله تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » [الأنبياء: ١٠٧].

وقال ﷺ: «أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة». [مسلم: ٢٣٥٥].

وهذا يدل على أنه ما أرسل هذا النبي الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - إلا رحمة لهم ؛ لأنه ﷺ جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه، ومن خالف ولم يتبعْ فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى، وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلاً ؛ قال: لو فجرَ الله عينًا للخلق غزيرة الماء، سهلة التناول، فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها، فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل، فضيعوا نصيبهم من تلك العين ؛ فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه ؛ حيث حرمها ما ينفعها، ويوضح ذلك قوله تعالى: « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ » [إبراهيم: ٢٨].

ومن رحمته ﷺ لما قيل له: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال ﷺ: «إني لم أبعث لعانًا، وإنما بُعثتُ رحمةً». [مسلم: ١٨٢٢].

فرسول هذه بعض خصائصه يشاق ؟

فمن شاقه بعد ذلك فيسنتقم الله منه في الدنيا والآخرة.

ومن أمثلة عقوبة الدنيا: ما رواه أنس رضي الله عنه قال: كان رجلٌ نصرانيًا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانيًا، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له، فأماته الله فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له فأعمقوا، فأصبح ولقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعلُ محمدٍ وأصحابه نَبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح قد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه.

[البخاري: ٣٦١٧].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلّي عند البيت يومًا، وأبو جهل ونفرٌ من أصحابه جلوسٌ، إذ قال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلانٍ - لجمل ذبح بالأمس - فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقاهم، حتى أتى بسلا الجزور، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك. قال ابن مسعود: فلو كانت لي منعةٌ لوضعته عن ظهر رسول الله ﷺ، فلم يرفع رسول الله ﷺ رأسه من السجود حتى أتى إنسان فاطمة رضي الله عنها فأخبرها، فأقبلت، فطرحت الأذى عن ظهر رسول الله ﷺ، ثم أقبلت إليهم تسبهم، فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا، فقال: «اللهم عليك بقريشٍ، اللهم عليك بقريشٍ، اللهم عليك بقريشٍ». فلما سمعوا دعاءه غاب عنهم الضحك وخافوا من دعوته، ثم سمى بعض النفر فقال: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط». قال ابن مسعود: فوالذي بعثه بالحق لقد رأيتهم يوم بدرٍ صرعى، ثم سحبوا فألقوا في القليب - قليب بدر. [متفق عليه].

وأما في الآخرة: فقد قال الله تعالى: « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » [النساء: ١١٥].

وقال تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا» [الأحزاب: ٥٧].

عن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم من آمن بك، وشهد أني رسولك، فحبب إليه لقاءك، وسهل عليك قضاءك، وأقلل له من الدنيا، ومن لم يؤمن بك، ولم يشهد أني رسولك، فلا تُحبب إليه لقاءك، ولا تسهل عليه قضاءك، وأكثر له من الدنيا».

[صحيح الترغيب: ٣٤٨٨، وصحيح الجامع: ١٣١١].

وعن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال: رضيتُ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ نبياً: وجبت له الجنة».

[صحيح الجامع: ٦٤٢٨].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

من
محبطات الأعمال

الذهاب إلى العرافين

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله المتفرد بالوحدانية، القائم على كل نفس بما كسبت، يعلم أحوال النفوس وآجالها، خلق الخلق ونفذت فيهم مشيئته، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه وهو الحكيم العليم، وأصلي وأسلم على نبينا محمد عبده المجتبى، ورسوله المرتضى، وعلى آله وأصحابه الأبرار، ما تعاقب الليلُ والنهار، وبعد:

فمع المحبط التاسع للأعمال وهو:

«الذهاب إلى العرافين»

عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافًا، فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا». (مسلم: ٢٢٣٠).

قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدماتٍ يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك. (شرح السنة: ١٢/ ١٨٢).

وقال ابن تيمية: العَرَّافُ: اسم للكاهن والمنجم والرمَّال ونحوهم. (مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٣٧).

ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يومًا، ولكنه ليس على إطلاقه، فسؤال العرَّاف، ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن يسأله سؤالاً مجردًا، فهذا حرام؛ لقول النبي ﷺ: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء، لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا».

فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه، إذ لا عقوبة إلا على فعل محرّم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقه فهذا كفر.

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد». (صحيح الجامع: ٥٩٣٩).

أي: بالذي أُنزل على محمد ﷺ، والذي أُنزل عليه ﷺ القرآن أُنزل إليه بواسطة جبريل عليه السلام، قال الله تعالى: «وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ» (الشعراء: ١٩٢، ١٩٣).

وقال تعالى: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ» (النحل: ١٠٢). وقد قال الله تعالى فيما أُنزل على محمد ﷺ: «قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ» (النمل: ٦٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، أو أتى امرأة حائضًا، أو أتى امرأة في دبرها، فقد برئ مما أُنزل على محمد». (صحيح الجامع: ٥٩٤٢).

وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: «ليس منا من تطير ولا من تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو تسحر أو تسحر له». (صحيح الجامع: ٥٤٣٥).

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره: هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله، فهذا لا بأس به.

وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد، فقال: «ماذا خبأت لك؟» قال: الدُّخ. فقال: «اخسأ، فلن تعدو قدرك». (متفق عليه). فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضمره له، لأجل أن يختبره، فأخبره به.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور يتبين بها كذبه وعجزه، وهذا مطلوب، وقد يكون واجبًا، وإبطال قول الكهنة لا شك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجبًا. (القول المفيد على كتاب التوحيد ١/٤٢٩).

فتصديق أدعياء علم الغيب، وإتيان الكهنة والعرافين، والرمالين والمنجمين، والمشعوذين، والدجالين، الذين يزعمون، الإخبار عن الغيبيات زورًا وبهتانًا، وكذبًا وادِّعاءً، فهذا كله ضلال وباطل، وداءٌ خطيرٌ وشر مستطيرٌ، فعلم الغيب، مما استأثر الله به وحده، قال سبحانه: «قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ» (النمل: ٦٥).

وفي تعاطي السحر والتعامل به جمع بين الكفر والإضرار بالناس

قال الله تعالى: «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (البقرة: ١٠٢).

فدلت هذه الآية الكريمة على أن الذين يتعلمون السحر إنما يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، وأنه ليس لهم عند الله من خلاق.

أي: «من حظ»، وهذا وعيد عظيم يدل على شدة خسارتهم في الدنيا والآخرة، وأنهم باعوا أنفسهم بأبخس الأثمان، ولهذا نمهم الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: «وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (البقرة: ١٠٢). والشراء هنا بمعنى: البيع، ولقد نفى الله الفلاح عن الساحر، فقال سبحانه: «وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى» (طه: ٦٩) أي: لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض.

السحر من الموبقات، أي: المهلكات

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

عدَّ رسول الله ﷺ السحر بعد الشرك وقبل القتل.

معنى: «التولي يوم الزحف» أي: الفرار من صف القتال يوم زحف المسلمين على العدو.

معنى: «المحصنات» أي: العفيفات.

قال الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (النور: ٢٣).

والكهنة والعرافون يتعاملون مع الشياطين يقينًا، ولا يساعد الشيطان قرينه الآدمي إلا إذا أصبح وليًا له، قال الله تعالى: «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ» (الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢)، وقال تعالى: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» (الأنعام: ١٢١).

فحذار أيها المسلم حذار من ذهابك أو ذهاب زوجتك أو ولدك أو بعض أهلك للكهنة وسؤالهم إياهم، فإنَّ هذا صد عن الدين، وقد علمتَ أن الله عز وجل لم يقبل صلاة أربعين يومًا لمن يسأل العراف أو الكاهن، وحكم رسول الله ﷺ بكفر من يسأله ويصدقه، فما بالك بالعراف نفسه؟

عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله تعالى بالإسلام، وإنَّ منا رجالاً يأتون الكهان؟ قال: «فلا تأتهم». (مسلم: ٥٣٧).

شبهة وجوابها

يقول بعض الناس: إننا جربنا سؤال هؤلاء العرافين فوجدناهم يصدقون في حديثهم عن بعض الأمور:

والجواب: أن رسول الله ﷺ أخبر بذلك عن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رسولَ الله ﷺ أناسٌ عن الكهان، فقال: «ليسوا بشيء». فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثوننا أحيانًا بشيء فيكون حقًا ؟ فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أُذُن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة». (متفق عليه).

معنى: فيقرها: أي: يلقيها.

وفي رواية للبخاري عن عائشة رضي الله عنه أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قُضي في السماء، فيسترق الشيطان السمع، فيسمعه، فيوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم». (صحيح الجامع: ١٩٥٥).

فالساحر دَعِيّ كذابٌ ولو طار في الهواء، ومشى على الماء، ولَبَس على الجهلة والدهماء.

فأين عقولنا ؟ ماذا أصاب العقول ؟ إذا كان صفوةُ خلق الله، وأفضل عباد الله - عليه الصلاة والسلام - يخاطبه الله بقوله سبحانه: «قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (الأعراف: ١٨٨).

ونهاه سبحانه بقوله: «وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (يونس: ١٠٦، ١٠٧).

إذا كان ذلك في حقه - عليه الصلاة والسلام - فغيره أولى وأحرى أن يحذر من ذلك: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ» (لقمان: ٣٠). فكونوا على حذر - يا عباد الله - من المشعوذين والدجالين.

وعلقوا آمالكم بالله فهو سبحانه دافع الضر ومالك النفع، له الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله، قضاؤه نافذٌ، وقدره كائن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضى، ولا واصل لما قطع: «قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» (الزمر: ٣٨).

يا مَن ألوذ به فيما أؤمِّلُهُ
ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره
ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

وإذا كان الابتلاء سنة - والبشر عرضةً للأمراض والأسقام - فإنَّ التداوي المشروع أمرٌ مطلوب.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله تعالى». (مسلم: ٢٢٠٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل اللهُ داءً إلا أنزل له شفاءً». (صحيح الجامع: ٥٥٥٩). وعن أسامة بن شريك أن النبي ﷺ قال: «تداوَوْا عباد الله، فإن الله تعالى لم يضعْ داءً إلا وضع له دواء، غير داءٍ واحدٍ: الهرم» وهو الشيخوخة. (صحيح الجامع: ٢٩٣٠، وغاية المرام: ٢٩٢).

فالتداوي المشروع لا ينافي التوكل على الله، وقد أخبر الله عن القرآن بأنه هدى وشفاء من كل مرض وداء، فقال تعالى: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» (الإسراء: ٨٢). وقال تعالى: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ» (فصلت: ٤٤). وقال تعالى: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا» (النساء: ١٢٢).

فحصنوا أنفسكم وأولادكم بالرقى المشروعة، والأوراد المأثورة، فهي حصنٌ حصينٌ، وحرزٌ أمين بإذن الله الشافي الرحيم، داوموا على أوراد الصباح والمساء، وأدعية الدخول والخروج، والنوم والاستيقاظ، وهاكم - عباد الله - وصفةً طبيةً نبوية، هي خيرٌ لكم وأمانٌ.

عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم، ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم (ثلاث مرات)، فيضره شيء». (صحيح الجامع: ٥٧٤٥).

وعن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ، ماذا أقول؟ قال: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» والمعوذتين حين تُمسي، وحين تصبح - ثلاث مرات تكفيك من كل شيء. (صحيح الجامع: ٤٤٠٦).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر». (صحيح البخاري: ٩/٥٦٩، ١٠/٢٣٨، ٢٤٧، ومسلم: ٢٠٤٧).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن في عجوة العالية شفاء، وإنها ترياقٌ من أول البكرة». (صحيح مسلم: ٢٠٤٨).

و«العالية» المقصود بها: عالية المدينة، وجمعها عوال، وهي مكان في الجهة الجنوبية من المدينة وأدناها إلى المسجد النبوي يبعد ميلاً.

«الترياق»: ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجن.

«أول البكرة»: المراد أكلها في الصباح قبل أن يأكل أي شيء آخر.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

من محبطات الأعمال

التكذيب بلقاء الله

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله رفع قدرَ أولي العلم والإيمان، فلم يغتروا بهذه الدار، وجدُّوا وأخلصوا وأيقنوا أن الآخرة هي دارُ القرار، وأصلي وأسلم على النبي المختار، وعلى آله وأصحابه المهاجرين والأنصار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعدُ:

فمع المحبط العاشر للأعمال، وهو: «التكذيب بلقاء الله».

قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [الأعراف: ١٤٧].

والمعنى: « وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» أي: جحدوا بما أنزل الله، «وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ» أي: وكذبوا بلقاء الله في الآخرة، أي: لم يؤمنوا بالبعث بعد الموت، «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ» أي: بطلت أعمالهم الخيرية التي عملوها في الدنيا، وذهب ثوابها لعدم الإيمان بالبعث، وقد ذم الله المكذبين بلقائه سبحانه وتعالى، فقال تعالى: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ» [الأنعام: ٣١].

وقال تعالى: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» [يونس: ٤٥].

وقال تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا» [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

وقال تعالى: «أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ» [الشورى: ١٨].

وقال تعالى: «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ» [النمل: ٦٦].

عُميت عليهم السبلُ، وهكذا كلُّ من حاد عن الحق تتقاذفه الأهواءُ، وتمزقه الحيرةُ، وتقلقه الشكوك.

وما من شيء في دعوة رسل الله استبعده الكفارُ وأنكرته الملاحدة واستهزأت به الزنادقةُ أشد من إنكارهم للبعث.

فتراهم ينكرون ويستهزءون ويستبعدون، ولقد سجَّلَ القرآن الكريم افتراءهم العظيم، وإفكهم المبين: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ» [النحل: ٣٨].

قال تعالى: «أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ» [المؤمنون: ٣٥-٣٨].

وقال تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ» [سبا: ٧، ٨].

«وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» [الرعد: ٥].

«بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» [ق: ٢، ٣].

هذا هو افتراؤهم وهذا هو عَجبهم ؟!

وأخذوا يثيرون الشبهات حول البعث بعد الموت.

وقد حكى الله عنهم قولهم: «إِنْ هَؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ

(٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [الدخان: ٣٤ - ٣٦].

«وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» [الجاثية: ٢٥، ٢٦].

وبالغوا في الإنكار إلى درجة القسم على أن لا يبعثوا، ويتولَّى القرآن الرد والبرهان، فحينما يتطاولونَ على الله بعنادهم، وحينما يكشفون عن بلادتهم، يأتي الدليلُ ناصعًا بينًا، والحجة ظاهرةً:

«وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [النحل: ٣٨-٤٠].

فلما أقسموا أن لن يبعثوا أقسم الله باعثهم لا محالة، فقال سبحانه: «وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا» [مريم: ٦٦ - ٦٨].

وأمر رسوله ﷺ أن يقسم بربه على أن البعث حق، فقال سبحانه: «وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» [يونس: ٥٣].

وقال سبحانه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ» [سبأ: ٣].

وقال سبحانه: «زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» [التغابن: ٧].

وما كانت هذه النزعة إلا لاتباع الهوى: «فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى» [طه: ١٦].

فمن كذَّب الله ورسوله بعد ذلك القسم المتكرر فهو كافرٌ خالدٌ في النار أبدًا، كما قال تعالى: «وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» [الرعد: ٥].

وقال تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا» [الفرقان: ١١- ١٤].

وقال تعالى: «وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» [الإسراء: ٩٧-٩٨].

وقد أخبر الله تعالى أن الحكمة من الإيحاء إلى رسله عليهم السلام هي إنذار الناس لقاء الله سبحانه: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» [الشورى: ٧].

وقال تعالى: «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» [غافر: ١٥-١٧].

وقد أخبر سبحانه وتعالى أن لقاءه حق:

قال تعالى: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [البقرة: ٢٨].

وقال تعالى: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» [آل عمران: ٨٣].

وقال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [الأنعام: ٦٠].

وقال تعالى: «وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» [الأنعام: ٣٦].

وقال تعالى: «هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [يونس: ٦٥].

وقال تعالى: «أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [النور: ٦٤].

وقال تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ» [القصص: ٨٥].

وقال تعالى: «وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [لقمان: ١٥].

وقال تعالى: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» [السجدة: ١١].

وقال تعالى: «اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [الروم: ١١].

وقال تعالى: «ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» [الزمر: ٧].

وقال تعالى: «وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ» [الزخرف: ٨٥].

وقال تعالى: «قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [الجمعة: ٩].

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ» [الانشقاق: ٦].

وقال تعالى: «إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى» [العلق: ٨].

ثم إن البعث بعد الموت قد وقع في هذه الحياة الدنيا مرات، ذكرها الله تعالى في سورة البقرة، فقال سبحانه وتعالى: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [البقرة: ٥٥، ٥٦].

وقال تعالى: «وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» [البقرة: ٧٢، ٧٣].

وقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ» [البقرة: ٢٤٣].

وقال تعالى: «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [البقرة: ٢٥٩].

وقال تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [البقرة: ٢٦٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخبر أن رجلاً لم يعمل خيرًا قط فلما حضرته الوفاة قال: إذا أنا مت فحرقوني وذروا نصفي في البر ونصفي في البحر، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لمَ فعلت ؟ قال: من خشيتك وأنت أعلم، فغفر له. [متفق عليه].

وقد أخبر الله تعالى عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ» [الزمر: ٧١].

وقد أكثر الله سبحانه من ذكر الأدلة والبراهين على إمكان البعث وأن الله يحيي الموتى ويبعث من في القبور:

من هذا قوله سبحانه: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى» [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، وكان إذا قرأ: «أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى»، قال: سبحانك فبلى، فسألوه عن ذلك ؟ فقال: سمعته من رسول الله ﷺ [إرواء الغليل رقم ٥٣٤، وتمام المنة ص١٨٦].

بين الله تعالى أنه خلق الإنسان على هذا النحو رسالة كلفه بها ولم يتركه سدى وسيحاسبه عليها في يوم آت لا ريب فيه.

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» [الحج: ٥ - ٧].

وقال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [يس: ٧٧- ٨٣].

عن ابن عباس رضي الله عنه: أن العاص بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء ففته بيده، ثم قال: أيحيي الله هذا العظم بعدما رم ؟ فقال ﷺ : «نعم، يميتك ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم»، ونزلت الآيات من آخر «يس».

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على

البيان، أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها، في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجار ووضع الأدلة، وصحة البرهان، لما قدر.

فاحتج سبحانه بالإبداء على الإعادة والنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علمًا ضروريًا أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية، لكان عن الأولى أعجز وأعجز. [شرح العقيدة الطحاوية ص٣٩٩].

وقد بين الله أطوار خلق الإنسان من بدايته إلى نهايته، وجعل البعث بعد الموت آخر الأطوار، فقال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ» [المؤمنون: ١٢- ١٦].

وإذا كان الله تبارك وتعالى خلق الإنسان ابتداءً من غير مثال يحتذى به فإنه قادر على أن يعيده - إذا أفناه - مرة أخرى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «قال الله تعالى: شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني، أما شتمه إياي، فقوله: إن لي ولدًا، وأنا الله الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد، وأما تكذيبه إياي، فقوله: ليس يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته». [البخاري: ٣١٩٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي: فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي: فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا». [البخاري: ٤٤٨٢].

سبحان الله، وإذا أردنا أن ننظر في خفايا النفس الإنسانية ألفينا حديثًا كاملاً مستفيضًا عن الإنسان في كل ناحية من نواحيه ابتداءً من خلقه حتى نهاية حياته أوجده الله من عدم وجعله بشرًا سويًا، وفضله على غيره من المخلوقات وسخر له كل ما في السماوات والأرض: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ» [الواقعة: ٥٨ - ٦٢].

ولقد قيل للكفار والمنكرين: « كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا» [الإسراء: ٥٠، ٥١].

فانظروا - يا من غفلتم - إنه قد وقع ما أنكرته عقولكم.

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ» [يس: ٥١ - ٥٣].

«فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ» [المعارج: ٤٢-٤٤].

«يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ» [القمر: ٦ - ٨].

«قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ» [الواقعة: ٤٩ - ٥٦].

ومعلومٌ أن الذين لا يؤمنون بالآخرة والذين يكذبون بيوم الدين يعيشون في بؤس وشقاء لا أمل لهم ولا رجاء، لذا ضلوا وأضلوا، وما ضلوا إلا بما نسوا يوم الحساب، وما اجترءوا على حرمات الله وأفسدوا في أرض الله وما ظلموا وتظالموا إلا لأنهم كانوا لا يرجون حسابًا.

«إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [يونس: ٧ - ٨].

«أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ» [الماعون: ١ - ٣].

أما المصدقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، فاستقاموا على الحق والتوحيد، ونبذوا الشرك وأصلحوا عملهم، وأخلصوا لربهم: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» [الكهف: ١١٠].

يحملهم إيمانهم باليوم الآخر والتصديقُ بلقاء ربهم، على الصبر والتحمل، والبذل والإحسان، «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» [البقرة: ٤٥، ٤٦].

«يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا» [الإنسان: ٧ - ١١].

وما ثبت أقدام المجاهدين إلا بمقدار إيمانهم بلقاء الله: «قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» [البقرة: ٢٤٩].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

من
محبطات الأعمال

الإحداث في الدين

إعداد/ عبده الأقرع

الحمدُ لله، أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلامَ دينًا، وأصلي وأسلم على سيدنا ونبينا محمد، بعثه الله بالهدى ودين الحق، فبلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغُ عنها إلا هالكٌ، وبعد:

فمع المحبط الحادي عشر من محبطات الأعمال وهو: «الإحداث في الدين».

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ».

وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». [البخاري: ٢٦٩٧، ومسلم: ١٧١٨].

أفاد هذا الحديث: أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود.

وإذا كانت العبادة مردودة فإنه يحرم على الإنسان أن يتعبد بها لله.

وقوله: «ليس عليه أمرنا»: إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عمله جاريًا تحت أحكام الشريعة موافقًا لها فهو مقبول، ومن كان خارجًا عن ذلك فهو مردود.

فمن تقرب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة فعمله باطل مردود عليه، فقد رأى النبي ﷺ رجلاً قائمًا في الشمس، فسأل عنه، فقيل: إنه نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل وأن يصوم، وقد روي: أن ذلك كان في يوم جمعة عند سماع خطبة النبي ﷺ وهو على المنبر، فنذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ما دام النبي ﷺ يخطب، إعظامًا لسماع خطبته ﷺ، فأنكر رسول الله ﷺ عليه هذا العمل، فقال ﷺ: «مُرُوه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه». [صحيح الجامع: ٥٨٦٩].

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». [متفق عليه].

معنى «تقالوها»: أي: عدوها قليلة.

«فمن رغب عن سنتي»: أي: أعرض عنها.

حكى الإمام الشافعي - رحمه الله - إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة الرسول ﷺ لم يكن له أن يدَعها لقول أحد، وهو كلامٌ حق لا يستراب فيه وكيف تُترك نصوص الشارع المعصوم، ويؤخذ بأقوال غيره ممن يجوز عليه الخطأ؟ فإن كل أحد يؤخذ

من قوله ويترك إلا صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه.

وحكى في أهل الكلام: أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطافُ بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاءُ من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.

فكلُّ عبادات المتعبدين يجبُ أن تكونَ محكومةً بحكم الشرع في أمره ونهيه، جارية على نهجه، موافقة لطريقته، وما سوى ذلك فمردود على صاحبه ؛ لأن رسول الله ﷺ لم يفارق الدنيا إلا بعد أن أكمل الله هذا الدين ورضيه، وأتم به نعمته، «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا» [المائدة: ٣].

فالخيرُ في اتباع الرسول ﷺ، فقد رتب على اتباعه ﷺ حب الله تعالى وهي المنزلةُ التي فيها يتنافسُ المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمَّر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوتُ القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاءُ الذي من عَدمه حلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللذةُ التي من لم يظفر بها فعيشهُ كله همومٌ وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحملُ أَثْقَالَ السائرين إلى بلادٍ لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وهي تُبوئهم من مقاعد الصِّدق مقاماتٍ لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراها على ظُهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقُهم الأقومُ التي يبلغهم منازلهم الأولى من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ؛ إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب. [تهذيب مدارج السالكين ص٤٥٣ منزلة المحبة].

فالسعيدُ الموفق: من اقتفى أثر رسول الله ﷺ في أخلاقه وافعاله وأمره وسنته، وكيف لا؟ ونبينا ﷺ هو المبلغ للكتاب الناطقُ بالحق والصواب: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى» [النجم: ٣].

قال الله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ» [الأحزاب: ٢١].

فالواجب علينا: اتباعه في جميع أقواله وأفعاله والتأسي به في سائر أحواله، امتثالاً لأمر الله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» [الحشر: ٧].

والشرُّ في مخالفة سنته، وما أخبثَ رجلاً ترك سبيل السنة الشارحة للكتاب، واستبدلها بما يوصل للعذاب.

قال الله تعالى: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [النور: ٦٣].

«يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ» [الأحزاب: ٦٦].

«يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» [الأحزاب: ٣٦].

«وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ» [النساء: ١٤].

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن طاعته من موجبات دخول الجنة، وأن معصيته من موجبات دخول النار.

فقال ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». [البخاري: ٧٢٨٠].

وأخبر ﷺ أن التوبة محجوبة عن صاحب البدعة حتى يدع بدعته:

فقال ﷺ: «إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته». [صحيح الجامع: ١٦٩٥].

وأخبر ﷺ أن الذين أحدثوا في دين الله ما ليس منه أنهم يمنعون من الشرب من حوضه.

فقال ﷺ: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله تعالى حُفاة عُراة غُرْلاً، «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» [الأنبياء: ١٠٣]، ألا وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم ﷺ، ألا وإنَّهُ سيجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: «وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ» إلى قوله: «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [المائدة: ١١٧، ١١٨]. فيقال لي: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم». [صحيح الجامع: ٧٨٧٠].

«ذاتَ الشِّمال» أي: جهة النار.

وقال ﷺ: «يرد عليَّ يوم القيامة رهطٌ من أصحابي، فَيُجْلَوْن عن الحوض، فأقول: أي رب! أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى». [البخاري: ٨ / ١٥٠].

ومما يؤسى له: أن بعض الناس - هداهم الله - أحدثوا في دين الله ما لم يأذن به الله، ويعظم الأمر حين يتخذون ذلك دينًا يدعون أنه يقربهم إلى الله، ويزعمون أنه من محبة رسوله ﷺ، ويرمون كل من خالفهم ببغض الرسول ﷺ، وكراهية أوليائه الصالحين، وهذا من اتخاذ دين الله هزوًا ولعبًا، فالعبادات توقيفية، وفق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا بالأهواء والآراء.

قال ﷺ: «لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك». [صحيح الترغيب: ٥٩].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم.

وفي «سنن أبي داود» عن حذيفة رضي الله عنه قال: كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبَّدوها، فإن الأول لم يدعْ للآخر مقالاً.

وقال ابن الماجشون: سمعتُ مالكًا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا خان الرسالة؛ لأن الله يقول: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا» [المائدة: ٣].

فما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينًا.

وعن الأوزاعي عن حسان قال: ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثمَّ لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة.

فاتقوا الله - عباد الله - والزموا سنة نبيكم ﷺ، وإياكم والبدع ومُحدثات الأمور ومستحسنات العقول.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلامُ عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا»، قالوا: يا رسول الله، أولَسنا إخوانك؟ قال: «بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد». قالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك؟ قال: «أرأيت لو أن رجلاً له خيل غُرٌّ مُحجلة، بين ظهري خيل دُهمٌ بُهمٌ، ألا يعرف خيله؟» قالوا: بلى، قال: «فإنهم يأتون يوم القيامة غرًا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، ألا ليذادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يُذاد البعير الضال، أناديهم: ألا هلم، ألا هلم! فيقال: إنهم قد بدَّلوا بعدك، فأقول: «سحقًا، فسحقًا، فسحقًا». [صحيح الجامع: ٣٦٩٨].

معنى «سحقًا»: أي بُعدًا.

أخي الكريم: لا تبرر الابتداع بأنه إضافة إلى الخير، أو أنه قد يعين على الخير، فالرسول الكريم ﷺ لم يترك شيئًا إلا وبينه!

عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال لابن مسعود رضي الله عنه: إني رأيت في المسجد قومًا حِلَقًا ينتظرون الصلاة، في كلِّ حلقةٍ رجلٌ، وفي أيديهم حصى، فيقولُ: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، فيقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة. قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء؟

ثم أتى حلقةً من تلك الحِلق فوقفَ عليهم، فقال: ما الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصى نعدُّ به التكبيرَ والتهليلَ والتسبيح.

قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامنٌ أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمةَ محمدٍ، ما أسرع هَلَكَتكم، هؤلاء أصحابُه متوافرون، وهذه ثيابه لم تَبْلَ، والذي نفسي بيده أنتم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد، أو مفتتحو باب ضلالة؟ قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخيرَ.

قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه. [أخرجه الدارمي ١ / ٦٠].

ورُوي أن رجلاً قال لمالك بن أنس: من أين أُحرم؟ قال: من حيثُ أحرم رسول الله ﷺ. قال الرجل: فإن أحرمتُ من أبعدَ منه؟

قال: فلا تفعل، فإني أخاف عليك الفتنة. قال: وأي فتنةٍ في ازدياد الخير؟

فقال مالك: فإنَّ الله تعالى يقول: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [النور: ٦٣].

وأي فتنة أعظمُ من أن ترى أنك خُصِصتَ بفضلٍ لم يخصَّ به رسول الله ﷺ؟!

قال الله تعالى: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [الأنعام: ١٥٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض». [صحيح الجامع: ٢٩٣٧].

فمن تمسك بالكتاب والسنة فقد اهتدى، ومن أعرض عنهما فقد غوى واتبع الهوى.

يقول الله عز وجل: «فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» [القصص: ٥٠].

لقد حصرتْ الآية الكريمة الحكمَ في أمرين لا ثالث لهما: إما الاستجابة للمصطفى ﷺ، وإما اتباعُ الهوى.

ولقد حكم الله تعالى على متبعي الهوى بالضلال.

قال تعالى: «أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً» [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ» [الجاثية: ٢٣].

قال بعض السلف: من أمرَّ السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمرَّ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، لقوله تعالى: «وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا» [النور: ٥٤].

وقد حكى الله تعالى عن المنافقين الظالمين، فقال سبحانه: «وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» [النور: ٤٨ - ٥٠].

عن أبي نجيح العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغةً، وجلت منها القلوبُ، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودعٍ فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كلَّ بدعة ضلالة». [صحيح الجامع: ٢٥٤٩].

كتب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - إلى عدي بن أرطاة: أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدثَ المُحدثون فيما جرتْ به سنة، فعليك بلزوم السنة، فإن السنة إنما سنها من قد عرف ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتحمق، فارضَ لنفسك بما رضي به القومُ لأنفسهم، فإنهم على علمٍ وقفوا، وببصرٍ ناقدٍ كفُّوا، وهم كانوا على كشف الأمورِ أقوى، وبفضل كانوا فيه أحرى، إنهم هم السابقون، تكلَّموا بما يكفي، ووصفوا ما يشفي، فما دونهم مُقصِّرٌ، وما فوقهم مُحسِّرٌ، لقد قصَّرَ فيهم قوم فَجَفَوْا، وتجاوز آخرون فَغَلَوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم. [أخرجه أبو داود: ٤ / ٢٠٢، ٢٠٣].

وعليه، يتبين مما سبق أن العبادة أيًا كانت فعلية أو قولية لا تسمى عبادة ولا تكون نافعة إلا إذا صدرت من مؤمن، وتوفَّر فيها الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ، قال الله تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» [النساء: ١٢٥].

وإن حب الله لا ينال إلا باتباع سنة نبيه ﷺ، فاحرص إذن على اتباع سنته ﷺ كل الحرص، وأنفق في سبيل ذلك ما تستطيع.

وختامًا: فاعلم أن البدع كلها مردودة ليس منها شيء مقبول، وكلها قبيحة ليس فيها حسن، وكلها ضلال ليس فيها هدى، وكلها أوزار ليس فيها أجر، وكلها باطل ليس فيها حق.

وللحديث بقية إن شاء الله.

من
محبطات الأعمال

النِّفاق

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله أحاطَ بكلِّ شيءٍ خُبْرًا، وجعل لكلِّ شيءٍ قَدْرًا، وأسبلَ على الخلائق من حفظه سِتْرًا، وأصلي وأسلم على سيدنا ونبينا محمد عبده ورسوله، أرسله إلى الناس كافةً عذرًا ونُذرًا، وعلى آله وصحبه أخلدَ الله لهم ذكرًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، أما بعد:

فمع المحبط الثاني عشر من محبطات الأعمال وهو:

النفاق

قال الله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [التوبة: ٦٨، ٦٩].

يقول تعالى واصفًا حال المنافقين: إنَّ حالكم - أيها المنافقون - كحال أمثالكم ممن سبقوكم إلى النفاق والكفر، وقد كانوا أقوى منكم وأكثر أموالاً وأولادًا، واستمتعوا بما قدر لهم من حظوظ الدنيا، وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه، وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف، وسخروا منهم فيما بينهم وبين أنفسهم.

وقد استمتعتم بما قدر لكم، من ملاذ الدُّنيا كما استمتعوا، وخضتم فيما خاضوا فيه من المنكر والباطل.

إنهم قد بطلت أعمالهم، فلم تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، وكانوا هم الخاسرين. وأنتم مثلهم في سوء الحال والمآل، والعاقبة الوخيمة. [تيسير الكريم الرحمن ٣ / ٢٦٢].

قال ابنُ رجب: والذي فسَّره أهلُ العلم المعتبرون أنَّ النفاقَ في اللغة من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان خلافه. [جامع العلوم: ٣٧٥].

والنِّفاق اصطلاحًا: هو إظهارُ الإيمان باللسانِ وكتمانُ الكُفْر بالقلب. [نضرة النعيم: ٥٦٠٤، ٥٦٠٥ / ١١].

وقد هتكَ الله سبحانه وتعالى أستارَ المنافقينَ، وكشفَ أسْرَارهمْ في القرآن، وجلَّى لعبادِه أمُورَهم ليكونوا منها ومنْ أهْلِهَا على حذرٍ.

وذكرَ طوائفَ العالَمِ الثَّلاثة في أوَّلِ سورةِ البقرة: المؤمنينَ، والكفَّارَ، والمنافقينَ.

فذكرَ في المؤمنينَ أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية؛ لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدَّة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإنَّ بلية الإسلام بهم شديدة جدًا، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نُصرته وموالاته، وهم أعداؤُه في الحقيقة، فلا يزالُ الإسلامُ وأهله منهم في محنةٍ وبلية، لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغلِّ والكفران، فالظواهرُ ظواهرُ الأنصار، والبواطن قد تحيزتْ إلى الكفار، فألسنتُهم ألسنةُ المُسالمين، وقلوبهم قلوبُ المحاربين، ويقولون: «آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» [البقرة: ٨].

ففسادُهم في الأرض كثير، وأكثرُ الناس عنه غافلون: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ» [البقرة: ١١، ١٢]، «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ» [البقرة: ١٣].

لكلٍّ منهم وجهان: وجهٌ يلقى به المؤمنينَ، ووجهٌ ينقلبُ به إلى إخوانه من الملحدينَ، «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» [البقرة: ١٤].

وزيادةً في كشفِ حقيقةِ القوم وبيان زيغهم

وضلالهم ضربَ الله تعالى لهم مثلين، فقال سبحانه: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ» [البقرة: ١٧].

وذلك مثلُ مَن آمن منهم ثم كفر، كما قال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ» [المنافقون: ٣].

فضرب الله لهؤلاء مثلاً كمثل رجل دخل مغارةً مظلمةً في ليلة باردة فاستوقد من غيره نارًا يستضيء بها، فما أن دخل المغارة وأبصر ما فيها وعرف مكانه حتى انطفأت النارُ، فقام حيران لا يدري من أين يخرج؟ ولا إلى أينَ يذهب؟

وكذلك المنافقون لما آمنوا وسعى نُور الإيمان بين أيديهم فانتفعوا به ومشوا به في الناس، فلما كفروا فقدوا هذا النور وقاموا حيارى في طُغيانهم يعمهون، لا يبصرون طريقًا ولا يهتدون سبيلاً فهم «صُمٌ» لا يسمعون «بُكم» لا ينطقون، «عُمي» لا يبصرون، «فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ» [البقرة: ١٨].

أسماع قُلوبهم قد أثقلها الوقرُ، فهي لا تسمع منادي الإيمان، وعيونُ بصائرهم عليها غشاوة العمى، فهي لا تبصر حقائق القرآن، وألسنتهم بها خرسٌ عن الحقِّ فهم بها لا ينطقون: «صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ» [البقرة: ١٨].

ثمَّ ضرب الله مثلاً آخر للفريق الثاني من المنافقين، وهم الحيارى المترددون الذين يتجلى لهم الحق أحيانًا فيهمون بقبوله، ثم تضعف إرادتهم فينكصون، فقال تعالى: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ» [البقرة: ١٩].

فمثلُ هؤلاء الحيارى المترددين كمثل رجل في صحراء في ليلة شاتية ذات رعد وبرق فهو خائفٌ مستوحشٌ إذا سمع الرعد خاف على سمعه فجعل أصابعه في أذنيه، وإذا رأى البرق خاف على بصره، وما منع حذرٌ من قدر، «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ» [البقرة: ٢٠]؛ لأنهم في قبضته وتحت قهره ومشيئته، «وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ» [البقرة: ١٩].

وهذا الرجلُ في تلك الظلمة إذا أضاء له البرقُ مشي، وإذا أظلم قام حيران، وكذلك هؤلاء المنافقون المذبذبون يتجلى لهم الحق فيكادُ يأخذ بقلوبهم، ثم تغلب ظلمة قلوبهم نُور الحق فينكسون. [دين الفطرة ١ / ٢٩٤، ٢٩٥ د / عبد العظيم بدوي].

«يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ» [التوبة: ٦٤]، ولقد هتك الله أستارهم، وكشف أسرارهم، وضرب لعباده أمثالهم ليكونوا منهم على حذر:

أولاً: يتربصون الدوائر بأهل القرآن والسنة:

قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً» [النساء: ١٤٠، ١٤١].

ثانيًا: يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه:

قال الله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» [البقرة: ٢٠٤].

ثالثًا: أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد:

«وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ» [البقرة: ٢٠٥].

رابعًا: يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته:

«الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» [التوبة: ٦٧].

خامسًا: إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» [النساء: ٦١].

سادسًا: أحسنُ الناس أجسامًا وأخلبهم لسانًا وألطفهم بيانًا وأخبثهم قلوبًا:

«وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» [المنافقون: ٤].

سابعًا: إن أصاب أهلَ القرآن والسنة عافيةٌ ونصرٌ وظهورٌ ساءهم ذلك وغمهم، وإن أصابهم ابتلاءٌ من الله وامتحان يمحِّص به ذنوبهم ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم:

«إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» [التوبة: ٥٠، ٥١].

ثامنًا: ثقلت عليهم النصوص فكرهوها:

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ» [محمد: ٩].

تاسعًا: مطيتهم الكذب بشهادة الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» [المنافقون: ١].

وقال تعالى: «لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» [الحشر: ١١].

بل ويؤكد كذبهم بالأيمان الفاجرة الآثمة، قال الله عنهم: «وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» [المجادلة: ١٤].

«وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا» [الأحزاب: ١٣].

عاشرًا: يؤخرون الصلاة عن وقتها، وإذا قاموا إليها قاموا وهم كُسَالَى:

«إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» [النساء: ١٤٢].

وقال تعالى: «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ» [التوبة: ٥٤].

وعليه، فإنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب لها، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر، ثابت القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين. [تيسير الكريم الرحمن ٣ / ٢٤٩].

حادي عشر: إذا عاهدُوا لم يفوا:

«وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» [التوبة: ٧٥-٧٧].

ثاني عشر: يطلبون العزَّة من الكافرين:

قال تعالى: «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا» [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

ثالث عشر: من دأبهم التردد:

«فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ» [التوبة: ٤٥].

«مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا» [النساء: ١٤٣].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق: كمثل الشاة العائرة بين الغنمتين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، لا تدري أيهما تتبع». [صحيح الجامع: ٥٨٥٣].

رابع عشر: التخلف عن صلاة الجماعة:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مَن سرَّه أن يَلْقَى الله تعالى غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإنَّ الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى - أي يتمايل - بين الرجلين حتى يقام في الصف. [صحيح مسلم: ٦٥٤].

وفي رواية له قال: إنّ رسول الله ﷺ علمنا سنن الهدى، وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه.

خامس عشر: ثقل صلاتي الفجر والعشاء عليهم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا». [متفق عليه].

وعن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يومًا الصبح فقال: «أشاهد فلان؟» قالوا: لا. قال: «أشاهدٌ فلانٌ». قالوا: لا. قال: «إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبوًا على الركب». [صحيح الترغيب ٤١٩].

سادس عشر: تأخير صلاة العصر إلى الاصفرار:

عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ: «تلك صلاة المنافقين يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعًا لا يذكر الله إلا قليلاً». [مسلم: ٦٢٢ / ٤٣٤ / ٢١].

سابع عشر: الخيانة والغدر:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». [متفق عليه].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وغذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». [متفق عليه].

ثامن عشر: حالهم في الأمن: علو ألسنتهم بالقول العنيف، وعند البأس: هم أجبن قوم:

قال تعالى: «أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ» [الأحزاب: ١٩].

فهذه بعض أمارات النِّفاق، فاحذرها فإن الله تعالى يقول: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ

عَذَابٌ مُقِيمٌ» [التوبة: ٦٨].

وقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا» [النساء: ١٤٠].

ثم أخبر سبحانه أن المنافقين أسفل من الكافرين في النار، فقال تعالى: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا» [النساء: ١٤٥].

أموالهم وأولادهم عذاب عليهم: «فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ» [التوبة: ٥٥].

وحسب المنافق أن يفضحه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ» [الطارق: ٩].

إذا جُمعوا ليوم التلاق، وتجلَّى الله - جل جلاله - للعباد وقد كشف عن ساقٍ ودُعُوا إلى السُّجُود فلا يستطيعون: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ» [القلم: ٤٢، ٤٣].

كيف بهم إذا حُشِروا إلى جسر جهنم ؟

وهو أدقُّ من الشعرة، وأحد من السيف، وهو دحضٌ مزلة، مظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطئ الأقدام، فقُسمت بين الناس الأنوار، وهم على قدر تفاوتها في المرور، وأُعطوا نورًا ظاهرًا مع أهل الإسلام، كما كانوا بينهم في هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام، فلما توسطوا الجسر عصفت على أنوارهم أهوية النفاق، فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح، فوقفوا حيارى لا يستطيعون المرور، فضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسُور له باب، باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وما يليهم من قبلهم العذاب والنقمة.

«يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ» [الحديد: ١٣، ١٤].

نصومُ كما تصومون، ونصلِّي كما تُصلُّون، ونقرأ كما تقرءون، ونتصدقُ كما تصدَّقون، ونحج كما تحجون ؟ فما الذي فرَّق بيننا اليوم حتى انفردتم دوننا بالمرور ؟

«قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» [الحديد: ١٤، ١٥].

تالله لقد قَطَعَ خوفُ النِّفاق قلوبَ السابقين الأولين لعلمهم بدقه وجُلِّه، وتفاصيله وجُمله، ساءَتْ ظُنُونُهم بنُفوسهم، حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين، قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما: يا حذيفة، نشدتك بالله، هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم ؟

وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه.

وعن حنظلة الأسيدي وكان من كتاب رسول الله ﷺ قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة ؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله ما تقول ؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقتُ أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة - ثلاث مرات». [مسلم: ٢٧٥٠ / ٢١٠٦ / ٤].

تالله، لقد مُلئت قلوبُ القوم إيمانًا ويقينًا، وخوفهم من النفاق شديد وهمهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وهم يدعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل. (بتصرف: موارد الظمآن لدروس الزمان ٤ / ٢٨٩).

فاحذر - يا أخي - الوقوع في صفات المنافقين وجانب نعوتهم، واجتهد في إخلاص عملك لله والقيام بالعبادة له ظاهرًا وباطنًا، وأدِّ الصلوات المفروضة مع الجماعة وأنت عظيم الرغبة شديد الفرح بها، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فهو آية الإيمان، وعليك بالثبات على الحق، وأكثر من ذكر الله، واصدق في حديثك، وأدّ ما ائتمنت عليه على التمام، وف بعهدك على الدوام، وكن حليمًا في الخصام، وسل الله يهب لك إيمانًا راسخًا، وأن يعافيك من النفاق.

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم، والقسوة، والغفلة، والعيلة، والذلة، والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق، والسمعة والرياء، وأعوذ بك من الصَّمَمِ والبكم والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام». [صحيح الجامع: ١٢٨٥].

آمين آمين.

خاب وخسر

من أدرك رمضان ولم يغفر له

إعداد/ عبده الأقرع

الحمدُ لله يغفرُ الزلات، ويُقيلُ العثرات، ويقبل التوبةَ عن عباده ويعفو عن السيئات، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خير من تاب واستغفر وأناب، وبعد:

فلا يخفى على عاقل أنَّ الذنوب والمعاصي شؤم على الأفراد والمجتمعات، تهلك الحرث والنسل وتنزع البركة وتمنع الرزق من السماء، قال الله تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ» [الأنعام: ٦٠].

وقال تعالى: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [العنكبوت: ٤٠]، كم أهلكت المعاصي من أمة؟ وكم دمرت من مجتمعات؟ قال تعالى: «وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ» [الأنبياء: ١١].

يقول مجاهد - رحمه الله -: «إنَّ البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السَّنة وأمسك المطر، وتقول هذا بشؤم معصية بني آدم».

يقول النبي ﷺ: «وإنَّ العبد الفاجر إذا مات، يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب». [مختصر مسلم: ٤٦٦، وهو في صحيح الجامع: ٥٨٧٢].

وليس من شر ولا بلاء إلا وسببه الذنوب والمعاصي وما ظهرت المعاصي في ديار إلا أقحطتها، ولا تمكنت من قلوب إلا أعمتها، ولا فشت في أمة إلا أذلتها، يهون العبد على ربه فترفع مهابته من قلوب خلقه، «وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ» [الحج: ١٨]، والذنب بعد الذنب يقطع طرق الطاعة، ويصد عن سبيل الخيرات، وتتحول العافية ويستجلب سخط الله.

بالمعاصي تزول النعم وتحل النقم، بسببها تتوالى المحن وتتداعى الفتن: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» [الرعد: ١١]، ولما كان الأمر كما قال رسول الله ﷺ: «كلُّ بني آدمَ خطاءٌ، وخيرُ الخطائين التَّوَّابون». [صحيح الجامع: ٤٥١٥] جعل اللهُ - بمنه وكرمه - بابَ التَّوبة مفتوحًا لعباده، مهما عظمت سيئاتُهُمْ، وكَبُرتْ خطيئاتُهُمْ، وارتكبُوا العظائمَ والقواصمَ، من الفواحش والمآثم، واختار سبحانه من الأزمان مواسمَ للطاعات، واصطفى منها أيامًا وليالي وساعات، فضلاً منه وإحسانًا، تضاعف فيها الحسناتُ، وتكفَّرُ فيها السيئاتُ، وتُقالُ العثراتُ، وتُرفعُ فيها الدَّرجاتُ، وتُجابُ فيها الدَّعواتُ،

ويتوبُ الله على من تاب، وكان النبيُّ ﷺ يُوصي باغتنام هذه الفرص والتَّعرُّض فيها لنفحات اللَّه عزَّ وجلَّ، قال ﷺ: «افعلُوا الخيرَ دَهركم، وتَعَرَّضُوا لنَفَحاتِ رحمةِ الله، فإنَّ لله نفحاتٍ من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، وسَلُوا الله أن يستُرَ عوراتكم، وأن يُؤمِّن رَوعاتكم». [الصحيحة: ١٨٥٠٦]

وما من شهر تكثرُ فيه نفحاتُ رحمة الله كشهر رمضان، قال ﷺ: «إذا كان أولُ ليلةٍ منْ شهرِ رمضانَ صُفِّدت الشياطين ومَردةُ الجنِّ، وغلِّقتْ أبوابُ النَّارِ فلمْ يُفتحْ منها بابٌ، وفُتِّحتْ أبوابُ الجنَّة فلم يُغلقْ منها بابٌ، وينادي منادٍ كُلَّ ليلة: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشرِّ أقصرْ، ولِلَّه عتقاءُ من النَّارِ، وذلك كُلَّ ليلة».

وها هو ذا هلال رمضان يلوح في الأفق إيذانًا بشهر الخيرات، وإنَّ من نعم الله - أخي - أنْ مُدَّ في عمرك لتدرك هذا الشهر العظيم، فكم غيَّب الموت من صاحب ووارى الثرى من حبيب، قال أحد الصالحين عند موته وقد بكى: «إنما أبكي على أن يصوم الصائمون لله ولستُ فيهم، ويصلي المصلون ولستُ فيهم».

فاقصد - أخي الحبيب - باب التوبة، واطرق جادة العودة، قال ﷺ: «رَغِمَ أنفُ رجلٍ دخلَ عليه رمضانُ ثُمَّ انسلخَ قبلَ أنْ يُغْفَرَ لهُ». [صحيح الجامع: ٣٥١٠]. فكم من أناسٍ كانوا يتمنَّون إدراك رمضان فلم يدركوه، فقد آتاك الله ما لم يؤتِ كثيرًا من خلقه، فجدَّ - أخي - في التوبة وسارع إليها كما أمرك الله: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ» [آل عمران: ١٣٣]، «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» [الحديد: ٢١]، وأجب دعوة الله: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ» [البقرة: ٢١]، فإن أجبت دعوة الله بدل الله سيئاتك حسنات، قال الله بعد ذكر عقوبة عدد من الكبائر كالشرك، والقتل، والزِّنى: «إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» [الفرقان: ٧٠].

وإن أجبت دعوة الله: كتب الله لك الفلاح، قال الله تعالى: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [النور: ٣١]، وإن أجبت دعوة الله: كَفَّرَ الله عنك السيئات، قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [التحريم: ٨].

وإن أجبت دعوة الله: متعك متاعًا حسنًا، قال الله تعالى: «وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ» [هود: ٣]، وإن أجبت دعوة الله: أحبك الله. قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» [البقرة: ٢٢٢]، وإن أجبت دعوة الله: دعا لك حملة العرش. قال تعالى: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [غافر: ٧ - ٩].

وإن أجبت دعوة الله فرح الله بتوبتك.

قال ﷺ: «للَّهُ أشدُّ فرحًا بتوبةِ عبْدِه حين يتُوبُ إليه منْ أحدكُمْ كان عَلَى راحلَته بأرْض فلاة، فانْفلتت منهُ وعليها طعَامُهُ وشرابُهُ فأيِسَ منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلِّها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عندهُ، فأخذ بخطامها ثُمَّ قال منْ شدَّة الفرح: اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدَّة الفرح». [مسلم رقم: ٢٧٤٧].

قال ابْنُ القيم - رحمه الله -: «ولم يجئ هذا الفرحُ في شيء من الطَّاعات سوى التَّوبة، ومعلومٌ أنَّ لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا في حال التَّائب وقلبه، ومزيةً لا يُعبِّرُ عنها».

فما أوْسع حلْمَ الله على عباده، وما أعْظَم فَضْلَهُ وامتنانه، يؤكدُ ذلك قولُهُ تعالى: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى»

[طه: ٨٢]، وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦]. وقوله تعالى: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» [التوبة: ١٠٤].

فالذنوب مهما عظمت، فعفوُ الله أعظمُ، ومن ظنَّ أنَّ ذنبًا لا يتسعُ له عفو الله فقد ظنَّ بربِّه ظنَّ السوء.

فقد قال تعالى في الحديث القدسي: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة». [صحيح الترمذي: ٣٥٤٠، وصحيح الجامع: ٤٣٣٨].

فبادروا - رحمكمُ اللهُ تعالى - بالتَّوبة النصوح قبل فوات الأوان، فالفرصةُ ها هي سانحةٌ، ووسائل التوبة ما تزالُ حاضرةً، وبابُ التوبة ها هو مفتوح، ليس على بابه من يمنعُ، ولا يحتاجُ من يلجُهُ إلى استئذان، وهي أمنيةٌ لا ينالُها إلا الموفَّقون، فإذا انتهت هذه الحياةُ فلا كَرَّةَ ولا رجوعَ، فهيا وأنتم أولاء في دار العمل، وهي فرصةٌ واحدةٌ، فإذا انتهت لا تعودُ، هيا إلى التوبة قبل فوات الأوان، هيَّا من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خلال، هيَّا فالوقتُ غيرُ مضمونٍ، هيا إلى التوبة قبل أنْ تغلق الأبواب، قال تعالى: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» [النساء: ١٧- ١٨].

فيا أيها التاركون لما أوجب الله، المرتكبون ما حرم الله بادروا بالتوبة من الآن، واجعلوا من شهر رمضان نقطة تحول من الشرّ إلى الخير، من الشرك إلى التوحيد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن العقوق إلى البرّ، ومن القطيعة إلى الصلة، ومن الإساءة إلى الإحسان، ومن البدعة إلى السُّنة، ومن الكذب إلى الصدق ومن مساوئ الأخلاق إلى مكارم الأخلاق، ومن أكل الحرام إلى أكل الحلال، ومن الفرقة إلى الاعتصام، ومن التهاجر إلى البدء بالسلام، ومن مجالس الغيبة والبهتان إلى مجالس العلم والقرآن، وأنت أنت - يا أختاه - فري إلى الله من التبرج والسفور إلى الحشمة والوقار حتى لا تكوني من أهل النَّار، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «صِنفانِ مِنْ أهل النَّارِ لم أرهُما بعدُ: قومٌ معهُمْ سِياطٌ كأذنابِ البقرِ يضربُونَ بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عاريات، مُميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسُهنَّ كأسنمةِ البُخت المائلة، لا يدخُلن الجنَّة، ولا يجدنَ ريحَها، وإنَّ ريحها ليُوجدُ من مسيرة كذا وكذا» [مختصر مسلم: ١٣٨٨، وصحيح الجامع: ٣٧٩٩].

والفرارَ الفرارَ يا أمة الجبار، بذلك أمر الرحمن: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [الأحزاب: ٣٣]، قال ابن كثير - رحمه الله -: أي الزمنَ بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، وانظري - أُختاه - أين أنت من قول الله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» [الأحزاب: ٥٩]. فإدراكُ رمضانَ فرصةٌ عظيمةٌ للتزود من الطاعات، والإقلاع عن السيئات، فإنها لو أفلتت من اليد كانت حسرة يا لها من حسرة ؛ لأن أسباب الغفران لا منتهى لها ولا حد يحدها، فمن حُرم المغفرة في شهر الغفران، والعتق من النار فهو المحروم حقًا، فليذرف على ما فرط دموع الأسى والحسرة، وهيهات أن تجدي الحسرة أو ينفع البكاء، بعد فوات الفرصة، وانقضاء المدة وانتهاء السباق.

جعلني الله وإياكم ممن إذا زَلَّ تاب، وأن يرزقنا توبة نصوحًا قبل الممات، إنه هو الرحيم الرحمن.

تذكر في يوم العيد

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإننا نعيش فرحةً عظيمةً بعيد الفطر المبارك، إنَّه عيدٌ امتلأتَ القلوب به فرحًا وسرورًا، وانشرحت الصدور به لذة وحبورًا، قد خرج الناس في هذا اليوم العظيم لربهم حامدين ومعظمين ومكبرين، ولنعمته بإتمام الصيام والقيام مغتبطين وشاكرين، ولخيره وثوابه وأجره مؤملين راجين، يسألون ربهم الكريم أن يتقبل أعمالهم، وأنْ يتجاوز عن سيئاتهم، وأن يعيد عليهم عيدهم هذا أعوامًا عديدةً، وأزمنةً مديدة على حُسن طاعةٍ، وخير عمل.

وحريٌ بنا جميعًا ونحن نعيش فرحة هذا العيد السعيد بإكمال شهر الصيام والقيام، أن نتذكر أمورًا مهمة لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا في يوم عيدنا.

تذكروا أيها المسلمون وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد إخوانًا لكم وافتهم المنيةُ وأدركهم الموتُ فلم يُدْركوا يومكم هذا، فهم في قبورهم متحجزون، وبأعمالهم مرتهنون، وبما قدمت أيديهم في هذه الحياة مجزيون.

وتيقنوا أيها الإخوة أنكم إلى ما صاروا إليه صائرون، فهم السابقون ونحن اللاحقون، فلا تنسوهم من دعوة صالحة بأنْ يقيل اللهُ عثراتهم ويغفر زلاتهم، ويتجاوز عن خطيئاتهم.

فهذا من سمات المؤمنين العظيمة، وصفاتهم الكريمة الدالةِ على كمال إيمانهم، وتمام دينهم ونبل أخلاقهم، وسلامة صدورهم وألسنتهم تجاه إخوانهم المؤمنين، فليس في قلوبهم حسد أو غل أو بغض أو ضغينة، وليس في ألسنتهم غيبة أو نميمة أو كذب أو وقيعة، بل لا يحملون في قلوبهم إلا المحبة والخير والرَّحمة والإحسان والعطف والإكرام، ولا يتلفظون إلا بالكلمات النافعة والأقوال المفيدة والدعوات الصادقة، هؤلاء الذين قال الله فيهم: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» [الحشر: ١٠]. فنعتهم ربهم بخصلتين عظيمتين وخلتين كريمتين إحداهما تتعلق باللسان، فليس في ألسنتهم تجاه إخوانهم المؤمنين إلا النصح والدعاء.

والخصلة الثانية متعلقة بالقلب، فقلوبهم سليمة تجاه إخوانهم، ليس فيها غل أو حسد أو ضغينة.

وتذكروا أيها الإخوة وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد في عافية إخوانًا لكم أقعدهم المرض، وعاقهم عن مشاركتكم، فهم في المستشفيات على الأسرَّة، منهم من أمضى الأسابيع العديدة، ومنهم من أمضى الشهور الطويلة،، ومنهم من لا يغمضُ له جفنٌ، ولا يهدأ له بال من آلامٍ متعبةٍ وأوجاع مؤلمةٍ، فاحمدوا الله على ما أنتم فيه من صحةٍ وعافيةٍ وسلامةٍ، ولا تنسوا إخوانكم أولئك من دعوةٍ صالحةٍ أن يَشفيَ الله مريضهم، ويزيل بأسهم، ويفرِّجَ همَّهم، ويكشف كربهم.

وتذكروا وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد بأمن وأمان وراحة واطمئنان إخوانًا لكم أهلكتهم الحروبُ، وأرَّقتهم الخطوبُ وأقلقتهم الفتنُ، وتسلط عليهم العدوُّ، فأُريقتْ منهم الدماء، ورُمِّلت النساء، ويُتِّم الأطفال، ونُهِبَت الأموال، فاحمدوا الله على ما أنتم فيه من أمن وأمان وعافية، ولا تنسوا إخوانكم أولئك من دعوة صالحة بأن يُنفِّسَ اللهُ كربهم، ويُفَرِّج همهم، ويكْبت عدوهم.

وتذكروا وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد بالحلل البهية والملابس الجميلة إخوانًا لكم أرَّقهم الفقرُ، وأقعدتهم الحاجةُ، فمنهم من لا يجد لباسًا يواريه أو مسكنًا يؤويه، أو طعامًا يشبعه ويغذيه، أو شرابًا يرويه، بل منهم من أدركه حَتْفُهُ في مجاعاتٍ مهلكة، وقحطٍ مفجع، فاحمدوا الله على ما أنتم فيه من نعمةٍ وخيرٍ، ولا تنسوا إخوانكم هؤلاء من دعواتٍ صالحة بأن يُغني اللهُ فقيرهم، ويشبعَ جائعهم، ويكسوَ عاريهم، ويسدَّ حاجاتهم ويكشفَ فاقتهم، ولا تنسَوهم كذلك من مدِّ يد المساعدة لهم: «وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا» [المزمل: ٢٠].

وتذكروا وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد بإكمال الطاعة في رمضان وإتمام الصيام والقيام إخوانًا لكم قيدتهم الذنوب، وكبلتهُم الخطايا، فمضى المؤمنون المجدّون في طاعة الله، وتنافس الصالحون الناصحون في التقرُّب إليه، وهؤلاء في لهوهم وغيهم سادرون، وعن طاعة الله والتقرب إليه متقاعسون، وعلى المعاصي والخطايا والآثام مكبُّون، تمرُّ عليهم مواسمُ العبادة والمنافسة في فعل الخير فلا يتحركون، فاحمدوا الله على ما أمدَّكم به من توفيقه، وما هداكم إليه من العمل ابتغاء مرضاته، وسلوه الثبات على الأمر، والعزيمة على الرشد، ولا تنسوا إخوانكم أولئك من دعوةٍ صالحة، بأن يهديهم اللهُ إلى الخير، وأن يردهم إلى الحق ردًا جميلاً، وأن يصلح ضالهم، ويوفق حائرهم ويعافي مبتلاهم، قال ﷺ: «دعوة المرءِ المسلم لأخيه المسلم بظهرِ الغيب مستجابةٌ، عند رأسه ملكٌ موكلٌ كلما دعا لأخيه بخير قال الملكُ الموكلُ به: آمين، ولك بمثل». [مسلم (٢٧٣٣) باب فضل الدعاء].

وقال ﷺ: «من استغفر للمؤمنين وللمؤمنات، كَتَبَ اللهُ له بكلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ حسنة». [صحيح الجامع: ٦٠٢٦].

وتذكروا وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد:

صبيةً صغارًا وذريةً ضُعفاءُ فقدوا آباءهم وهم في أمس الحاجة إلى من يُعزيهم عن فقْد أبيهم ويجدونَ عندهم من العناية والقيام بمصالحهم ما يكونُ بإذن الله سببًا لإخراجهم رجالاً في الحياة تقر بهم العيون ويشرحون الصدورَ، فالذي يكفلُ اليتيم ويتعهده ويلاحظه ويؤدبُه ويُهذِّبُ نفسَه وكأنَّ والدهُ حَيٌّ لا يفقدُ من والدهِ إلا جسمه ؛ له عند الله تعالى الأجر الجزيل والثواب العظيم، وكان حريًا أن يكون لرسول الله ﷺ رفيقًا في الجنة، قال ﷺ:«أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا». وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما. [البخاري: ٦٠٠٥، باب من يعول يتيما].

وقال ﷺ: «كافلُ اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة». [مسلم: ٢٩٨٣، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم].

وتذكروا وأنتم تعيشون فرحة العيد إخوانًا لكم قد حرش بينهم الشيطان فأوقع بينهم العداوة والبغضاء، فانهضوا للإصلاح بينهم كما أمركم الله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» [الأنفال: ١]، وقال تعالى: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» [الحجرات: ٩].

فإنَّ إصلاح ذات البين يُذْهبُ وغرَ الصُّدور ويجمعُ الشملَ ويضمُّ الجماعةَ ويزيلُ الفرقة، والإصلاح بين الناس في دين الله مبعثُ الأمنِ والاستقرارِ، ومنبعُ الألفة والمحبة، ومصدرُ الهدوءِ والطمأنينة، والصلحُ خيرٌ تهبُّ به على القلوب المتجافية رياحُ الأنس ونسمات الندى، صلحٌ تسكنُ به النفوس ويُتلاشى به النزاع، والصلح نهج شرعي يصان به الناس وتحفظ به المجتمعات من الخصام والتفكك.

بالصلح تُستَجْلبُ المودات، وتُعمر البيوتات، ويُبعثُ الأمنُ في الجنبات، ومن ثَمَّ يتفرغُ الرجالُ للأعمال الصالحة، يتفرغون للبناء والإعمار بدلاً من إفناء الشهور والسنوات في المنازعات، والكيد في الخصومات، وإراقة الدماء، وتبديد الأموال، وإزعاج الأهلِ والسلطان.

والإصلاح بين الناس وظيفةُ الأنبياء، فقد كان رسولنا ﷺ يُصلح بنفسه بين المتخاصمين، عن سهلِ بن سعدٍ رضي الله عنه أنَّ أهلَ قباء اقتتلوا

حتى تراموا بالحجارة، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم». [البخاري: ٢٦٩٣ / ٣٠٠ / ٥].

وكان ﷺ يُرغب في إصلاح ذات البين ويحثُّ عليه، فقال ﷺ: «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة». [متفق عليه].

وبيَّن ﷺ أنَّ أفضل الصدقات الإصلاح بين الناس ؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة». [صحيح الترغيب: ٢٨١٤].

وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب: «ألا أدلك على تجارة؟» قال: بلى. قال: «صل بين الناس إذا تفاسدوا، وقرب بينهم إذا تباعدوا». [صحيح الترغيب: ٢٨١٨].

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا أيوب، ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله ؟ تصلح بين الناس إذا تباغضوا وتفاسدوا». [صحيح الترغيب: ٢٨٢٠].

والإمام الأوزاعي - رحمه اللهُ - يقول: «ما خَطوةٌ أحبّ إلى الله عز وجل من خطوةٍ في إصلاح ذات البين».

ولقد بلغت العناية بالصلح بين المسلمين إلى أنه رُخِّصَ فيه بالكذب مع قباحته وشناعته وشدة تحريمه. عن أم كلثوم رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فَيَنْمِي خيرًا أو يقول خيرًا». [متفق عليه]. وقد وعد الله تعالى من أصلح بين الناس إيمانًا واحتسابًا أن يؤتيه أجرًا عظيمًا، فقال تعالى: «لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا» [النساء: ١١٤].

وعلى المتخاصمين المتهاجرين أن يقبلوا الصلح ولا يرفضوه، فقد قال الله تعالى: «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ» [النساء: ١٢٨].

وقال النبيُّ ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار». [صحيح الجامع: ٧٦٣٥].

ويكفي من سيئات القطيعة بين المسلمين الحرمان من مغفرة الله عز وجل لهم، قال ﷺ: «تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس، فيغفر الله لكل امرئ لا يشرك بالله شيئًا، إلا امرءً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا». [مسلم: ٢٥٦٥ / ٣٦].

فاصطلحوا أيها المتشاحنون، وتواصلوا أيها المتقاطعون، وأفيضوا جميعًا إلى ظلال المحبة والسلام والتعاون والأخوة والوئام، ولا بد من العفو عن الزلات والغضِّ عن الهفوات، ولْيسارع كل متشاحنين إلى التسامح والصفاء، فخيرهما الذي يبدأ بالسلام، قال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ يلتقيان، فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام». [متفق عليه].

والعفو عند المقدرة من شيم الكرام، فهذا يوسف عليه الصلاة والسلام ؛ الكريم ابن الكريم ابن الكريم لما قال له إخوته: «تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» [يوسف: ٩١، ٩٢].

وتذكروا وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد دعوة الله لكم بالاعتصام والنهي عن الفرقة والاختلاف، فالاتفاق رحمة والاختلاف عذاب، قال الله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ» [هود: ١١٨ - ١١٩].

فالمرحومون متفقون لا يختلفون، وإذا اختلفوا - اختلافًا هم فيه معذورون - لا يتباغضون، ولا يتدابرون.

إخواني في الله - تقبل الله منا ومنكم الصيام والقيام، ورزقنا وإياكم حسن الختام، وجعلنا وإياكم من أهل الجنة دار السلام، وأعاد علينا وعليكم هذا العيد أعوامًا عديدة، وأزمنة مديدة، ونحن في أمن وأمان، وبر وإيمان، وطاعة وإحسان، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

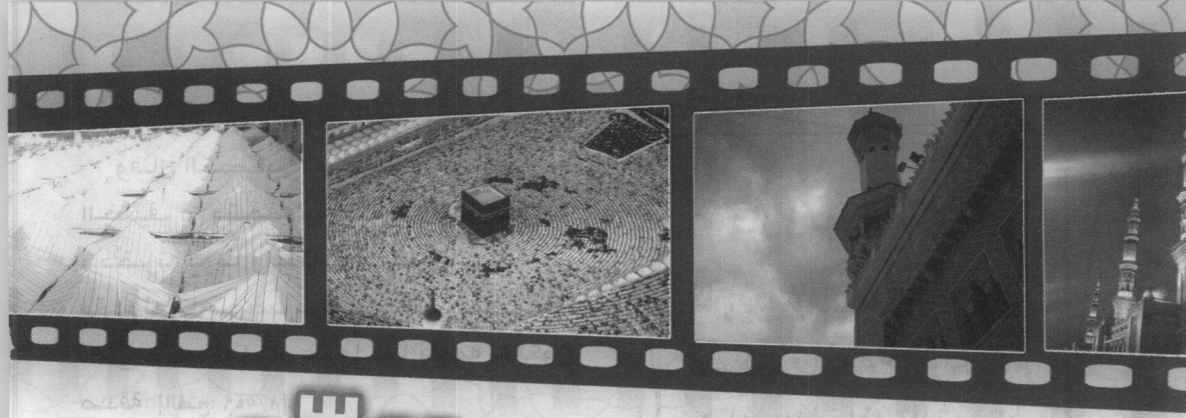

توحيد الله

الحمد لله المتفرد بالكمال والبقاء، والعزِّ والكبرياء، الموصوف بالصفات والأسماء، المنزه عن الأشباه والنظراء، وأصلي وأسلم على نبينا محمد الصادق المأمون، وعلى آله وأصحابه الذين هم بهديه مستمسكون وبه يعملون.. وبعد:

فليس الإيمان مجرد دعوى وألقاب، إنما الإيمان الحق اعتقادٌ سليم، وعملٌ صحيح، ولاءٌ وبراء، مظهر ومخبر، بذل الندى وكفّ الأذى.

وتحقيقُ التوحيد يحتاج إلى يقظةٍ قلبية دائبة تنفي عن النفس كلَّ خاطرة تقدح في العبودية لله، ومن وقع في مهاوي الشرك الأكبر؛ فطلب من الموتى زوالَ فقر أو مرض، أو طلب منهم جلب نفع، أو دفع ضر، فقد أساء إلى جناب الربوبية، وتنقَّص من الألوهية، وأساء الظن برب البرية.

فالتوحيد الخالص: هو لبابُ الرسالات الإلهية كلها، وأساس الملة، فمن أجل التوحيد خلق الله الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن أجل التوحيد بعث الله الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ومن أجل التوحيد ترك نبي الله يوسف عليه السلام ملة قومه: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٧ - ٣٨].

ومن أجل التوحيد بُني بيت الله العتيق: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦]، وها أنت -أخي الحاج الكريم- تخطو خطواتك إلى بلد الله الحرام، راجيًا من الله محو السيئات ورفع الدرجات، فجدٍّ في إخلاص العبادة لله، واعلم أن العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تكون صلاة إلا مع الطهارة، فكما أن المتطهر إذا أحدث بطلت طهارته، فكذلك العابد إذا أشرك بطلت عبادته، كما قال الله تعالى لأشرف الخلق: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فالشرك لا يصح معه عمل، ولا تقبل معه عبادة، ولهذا كثيرًا ما يأتي الأمر بالعبادة مقرونًا بالنهي عن الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وكل نبي يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

مظاهر التوحيد في الحج

إن الله شرع لنا حج بيته العتيق، فلنتدبر ما في هذا الحج من مظاهر التوحيد والابتعاد عن الشرك، حتى يكون ذلك درسًا عمليًا نترسمه في كل عباداتنا.

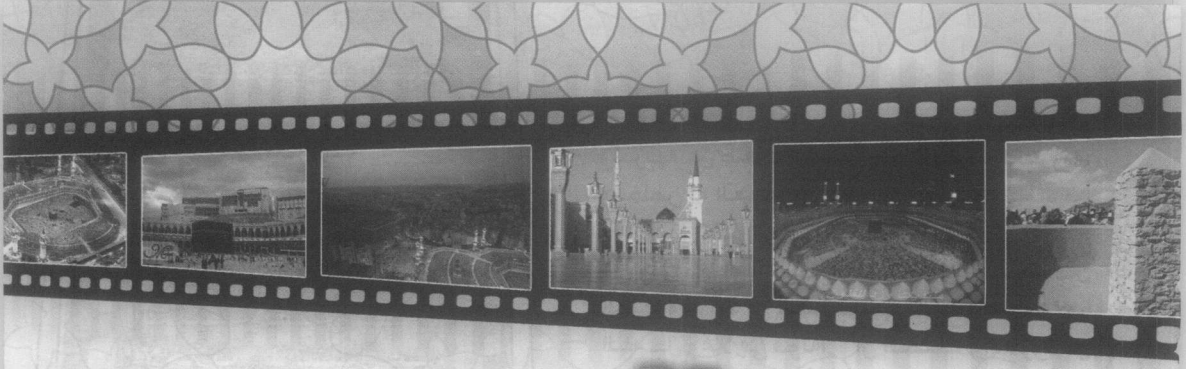

في الحج

إعداد/ عبده الأقرع

ونحن إذا تدبرنا تأسيس هذا البيت وجدناه قد أُسس على التوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

فأمرهما الله بتطهير البيت من سائر النجاسات، وأعظمها الشرك، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

إذن فهذا البيت أُسس على التوحيد، ويجب أن يبقى على التوحيد إلى أن تقوم الساعة، ولا يجوز أن يُسمح لمشرك بالوصول إليه، ولا بمزاولة شركه حوله، ولهذا لما فتح النبي ﷺ مكة المشرفة دخل المسجد الحرام وفوق الكعبة وحولها ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بالقضيب، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

فجعلت الأصنام تتهاوى على وجوهها، ثم أمر بها ﷺ فأخرجت من المسجد وأحرقت، ثم دخل ﷺ الكعبة، وأزال ما رُسم على جدرانها من الصور، كل ذلك عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]؛ لأن هذا البيت قبلة المسلمين، وإليه حجهم وعمرتهم، وهو ملتقى قلوبهم وأبدانهم، يأتون إليه من كل فج عميق، فيجب أن يكون مصدر التوحيد ومنبع العقيدة الصحيحة على مر الزمان وتعاقب الأجيال، ويجب أن يُبعَد عنه كل من أراد أن يبذر في أرضه بذور الشرك، أو يمارس حوله البدع والخرافات، حتى يظل مصدرًا صافيًا للإخلاص لله بالتوحيد، وإفراده بالعبادة، وإحياء سنة الرسول ﷺ، والدعوة إلى ذلك.

وقد أمر الله بأداء الحج والعمرة خالصين له، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]؛ مما يدل على أن كل حج وعمرة لا يتوفر فيهما توحيد العبادة، فليسا بمقبولين عند الله سبحانه وتعالى.

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: رفع الأصوات بعد الإحرام بالتلبية لله ونفي الشريك عنه، وإعلان انفراده جل وعلا بالحمد والنعمة والملك، فيرفع الحاجّ صوته ملبيًا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك». يرددها الحجاج بين كل فترة وأخرى حتى يشرعوا في التحلل من الإحرام.

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: أن أعظم الذكر الذي يُقال في يوم عرفة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»، فقد قال النبي ﷺ: «خيرُ الدعاء دعاء عرفة، وخيرُ ما قُلتُ أنا والنَّبيُّون من قبلي: لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كل شيء قديرٌ». [الترمذي ٣٥٨٥ وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٢٧٤].

فهذا إعلان في هذا الجمع العظيم وفي هذا اليوم المبارك بتوحيد العبادة عن طريق النطق بهذه الكلمة وتكرارها؛ لأجل أن يستشعر الحاج مدلولها، ويعمل بمقتضاها، فيؤدي أعمال حجه خالصة لله عز وجل من جميع شوائب الشرك.

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: أن الله أمر بالطواف ببيته، فقال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٧].

مما يدل على أن الطواف خاص بهذا البيت، فلا يجوز الطواف ببيت غيره على وجه الأرض، لا بالأضرحة، ولا بالأشجار والأحجار، ومن هنا يعلم

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج : أن الحاج حينما يفرغ من الطواف ويصلي الركعتين فانه يقرأ في الأولى بعد الفاتحة سورة قل يا أيها الكافرون. وفي الثانية يقرأ سورة الإخلاص؛ لما تشتمل عليه هاتان السورتان من توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

الحاجّ أن كل طواف بغير البيت العتيق باطل وليس عبادةً لله عز وجل، وإنما هو عبادة لمن شرَعه وأمَر به من شياطين الإنس والجن.

ومن مظاهر توحيد العبادة في الطواف بالبيت العتيق: أن الطائف حين يستلم الركن اليماني والحجر الأسود يكبِّر الله معتقدًا أنه يستلمهما لأنهما من شعائر الله، فهو يستلمهما طاعةً لله واقتداءً برسوله ﷺ، ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما استلم الحجر وقبَّله: والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك. [البخاري ١٥٩٧، ومسلم ١٢٧٠].

ومن هنا يعلم المسلم أنه لا يجوز التمسح بشيء من الأبنية والأحجار، إلا بالركن اليماني والحجر الأسود؛ لأنهما من شعائر الله، فلا يتمسح بالأضرحة ولا بغيرها؛ لأنه مخالف لشرع الله، ولأنها ليست من شعائر الله.

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: أن الحاجّ حينما يفرغ من الطواف ويصلي الركعتين فإنه يقرأ في الأولى بعد الفاتحة سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وفي الثانية يقرأ سورة الإخلاص؛ لما تشتمل عليه هاتان السورتان من توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

ففي السورة الأولى البراءة من دين المشركين، وإفراد الله بالعبادة.

وفي السورة الثانية إفراد الله بصفات الكمال، وتنزيهه عن صفات النقص، وبذلك يعرف العبد ربه، ويخلص له العبادة، ويتبرأ من عبادة ما سواه من خلال هذا الدين العملي العظيم.

ومن مظاهر توحيد العبادة في السعي بين الصفا والمروة: أن العبد يسعى بينهما امتثالاً لأمر الله جل وعلا في قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ومن ذلك يتعلم المسلم أنه لا يجوز السعي كعبادة في أي مكان من الأرض إلا بين الصفا والمروة؛ لأنهما من شعائر الله، وأن السعي بينهما إنما هو بأمر الله، فكل سعْي في غيرهما فليس عبادة لله؛ لأنه سعي بغير أمر الله.

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: ما شرعه الله في يوم العيد وأيام التشريق من ذكره وحده، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وذكر الله في هذه الأيام يتجلى في الأعمال العظيمة التي تؤدَّى في أيام منى، من رمي الجمار، وذبح الهدي، وأداء الصلوات الخمس في هذا المشعر المبارك والأيام المباركة، كل هذه الأعمال ذِكْر لله عز وجل، فرمي الجمار ذكر لله، ولهذا يقول المسلم عند رمي كل حصاة: «الله أكبر»، وذبح الهدي ذكر لله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٦- ٣٧].

ومن هنا يتعلم المسلم أن الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، فلا يجوز أن يذبح لقبر ولا لولي

ولا لجني أو أي مخلوق؛ لأن الذبح عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك.

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: أن الله أمر بذكره أثناء أداء مناسكه وبعد الفراغ منه، ونهى عن ذكر غيره من الرؤساء والعظماء الأحياء والأموات، وزجر عن المفاخرة بالأحساب والأنساب، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ . ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٩٨ - ٢٠٣].

إن الحج ليس مجرد رحلة استطلاعية، أو متعة ترفيهية، أو مجرد مظاهر وشعارات، ولكنه دروس وعبر، وتعليم عملي للعقيدة الصحيحة، ونبذ للعقائد الجاهلية.

فاتقوا الله -عباد الله- في أداء حجكم وسائر عباداتكم بأن تكون خالصة لوجه الله، وصوابًا على سنة رسول الله ﷺ، حتى يكون حجكم مبرورًا، فإن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة. [البخاري ١٧٧٣، ومسلم ١٣٥١].

فيا مَن مَنَّ الله عليهم بحج بيته العتيق، وتعلمتم من مناسكه العقيدة الصحيحة، وأدركتم ما كنتم عليه أو ما كان عليه غيركم من أهل بلادكم من أخطاء تخالف هذه العقيدة، عليكم أن تسعوا في تصحيح هذه الأخطاء، فإنكم مسئولون عن ذلك أمام الله تعالى، فإن الله حمّل العالم مسئولية تعليم الجاهل، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فالمسلم لا يجامل فيما يُغضب الله، ولا يداهن في دين الله.

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالمؤمن يسعى في إصلاح نفسه، ثم في إصلاح غيره؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمنُ أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه». [البخاري ١٣، ومسلم: ١٧٩].

إن الدين ينبني على أصلين:

الأصل الأول: الإخلاص لله في العبادة. والأصل الثاني: المتابعة للرسول ﷺ، وهذان الأصلان إنما يُعرفان من تدبر الكتاب والسنة واتباعهما، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وفي اتباعهما الخير والرشاد والدلالة إلى صراط الله المستقيم.

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أنْ يتقبل من حُجَّاج بيته الحرام مناسكهم، وأنْ يجعل حجَّهُم مبرورًا، وسعيهم مشكورًا، وذنبهم مغفورًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إن الحج ليس مجرد رحلة استطلاعية. أو متعة ترفيهية. أو مجرد مظاهر وشعارات. ولكنه دروس وعبر. وتعليم عملي للعقيدة الصحيحة. ونبذ للعقائد الجاهلية.

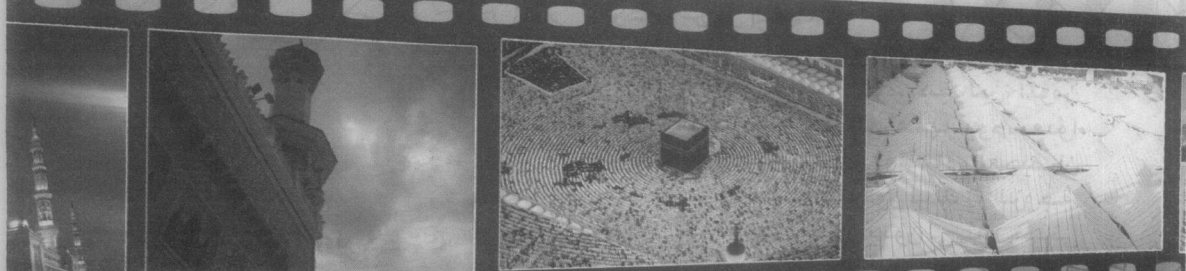

من محبطات الأعمال

ترك صلاة العصر

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على سيد الأنبياء نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

نتكلم بعون الله تعالى عن حكم ترك صلاة العصر:

عن بريدة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من ترك صلاة العصر، فقد حبط عمله». [البخاري: ٥٥٣].

والصلاة عماد الدين، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين. من حافظ عليها فهو السعيد، ومن أضاعها وأهملها فهو الشقي البعيد، وعلى قدر المحافظة على أدائها كاملة، والمسارعة إليها حبًا لله تعالى يكون حظ المرء في الإسلام، وعهده من الله.

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن، لم يضيِّع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة». [صحيح الجامع: ٣٢٤٣، والمشكاة: ٥٧٠، وصحيح أبي داود: ١٢٧٦].

وقد أمر الله تعالى بالمحافظة عليها عامة، وخص بالذكر صلاة العصر، فقال تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

والصلاة الوسطى هي صلاة العصر؛ كما فسّرها رسول الله ﷺ، فعن علي رضي الله عنه قال: لما كان يومُ الأحزاب قال رسول الله ﷺ: «ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارًا كما حبسونا وشغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس». [البخاري: ٦٣٩٦، ومسلم ٦٢٧].

وعنه أيضًا رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر؛ ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا». [مسلم: ٦٢٨]، ثم صلاها بين العشاءين بين المغرب والعشاء.

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: حبس المشركون رسول الله ﷺ عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت، فقال رسول الله ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا». أو قال: «حشا الله أجوافهم وقبورهم نارًا». [مسلم: ٦٢٨].

فالصلاة الوسطى هي صلاة العصر

فالحذر كُل الحذر من التفريط في صلاة العصر، فمن تركها فقد حبط عمله، ومن فاتته فكأنما وتر

أهله وماله وذكر ابن حجر - رحمه الله - في فتح الباري ٢ / ٤٢ تأويلات كثيرة لمعنى حبوط العمل وقال: أقرب هذه التأويلات قول من قال: إن ذلك خرج مخرج الزجر الشديد وظاهره غير مراد والله أعلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الذي تفوته صلاة العصر، فكأنما وتر أهله وماله». [البخاري ٥٥٢، ومسلم ٦٢٦]. أي: كأنما أُصيب بفقد أهله وماله.

فسبحان الله! ما أعظم الأمر؟! وما أفدح الخسارة؟! فالذي تفوته صلاة العصر فكأنما فقد أهله وماله.

هكذا قال النبي ﷺ، وما ينطق عن الهوى، تصور لو أن شخصًا كانت له أموال وأهل، وكان مسرورًا في ماله وبين أهله، ثم أُصيب بجائحة أتلفت أمواله وأهلكت أهله. فماذا يكون موقف الناس منه؟ إنهم لا بد أن يرحموه، ولا بد أن يُواسُوه في هذه المصيبة، ويقدموا له أنواع العزاء، ومع ذلك وللأسف الشديد نرى كثيرًا من الناس تفوتهم صلاة العصر، وصلوات أخرى كثيرة، ولا يحزنون لذلك، ولا يبالون بما حدث، وإخوانهم المسلمون يشاهدونهم على ذلك فلا يرحمونهم ولا يخوفونهم من عذاب الله وعقابه.

لذا كان رسول الله ﷺ يحثّ على المحافظة عليها، ويرغِّب في ذلك.

فعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى البردين دخل الجنة». [البخاري ٥٧٤، ومسلم ٦٣٥].

و«البردان»: صلاة الصبح وصلاة العصر

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم الله - وهو أعلم بهم-: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يُصلون». [البخاري ٥٥٥، ومسلم ٦٣٢].

وعن زهير بن عمارة بن رُويبة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يَلِجَ النارَ أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها». يعني: الفجر والعصر. [مسلم: ٦٣٤].

«لن يلج»: يعني: لن يدخل.

وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلَبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلوا». [البخاري ٥٥٤، ومسلم ٦٣٣].

لا تضامون في رؤيته: لا يلحقكم ضيم في الرؤية.

والمعنى: أنكم سترون ربكم رؤية محققة، لا شك فيها ولا مشقة، كما ترون هذا القمر رؤية محققة بلا مشقة.

وعن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتُنَجِّنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم». ثم تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [مسلم: ١٨١].

وصلاة العصر نعمة آتاها الله من قبلنا من الأمم فضيّعوها وحُرموا خيرها، فمن حافظ عليها منا ضاعف الله له الأجر.

فعن أبي بصرة الغفاري رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر بـ«المَخْمَص» وقال: «إن هذه الصلاة - يعني صلاة العصر- عُرِضت على من كان قبلكم فضيعوها، فمن حافظ منكم اليوم عليها كان له أجره مرتين». [مسلم ٨٣٠].

المخمص: اسم طريق في جبل (عَير) إلى مكة.

ونستكمل حديثنا في العدد القادم إن شاء الله تعالى.

حبوط العمل قسمان: قسم يكفر صاحبه كما في قوله تعالى «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله». وقسم يقصد به الزجر عن ترك العمل وظاهره غير مراد

من محبطات الأعمال

رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبيَّ بعده، نبينا محمد وآله وصحبه، وبعد:

نواصل حديثنا حول محبطات الأعمال، وحديثنا اليوم بإذن الله تعالى عن:

رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

عن ابن أبي مليكة قال: كادَ الخيران أن يهلكا: أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع ابن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمِع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه. [البخاري: ٤٨٤٥].

وأما أبو بكر فقال: «والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله، لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله». [الحاكم: ٣٧٢٠ وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي].

وأعظم من ذلك ما كان بشأن ثابت بن قيس رضي الله عنه: فعن موسى بن أنس، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس؛ فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسًا في بيته، منكسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله، وهو من أهل النار، فأتى الرجل النبيَّ ﷺ فأخبره أنه قال: كذا وكذا، فقال موسى بن أنس: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال ﷺ: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة». [البخاري ٣٦١٣].

هكذا علَّم الله المؤمنين أن يعظموا النبي ﷺ ويحترموه ويوقروه، فنهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته، وعن أن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، أي: ينادونه باسمه: يا محمد، يا أحمد، كما ينادي بعضهم بعضًا، قال الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وإنما أمروا أن يخاطبوه خطابًا يليق بمقامه ليس كخطاب بعضهم بعضًا، كأن يقولوا: يا نبي الله، أو يا رسول الله، ونحو ذلك، وقد بيَّن الله تعالى أن توقيره واحترامه ﷺ بغضُّ الصوت عنده لا يكون إلا من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي: أخلصها لها، وأن لهم بذلك عند الله المغفرة والأجر العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

ومعلوم أن حرمةَ النبي ﷺ بعد وفاته كحرمته في أيام حياته.

وبه تعلم أن ما جرت به العادة اليوم من اجتماع النَّاس قرب قبره ﷺ وهم في صخب ولغط، وأصواتهم مرتفعة ارتفاعًا مزعجًا، كله لا يجوز، ولا يليق، وإقرارهم عليه من المنكر، وقد شدَّد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه النكير على رجلين رفعا أصواتهما في مسجده ﷺ، وقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا. [سنن البيهقي ١٠ / ١٠٣].

عن السائب بن يزيد الصحابي رضي الله عنه قال: كنت في المسجد فحصبني - رماني - رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: اذهب فائتني بهذين، فجئته بهما، فقال: من أين أنتما؟ فقالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان

أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ. [البخاري: ٤٧٠].

والله تعالى قد أمر الناس إذا هم أرادوا أن يناجوا النبي ﷺ بشيءٍ مما لهم فيه حظٌ ألا يناجوه حتى يقدِّموا بين يدي نجواهم صدقة، فكان الرَّجل إذا أراد أن يناجيه بشيء تصدق بصدقة، كل ذلك تعظيمًا للرسول ﷺ، وشرفًا له ﷺ، فلما فعلوا ذلك ضاقت على بعضهم الصدقة، فاحتاج إلى مناجاته فتوقفَ عن مناجاته، فخفف الله عز وجل ذلك على المؤمنين رأفةً منه بهم، فقال الله تعالى في ابتداء الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [المجادلة: ١٢].

هذا لمن قدر على الصدقة، ثُمَّ قال الله تعالى تفضلاً على من لم يجدْ صدقة: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢]، ثم قال الله تعالى - تفضلاً على الجميع: مَن قدر على الصدقة ومَن لم يقدر -: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣]، فخفف عنهم الصدقة، وأمرهم بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة له عز وجل ولرسوله ﷺ.

وقد دلت آيات القرآن الكريم على أنَّ الله تعالى لا يخاطبه ﷺ في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير، فناداهُ بأحبِّ أسمائه وأسمى أوصافه كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ [الأنفال: ٧٠].

و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١].

و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وهذه الخصوصية لم تثبت لغيره من الأنبياء، بل ثبت أن كلاً منهم - صلوات الله وسلامه عليهم - نودي باسمه؛ كقوله سبحانه:

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾ [هود: ٤٨].

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦].

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨١].

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ [مريم: ٧].

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

ومع هذا فإننا نريد أن نذكر: أنه يجب على كل إنسان أن يميز بين حقوق الله تعالى التي هي من خصائص ربوبيته، التي لا يجوز صرفها لغيره، وبين حقوق خلقه كالنبي ﷺ ليضع كلَّ شيء في موضعه؛ لأن صرف الحقوق الخاصة بالخالق التي هي من خصائص ربوبيته إلى النبي ﷺ أو غيره ممن يُعتقد فيهم الصلاح مستوجب سخط الله وسخط النبي ﷺ، وسخط كل متبع له بالحق.

ومعلوم أنه - صلوات الله وسلامه عليه - لم يأمر بذلك هو ولا أحد من أصحابه، وهو ممنوع في شريعة كل نبي من الأنبياء، والله - جلَّ وعلا - يقول: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠].

بل الذي كان يأمر به ﷺ هو ما يأمره الله بالأمر به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فعلينا معاشر المسلمين أن نعظم ربنا بامتثال أمره واجتناب نهيه، وإخلاص العبادة له، وتعظيم نبينا ﷺ باتباعه والاقتداء به في تعظيم الله والإخلاص له، والاقتداء به في كل ما جاء به.

وألاَّ نخالفه ﷺ ولا نعصيه، ونعظّمه التعظيم الموافق لما جاء به ﷺ، وترك ما يسميه البعض محبة وتعظيمًا، وهو في الحقيقة احتقار وازدراء وانتهاك لحرمات الله ورسوله ﷺ، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

وعن عمر -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله». [البخاري ٣٤٤٥].

هذان الوصفان هما أصدق وصف وأشرفه في رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]، فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم.

والحمد لله رب العالمين.

من
محبطات الأعمال

الردة

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله، مَن تمسَّك بهديه قرَّبه وأدناه، ومن خالف أمره أبعدَه وأقصاه، أحمدُه سبحانه لا يذلُ من والاه، وأصلي وأسلم على من اجتباه ربه واصطفاه، ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه، وبعد:

فما نزال مع سلسلة محبطات الأعمال، واليوم مع محبط آخر من محبطات الأعمال ألا وهو:

الردة

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

الرِّدَّةُ لغة: هي الرجوع في الطريق الذي جاء منه، ومنه قوله تعالى في حق موسى وفتاه: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤].

قال الخطابي: الرِّدَّةُ: اسم لغوي لكل من انصرف عن أمر كان مقبلاً عليه.

وسُمِّي المرتدُّ بذلك؛ لأنه ردَّ نفسَه إلى كفره.

والردة في الاصطلاح: هي رجوع المسلم عن الإسلام إلى الكفر. [نضرة النعيم: ١٠ / ٤٥٣٢].

وفي هذه الآية يحذِّر الله تعالى المسلمين المؤمنين من كيد الكافرين الذين يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله، ويسعون جادين لإزالة هذه النعمة عن المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال الله تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقد بيَّن سبحانه وتعالى أنهم يبذلون جُهدهم وينفقون أموالَهم لهذه الغاية وما هم ببالغيها:

فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

وهذا الشرطُ عنوان العجز، يعني: أنهم لن يستطيعوا أن يردُّوكم عن دينكم وإن قاتلوكم؛ لأن الإيمان إذا خالطت بشاشتُه القلوبَ لا يرجع عنه صاحبُه سَخْطة له، كما قال هرقل لأبي سفيان وقد سأله عن أتباع النبي ﷺ: أيزيدون أم ينقصون؟ إلى أن قال له: فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك: أيرتدُّ أحدٌ

سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمانُ حيث تخالط بشاشته القلوب. [متفق عليه].

ولذلك قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

فلا يرجعُ عن دينه إلا من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمانُ قلبه، وأولئك لا يستحقون الحزن عليهم، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وهذا التعبيرُ من اللطيف الخبير ﴿وَلاَ يَزَالُونَ﴾ يكشفُ عن الإصرارِ الخبيث على الشرِّ وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدفَ الثابتَ المستقر لأعدائهم، وهو الهدفُ الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل حين.

وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته.

ولكن يظل الهدف ثابتًا أن يردُّوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا، وكلما انكسر في أيديهم سلاحٌ انتضوا سلاحًا غيره، وكلما كلَّت في أيديهم أداةٌ شحذوا أداةً غيرها، ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين وحذّرهم من الركون إليهم، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

وقد أخبر الله تعالى أن من يرتد عن دينه؛ فلن يضرَّ الله شيئًا وإنما يضر نفسه.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

متى يكون المسلم مرتدًا؟!

إنَّ أحسن ما يُجاب به عن هذا السؤال هو قولُ الإمام الطحاوي رحمه الله: «ونُسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين؛ ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قال وأخبر مصدقين، ولا نُكفِّر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه». [العقيدة الطحاوية: ٣٨- ٤٢].

فكل من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسولُ الله خالصًا بها قلبه، ورضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً، فهو مسلم مؤمن لا يخرج عن دينه ولا يصير مرتدًا إلا بجحود التوحيد أو النبوة، أو بصدور قولٍ أو فعلٍ منه يناقض ما يعلنه من الإسلام، كإنكار ما عُلِمَ من الدين بالضرورة من أركان الإسلام والإيمان، أو استحلال الحرام، أو تحريم الحلال، أو سبِّ الدين والربِّ والنَّبي، والاستهزاء بالكتاب والسُّنة أو شيء من الدِّين، أو ادِّعاء النبوة ونحو ذلك. [فقه السنة: ٢ / ٣٨٤ - ٣٨٥].

فمن فعل من ذلك شيئًا وهو بالغ عاقل مختار

مؤثرًا الكفر على الإيمان صار مرتدًا، يستتيبه العلماء المعتبرون من قبل السلطان فإن تاب؛ تاب الله عليه، فإن كان حَسَنَ النية وتاب ظاهرًا وباطنًا عاد إلى إسلامه وعفا الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦- ٨٩].

استثنى الله من هذا الوعيد: التائبين من كفرهم وذنوبهم المصلحين لعيوبهم، فإن الله يغفر لهم ما قدموا، ويعفو عنهم ما أسلفوا.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رجلٌ من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم تندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إن فلانًا قد نَدِمَ وإنه أمرنا أن نسألك: هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فأرسل إليه فأسلم. [النسائي ٧ / ١٠٧ وصححه الألباني في صحيح النسائي: ٤٠٧٩].

ولكن من كفر وأصر على كفره، ولم يزدد إلا كفرًا حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى، السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصرٌ من عذاب الله، ولو بذلوا ملءَ الأرض ذهبًا ليفتدوا به، لم ينفعهم شيء؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩٠، ٩١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥- ٢٨].

والظاهر أنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى: قوم كفروا بعد إيمانهم، وأن هؤلاء المرتدين على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى وقع لهم ذلك بسبب أن الشيطان سوَّل لهم ذلك، أي: سهَّله لهم وزيَّنه لهم وحسَّنه لهم، ومنَّاهم بطول الأعمار؛ لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب المعاصي، والمعاصي بريد الكفر.

فالارتداد جريمة من الجرائم التي تحبط ما كان من عمل صالح قبل الردة، وتستوجب العذاب الشديد في الآخرة، وقد قرَّر الإسلام عقوبة معجلة في الدنيا للمرتد، فضلاً عما توعده به من عذاب ينتظره في الآخرة، وهذه العقوبة هي القتل، قال رسول الله ﷺ: «من بدَّل دينه فاقتلوه». [البخاري ٣٠١٧].

وقال ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة». [متفق عليه].

تنبيه:

من قال كلمة الكفر مكرهًا تحت ضرب أو تهديد وقلبه مطمئن بالإيمان فلا شيء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦].

يا مُقلب القلوب ثبتْ قلبي على دينك.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الكفر أنواعه وعاقبة أهله

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله الذي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضل الضالون، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، أحمده سبحانه حمد عبدٍ نزَّه ربه عما يقول الظالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له وسبحان الله رب العرش عما يصفون، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله الصادق المأمون، وبعد:

فمع محبط آخر من محبطات الأعمال، وهو:

(الكفر)

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

والمعنى: أي إن أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا، وظنوها أعمالاً صالحة نافعة لهم في الآخرة كالسراب الذي يُرَى في القيعان، وهو ما يُرَى في الفلوات من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجري على وجه الأرض: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ أي: يظنه العطشان من بعيد ماءً جاريًا: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ أي: حتى إذا وصل إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم ير ماءً ولا شرابًا، وإنما رأى سرابًا فعظمت حسرته، ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من بطلان أعمال الكفار، جاء موضحًا في آيات أُخَر، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

قال ابن منظور: الكفر لغةً: تغطيةُ الشيء تغطيةً تستهلكه.

قال الليث: يقال: إنما سُمِّي الكافرُ كافرًا؛ لأن الكُفْر غطَّى قلبه كله.

والكفر أربعة أنواع: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفرُ نفاق.

فأما كفر الإنكار: فهو أن يكفرَ بقلبه ولسانه، ولا يعرف ما يُذكر له من التوحيد، كالذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] أي: الذين كفروا بتوحيد الله.

وكفرُ الجحود: هو أن يعترف بقلبه، ولا يقرَّ بلسانه، ككفر إبليس وفرعون وكفر اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٦].

وقال الله تعالى في فرعون وملئه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقال تبارك وتعالى في مشركي العرب: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وأما كفر المعاندة: فهو أن يعرف الله بقلبه ويقرَّ بلسانه، ويأبى أن يقبل كأبي طالب الذي قال:

ولقد علمتُ بأن دينَ محمدٍ
من خيرِ أديانِ البريةِ دينا
لولا الملامة أو حذار مسبةٍ
لوجدتني سمحًا بذاك مُبينا

الإسلام يحتوي على خيري الدنيا والآخرة، ونعيم العاجلة والآجلة، فما من فضيلة إلا حثَّ عليها، وما من رذيلة إلا نفَّر منها، فمن اعتصم بحبله المتين، وحرص على العمل بأحكامه، والتحلي بآدابه؛ عاش سعيداً، ومات سعيداً حميداً

ومع ذلك أبى أن يسلم ويعلن إيمانه.

وأما كفر النفاق: فهو أن يقر بلسانه ويكفر بقلبه. [تفسير البغوي ١ / ١٤٠، لسان العرب ٥ / ١٤٤، نضرة النعيم ١١ / ٥٤٤٤- ٥٤٤٥].

وقد بيَّن الله تعالى عاقبة الكافرين في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١ - ١٦٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٧- ١٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ١٠].

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦ - ٣٧].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٠- ٥٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣١ - ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

وقال جل وعلا: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٤، ٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ

﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

وأخبر ربنا سبحانه وتعالى بأن الكفر يطغى على أهله، ويقف حاجزًا بينهم وبين سماع الخير والإنصات إليه: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

وقد أخبر الله تعالى أنه لا يحب الكافرين:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وهؤلاء الكافرون أعداء الله، والله عدوُّهم:

قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

وهم أولياءُ الشيطان:

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومع ذلك فإن الله تعالى يدعوهم إلى التوبة والإنابة، والانتهاء عن الكفر، والدخول في الإيمان، فيقول سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣- ٧٤].

فمن استجاب لهذه الدعوة؛ فقد فاز ونجا، ومن رفض الاستجابة حال الله بينه وبين قلبه، وعطَّل حواسَّه عن الانتفاع بالمواعظ بعد ذلك: كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

والختم على القلوب: هو الاستيثاق منها، حتى لا يدخلها خيرٌ، ولا يخرج منها شرٌ. ولذلك كان الكفارُ كما وصفهم الله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

فهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يفقهون، ولذلك شبَّههم الله بالأنعام، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

والنَّعق: صَوْتُ الراعي بالغنم.

ومعناه: مثلك يا رسولنا ومثل الكفار في وعظهم ودعائهم إلى الله عز وجل كمثل الرَّاعي الذي ينعق بالغنم، وهي لا تسمع. [تفسير البغوي ١ / ٩٦].

هذا الكفرُ الذي وصفناه: هو ما سمَّاه العلماءُ الكفر الأكبر، وهو الموجب للخلود في النار خلودًا ليس له نهاية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦ - ٣٧].

ندم الكفار يوم القيامة على عدم اعتناق الإسلام

قال الله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الأحزاب: ٢].

والمعنى: أن يومًا سيأتي هو يوم القيامة عندما يرى الكافر المسلمين يدخلون الجنة، ويدخل هو النار يودّ يومئذ أن لو كان من المسلمين.

ولن يقبل منهم فدية: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١].

وحسب الإنسان أن يعلم أنَّ الدين الإسلامي يحتوي على خيري الدنيا والآخرة، ونعيم العاجلة والآجلة، فما من فضيلة إلا حثَّ عليها، وما من رذيلة إلا نفَّر منها، فمن اعتصم بحبله المتين، وحرص على العمل بأحكامه، والتحلي بآدابه؛ عاش سعيدًا، ومات سعيدًا حميدًا. رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا.

رب ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. نسأل الله أن يحسن ختامنا، وأن يتوفنا مسلمين، والحمد لله رب العالمين.

خطر يهدد البيوت والأسر

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله يهدي إلى الطيب من القول ويهدي إلى صراط الحميد.

أحمده سبحانه وأشكره، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله أدبَّه ربُّه فأحسن تأديبه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلقد كثر الطلاق في هذه الأزمنة، وفشا فشوًّا رهيبًا، مما ينذرُ بأشدِّ الخطر على البيوت والأُسر، وشاع انتهاجه شيوعًا عظيمًا، وتساهل فئام من الناس بالتلفظ به؛ حتى لأتفه الأسباب، ولاكته كثيرٌ من الألسنة بسبب وبلا سبب، وإن تعجبوا فعجبٌ صنيعُ أقوامٍ بهذه القضية، حتى حوَّلوها إلى مهازحاتٍ وألاعيب، وتحدِّياتٍ، وأعاجيب حتى عمَّ الخطبُ، ودوَّت نداءات الخطر، وصيحات الإنذار، وارتفعت إحصاءات الطلاق في المجتمع، وعلت نسَبُه وأرقامه، بشكل ينذر بعواقب وخيمة على المجتمع بأسره، ولم تزل هذه القضيةُ مصدر قلقٍ لكثير من الناس، فإذا اكتوى أحدهم بنارها، واصطلى بلظاها، هرع إلى المفتين والقضاة، يسألهم مخرجًا، حتى إن بعضهم ليلجأ إلى حِيَل وأكاذيب في سبيل الوصول إلى بُغيته، حتى شُغِل العلماءُ عن قضاياهم الأهمِّ، وأثقلت كواهلُ القضاة في المحاكم بجموع غفيرة، ومعاملات كثيرة في هذه القضايا.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بطلاقٍ أو عتاقٍ فهو كما قال». [رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٦٥٣٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ جِدُّهن جدٌّ وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة». [أبو داود ٢١٩٤ وحسنه الألباني].

فأساس العلاقة الزوجية: الصحبةُ والاقترانُ القائمان على الودِّ والأُنس والتآلف، وقد أوصى الإسلام أن تسود بيتَ الزوجية علاقاتُ المودة والرحمة، وأن ترفرف عليه رايات الحنان والإشفاق، وتلوح عليه أعلامُ الإحسان والوفاق.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ يؤكدُ معنى الاستقرار في السلوك، والهدوء في الشعور، ويحققُ الراحة والطمأنينة بأسمى معانيهما، فكل من الزوجين يجد في صاحبه الهدوءَ عند القلق، والبشاشة عند الضيق، فالعلاقةُ الزوجيةُ عميقةُ الجذور، بعيدةُ الآماد.

قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾

[البقرة: ١٨٧].

وإنَّ مما يحفظُ هذه العلاقة ويحافظ عليها: المعاشرة بالمعروف، ولا يتحققُ ذلك إلا بمعرفة كل طرف ما له وما عليه، وإنَّ نُشدانَ الكمالِ في البيت وأهلِ البيت أمرٌ متعذرٌ، والأملُ في استكمال كل الصفات فيهم أو في غيرهم شيءٌ بعيدُ المنال في الطبع البشري، ومن رجاحة العقل ونضج التفكير: توطينُ النفس على قبول بعض المضايقات، والغضّ عن بعض المنغصات، والرجل وهو رب الأسرة مطالَب بتبصير نفسه أكثر من المرأة، وقد عَلِمَ أنها ضعيفة في خَلْقها وخُلُقها، إذا حُوسبت على كل شيء، عجزت عن كل شيء، والمبالغة في تقويمها يقودُ إلى كسرها، وكسرُها طلاقُها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء». [متفق عليه: البخاري: ٣٣٣١، ومسلم: ١٤٦٨].

فالاعوجاجُ في المرأة من أصل الخلقة، فلا بدَّ من مسايرته، والصبر عليه، فعلى الرجل ألا يسترسل مع ما قد يظهر من مشاعر الضيق من أهله، وليصرف النظر عن بعض جوانب النقص فيهم، وفي مثل هذا يقول الرسول ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلقًا رَضِيَ منها آخر». [مسلم: ١٤٦٩].

معنى: «يفرك»: يُبغض. وليتأنَّ في ذلك كثيرًا، فلئن رأى بعضَ ما يكره، فهو لا يدري أين أسبابُ الخير وموارِدُ الصلاح.

وقد بيَّن رسول الله ﷺ أن من مظاهر اكتمال الخُلق ونمو الإيمان أن يكون المرء رفيقًا رقيقًا مع أهله، قال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا، وخياركم خياركم لأهله». [رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١٢٣٢].

وقال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي». [رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٣٣١٤].

وكانت سيرته ﷺ مع أزواجه: حسنَ المعاشرة، وحسنَ الخُلق. فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: خرجتُ مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جاريةٌ لم أحمل اللحم ولم أبْدُن، فقال للناس: «تقدموا». فتقدموا، ثم قال لي: «تعالي حتى أسابقك». فسابقته فسبقْتُه، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «تقدموا» فتقدموا، ثم قال لي: «تعالي حتى أسابقك». فسابقته فسبقني، فجعل يضحكُ، وهو يقول: «هذه بتلك». [أحمد في المسند: ٦ / ٢٦٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٧٠٠٧].

وكان ﷺ يقول لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشُ: هذا جبريل يُقرئك السلام». [مختصر مسلم: ١٦٦٨].

وعنها رضي الله عنها قالت: «كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد من الجنابة». [متفق عليه: البخاري: ٢٧٢، ومسلم: ٣٢١].

ونفى ﷺ الخير عن الذين يضربون النساء عدوانًا وظلمًا، فقال ﷺ: «لا تضربوا إماءَ الله». فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: ذَئِرْنَ النساءُ على أزواجهن فرخَّص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساءٌ كثيرٌ يشكون أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: «لقد طاف بآل محمد نساءٌ كثيرٌ يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم». [أبو داود: ١١٦٢، وبنحوه في صحيح الجامع: ٥١٣٧].

وكان ﷺ يُرغِّب في إطعام الزوجة وسقياها، وبهذا يؤجر الزوج ويُثاب، قال ﷺ: «وإنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت بها، حتى ما تجعل في في امرأتك». [متفق عليه: البخاري: ٥٣٦٩، ومسلم: ١٠٠١]. معنى: «في فيِ»: أي: في فمها.

أما المرأةُ المسلمةُ فلتعلم أن السعادة والمودة والرحمة لا تتم إلا حين تكون ذات عفة ودين، تعرف ما لها؛ فلا تتجاوزه ولا تتعداه، تستجيبُ لزوجها؛ فهو الذي له القوامة عليها، يصونها ويحفظها، وينفق عليها، فتجب طاعته وحفظه في نفسها وماله، تتقن عملها وتقوم به، وتعتني بنفسها وبيتها، فهي زوجةٌ صالحةٌ، وأم شفيقة، راعية في بيت زوجها، مسئولة عن رعيتها، تعترف بجميل زوجها، ولا تنكر الفضل والعشرة الحسنة، فإنَّ النبي ﷺ يحذِّر من هذا التنكر، قال رسول الله ﷺ: «أُريتُ النار، فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن. قيل: أيكفرن بالله؟ قال: لا، يكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط». [البخاري ٢٩ واللفظ له، وبنحوه مسلم: ٧٩].

وعن ابن أبي أوفى قال: لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا؟» قال: يا رسول الله، قدمت الشام فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك. قال: «فلا تفعل، فإني لو أمرت شيئًا أن يسجد لشيء، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفسي

بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها». [صحيح الترغيب: ١٩٣٨].

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت». [صحيح الجامع: ٦٦٠، ٦٦١].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا، إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا». [صحيح الجامع: ١٩٤٥]. معنى: «يوشك» أي: يقرب ويسرع ويكاد.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اثنان لا تُجاوز صلاتهما رءوسهما: عبدٌ أبق من مواليه حتى يرجع إليهم، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع». [صحيح الترغيب: ١٩٤٨]. فهل ترضى مؤمنةٌ عاقلةٌ شريفةٌ حرةٌ عفيفةٌ بذلك؟ وما أكثر اللاتي هذه حالهن، والعياذ بالله.

إن العلاقة بين الزوجين ليست علاقة دنيوية مادية، ولا شهوانية بهيمية، إنها علاقةٌ روحية كريمةٌ، ويقويها: الاجتهادُ في الطاعة والعبادة، والحرص عليها، والتواصي بها بين الزوجين.

تأملوا قول النبي ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نَضَحَ في وجهها الماء، ورحم الله امرأةً قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء». [صحيح الترغيب: ٦٢٥].

إنه بحصول الوئام تتوفر السعادةُ، ويتهيأ الجوُّ الصالح للتربية، وتنشأ الناشئةُ في بيت كريم مليء بالمودة عامر بالتفاهم، بين حنان الأمومة وحدب الأبوة، بعيد عن صخب المنازعات والاختلاف، وتطاول كل واحد على الآخر، فلا شقاق ولا نزاع، ولا إساءة إلى قريب أو بعيد.

وحينما تصح هذه العلاقةُ وتصدقُ هذه الصلة، فإنها تمتد إلى الحياة الآخرة بعد الممات، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٩- ٧١].

لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل عمل الزوجان بمنهج الإسلام وتعاليم الدين إذا حصل النزاع؟ وإذا استحكم النزاع واستدام، فقد شرع الإسلام التدخل للإصلاح بتحكيم الحَكَمين، ويتأكد ذلك على أهل الزوجين، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٥]، ولكن إذا تعذَّر الوفاقُ، وتحولت الحياةُ إلى جحيم لا يُطاق، ولم تعملْ أسبابُ العلاج ووسائلُ الإصلاح عملها في القلوب، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٠].

فالطلاق إذا لم يكن لأسباب شرعية، فهو عبثٌ لا يقرُّهُ الدين، وتخريب لا تعمر به الحياةُ، فأين الذين يفكرون في العواقب؟ ما ذنبُ الأولاد والأطفال؟ وما جريرةُ الضعفاء والضعيفات، والأبرياء والبريئات؟

فليعلم كلُّ من أقدم على الطلاق أو فكَّر فيه، أن الطلاق من الأمور العظيمة التي يفرح لها الشيطان، ويبعث من أجلها جنوده، وكفى بذلك تحذيرًا منه وتنفيرًا.

عن جابر رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ قال: «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياهُ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنةً، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرَّقت بينه وبين امرأته، فيُدْنيه منه، ويقول: نِعْمَ أنت». [مسلم: ٢٨١٣].

ومما يغفل عنه البعض أنَّ المرأة إذا طُلِّقت طلاقًا رجعيًا، فعليها أن تبقى في بيت الزوج لا تَخرُج ولا تُخرَج، بل إن الله جعله بيتًا لها، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق: ١].

فيا أيها الأزواج والزوجات، اتقوا الله في أنفسكم، ويا أيتها الزوجاتُ اتقين الله في أزواجكن، ولا تَكن إحداكن سببًا في استفزاز زوجها، وإثارة غضبه، فُمِنْ بحقوق الأزواج والبيوت والأولاد، فالمرأة الموفَّقة هي التي تكسب زوجها، وتمتص غضبه، وتعرف حقوقه، لا من تُشعل النار، وتزيد الطين بلةً.

وليتق الله الأزواجُ، وليصونوا علاقاتهم عن الخلافات والمنازعات إن كانوا يريدون سعادتهم في دنياهم وأخراهم.

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

والحمد لله رب العالمين.

الأسرة المسلمة

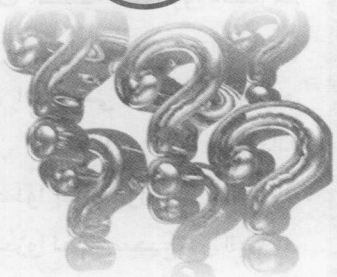

وقفات نحو تربية الأبناء

إعداد/ عبده الأقرع

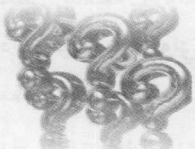

الحمد لله الولي الحميد، الفعال لما يريد، والصلاة والسلام على نبيِّه المصطفى، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واقتفى أثره. أما بعد:

فإن نعم الله عز وجل على العباد لا تُحصى، وعطاياه لا تُعد، ومن تلك النعم العظيمة وأجلّها نعمة الأبناء.

قال الله تعالى: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ» [النحل:٧١، ٧٢] ولا يعرف عظم هذه النعمة إلا من حُرم منها.

وهم زينة، قال الله تعالى: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» [الكهف:٤٦]، وزينة الذرية لا يكتمل بهاؤها وجمال إلا بصلاحها.

وهذه النعمة العظيمة هي أمانة ومسئولية، يُسأل عنها الوالدان يوم القيامة، أحَفظا أم ضيّعا؟

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كلكم راعٍ، وكلكم مسولٌ عن رعيته، والإمامُ راعٍ ومسئولٌ عن رعيته، والرجلُ راعٍ في أهله وهو مسئول عن رعيته». [البخاري ٢٧٥١].

وعن أبي يعلى معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبدٍ يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيته إلا حرَّم الله عليه الجنة». [متفق عليه].

ولقد استهان كثيرٌ من الآباء بهذا الحق فأضاعوا أولادهم ونسوهم، كأنَّ لا مسئولية لهم عليهم، لا يسألون أين ذهبوا ولا متى جاءوا، ولا مَن أصدقاؤهم وأصحابهم، ولا يوجهونهم إلى خير ولا ينهونهم عن شر.

ومن العجب أن هؤلاء حريصون كل الحرص على أموالهم بحفظها وتنميتها، والسهر على ما يصلحها، مع أن المحافظة عليهم أولى وأنفع في الدنيا والآخرة، وكما أن الوالد يجب عليه تغذية جسم الولد بالطعام والشراب، وكسوة بدنه باللباس، كذلك يجب عليه أن يغذّي قلبه بالعلم والإيمان، ويكسو روحه بلباس التقوى فذلك خير.

يقول ابن القيم رحمه الله: «فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى، فقد أساء غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قِبَل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدين فأضاعوهم صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا». اهـ

فعلى الآباء أن يقوموا بتربية أولادهم وتوجيههم وإرشادهم ومراقبتهم مراقبة تامة، لاسيما في الوقت الذي تكثر فيه الفتن، وتشتد فيه المنكرات، فإن الأمانة تحتّم عليهم الرقابة أكثر مما إذا خفت الفتن وقلّت المنكرات.

وقفات سريعة إلى كل أب وأم، لعل الله أن ينفع بها:

الدعاء للأبناء بالهداية والصلاة:

قال الله تعالى: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» [البقرة:١٨٦]، وقال تعالى: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» [غافر:٦٠] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدعاءُ هو العبادة». [صحيح الجامع: ٣٤٠٧].

وقد دعا الأنبياء والمرسلون لأبنائهم، فهذا خليل الرحمن إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام.

يقول الخليل عليه السلام: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ» [إبراهيم:٣٥].

ويقول عليه السلام: «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ» [إبراهيم:٤٠].

فعليك أيها الوالد بالتأسي بالأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين بالدعاء لأولادك بالهداية والصلاح، فكم من دعوة اهتدى بسببها ضالّ، وكم من دعوة اختصرت مسافات التربية.

واحذر أيها الوالد كل الحذر أن تدعو على أبنائك، فقد توافق دعوتك وقتًا يُستجاب فيه الدعاء، فتستجاب دعوتك على ولدك، فتجني أنت عاقبتها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاءٌ فيستجيب لكم». [صحيح الجامع: ٧٢٦٧].

صلاح الوالدين ينفع الأبناء بإذن الله:

لصلاح الوالدين عظيم الأثر في صلاح الأبناء، فقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته، كما حدث مع موسى والخضر عليهما السلام حين مرا على أهل قرية فطلبا من أهلها الطعام، فأبوا أن يُضيفوهما، فوجدا في هذه القرية جدارًا مائلاً يريد أن يسقط فأقامه الخضر.

قال الله تعالى: «وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» [الكهف:٨٢].

قال سعيد بن المسيب لابنه: لأزيدنّ في صلاتي من أجلك، رجاء أن أُحفظ فيك، ثم تلا هذه الآية: «وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا» [الكهف:٨٢].

وقال عمر بن عبدالعزيز: ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه.

وقال ابن المنكدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدويرات التي حوله، فما يزالون في حفظ من الله وستر. [جامع العلوم والحكم ص١٦٣].

فالولد ينتفع بصلاح أبويه في الدنيا وفي الآخرة، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ

مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ» [الطور:٢١].

محافظة الوالدين على دين أولادهما:

هذا نبيُّ الله يعقوب عليه السلام في اللحظات الأخيرة من حياته يريد أن يطمئن على عقيدة بنيه من بعده، يقول الله تعالى: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» [البقرة:١٣٣].

وهذا لقمان الحكيم يوصي ابنه وصيةً تكون سببًا لسعادة الدارين سجّلها لنا ربنا سبحانه وتعالى لتكون عبرة وعظة: «لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» [ق:٣٧].

يقول الله تعالى: «وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». ثم قال له: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» [لقمان:١٣- ١٩].

ما أحوجنا معشر الآباء إلى هذه الموعظة، نتدبرها ونعمل بها في أنفسنا، ثم نعظ بها أبناءنا.

ولقد رسم النبي صلى الله عليه وسلم فيما رسم منهجًا واضحًا في وصايا وجّهها لشباب الأمة وأبناء الأمة المحمدية، ممثلة في ابن عمه الغلام عبدالله بن عباس رضي الله عنهما حيث قال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف». [صحيح الجامع: ٧٩٥٧].

فالأصل في تربية النشء إقامة عبودية الله تعالى في قلوبهم، وغرسها في نفوسهم وتعاهدها.

إن أول لبنة في بناء الشباب لبنةُ العقيدة، ورسوخ الإيمان، وصدق التعلق بالله وحده والاعتماد عليه.

إن أولها حفظ الله بحفظ حقوقه وحدوده، ومن ثمَّ الاستعانةُ به وحده في الأمور كلها، والتوكل عليه، واليقين الجازم بأن بيده سبحانه الضرّ والنفع.

فاجتهد أيها الوالد في تربية أولادك، واعلم أنك لن تنتفع بعد مماتك إلا بمن صلح منهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له». [مسلم: ١٦٣١].

ولن يجمع الله معك في الجنة إلا من صلح منهم.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفس محمدٍ بيده ما من عبدٍ يؤمن ثم يسدد إلا سُلك به في الجنة، وأرجو ألا يدخلوها حتى تبوءا أنتم ومن صلح من ذراريكم مساكن في الجنة، ولقد وعدني ربي عز وجل أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بغير حساب». [صحيح الجامع: ٧٠٦٢].

جعلني الله وإياكم منهم.

الإصلاح بين الناس من عمل المرسلين

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله شرح صدور المؤمنين فانقادوا لطاعته، وحبَّبَ إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وأصلي وأسلم على خاتم النبيين محمد الصادق الأمين.

وبعدُ:

فإنَّ الإصلاح بين النّاس موضوع له خطره وأثره، فالقائمُ بالإصلاح بين الناس يتعرضُ كثيرًا للاتهام من الطرفين؛ لأنه يمثلُ الحقيقة في وضوحها، ولا يمكن أن يحيد، وقد يحدث أن كلا الطرفين أو أحدهما لا يرضى بالحقيقة، فلا بد له من الصبر الواسع على هذا الأمر العظيم، وله أجر عند ربه سبحانه وتعالى، فإن إصلاح ذات البين يُذهب وغر الصدور ويجمعُ الشملَ ويضمُّ الجماعة ويزيل الفرقة، والإصلاحُ بين الناس في دين الله مبعثُ الأمن والاستقرار، ومنبع الألفة والمحبة، ومصدر الهدوء والطمأنينة، إنه آية الاتحاد والتكاتف، ودليل الأخوة وبرهان الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات: ١٠).

والصلح خيرٌ تهبُّ به على القلوب المتجافية رياحُ الأنس ونسماتُ النَّدى، صلحٌ تسكنُ به النفوسُ، ويتلاشى به النزاعُ، الصلحُ نهجٌ شرعيٌ يُصانُ به الناسُ وتُحفظُ به المجتمعات من الخصام والتفكك.

بالصلح تُستجلب المودات، وتعمر البيوتات، ويبثُ الأمنُ في الجنبات.. ومن ثَمَّ يتفرغُ الرجالُ للأعمال الصالحة، يتفرغون للبناء والإعمار بدلاً من إفناء الشهور والسنوات في المنازعات، والكيد في الخصومات، وإراقة الدماء، وتبديد الأموال، وإزعاج الأهل والسلطات، وقد أمر الله تعالى بإصلاح ذات البين وجعله عنوانَ الإيمان.

فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١).

إصلاح في نطاق جماعة المؤمنين وطوائفهم:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ (الحجرات: ٩).

وإصلاحٌ في نطاق الأسرة وبيت الزوجية:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ (النساء: ٣٥).

وقال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء: ١٢٨).

وإصلاح بين الأفراد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (البقرة: ٢٢٤).

إصلاح يعدلُ بين اثنين، ويجمعُ بين متهاجرين، ويقرِّبُ بين مُتظالمين، يُقادان إلى صلح لا يحلُّ حرامًا، ولا يحرِّم حلالاً.

إصلاحٌ بين أصحاب الحقوق في الوصايا

والأوقاف:

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة:١٨٢).

ووعد سبحانه وتعالى من أصلح بين الناس إيمانًا واحتسابًا أن يؤتيه أجرًا عظيمًا، فقال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء:١١٤).

والإصلاح بين الناس وظيفة المرسلين لا يقوم بها إلا أولئك الذين أطاعوا ربهم، وشرفت نفوسهم وصفت أرواحهم يقومون به؛ لأنهم يحبون الخير والهدوء ويكرهون الشر حتى عند غيرهم من الناس، ويمقتون الخلاف حتى عند غيرهم، ويجدون في إحباط كيد الخائنين.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلح بنفسه بين المتخاصمين، عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم». (البخاري: ٢٦٩٣).

وعن عمرة بنت عبد الرحمن قالت: سمعت عائشة تقول: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت خصوم بالباب، عالية أصواتهما، وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء، وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أين المتألي على الله لا يفعل المعروف». فقال: أنا يا رسول الله، فله أيّ ذلك أحب». (متفق عليه).

معنى المتألي: الحالف. معنى «يستوضعه»: يسأله أن يضع عنه بعض دَيْنه.

«ويسترفقه»: يسأله الرفق.

فعندما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يستنكر عمله، عدل عن رأيه، واستجاب لفعل الخير، وقد قامت في نفسه داوفعه؛ إرضاءً لله ولرسوله.

والشاهد من ذلك خروجه صلى الله عليه وسلم للإصلاح بينهما.

وكان صلى الله عليه وسلم يرغّب في إصلاح ذات البين ويحث عليه:

إن من فقه الإصلاح: صلاح النية، وابتغاء مرضاة الله، وتجنب الأهواء الشخصية والمنافع الدنيوية، إذا تحقق الإخلاصُ حلَّ التوفيقُ، وجرى التوافق، وأُنزل الثباتُ في الأمر والعزيمةُ على الرشد

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته، فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة». (متفق عليه).

وبيَّن صلى الله عليه وسلم أن أفضل الصدقات الإصلاح بين الناس:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة». قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة». (صحيح الترغيب: ٢٨١٤).

فبين صلى الله عليه وسلم أن درجة المصلح بين الناس أفضلُ من درجة الصائمين والمصلين والمتصدقين.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصدقة إصلاح ذات البين». (صحيح الترغيب: ٢٨١٧).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي أيوب: «ألا أدلك على تجارة؟» قال: بلى.

الدِّينُ الإسلامي الحنيف أوجب على العقلاء من الناس أن يتوسطوا بين المختاصمين، ويقوموا بإصلاح ذات بينهم، ويلزموا المعتدي أن يقف عند حده؛ درءًا للمفاسد المترتبة على الخلاف والنزاع، ومنعًا للفوضى والخصام

قال: «صلْ بين الناس إذا تفاسدوا، وقرب بينهم إذا تباعدوا». (صحيح الترغيب: ٢٨١٨).

عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا أيوب: ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله؟ تصلح بين الناس إذا تباغضوا وتفاسدوا». (صحيح الترغيب: ٢٨٢٠).

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما عُمِلَ شيءٌ أفضل من الصلاة، وصلاح ذات البين، وخُلُق جائز بين المسلمين». (صحيح الترغيب: ٢٨١٦).

والإمام الأوزاعي – رحمه الله – يقول: «ما خطوةٌ أحب إلى الله عز وجل من خطوة في إصلاح ذات البين».

ولقد بلغت العناية بالصلح بين المسلمين إلى أنه رُخِّص فيه بالكذب مع قباحته وشناعته وشدة تحريمه.

عن أُم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرًا، أو يقول خيرًا». (متفق عليه).

فينمي خيرًا: أي يبلغ خيرًا.

وفي رواية عنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم يكذب من نمى بين اثنين ليصلح».

بل ذهب التشريعُ إلى إباحة المسألة لمن تحمل غرامة، تقديرًا لعظم الفعل، واعترافًا بأهمية الدور.

عن قبيصة بن المخارق رضي الله عنه قال: تحملت حمالةً (يعني: غرامة) فأتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها». ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصاب فلانًا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ثم يمسك، فما سواهن من المسألة فسحت يأكلها صاحبها سحتًا». (مختصر مسلم: ٥٦٨).

فالدِّينُ الإسلامي الحنيف أوجب على العقلاء من الناس أن يتوسطوا بين المختاصمين، ويقوموا بإصلاح ذات بينهم، ويلزموا المعتدي أن يقف عند حده؛ درءًا للمفاسد المترتبة على الخلاف والنزاع، ومنعًا للفوضى والخصام، وأقوم الوسائل التي تصفو بها القلوب من أحقادها.

وللإصلاح فقهٌ ومسالكُ دلت عليها نصوص الشرع، وسار عليها المصلحون المخلصون.

إن من فقه الإصلاح: صلاح النية، وابتغاء مرضاة الله، وتجنب الأهواء الشخصية والمنافع الدنيوية، إذا تحقق الإخلاصُ حلَّ التوفيقُ، وجرى التوافق، وأُنزل الثباتُ في الأمر والعزيمةُ على الرشد.

أما من قصد بإصلاحه الترؤس والرياءَ وارتفاعَ الذِّكر والاستعلاءَ فبعيدٌ أن ينال ثوابَ الآخرة، وحريٌّ ألا يحالف التوفيق مسعاه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٤).

ومن فقه الإصلاح: سلوكُ مسلك السرِّ والنجوى، فلئن كان كثيرٌ من النجوى مذمومًا، فإن ما كان من

صدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس فهو محمودٌ مستثنى.

قال الله تعالى: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (النساء:١١٤).

فلعلَّ فشلَ كثيرٍ من مساعي الصلح ولجانه: قشوُّ الأحاديث، وتسرب الأخبار.

وعلى المصلح أن يخبر بما علمه من الخير، ويسكت عما علمه من الشرّ.

وليعلم المصلح أن الشر لا يطفأ بالشر، كما أن النار لا تطفأ بالنار، ولكنه بالخير يُطفأ، فلا تسكن الإساءة إلا بالإحسان، ولهذا فقد يحتاجُ المتنازعان إلى أن يتنازلا عن بعض الحقِّ فيما بينهما.

وعلى المصلح أن يعلم أن النفوسَ مجبولةٌ على الشحِّ وصعوبة الشكائم، مما يستدعي بذلاً في طول صبر وأناة، امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء:١٢٨).

ولكن في مقابل هذه النفوس الشحيحة يترقى أصحابُ المروءات من المصلحين الأخيار ليبذلوا ويغرموا، نعم يبذلون الوقت والجهد، ويصرفون المال والجاه، ولقد قدَّر الإسلام مروءتهم، وحفظ لهم معروفهم، فجعل في حساب الزكاة ما يحملُ عنهم غرامتهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة:٦٠).

والغارمون قسمان:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين.

والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر، فإنه يُعطى ما يُوفَّى به دينه.

وعلى المصلح أن يذكّر بما جاء في كتاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم من الترغيب في العفو والترهيب في القطيعة.

وأخيرًا فليكن شعار المصلح قول نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود:٨٨).

وأن يجعل كل امرئ نفسه ميزانًا بينه وبين إخوانه المسلمين، فما يحبه لنفسه يحبه لهم، وما يكرهه لنفسه يكرهه لهم.

وحسب العبد ما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه». (مسلم: ١٨٤٤/١٤٧٢ و١٤٧٣/٣).

وبذلك تستقيم الأمور بإذن الله.

وهذا الأمر يحتاج إلى صبر جميل.

وإذا أُهمل هذا الأمر – الصلح بين الناس – عمَّ الشر القريب والبعيد، وأهلك النفوس والأموال، وقضى على الأواصر، وقطع ما أمر الله به أن يوصل من وشائج الرحم والقرابة، وذهب بريح الجماعة.

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال:٤٦).

والحمد لله رب العالمين.

وليعلم المصلح أن الشر لا يطفأ بالشر، كما أن النار لا تطفأ بالنار، ولكنه بالخير يُطفأ، فلا تسكن الإساءة إلا بالإحسان، ولهذا فقد يحتاجُ المتنازعان إلى أن يتنازلا عن بعض الحقِّ فيما بينهما

رمضان قد عاد

الحمد لله كتب على الخلائق الفناء والزوال، فكان لكلٍّ نازلٍ في هذه الدنيا رحيل، وأشهد أن لا إله إلا الله القائل في محكم التنزيل: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [لقمان:٣٤]، وأشهد أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم القائل: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». [البخاري: ٦٤١٦].

أما بعدُ:

فإن بلوغ رمضان نعمة كبرى، يقدِّرها حقَّ قدرها الصالحون المشمّرون، تُطوى الليالي والأيامُ، وتنصرم الشهور والأعوام، فمن الناس من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وإذا بلغ الكتابُ أجله فلا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون، يشبُّ الصغير، ويهرمُ الكبير، وينظر المرءُ ما قدمت يداه، وكلٌ يجري إلى أجل مسمى.

قعدتْ بالمؤملين آجالُهم عن بلوغ آمالهم، وعدوا أنفسهم بالصالحات فعاجلَهم أمرُ الله، كلُّ الناس يغدو في أهدافٍ وآمالٍ ورغبات وأماني، ولكن أين الحازمونَ وأين العقلاء؟

أحبتي في الله: لقد أظلكم شهرٌ عظيمٌ مباركٌ كنتم قد وعدتم أنفسكم قبله أعوامًا ومواسمَ، ولعل بعضًا قد أمَّلَ وسوَّفَ وقصَّر، فها هو قد مُدَّ له في أجله وأُنسئ له في عمره فماذا هو فاعلٌ؟

إنَّ واجب الأحياء استشعارُ هذه النعمة واغتنامُ هذه الفرصة، إنها إن فاتت كانت حسرةً ما بعدها حسرة، وأي خسارة أعظم من أن يدخل المرءُ فيمن عناهم المصطفى صلى الله عليه وسلم بحديثه على منبره في مساءلة بينه وبين جبريل الأمين: «من أدرك شهر رمضان فلم يُغفر له فدخل النار، فأبعده الله، قل آمين، فقلت: آمين». [مسند أبي يعلى وصححه الألباني في صحيح الترغيب: ١٦٧٩].

من حُرِمَ المغفرة في شهر المغفرة فماذا يرتجي؟

فيا لها من فرصة عظيمة، ومناسبة كريمة، تصفو فيها النفوس، وتهفو إليها الأرواح، وتكثر فيها دواعي الخير، تُفتح الجنات، وتنزل الرحماتُ، وترفع الدرجات، وتغفر الزلاتُ، إنه شهر الطاعات بأنواعها، صيامٌ وقيامٌ، وجودٌ وقرآنٌ، وصلواتٌ وإحسانٌ، وأذكارٌ وتسبيح له في نفوس الصالحين بهجةٌ، وفي قلوب المتعبدين فرحةٌ، فـ «يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاءُ من النار، وذلك كل ليلة». [صحيح الجامع: ٧٥٩].

طوبى لمن أجاب وأصاب، وويل لمن طُردَ عن الباب، فما أكرمَ اللهُ أمةً بمثلِ ما أكرمَ به أمة محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الشهر، ذنوبٌ مغفورةٌ، وعيوبٌ مستورةٌ، ومضاعفةٌ للأجور، وعتق من النار!

فجدّ - أخي الحبيب - في التوبة، وسارع إليها، فليس للعبد مستراح إلا تحت شجرة طوبى.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: من أعظم الاغترار عندي: التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله مع الإفراط، ومن أحب الجنة انقطع عن الشهوات، ومن خاف النار انصرف عن السيئات.

وقال الحسن البصري: إنَّ قومًا ألهتهم أماني المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: إني أُحسن الظن بربي - وكذب - لو أحسن الظن لأحسن العمل.

فحصيلة المؤمن في دنياه عمرٌ محدودٌ بالساعات والثواني، وكسبه المبذول رصيدٌ مدَّخرٌ بالأعمال المنجزات من غير كسل أو توانٍ، يتقلب في عُمُر الحياة بقدر ما كُتب له من فسحة، ويكدحُ فيها لينال أكبر المغانم، ومدارُ السعادة في طول العمر وحسن العمل، ومن كانت حصيلته ملأى بالخير من مختلف صنوفه فليهنأ وليستبشر «فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ۖ هُوَ خَيْرٌ»

أتوقن أم تعود إليه؟

إعداد/ عبده الأقرع

مِّمَّا يَجْمَعُونَ » [يونس: ٥٨]، وأما من كان غارقًا في الشهوات والنزوات، فقد طال عناؤه، وعظُم شقاؤه، ومن نوقش الحساب هلك.

ألا نعتبر بمن كان معنا في رمضان الماضي، ولكن حال الموت بينهم وبين إدراك رمضان هذا العام، بل وافاهم رمضان وهم تحت الثرى وقد سَرَى فيهم البلى؟ ونحن لا ندري، هل نُتم هذا الشهر أو يحول بيننا وبين إكماله هادمُ اللذات، ومفرِّق الجماعات؟

فبادروا وفقكم الله إلى الخيرات، وتسابقوا في الطاعات، فلكل ظاعن مقرّ، ولكل نبأ مستقر، وسوف تعلمون، قال الله تعالى: « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠].

قال قتادة: والله ما تمنَّى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر المفرط، فاعملوا بها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وكان العلاءُ بن زياد يقول: لينزلن أحدكم نفسَه أنه قد حضرهُ الموتُ فاستقال ربَّهُ فأقاله، فليعمل بطاعة الله تعالى، وكذلك يسألون الرَّجعة إذا وُقفوا على ربهم للسؤال، قال الله تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » [السجدة: ١٢- ١٤].

وكذلك يسألون الله الرجعة إذا وقفوا على النار، قال الله تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ » [الأنعام: ٢٧- ٢٨].

وكذلك يسألون الرجعة وهم في غمرات الجحيم، قال الله تعالى: « وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ » [فاطر: ٣٦، ٣٧].

وقال تعالى: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ » [الأعراف: ٥٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاةٌ فلم يفعل سأل الرجعة قبل الموت، فقال رجل: يا ابن عباس، اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكفار. فقال ابن عباس: سأتلوا عليك بذلك قرآنا: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » [المنافقون: ٩- ١١].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأروا ربكم من أنفسكم خيرًا، فمن كان مجدًا فليزدد، ومن كان مقصرًا فليتب إلى ربه: «فإن سفر القيامة طويل، فخذوا ما يُصلحكم، صوموا يومًا شديد الحر لحر يوم النشور، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور، وتصدقوا بصدقة السرِّ ليوم عسير».

لما قيل للأحنف بن قيس: إنك شيخٌ كبير وإنَّ الصوم يُضعفك. قال: «إني أُعدُّ لسفر طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب الله».

فبادر - أخي الحبيب - إلى التوبة، ودع عنك لعل وسوف، ولا يغرك طول الأمل، فإنَّ الموت يأتي فجأة، والموت يطلبك في كل لحظة.

واعلم أنَّ «رمضان قد عاد.. فلعلك لا تعود».

والحمد لله رب العالمين.

صيانة الحج

الحمد لله، جعل بيته الحرام مثابة للناس وأمنًا، أحمده سبحانه وأشكره؛ يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات فضلاً منه ومنًا، وأصلي وأسلم على نبينا محمد الذي أكرمنا به ربنا فبعثه منا، وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعدُ:

فقد قال الله تعالى : «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» [البقرة:١٩٧].

والمعنى : أنه من أوجب الحج على نفسه خلال هذه الشهور بأن تلبَّس به، وألزمه نفسه، فليحترم ما التزمه من شعائر الله، وليصُنْه من الرفث الذي هو مقاربة النساء ما دام مُحْرِمًا، ومن الفسوق الذي هو الخروج عن حدود الشرع بفعل أي محظور يُخِل بإحرامه، خصوصًا ما نص الله عليه في قوله سبحانه: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» [الحج:٣٠]، ومن الفسوق: الخصومات والفُحش، واللجاجة بمفهوم النص على ترك الجدال بقوله : «وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» [البقرة:١٩٧].

وتنويع هذه المنهيات في الحج من الله بترتيب عجيب، فابتدأ بالرفث المفسد للحج حسب ما فصله العلماء، ثُمَّ الفسوق الذي هو الخروج عن أي شيء من حدود الله في الإحرام، ثم الجدال الذي كان جاريًا بين القبائل في الجاهلية، من التنازع، والتفاخر، والتنابز بالألقاب، فما أجمل هذا التناسب بين الكلمات في هذه الآية الكريمة.

والحكمة في النهي عن هذه الأشياء: هي تعظيم حرمات الله.

وقد قال الله تعالى : «ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ» [الحج:٣٢]، وقال تعالى : «ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ» [الحج:٣٠]، فإنَّ المتلبس بالحج يكون أولاً في إحرام، ثم تزداد عليه الحرمة بدخوله في الحرم، ثم تزداد بمزاولته لأعمال الحج، فيكون محفوفًا بعظيم الحرمات، فيجب عليه التحلي بالأخلاق الإسلامية العالية، والآداب الشرعية الرفيعة، والتخلي عن كل ما يخالف الخُلق والأدب مع الله سبحانه أو مع عباد الله، والحذر من إيذاء المسلمين بالقول أو الفعل أو اليد أو اللسان، فالحج مدرسة لتعليم الأخلاق الكريمة ، والسجايا الحميدة، والشمائل النبيلة، والمُثل العليا، من الصبر والتحمل، والتعاون والإيثار، بعيدًا عن العنف والشدة والمزاحمة والإيذاء ، ولا يكون ذلك إلا باستشعار عظمة هذه الفريضة العظيمة، فهي ليست رحلة برِّية، ولا نزهة خلوية، ولا تُفعل تقليدًا وعادة ومحاكاة، وإنما هي: رحلة إيمانية، وفرصة عظيمة للتوبة والإقبال على الله سبحانه، ولزوم صراطه المستقيم، وقد توعد الله تعالى كل من يريد اعوجاجًا عن هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم، فرتَّب العقاب على الهمِّ بالسيئة، وإن لم تُفعل ، قال الله تعالى : «وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» [الحج:٢٥]، فكيف بمن يُريدُ ويفعل؟ لا ريب أن الأمر أشدُّ وأنكى.

إنَّ في هذا التعبير البليغ زيادةً في التحذير، ومبالغة في التوكيد، ولقد ضرب السلف الصالح - رضوان الله عليهم - أروع الأمثلة في الأدب مع حَرَم الله - عز وجل - يقول عبدُ الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -: «كُنَّا نعدُّ : لا والله، وبلى والله، من الإلحاد في الحرم».

وروي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قوله: «لأن أُخطئ سبعين خطيئة بـ «رُكية» أحبُّ إليَّ من أن أخطئ خطيئة واحدة في الحرم». و«ركية» اسم موضع بالحجاز بين غمرة وذات عِرْق.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما : «أنه كان له فسطاطان : أحدهما في طرف الحرم، والآخر في طرف الحل، فإذا أراد أن يعاقب أهله أو غلامه فعل ذلك في الفسطاط الذي ليس في الحرم ، يرى أنَّ مثل ذلك يدخل في الإلحاد فيه بظلم.

من الرفث والفسوق

إعداد/ عبده الأقرع

فتأمل أيها المسلم فعل ابن عمر رضي الله عنهما ، يتحرز من أن يعاقب أهله أو غلامًا داخل حدود الحرم؛ خشيةَ أن يقع في الإلحاد ، فما بالك بمن يعمل في حرم الله ما هو أعظم من ذلك !! فقد رأينا وسمعنا من يسبّ، ويشتم، وربما تطاول باليد على أخيه الحاج أو المعتمر؛ بسبب حجز الأماكن في الحرم.

وقد سُئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله- عن حجز أماكن في المسجد الحرام أو المسجد النبوي ؟ فأجاب رحمه الله : المسجد لمن سبق ، فلا يجوز لأحد أن يحجز مكانًا في المسجد ، ولهذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ، ثم لم يجد إلا أن يستهموا عليه لاستهموا». متفق عليه. أي : لاقترعوا، فحجزه أمرٌ لا يجوز ، وغصب للمكان ، ولا حق لمن غصبه ، فالسابق أولى منه وأحق به حتى يتقدم الناس إلى الصلاة بأنفسهم». [مجموع فتاوى ومقالات متنوعة: ٢٠٨/١٣].

وقال فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله -: «لم يكن من عادة السلف الصالح وضع تلك الفُرُش وتحجُّر المساجد ، بل أنكروا ذلك وعدّوه بدعة في الدين ، وكل بدعة ضلالة، كما يروى أن عبد الرحمن بن مهدي فرش مصلاه في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فأمر الوالي بحبسه، وقال : أما علمت أنّ هذا في مسجدنا بدعة؟ فإذا علمت ما ذكر فلا شك أنّ فعل ذلك في المسجد الحرام أعظم تحريمًا وأشد منعًا؛ لعظيم حرمة ذلك المسجد ، وقد صرّحت الأدلة أنّ المعاصي في الأيام المعظمة والأماكن المعظمة تغلظ معصيتها وعقابها بقدر فضيلة الزمان والمكان ، قال الله تعالى : « وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » [الحج:٢٥]». (فتاوى ابن إبراهيم: ٣٨/٣- ٤٠). اهـ.

فاتقوا الله ربكم - أيها المسلمون - واعرفوا لهذا البيت فضله وخصائصه، فقد حرّمه الله وحمى حماه ، وجعل قصده مكفّرًا لما سلف من الذنوب، ماحيًا للأوزار، قال صلى الله عليه وسلم : «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». [البخاري: ٢٥/٤، ومسلم ٩٨٣/٢].

وإلا فماذا يصنع من يؤمُّ هذا البيت إذا لم يكن فيه ورعٌ يحجزه عما حرَّم اللهُ، وحلمٌ يضبط به جهله، وحسن صحبة لمن يصحبُ، وقد كان أهل الجاهلية يراعون حرمة البيت الحرام ، حتى قالت إحدى النساء قبل الإسلام توصي ابنًا لها بتقديس الحرم وتعظيم حرمته، فقالت:

أبُنَـي لا تظلـم بمكـة
لا الصغيـر ولا الكبير
أبُنَـي من يظلـم بمكة
يلـق آفـات الشـرور
أبُنَـي قـد جربتهـا
فوجـدت ظالمهـا يبور

فالمسلمون إذن هم أولى وأحق بأن يكرموا بيت الله، ويطهروه من سائر الأنجاس والأدران ، فلا تحقرنّ أخي الحاجُّ من المعروف شيئًا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تنحّي الأذى من طريق الناس، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق، فخيرُ الناس أنفعهم للناس وأصبرهم على أذى الناس، ولقد أعدَّ الله جنات عدن للذين « يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » [آل عمران:١٣٤].

وحسب الحاج قول النبي عليه الصلاة والسلام: «والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». [البخاري: ١٧٧٣، ومسلم: ١٣٤٩].

وقوله صلى الله عليه وسلم: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه». [البخاري: ١٨١٩، ١٣٥٠].

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، أن يكتب لنا حج بيته الحرام، وأن يرزقنا التأدب بآداب الإسلام، وأن يرزقنا اتباع سنة سيد الأنام، « إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ » [إبراهيم:٣٩].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ماذا بعد الحج؟!

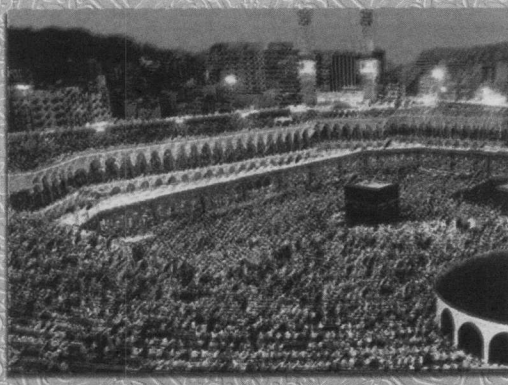

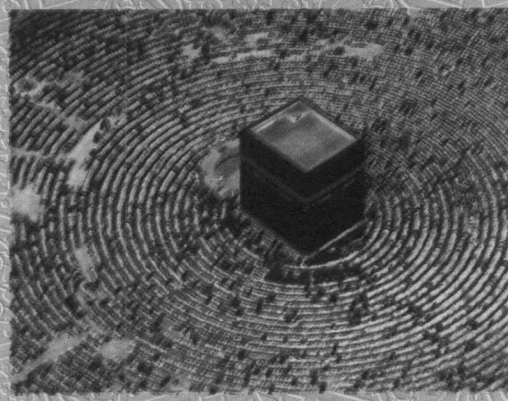

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله الذي جعل الحج إلى البيت الحرام تُغفر به الذنوب، وتُحط به الخطايا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أكرمُ من قصد، وأرحمُ من مَلك، وأعدل من حكم، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله إلى العرب والعجم، وبعدُ:

فبعد أيام قلائل يقف الحجيج بعرفات، وقد رفعوا أكفَّ الضَّراعة، وذرفوا دموع الخشية والإنابة، مستغلين شرف الزمان والمكان، بالعمل الصالح، والإقبال على الله سبحانه؛ راجين ما وعدهم الله به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم؛ حيث قال صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء، فيقول لهم: انظروا إلى عبادي جاءوني شُعثًا غبرًا». [صحيح الترغيب رقم: ٢٥١١].

وقال صلى الله عليه وسلم يوم أن وقف بعرفات وقد كادت الشمس أن تؤوب، فقال: «يا بلال، أنصتْ لي الناس»، فقام بلال، فقال: أنصتوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنصتَ الناسُ، فقال: «يا معشرَ الناس! أتاني جبرائيل آنفًا، فأقرأني من ربي السلامَ، وقال: إنَّ اللَّه عزَّ وجل غفر لأهلِ عرفات، وأهلِ المشعر، وضمن عنهم التبعات»، فقام عمرُ بنُ الخطاب، فقال: يا رسول الله، هذا لنا خاصة؟ قال: «هذا لكم، ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة». فقال عمر بن الخطاب: كثر خيرُ الله وطاب. [صحيح الترغيب رقم: ١٥١١].

وما هي إلا بضعة أيام بعدها حتي تقوض في الحج خيامُهُ، وتنتهي أيامه، ويولي الحجاج وجوههم شطر أوطانهم.

والسؤال الذي يطرح نفسه ماذا بعد الحج؟ وماذا بعد أداء هذه الفريضة العظيمة؟ هل يقف الأمر عند هذا الحدّ، ويعودُ الناسُ إلى ما كانوا عليه قبل الحج، أو أنَّ هناك سبيلاً قويمًا يجب على الحاج أن يسلكه بعد حجِّه؟ هل تغيّر المنهجُ والسلوك، ونظر كل حاج في حياته نظرة صحيحة، وبدأ صفحة جديدة، وانطلاقة جادة على ضوء شريعة الله وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم؟ هل غيَّرَ الحجاجُ حياتهم من سيئ إلى حسنٍ، ومن حَسَنٍ إلى

أحسن؟ هل امتدت منافع الحج وآثاره فتجاوزت حد المكان والزمان إلى عموم الأزمنة والأمكنة، وشمول جميع الجوانب والنواحي؟!

إنَّ الحج ميلاد جديد، وعهد سعيد، يجب على الحاج أن يثبت على آثاره ومنافعه، وعنها لا يحيد، وأن يجعله انطلاقه جادة للأعمال الصالحة، وفرصة عظيمة للتوبة النصوح، فعلينا أن نحاسب أنفسنا بعد أداء هذه الفريضة: هل أدَّت هذه الفريضةُ آثارها في حياتنا، أو أنها مرَّت كسحابة صيف أو وَمْضة برقٍ، سرعان ما تزول دون نفع أو أثر؟!

إنَّ من الواجب أن تقوم حياتنا بعد هذه الفريضة على نهج الكتاب والسنة، وأن تُرى آثارُ العبادات على سلوكنا وحياتنا، فإن ذلك من مقاييس قبول العمل أو ردِّه، فإنَّ من علامة قبولِ الحسنة: الحسنةَ بعدها، وإن من الخطأ الفادح وقلة البصيرة في فهم شعائر الإسلام: أن يظنَّ أناس - وبئس ما ظنوا - أنَّ مواسمَ العبادة مراحلُ ضيِّقةٌ يتخففُ فيها الإنسانُ من الذنوب والمعاصي، فإذا تجاوزها، عادَ ليواقع غيرها، وتنتهي فترةُ إقباله على الله بانتهاء العبادة.

إن مواسم الخير تغيرٌ كاملٌ، وتبدلٌ شاملٌ، في كل جليل وصغير، من حياة الغفلة عن الله إلى التوبة والاستقامة، والانقياد لله.

فيا من أجبتم نداء ربكم، ورفعتم التلبية إجابةً لأمره، ها هو مولاكم - جل وعلا - يناديكم بنداء الإيمان: أن تستقيموا على شرعه، وتستجيبوا له ولرسوله، وتتقوه حق تقاته، وتعبدوه حق عبادته، في حياتكم إلى مماتكم: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾» [الأنفال:٢٤].

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾» [آل عمران:١٠٢]

فلبُّوا - عباد الله - نداء الرحمن، واستجيبوا لأمره في كلِ حياتكم وفي كل شئونكم.

وإلا بأي حجٍّ رجع من دنَّس العقيدةَ بضروب الإشراك، ولوَّثها بألوان البدع والمحدثات؟ بأيِّ حجٍّ رجع من هدم دينه بترك عموده وهو الصلاة؟ بأي حج رجع من أصر على ما يتعاطى من محرمات، فلم يمنعه حجه عما كان يقترف من ربًا أو تعاطٍ للمسكرات والمخدرات، أو تعامل بالغش والتزوير وسيئ المعاملات، أو وقوع في القطيعة والعقوق وسافل الأخلاق والصفات؟!

اللهم نسألك التوفيق لكل خير والمزيد من كل بر، وأوزعنا اللهم شكر نعمتك، ووفقنا لعملٍ صالح ترضاه وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين. آمين.

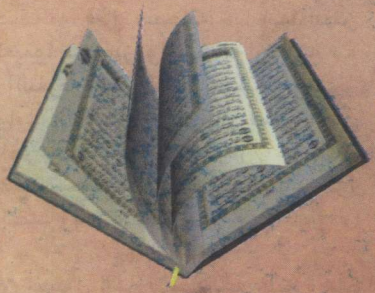

الدعوة إلى التوحيد من هدي النبيين

إعداد / عبده الأقرع

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعدُ:

فإفراد الله بالعبادة أصلُ الدِّين وملاك الأمر، إنه أول أمر في كتاب الله، والنهي عن الشرك أول نهي في كتابه سبحانه، قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾» [البقرة:٢١ - ٢٢].

والأمر بتوحيد الله أول دعوة الرسل، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾» [النحل:٣٦].

وقال تعالى: «وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾» [الأنبياء:٢٥].

وقال تعالى: «وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾» [الزخرف:٤٥].

فالأمر بتوحيد الله أول دعوة الرسل، ما من نبي إلا قال لقومه: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾» [الأعراف:٥٩].

وقد دعا نبيُّنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم الناس إلى التوحيد عشر سنين قبل فرض الفرائض تعظيمًا لشأنه، وربى أصحابه على سلامة التوحيد وصحة العقيدة، وقوة اليقين، والتوكل على الله وحده، وأرشد صلى الله عليه وسلم الدعاة إلى أن يكون الأمر بالتوحيد أول دعوتهم، فقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله». [متفق عليه].

ولقد وصى الأنبياء أبناءهم بالثبات على التوحيد حتى الممات: «وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾» [البقرة:١٣٢].

وعن التوحيد سأل الأنبياءُ وهم على فراش الموت ذرياتهم: «أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾» [البقرة:١٣٣].

ومن أجل التوحيد ونفي الشرك ترك نبي الله يوسف عليه السلام ملة قومه: «خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾»

[يوسف:٣٧ - ٣٨].

وفي قوله هذا إشارة إلى وحدة الملة التي كان عليها إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وهي ملة التوحيد التي كان عليها الأنبياءُ أجمعون، وما تحلّت بالتوحيد والعمل الصالح أمة إلا عزّ سلطانها، وعظم شأنها، وهيب جانبها، ومكّن الله لها في الأرض، وبدّل خوفها أمنًا، قال الله تعالى: « وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾» [النور:٥٥].

ومن فضائل التوحيد ورذائل الشرك: أن الإيمان من موجبات الأمن، قال الله تعالى: « ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾» [الأنعام:٨٢].

فالأمن والهداية قرينان لا يفترقان، إذا زال أحدهما زال الآخر، فالأمنُ الحقيقي ليس بكثرة الجيوش والجنود، إنما هو الأمنُ المنبعثُ من الروح المطمئنة التي رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولاً.

ومفهومُ الآية الكريمة أنَّ الذينَ لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هدايةٌ ولا أمنٌ، بل حظهم الضلال والشقاء، والخوف والرعب، والفزع والقلق، وهذه الآيةُ العظيمةُ تبينُ لنا الفهمَ الواقعيّ لقوله سبحانه: « سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾» [آل عمران:١٥١]، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة: « سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾» [آل عمران:١٥١].

فلا يرتفع الشقاءُ والعناءُ عن البشرية إلا حين تستيقنُ البصائرُ أنه سبحانه الواحد القهارُ، له الملك كله وله الأمر كله: « يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾» [يوسف:٣٩].

هل يستوي من تتوزعُه الأهواءُ وتتنازعه الشهوات، لا يدري أين يوجّهُ، ولا لمن يكونُ الرضا والخضوع؟ هل يستوي مع من خضع للإله الحق فينعم براحة اليقين، وبرْد الاستقامة ووضوح الطريق؟!

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾» [الزمر:٢٩]، والموحد لله تكونُ مشاعر قلبه وخلجاتُ ضميره مرتبطةً بربه سبحانه مؤتمرةً بأوامره، منتهيةً عن نواهيه، يُحلُّ ما أحلَّ اللهُ، ويحرِّمُ ما حرم الله، وفيه يكون الولاءُ والبراءُ، والحبُّ والبغض، والمودة والعداء، وتوحيدُ الاعتقاد يتبعُه توحيدُ العمل والاستقامة في الاتباع، « وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾» [لقمان:٢٢]، « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾» [النساء:١٢٥].

وهكذا يتجلى التوحيدُ؛ طهارةً في القلب، وصحةً في العقل، ورفعةً في السلوك، واستقامة على الفطرة « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾» [الروم:٣٠].

والتوحيد يستوجب الشكر، قال الله تعالى حكاية عن نبيه يوسف عليه السلام: « وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾» [يوسف:٣٨].

قال ابن عيينة - رحمه الله -: «ما أنعم الله على عبد من العباد نعمةً أعظم من أنْ عرفهم لا إله إلا الله».

وما لم يتحقق التوحيدُ وإخلاصُ العبادة وتمام الخضوع والانقياد والتسليم - لله رب العالمين - فلا تُقبلُ صلاةٌ ولا زكاةٌ، ولا يصحُّ صومٌ ولا حجٌ، ولا يزكو أيُّ عملٍ يُتقربُ به إلى الله: « ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾» [الأنعام:٨٨].

وإذا لم يتحقق التوحيد فلا تنفعُ شفاعةُ الشافعين، ولا دعاءُ الصالحين حتى ولو كان الداعي سيد ولد آدم يوم الدين محمد خاتم النبيين، اقرءوا إن شئتم ما جاء في التنزيل: « ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾» [سورة التوبة:٨٠].

من أجل هذا كان التوحيدُ والدعوةُ إليه أولاً ولا بد في كل عصر وفي كل مصر، وفي كل وقتٍ وحين، حتى النزع الأخير، كما قال الصادق الأمين: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله، دخل الجنة». [صحيح الجامع: ٦٤٧٩].

اللهم اختم لنا بها يا رب العالمين.

قل لا أسألكم عليه أجراً

إعداد/ عبده الأقرع

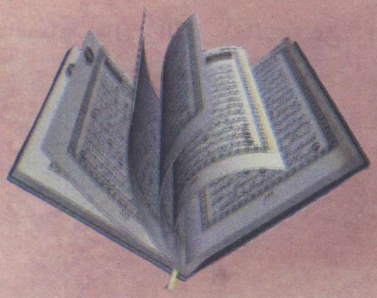

الحمد لله رافع أهل العلم درجات، والمفضل ذوي العلم في الحياة والممات، والصلاة والسلام على خير من علم وهدى، وعلى آله وأصحابه ومن استن بسنته وبهديه اهتدى.

أما بعد:

فإن الإيمان بالله عز وجل والدعوة إليه، والنصح والتعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والصبر، من أبرز سمات هذه الأمة، أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي فاقت بها سائر الأمم، يقول الله عز وجل: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» [آل عمران: ١١٠].

لذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: القطب الأعظم في هذا الدين، والمهمة الكبرى للأنبياء والمرسلين والصالحين، قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: «قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» [يوسف: ١٠٨].

فالدعوة إلى الله عمل الأنبياء والمرسلين، والدعاة والمصلحين، ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم. ومن هديهم أجمعين الترفع عما في أيدي الناس من حطام الدنيا الزائل، والتطلع إلى ما عند الله من أجر وذخر، سبيل سلكها المرسلون، ودرج على أثرهم الدعاة الأولون.

فهذا نوح عليه الصلاة والسلام أول رسول بعثه الله لأهل الأرض، يقول لقومه: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾» [الشعراء: ١٠٧- ١٠٩].

وسار على أثره هود عليه الصلاة والسلام، فقال لقومه: «يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾» [هود: ٥١].

وكذلك صالح عليه الصلاة والسلام قال لقومه: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾» [الشعراء: ١٠٩].

وكذلك لوط عليه الصلاة والسلام قال:

« وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » [الشعراء:١٤٥].

هذا هو هدي الأنبياء في الدعوة إلى الله: لا ينتظرون الأجر والجزاء إلا من الله، فهو الذي كلفهم، وهو الذي يثيبهم، وأجره هو الذي يتطلع إليه الداعي إلى الله، «عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » [هود:١٠٨] أي: غير مقطوع بل هو دائم أبدًا، وبذلك أمر الله خاتم النبيين نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: «أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ » [الأنعام:٩٠].

وقرر الله تعالى هذا المنهج الرباني في الدعوة إلى الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: «وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ » [الفرقان: ٥٦- ٥٧]، وقال تعالى: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ » [سبأ:٤٧]، وقال تعالى: « قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ » [ص:٨٦]، وقال تعالى: «أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ » [الطور:٤٠].

وهذا المنهج الرباني في الدعوة إلى الله لم يتغير من لدن أول الرسل إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولم يستنكف عن تقريره نبيّ ولا رسول، فهي كلمة واحدة.

ومن كان هذا حاله من الدعاة فحسبه التأسي برسل الله، وأيضًا صدقه في الدعوة إلى الله، وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء، وتأمل هذه الحقيقة التي استدل بها مؤمن آل ياسين على قومه: « وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ » [يس: ٢٠- ٢١]، وهذه السبيل لم يتنكبها رباني ورث الدعوة عن أنبياء الله.

فهذا التابعي الجليل أبو حازم يعظ سليمان بن عبد الملك قائلا: «عظم ربك ونزّه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك». فلما خرج من عنده، بعث إليه سليمان بن عبد الملك بمائة دينار، وكتب إليه: أن أنفقها، ولك عندي مثلها كثير. فردها أبو حازم، وكتب إليه: «يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلا، أو ردي عليك بذلا، وما أرضاها لك فكيف أرضاها لنفسي، فإن كانت هذه المائة عوضًا لما حدثت، فالميتة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحل من هذه، وإن كان لحق في بيت المال، فلي بها نظر، فإن ساويت بيننا وإلا فليس لي فيها حاجة». [سنن الدارمي: ١٥٧/١، ١٥٨].

وهذا العزّ بن عبد السلام ينصح للملك الأشرف، فيقول الأشرف: «جزاك الله عن دينك ونصائحك وعن المسلمين خيرًا، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنه وكرمه، وأطلق له ألف دينار مصرية، فردها سلطان العلماء قائلاً: «هذه اجتماعة لله، لا أكدرها بشيء من الدنيا». [طبقات الشافعية الكبرى: ٩٩/٥].

ولما سافر شيخ الإسلام ابن تيمية على البريد سنة سبعمائة وحضّ على الجهاد رُتّب له مُرتّب في كل يوم وهو دينارٌ وتحفةٌ وجاءته بقجة (ملابس)، فلم يقبل من ذلك شيئًا. [تاريخ ابن الوردي: ٤١١/٢].

فيا أيها الداعي إلى الله: «لا تزال كريمًا على الناس ولا يزالون يُكرمونك ما لم تعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك، وأبغضوك». وقد قيل: استغن عمن شئت فأنت نظيره، واحتج إلى من شئت فأنت أسيره، وأحسن إلى من شئت فأنت أميره. [فيض القدير: ١٠٢/١].

فكلما ازداد استغناء العبد عن الناس كلما ازداد حبهم له وتوقيرهم إياه حتى يسوّدوه عليهم، ولذلك دخل أعرابي البصرة فقال: من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن. قال: بم سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دنياهم. [فيض القدير: ٤٨١/١].

ولذلك كان الأنبياء أزهد الناس فيما في أيدي الناس، وكانوا يعلّمونهم الخير بلا أجر، وإنما كان شعارُ كل واحد منهم: «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ » [يونس:٧٢]، «وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » [الشورى:٣٦].

اللهم زهدنا فيما في أيدي الناس، وأغننا بفضلك عمن سواك، إنك ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

كيفية التعامل مع الإشاعات والأراجيف

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله يهدي إلى الطيب من القول، ويهدي إلى صراط الحميد، وأصلي وأسلم على من أدبَه ربُّه فأحسنَ تاديبه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ:

فمن أهم ما يُميِّز المجتمع الإسلاميَّ: أنَّه مجتمعُ مودةٍ وتراحم، وتكاتف وتلاحم، ومحبةٍ وتلاؤم، ولكن مما يؤسف له أنه لم يخل مجتمع من مجتمعات المسلمين من المنافقين الحاقدين، الذين لا يروق لهم أن يروا المجتمع المسلم مجتمعًا متآلفًا، يسعى بذمتهم أدناهم، وإذا اشتكى أدناهم اشتكى أقصاهم، ولكن الإسلام أحاط المجتمع المسلم بسياج منيع من داخله يحول دون تصدُّع بنيانه، وتزعزع أركانه، فأقام الضمانات الواقية، والحصون الكافية، الحائلة دون معاول الهدم والتخريب، فأرشدنا إلى كيفية التعامل مع الإشاعة والأراجيف حتى لا تزلَّ قدمٌ بعد ثبوتها وتنزلق في مجاهل الحوادث والأحداث، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين، قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦» [الحجرات:٦].

وإلا فكم أدى سوء الظن وعدم التثبت في الأخبار إلى أهوال ما بعدها أهوال، أزهقت نفوسٌ، وضاعت أموال، وشتت أسر، وخربت بيوت، وقطعت أرحام، ولقد سجل القرآن الكريم لنا شيئًا من الويلات التي أصابت المسلمين بسبب عدم امتثال أمر الله في التبيُّن والتثبت، اقرءوا إن شئتم سورة النور، وتأملوا الآيات المباركات التي سجلها القرآن الكريم في براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مما اتهمها به المنافقون، وسار على دربهم هذا الاتهام تقليدًا من غير اتباع برهان ولا دليل نفر من المؤمنين الصادقين، فتنزلت الآيات تعلم المؤمنين كيف يواجهون الإشاعات، فقال تعالى: «لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٞ مُّبِينٞ ١٢» [النور:١٢].

فهذه أول خطوة يجب عليك - أخي - اتخاذها، إذا بلغك عن أخيك أمر أن تظن به

ظنك بنفسك، فإن كنت تحسن الظن بنفسك، وتبرئ نفسك مما قيل فيك، وجب عليك أن تحسن الظن بأخيك وتبرئه مما قيل فيه، وتقول: «سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ» [النور:١٦] ما كان لأخي أن يقول هذا، أو يفعل ذاك، وتذكر قول أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه -: «ولا تظنّن بكلمة خرجت من فم أخيك شرًا وأنت تجد لها في الخير محملاً». وقول أحد علماء السَّلف: «ظلمٌ لأخيك أن تخفي تسعًا وتسعين حسنة من حسناته وتظهر سيئة واحدة من سيئاته». وهذا هو ما فعله بعض أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم حين بلغهم ما بلغهم عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - «عن أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - أنه قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم. وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك». [مسند إسحاق بن راهويه ١٦٩٨ وتفسير ابن كثير: ٣/٢٧٣].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب ابنة جحش عن أمري، فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرًا، قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعصمها الله بالورع» [متفق عليه].

فكيف أدّب الله المؤمنين وعلمهم ما يجب عليهم تجاه الإشاعات، ولكن للأسف ترى كثيرًا من المسلمين لا يلتزمون بهذه التربية الإيمانية، فما أن يُذاع خبر عار من الصحة من المرجفين يستهدف سُمعةَ المؤمنين، والنيل من كرامتهم لإسقاط شخصيتهم بالإثم والبهتان، حتى يشيع ذلك الخبر في المجتمع كله، وتلوكه الألسنة من غير تثبت ولا تبين.

ومن ثمَّ يتم اختراق الصفوف، ونشرُ الفتنة على ضعاف الإيمان، قال الله تعالى: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾» [سورة التوبة:٤٧ - ٤٨]، فحسب هؤلاء ما توعدهم الله تعالى به: «لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾» [الأحزاب:٦٠- ٦٢]، وقوله سبحانه: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا» [الأحزاب:٥٨]، وقوله سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» [النور:١٩].

وعلى الفرد والجماعة وكلِّ مسئول ألا يقبلوا ما يصلُ إليهم من أخبار أو يُصدِّقوا الأقاويل في المؤمنين إلا بعد التثبت والتبيُّن، وينبغي أن يسود حسنُ الظنِّ بالمؤمنين، والثقة بحسن نواياهم، وتغليب جانب الصدق في أقوالهم.

فاحفظ أخي المسلم - رعاك الله - يدك ولسانك وسائر جوارحك عن أذى الناس، ولا تبع دينك بعَرَض من الدنيا قليل، ولا تبغ الفساد في الأرض، فقد قيل: إذا رأيتم المؤمن صموتًا وقورًا فقد سلك مسلك الحكمة، والمسلمان يجلسان بأمان الله، فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكره بغير حق.

ومن رُزق حياءً مع قلة أذى، وصلاحًا مع قلة كلام، وعملاً مع قلة فضول، فقد أوتي محاسن الأخلاق، وليكن حظُّ أخيك منك ثلاثًا: إن لم تنفعه فلا تضرَّه، وإن لم تُفرحه فلا تغمَّه، وإن لم تمدحه فلا تذمه، وحسبك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب». [متفق عليه]. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة. والحمد لله رب العالمين.

صِفَةُ الإمام العَادل

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله يمنُّ بالفضل بالحقِّ، ويحكمُ بالعدل، وأصلي وأسلم على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم المبعوث للأحمر والأسود، هدى بإذن ربه إلى أقوم طريق وأعدل سبيل، وعلى آله وأصحابه الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

أما بعدُ:

فعن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا: «اللهم مَنْ وليَ من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشقق عليه، ومن وليَ من أمر أمتي شيئًا فرفقَ بهم فارفق به». [مسلم: ٨٢٨١- باب فضيلة الإمام العادل].

وهذا دعاء من النبيِّ صلى الله عليه وسلم على من تولى أمور المسلمين الخاصة والعامة.

و«شيئًا» نكرة في سياق الشرط، وقد ذكر علماء الأصول أنَّ النكرة في سياق الشرط تفيد العموم. أي شيء يكون.

«فرفق بهم فارفق به». وليس معنى الرفق أن يأتي للناس على ما يشتهون ويريدون، بل الرفق أن يسير بالناس حسب أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويسلك أقرب الطرق بالناس ولا يشق عليهم في شيء ليس عليه أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله مغلولاً يوم القيامة يده إلى عنقه، فكَّه برُّه، أو أوثقه إثمه، أوَّلها ملامةٌ، وأوسطها ندامةٌ، وآخرها خزيٌ يوم القيامة». [صحيح الجامع: ٨١٧٥].

فالعدل دعامة بقاء الأمم، ومستقرُّ أساسات الدول، وباسطُ ظلال الأمن، ورافع أبنية العزِّ والمجد، ولا يكون شيءٌ من ذلك بدونه. وبالتالي - فإليكم إخواني - صفة الإمام العادل:

كتب عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - لما وَلِيَ الخلافة إلى الحسن البصري ليخبره عن صفة الإمام العادل. فكتب إليه الحسن:

اعلم يا أمير المؤمنين أنَّ الله جعل الإمام العادل قَوَّام كُلِّ مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرَّفيق بها الذي يرتادُ لها أطيب المرعى، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها عن السِّباع، ويُكِنُّها عن أذى الحرِّ والقرّ.

والإمام العادل: كالأمِّ الشَّفيقةُ البَّرة الرَّقيقة بولدها حملتْهُ كُرهًا ووضعته كرهًا، وربته طفلاً، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، تُرضعُهُ تارةً وتفطمهُ أخرى، وتفرحُ بعافيته، وتغمُّ بشكايته.

والإمامُ العادل: وصيُّ اليتامى وخازنُ المساكين يُربِّي صغيرهم ويمونُ كبيرهم.

والإمامُ العادل: كالقلب بين الجوارح تصلحُ الجوارحُ بصلاحه وتفسُد بفساده.

والإمامُ العادل: هو القائم بين الله وبين عباده يسمعُ كلام الله ويُسمعهم،

وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيدهُ واستحفظهُ ماله وعياله فبدَّد المالَ وشرَّد العيال، فأفقرَ أهلهُ وفرَّق ماله.

واعلم أنَّ الله أنزل الحدودَ ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها؟! وإنَّ الله أنزلَ القصاص حياةً لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟!

واذكر الموتَ وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم أنَّ لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحبَّاؤك، يسلمونك في قعره وحيدًا فريدًا فتَزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، واذكر إذا بُعثر ما في القبور وحُصل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتابُ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

فالآن وأنتَ في مهل قبل حُلول الأجل وانقطاع الأمل لا تحكمُ في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيلَ الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة فتبوءَ بأوزارك وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك.

ولا يغرنك الذين يتنعمون في بؤسك ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك، ولا تنظرْ إلى قُدرتك اليوم، ولكنْ انظر إلى قدرتك غدًا وأنت مأسورٌ في حبائل الموتِ وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحيِّ القيوم.. اهـ. [موارد الظمآن(٢/٨٤٦)].

هذا هو العدل العالميُّ: وإنَّ أمة الإسلام هي أمة الحق والعدل، والخير والوسط، نصبها ربُّها قوامةً على الأمم في الدنيا، شاهدةً عليهم في الأخرى، خيرُ أمة أخرجت للناس، يهدون بالحق وبه يعدلون، يتواصون بالحق وبالصبر، ويتنافسون في ميادين الخير والبر، ويتسابقون إلى موجبات الرَّحمة والأجر.

عدل الإسلام يسعُ الأصدقاءَ والأعداءَ، والأقرباءَ والغرباء، والأقوياءَ والضعفاءَ، والمرؤوسين والرؤساء، عدلٌ الإسلامِ ينتظم كل ميادين الحياة، عدل في حق الله، وعدلٌ في حقوق العباد في الأبدان والأموال، والأقوال والأعمال، عدل في العطاء والمنع: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته» متفق عليه.

فالمسئوليات والمهماتُ تكليف قبل أنْ تكون تشريفًا، وتبعات لا شهوات، ومغارمَ لا مغانم، وجهاد لا إخلادًا، وتضحية لا تحلية، وميدان لا ديوانًا، وأعمال لا أقوالاً، وإيثار لا استئثارًا، إنصاف للمظلوم، ونصرة للمهضوم، وقهرٌ للغشوم، وردع للظلوم، ورفعُ المظالم عن كواهل المروحة أكبادُهم، وردُّ الاعتبار لمن أذلَّهم البغي اللئيم، لا تأخذهم في الحق لومة لائم، ولا تعويق واهم.

«وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ» [الشورى:٥١]، قال صلى الله عليه وسلم: «إنَّ المقسطين عند الله على منابرَ من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمينٌ - الذين يعدلون في حكمهم وفي أهليهم وما وُلوا». [مسلم: ٣/١٤٥٨].

اللهم آمنا في أوطاننا، وول أمورنا خيارنا.

مهلاً أيها المغتاب

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله الذي ألف بين قلوب المؤمنين، وجعلهم إخوةً متحابين مُتراحمين، على الخير متعاونين، وفي سبيل الفضائل متكاتفين، لألسنتهم وجوارحهم حافظين، وعن الغيبة والبهتان مبتعدين، وللفحش والزور مجتنبين، وعن أعراض إخوانهم ذابين ومدافعين، وأصلي وأسلم على خاتم النبيين وإمام المتقين، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فمن أهم ما يميز المجتمع الإسلامي: أنه مجتمع مودة وتراحم، وتكاتف وتلاحم، ومحبة وتلاؤم، ولكن فيه من لا تحجزه مروءةٌ ولا يرده دين أو أدب، جرَّد لسانه مِعْراضًا للأعراض بكلمات تنضح فحشا، وألفاظ تنهش نهشا، يسرف في التجنِّي على عباد الله بالسخرية واللمز، فهذا طويلٌ وذاك قصيرٌ، وهذا أحمق، وذاك جهولٌ، وكأنه قد وُكِلَ إليه تجريحُ عباد الله، ويزدادُ الأمرُ وتعظُمُ البليةُ حين ترى عليه علاماتُ الوقار وعلامات الاحتشام، وسيما الوجاهة وهيئاتُ العلماء، ومع هذا المظهر الخداع، يَصُمُّ بالخوض في الباطل أذني جليسه، لا يدعُ لأصحاب فضلٍ فضلاً، يحمل عليهم الحملات الشعواء أحياءً وأمواتًا، تُرى ما هذا الداء، إنه «داءُ الغيبة»، قلَّ أن تسلم منه المجالس.

ويندر أن ينفكَّ منه مجتمعٌ من المجتمعات، إلا من رحم ربي.

فالغيبة هي: الداء العضال، والسُّمُّ الذي في الألسن أحلى من الزّلال، وقد جاء الإسلام بتحريم الغيبة تحريمًا قاطعًا، وقد جعلها من أُتي جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم مقارنة لقتل النفس، وغصب المال في الجرم والتحريم، فقال صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ المسلم على المسلم حرامٌ، دمه، وماله، وعرضه». [مسلم: ٢٥٦٤].

وأعظمُ من ذلك وأجلُّ كلامُ ربنا عزَّ وجل: «وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» [الحجرات: ١٢].

فتأمل أخي المسلم -رحمك الله- هذا الأسلوب البليغ، في النهي المقرون بالمثال الذي يزيدُ الأمر شدةً وتغليظًا، والعمل تقبيحًا وتشنيعًا: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» [الحجرات: ١٢].

فإنَّ أكل لحم الإنسان من أعظم ما يستقذر جبلةً وطبعًا، بل كيف إذا كان ميتًا وجيفةً؟

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنَّه مرَّ على بغلٍ مَيت فقال لبعض أصحابه: «لأن يأكل الرجلُ من هذا حتى يملأ بطنه، خيرٌ له من أن يأكل لحم رجلٍ مسلم». [صحيح الترغيب: ٢٨٣٨].

فسبحان الله - ما أعظم خطر الغيبة وما أشنع جُرمها.

ويا سبحان الله، ما أكثر تساهل الناس بها اليوم، حتى لكأنها مائدةٌ مجالسهم، والغيبة ذاتُ أسماء ثلاثة، كُلُّها في كتاب الله عزَّ وجل - الغيبةُ والإفكُ والبهتانُ، فإذا كان في أخيك ما تقولُ فهي الغيبة، وإذا قلت فيه ما بلغك عنه فهو الإفكُ، وإذا قلتَ فيه ما ليس فيه فهو البهتانُ.

وللمغتابينَ نسوقُ هذا الوعيد، قال صلى الله عليه وسلم: «يا معشرَ من آمَنَ بلسانه، ولم يدخل الإيمانُ قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تَتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم، يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته، يفضحه في بيته». [رواه أحمد: ٤/٤٢٠ وأبو داود وصححه الألباني].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لمَّا عُرج بي، مررتُ بقوم لهم أظفارٌ من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم». [سنن أبي داود: ٤٨٧٨ وصححه الألباني]. ومعنى: يخمشون: يخدشون ويجرحون.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: بينا أنا أماشي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيدي، ورجل عن يساره، فإذا نحن بقبرين أمامنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، وبلى، فأيكم يأتيني بجريدة؟ « فاستبقنا، فسبقته، فأتيته بجريدة، فكسرها نصفين، فألقى على ذا القبر قطعة، وعلى ذا القبر قطعة، وقال: «إنه يهون عليهما ما كانتا رطبتين، وما يعذبان إلا في البول، والغيبة «. [صحيح الترغيب: ٢٨٤١].

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من البول، وثلث من النميمة.

وقال عمر رضي الله عنه: «عليكم بذكر الله، فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس، فإنه داء».

ويقول بعض السلف: «الغيبة أشد من الزنا، قيل: وكيف؟ قال: الرجُل يزني ثم يتوبُ، فيتوب الله عليه، وصاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه». [كتاب الصمت: ص١٦٤].

واغتاب رجلٌ آخر عند بعض السلف، فنهره، فقال: يا هذا، إياك وولوغ الكلاب. [الصمت: ص٢٩٩].

ويقولُ الحسن رحمه الله: «إذا رأيت الرجل يشتغل بعيوب غيره، ويترك عيوب نفسه، فاعلم أنه قد مُكر به». [الصمت: ص١٩٨].

ويقولُ بعض السلف: أدركنا السلف الصالح وهم لا يرون العبادة في الصوم والصلاة فحسب ولكن في الكفِّ عن أعراض الناس.

ويروى أن معروفًا الكرخي رحمه الله إذا اغتاب عنده أحدٌ قال: «يا هذا، اذكر الكَفَنَ والقطن والحنوط إذا وُضعن عليك». [سير أعلام النبلاء: ٣٤١/٩].

والسلوى لمن اغتابهم الناس: استفادتهم من حسناتهم، يُروى أنه لما بلغ الحسن البصري أن رجلاً اغتابه، أرسل إليه طبقًا من رطب، وقال له: «بلغني أنك أهديت إليَّ حسناتك - أي: بغيبتك لي - فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني، فإني لا أقدرُ على مُكافأتك على التمام». [إحياء علوم الدين: ١٦٤/٣].

وقيل لبعض الصالحين: لقد وقع فيك فلانٌ حتى أشفقنا عليك ورحمناك، قال: عليه فأشفقوا، وإياه فارحموا.

وقال رجلٌ للحسن: بلغني أنك تغتابني؟ فقال: لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي.

وإذا بحثنا عن الأسباب والبواعث لهذا المرض الخطير، وجدناها لا تعدو: ضعف الإيمان، وقلَّة الوازع، وعدم الخوف من الله، فالذي يغتاب الناس يقول بلسان حاله: «أنا الكاملُ، والناسُ مخطئون، وأنا المحقق، والناس مبطلون، واعلم أخي الحبيب أنَّ المستمع للغيبة شريك للمغتاب، فقد قيل: إنَّ التصديق بالغيبة غيبةٌ، والساكتُ شريك للمغتاب، يقول ابن المبارك رحمه الله: «فِرَّ من المغتاب فرارك من الأسد».

وكان ميمونُ بن مهران لا يغتابُ أحدًا، ولا يدعُ أحدًا يغتابُ أحدًا عنده، ينهاه، فإن انتهى وإلا قام من المجلس.

فيا ترى أين هو المؤمنُ القويُ الذي يأبى أن يُغتاب أحدٌ في مجلسه؟

أين المؤمن الذي يأبى أن تسمع أذناه عيب أخيه المسلم.

أين المؤمن الذي يريد أن يرد الله عن وجهه النار يوم القيامة؟

عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَن رَدَّ عن عِرض أخيه، ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة». [صحيح الترغيب: ٢٨٤٨].

وحسب المغتاب أنه بالغيبة مُتعرضٌ لسخط الله تعالى ومقته، وأنَّ حسناته تُنقل إلى المغتاب له، وإن لم يكن له حسناتٌ نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم تُطلق لسانه بالغيبة، فيا أخي الحبيب: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك». [صحيح الترغيب: ٢٨٥٤]. وسارع في رد المظالم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة؛ حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». [مسلم: ٢٥٨٢]. وخذ بلسانك وقل: «يا لسان، قل خيرًا تغنم، واسكت عن شر تسلم، من قبل أن تندم».

نسأل الله السلامة والعافية، والحمد لله رب العالمين.

إن السعيد لمن جُنِّبَ الفتن

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله، مَن تمسك بهديه قرَّبه وأدناه، ومن خالف أمره أبعده وأقصاه، أحمده سبحانه لا يذل من والاه، ولا يعزُّ من عاداه، وأصلي وأسلم على من اجتباه ربُّه واصطفاه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه.

أما بعدُ:

فعن المقداد بن الأسود قال: وأيم الله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن السعيد لمن جُنِّبَ الفتن، إن السعيد لمن جُنِّبَ الفتن، إن السعيد لمن جُنِّبَ الفتن، ولمن ابتُلِيَ فصبر فواهًا». [رواه أبو داود: (٤٢٦٣)، وهو في صحيح الترغيب رقم (٢٧٤٣)]. ومعنى: «أيم الله» هذا من ألفاظ القسم، كقولك: لعمر الله، وعهد الله.

وكلمة «واهًا» يدل معناها على التلهف، وقد توضع للإعجاب بالشيء.

أحبتي في الله: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» [سورة التوبة: ١٢٨].

ومن رحمته صلى الله عليه وسلم أنه ما ترك خيرًا إلا وأرشد الأمة إليه، وما ترك شرًا إلا وحذَّر الأمة منه، وما من خير حصل في الدنيا إلا والجنةُ خيرٌ منه، وما من شرٍ كان في الدنيا إلا والنار شر منه.

وتركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك؛ حيث أرشدنا صلى الله عليه وسلم حينما تكثر الفتن في الأمة، فنشهد الله الذي لا إله إلا هو على محبته صلى الله عليه وسلم محبةً تفوق محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين، صلوات الله وسلامه عليه.

معنى الفتنة:

قال الراغب: أصل الفتنة إدخال الذهب النار؛ لتظهر جودته من رداءته. وقال ابن منظور: قال الأزهري وغيره: جماع معنى الفتنة: الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذٌ من قولك: فتنت الفضة والذهب إذا أذبتها بالنار ليتميز الرَّديء من الجيد. فأرشدنا صلى الله عليه وسلم إذا ظهرت الفتن في الأمة، فيلتبس الحقُّ بالباطل، ويختلط الهدى بالضَّلال، قال صلى الله عليه وسلم: «ليأتين على الناس زمانٌ لا يدري القائل

في أي شيءٍ قَتَل ولا يدري المقتول في أي شيء قُتل». [مسلم: ٢٩٠٨].

وبين صلى الله عليه وسلم خطر الفتن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا، ويُمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا». [مسلم: ١١٨].

كيف نتجنب الفتن؟

إن السعيد السعيد لمن جُنِّب الفتن. فإن قال قائل: وكيف نجتنبها؟

قلتُ: أولًا: إنَّ أهم ما تُتقى به الفتن ويتجنب به شرها وضررها تقوى الله جل وعلا، وملازمةُ تقواه في السرِّ والعلن والغيب والشهادة، فإنَّ تقوى الله سبحانه تُنير طريق الهداية، وتُبدد نورها ظلمات الجهل والغواية، ومن رُزق التقوى وُفِّق للفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ» [الأنفال: ٢٩]، فمن وهبه الله التقوى، فقد وهبه نورًا يمشي به على درب النجاة في سلامة المؤثرات العقدية والمنهجية، قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ» [الحديد: ٢٨]. وقال تعالى: «وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا» [الطلاق: ٢] أي: يجعل له مخرجًا من كل فتنة وبليَّة وشرٍّ في الدنيا والآخرة.

ولما وقعت الفتنة في زمن التابعين أتى بعضُ الناصحين إلى طلق بن حبيب - رحمه الله -. وقالوا: قد وقعت الفتنة فكيف نتقيها؟ فقال رحمه الله: اتّقوها بالتقوى. قالوا: أَجْمِلْ لنا التقوى؟ قال: تقوى الله عملٌ بطاعة الله على نور من الله؛ رجاء رحمة الله، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عقاب الله.

وبهذا يُعلم أنَّ تقوى الله ليست كلمةً يقولها المرء بلسانه أو دعوى يدَّعيها، وإنما تقوى الله عز وجل جدٌّ واجتهاد، ونصح للنفس بطاعة الله، والتقرُّب إليه بما يرضيه، ولا سيما فعل الفرائض والواجبات، والبُعد عن المعاصي والمنكرات، فمن كان هذا شأنه نال - بإذن الله - العاقبة الحميدة والنهاية الرشيدة، وأمن الفتن.

ألا ما أحوج الأمة اليوم إلى أن تُغْمَرَ قلوب أبنائها بتقوى الله جل وعلا ؛ حيث الفتن المُشتدة، والمحن المتلاحقة، والابتلاءاتُ المتداعيةُ، والرياتُ المتداخلة، والسُّبُلُ المتشابكة.

ثانيًا: ومن الضوابط المهمة لاجتناب الفتن لزومُ الكتاب والسنة والاعتصام بهما، فإنَّ الاعتصام بالكتاب والسنة سبيل العز والنجاة والفلاح في الدنيا والآخرة، وقد قال الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه: «إنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». [رواه أبو داود (٤٦٠٧)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٣٨٥١)].

وقد قال الإمام مالك - رحمه الله - إمام دار الهجرة: «السنة سفينة نوح، فمن ركبها نجا، ومن تركها هلك وغرق». ومن أمَّر السنة على نفسه نَطق بالحكمة وسلم من الفتنة، ونال خيري الدنيا والآخرة، فالنجاةُ عند الاختلاف والسلامة من الفتنة إنما تكون بالتمسك بسنة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، والبعد عن الأهواء والبدع، وأن يحكِّم المرءُ السنة على نفسه فيما يأتي ويذر في حركاته وسكناته وقيامه وقعوده وجميع شئونه، ومن كان هذا شأنه فإنه يُعصم ويُوقى - بإذن الله - من كل شرٍّ وبلاء وفتنة.

ثالثًا: ومن الضوابط العظيمة لاتقاء الفتن: الرفقُ والأناة وعدم العجلة، والتأمل في عواقب الأمور، فإن العجلة لا تأتي بخير، والأناةُ فيها الخير والبركة، ومن كان عجولًا في أموره مندفعًا في تصرُّفاته، فإنه لا يأمن على نفسه من الزلل والوقوع في الانحراف والخلط، وأما من كان رفيقًا متأنيًا بعيدًا عن العجلة والتهور والاندفاع، متأملًا وناظرًا في عواقب الأمور، فإنه - بإذن الله - يصل إلى العواقب الحميدة التي يسعد بها في الدنيا

والآخرة.

وقد جاء عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إنها ستكون أمور مشتبهات، فعليكم بالتؤدة، فإنك أن تكون تابعًا في الخير خيرٌ من أن تكون رأسًا في الشر».

إن من يندفع في معالجة الأمور، ويبتعد عن سبيل الأناة والتؤدة يفتح على نفسه وعلى غيره من عباد الله بابًا من الشرِّ والبلاء، يتحمل وزره ويبوء بإثمه ويجني عاقبته الوخيمة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشرِّ، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه». [صحيح سنن ابن ماجه: ١٩٤].

رابعًا: وإن من الضوابط المهمة: لزوم جماعة المسلمين، والبعد عن التفرُّق والاختلاف، فإنَّ الفرقة شرٌّ والجماعةُ رحمة، الجماعةُ يحصل بها قوة لُحْمَة المسلمين وشدة ارتباطهم وقوة هيبتهم وتحقق وحدتهم، ويحصل بها التعاون بينهم على البر والتقوى، وعلى ما تكون به سعادتهم في الدنيا والآخرة، وأما الخلاف فإنه يجرُّ عليهم شرورًا كثيرة، وأضرارًا عديدة وبلاءً لا يحمدون عاقبته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجماعة رحمة، والفُرقة عذاب». [رواه أحمد: ٢٧٨/٤، وهو في صحيح الجامع: ٣١٠٩]. وقال صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالجماعة وإياكم والفُرْقَة». [صحيح سنن الترمذي: ١٥٧٨].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تختلفوا، فإنَّ من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا». [رواه البخاري: ٢٤١٠].

وإنَّ الأمة اليوم بحاجة أكثر من أي زمان مضى إلى الاتحاد على منهج الكتاب والسنة، حتى تصب الجهود في محصلة واحدة نحو الهدف السامي الذي يسعى إليه كل مسلم، لقيادة سفينة الأمة إلى بر الأمان، وشاطئ الإيمان، وإن كل مسلم على ثغر من ثغور الإسلام في خدمة دينه وعقيدته، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فأرُوا الله - أيها المسلمون - من أنفسكم خيرًا.

خامسًا: ومن الضوابط العظيمة التي يلزم مراعاتها لاتقاء الفتن واجتناب شرِّها: الأخذ عن العلماء الراسخين والأئمة المحققين، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «البركةُ مع أكابركم». [الصحيحة: رقم: ٢٨٨٤]. فالبركة مع الأكابر الذين رسخت أقدامهم في العلم وطالت مدَّتهم في تحصيله، وأصبح لهم مكانة في الأمة بما آتاهم الله من العلم والحكمة والأناة والنظر في عواقب الأمور، فعن هؤلاء أمرنا أن نأخذ، قال الله تعالى: « وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا » [النساء: ٨٣]، فمن كان معوِّلاً على هؤلاء أمن الفتنة وحمد العاقبة، وإن من رحمة الله بعباده أن يُقيض في كل زمان ومكان - رجالاً أكفاء، ينفون عن دين الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمرُ الله». [البخاري: ٣٦٤١، ومسلم: ١٠٣٧].

سادسًا: ومن الضوابط المهمة لتجنب الفتن: حسن الصلة بالله ودعاؤه سبحانه، فإن الدعاء مفتاح كل خير في الدنيا والآخرة، ولا سيما سؤال الله تبارك وتعالى أن يجنب المسلمين الفتن ما ظهر منها وما بطن، والتعوذ به سبحانه من مضلات الفتن، فإن من استعاذ بالله أعاذه، ومن سأل الله أعطاه، فإنَّه سبحانه لا يخيّب عبدًا دعاه، ولا يردُّ عبدًا ناده.

وإنا لنسأل الله الكريم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجنب المسلمين الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يحفظ على المسلمين أمنهم وإيمانهم، وأن يقيهم الشرور كلها، وأن يحمِّدهم العواقب، «اللهم إني أسألك من الخير كله ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم». [صحيح الجامع: ١٢٧٧].

والحمد لله رب العالمين.

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، غفارُ الذنوب، وستّارُ العيوب، وقابلِ التوبة ممن يتوب، وأشهد أن نبينا محمدًا عبدُ الله ورسوله ومصطفاه القائل: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفدت الشياطين ومردة الجن، وغُلّقت أبواب النار، فلم يُفتح منها باب، وفُتّحت أبواب الجنة فلم يُغلق منها باب، وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشرِّ أقصر، ولله عتقاءُ من النار، وذلك كل ليلة». [صحيح الجامع رقم: ٧٥٩].

أما بعدُ:

فإنَّ من الحكم المأثورة الجارية مجرى الأمثال قولهم: «إن الله يمهل ولا يهمل».

أحبتي في الله: لقد توهم أناس في أمر الذنب؛ إذ لم يروا تأثيره في الحال، وقد يتأخرُ تأثيره فينسون أنه من الذنب، ولم يعلم المغتر أنَّ عقوبة الذنب تحل ولو بعد حين، قال الله تعالى: «مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» [النساء: ١٢٣].

فالله تعالى يُوالي نعمه على عباده، لتكون عونًا لهم على طاعته، والتقرب إليه، فإذا استعانوا بنعمه على معصيته، وفرَّطوا في جنبه، وأضاعوا أوامره، واستهانوا بنواهيه، واستخفوا بحُرُماته - غيّر الله عليهم حالهم، «جَزَاءً وِفَاقًا» [النبأ: ٢٦]، قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ» [الرعد: ١١]، «ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [الأنفال: ٥٣]، فإذا غيَّر العبادُ الطاعةَ بالمعصية، والحقَّ بالباطل، والمعروف بالمنكر، غيَّر الله عليهم الغنى بالفقر، والعزَّة بالذلة والمهانة، والقوة بالضعف والهزيمة، والعلم بالجهل، والأمن بالخوف، والسعادة بالقلق، والنعَم بالنِّقَم، والخير بالشدة.

لم ينزل بلاءٌ إلا بذنب

فلم ينزل بلاءٌ من الله إلا بذنوب العباد وتقصيرهم وإعراضهم عن ربهم، وإقبالهم على شهواتهم، قال الله تعالى: «وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ» [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: «أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [آل عمران: ١٦٥].

إنَّ للمعاصي شؤمها، ولها عواقبها في النفس والأهل، في البر والبحر، بالمعاصي يهونُ العبدُ على ربِّه فيرفعُ مهابته من قلوب خلقه: «وَمَن يُهِنِ

اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ » [الحج: ١٨].

يقول الحسنُ - رحمه الله -: «هانوا عليه فعصوه، ولو عزُّوا عليهم لعصمهم».

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: لما فُتحت قبرصُ رأيتُ أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير! ما أهون الخلقَ على الله إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمةٌ قاهرةٌ ظاهرةٌ لهم الملكُ تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى.

إخواني: إنَّ شر ما ابتُليت به النفوس: الاغترار والتمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير لائمة، وتوقعُ القرب من الله بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار.

الاغترار بإمهال الله!!

وإنَّ سنن الله عز وجل تأبى أن تترك العصاة من غير عقوبة، ولقد قصَّ الله علينا قصص الذين اغتروا بإمهال الله لهم فتمردوا مغترين بقوتهم، حتى قال قوم عاد: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » [فصلت: ١٥ - ١٦].

إمهال الله للعصاة رحمة بهم

وعمَّ قومَ نوح الغرقُ، وأهلكت عادًا الريحُ العقيمُ، وأخذت ثمودَ الصيحةُ، وقُلبت على قوم لوط ديارُهم، فجعل الله عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارةً من سجيل، فساء مطر المنذرين، «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » [العنكبوت: ٤٠]، إنها الحقيقة الصارخة «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ » [العنكبوت: ٤٠]، تلكم الذنوب، وتلكم عواقبها، وما هي من الظالمين ببعيد.

ولقد كانوا يستعجلون أنبياءهم بالعذاب، قال الله تعالى: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ » [الرعد: ٦]، وفائدة إمهال الله الخلق وإعطائهم مهلة يمكن أن يتذكر فيها من يتذكر إقامة الحجة عليهم والإعذار إليهم، قال الله تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا » [الإسراء: ١٥]، ولعل أن يتوب منهم تائب ويرجع راجع، ولو أنَّ الله آخذ الناس بظلمهم حين يتورطون في معاصيه ويرتكبون مناهيه، لما ترك على ظهرها من دابة، فإمهال الله للعصاة رحمة بهم، «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » [سورة التوبة: ١١٥]، فالذين عرفوا سنن الله في خلقه كانوا يتوقعون ذلك العذاب وينذرون قومهم عاقبة سرفهم في المعاصي والفسوق واللذات والشهوات، والمغترون كالإبل المقيدة لا تدري فيما قيدوها ولا لمَ أطلقوها.

فالمذنبون والمقصرون فريقان: فريقٌ يقع في الذنب، ثم يرجع ويتعظ ويتوب، وفريق يصابُ بذنبه، ويصرُّ على حنثه حتى يُطبع على قلبه، قال الله تعالى: «أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » [الأعراف: ١٠٠].

شهر تقال فيه العثرات، وترفع فيه الدرجات

وإذا طُبع على القلب فقد وصل الفسادُ إلى حال لا يقبلُ صاحبُها خيرًا، ولا يفقه قولًا، ولا تنفعه عبرة ولا ذكرى، «وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ » [يونس: ١٠١]، ومن وافر حظ أمة الإسلام وعنوان سعادتها وكرامة الله لها، أن منَّ عليها بشهر رمضان - شهرٌ تُقال فيه العثرات، وتُرفع فيه الدرجات، وتُرحم فيه العبرات، فكم قسم الله فيه من خير! وكم نصر فيه من مظلوم! وكم كشف فيه من غمة! وكم أُكسب فيه من معدوم!

إنَّ بلوغ شهر رمضان نعمة كبرى، يقدرها حقَّ قدرها الصالحون المشمرون، وإنَّ واجب الأحياء استشعار هذه النعمة، واغتنام هذه

الفرصة للتغير، وإنه ليجبُ على كل مسلم أن يبدأ جادًا في إصلاح نفسه، وتغيير مجرى حياته، وحياة أسرته من الشرِّ إلى الخير، ومن المعصية إلى الطاعة، من الشرك إلى التوحيد، ومن البدعة إلى السنة، ومن العقوق إلى البر، ومن القطيعة إلى الصلة، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الظلم إلى العدل، ومن أكل الحرام إلى أكل الحلال، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن الإفساد إلى الإصلاح، ومن الغلظة إلى الرحمة، ومن الفتور إلى علو الهمة، ومن طول الأمل إلى قِصَر الأمل، ومن التفريط والتهاون والإضاعة إلى التوبة والإنابة والطاعة، إنها إن فاتت هذه الفرصة كان حسرة ما بعدها حسرة، أي خسارة أعظمُ من أن يدخل المرء فيمن عناهم الرسول صلى الله عليه وسلم بحديثه على منبره في مساءلة بينه وبين جبريل الأمين: «من أدرك شهر رمضان فلم يُغفر له فدخل النار فأبعده الله قل آمين، فقلت آمين». [صحيح الترغيب: ٩٩٧].

فيا إخواني: عودوا إلى دينكم، وغيّروا ما بأنفسكم كي يغيّر الله ما بكم، وأروا ربكم من أنفسكم خيرًا، فمن كان محسنًا فليزدد، ومن كان مقصرًا فليقصر، ومن كان مذنبًا فليبادر بالتوبة النصوح، ها هو مولاكم الرحيم الرحمن يناديكم بنداء الإيمان: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ» [التحريم: ٨].

عفو الله يسع الذنوب!!

والاعترافُ بالذنب أمام الله - تعالى - له أثره الطيب، وقد ضرب القرآنُ مثلاً بما صدر عن نبيه «ذا النون» وهو في جوف الحوت، وكان فائدةُ هذا الاعتراف الفرجَ العاجل والنجاة من الكرب والشدة، فقال الله تعالى: «وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ» [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨]، فانظر إلى قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ» [الأنبياء: ٨٨]، فهو إيحاءٌ قويٌّ للمؤمن الصادق بأن يأخذ بهذا الهدى الذي فيه نجاته، كما أنه بشارةٌ أيضًا لكل مؤمنٍ وقع في شدةٍ وغمّ أنّ الله سينجيه، ومن ظنّ أنّ ذنبًا لا يتسعُ لعفوِ الله فقد ظنّ بربِّه ظنّ السوء.

لقد جعل الله - بمنه وكرمه - باب التوبة مفتوحًا لعباده، مهما عظمت سيئاتهم، وكبرت خطيئاتهم، فليس شيء أعظم من الكفر بالله، ومع ذلك يقول الغفورُ التواب: «قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ» [الأنفال: ٣٨].

ويقول سبحانه - بعد ذكر عقوبة عدد من الكبائر، كالشرك، والقتل، والزنى: «إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا» [الفرقان: ٧٠]، وقوله عز من قائل: «وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا» [النساء: ١١٠].

اغتنموا زمن الأرباح، فأيام المواسم معدودة فهنيئًا لكم أيها المؤمنون، ويا بشرى لكم أيها التائبون، اغتنموا زمن الأرباح، فأيامُ المواسم معدودة، وأوقات الفضائل مشهودة، وفي رمضان كنوزٌ غالية فهو موسم للتغيير، فيا لها من فرصة عظيمة، ومناسبة كريمة، تُفتح الجنان، وتنزل الرحمات، وتُرفع الدرجات، وتُغفر الزلات، «وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشرِّ أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة» [صحيح الجامع رقم: ٧٥٩].

يا لها من فرصة لا يُحرمها إلا محروم، وفقني الله وإياكم إلى عمل الصالحات، واجتناب المنكرات، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وعند الممات، إنه سميع قريب مجيب الدعوات، آمين.

علامات الربح والخ

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا، وصلى الله على نبينا وعلى آله وأتباعه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإنَّ الشهور والليالي والأعوام مقادير للآجال ومواقيت للأعمال تنقضي حثيثًا وتمضي جميعًا، والموت يطوف بالليل والنهار، لا يؤخر من حضرت ساعته وفرغت أيامه. والأيام خزائن حافظة لأعمالكم تُدعون بها يوم القيامة، « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ » [آل عمران: ٣٠] ينادي ربكم: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». [مسلم: ٢٥٧٧/١٩٩٤/٤].

أحبتي في الله: لقد مرَّت أيام رمضان المفضلة ولياليه الغُر الخيرة، مضت بما أُودعَ فيها وخُتمت ملفاتها، وطُويت صفحاتها، فسبحان مُصرفّ الليل والنهار، قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، وإن المسلم - بانقضاء أيام رمضان - واقع بين شعورين: شعور بالسرور، وشعور بالأسف.

أما السرور: فإن المسلم تغمره نشوة سرور بأنه أدرك شهر رمضان ووفق لصيامه وإكمال عدَّته، يستبشر بوعد الله له بالرحمة والمغفرة والعتق من النار، يشعر بأنه أدى ركن إسلامه في أمان واطمئنان، يفرح بما أحل له من الطيبات في الليل والنهار، ذاكرًا قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه». [البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١/١٦٣)].

وأما الأسف: فإنَّ المسلم يأسف لفراق شهر الخير والبركة، كما يأسف الحبيب الذي يفارق حبيبه، يأسف لانقضاء أيام النفحات، والإفاضات والخصوصيات ومضاعفة الحسنات، يأسف لفراق الأحبة الذين صاحبوه في ليالي رمضان في الاعتكاف وقراءة القرآن.

فبالشعور الأول يسأل الله تعالى أن يتقبل منه صالح الأعمال، وبالشعور الثاني يسأل الله أن يعيد عليه شهر رمضان، وإن استدامة أمر الطاعة وامتداد أزمانها زاد الصالحين، وتحقيق أمل المحسنين، وليس للطاعة زمن محدود، ولا للعبادة أجل معدود، بل هي حق لله على العباد يعمرون بها الأكوان على مر الأزمان، وشهر رمضان ميدان لتنافس الصالحين، وتسابق المحسنين، يسمون بأرواحهم إلى الفضائل ويمنعون عنها الرذائل.

ويجب أن تسير النفوس على منهج الهدى والرشاد بعد رمضان، فعبادة رب العالمين ليست مقصورة على رمضان وليس للعبد منتهى من العبادة دون الموت، وبئس القوم يعبدون الزمان لا يعرفون الله إلا في رمضان، قال الله تعالى: « وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ » [الحجر: ٩٩]، وقال تعالى: «مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ » [الأحزاب: ٢٣]، فحصيلةُ المؤمن في دنياه عمرٌ محدودٌ بالساعاتِ والثواني، وكسبه المبذول رصيدٌ مدخرٌ بالأعمال المنجزات من غير كسل أو توانٍ، يتطلَّبُ في عُمر الحياة بقدَر ما كُتب له من فسحة، ويكدحُ فيها لينال أكبر المغانم، ومدارُ السعادة في طول العمر وحسن العمل، ومن كانت حصيلته ملأى بالخير من مختلف صنوفه فليهنأ وليستمسك «فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » [يونس: ٥٨].

فغريب إذن أن يُسيء أبناءُ هذا الدين الفهم لشعائر الإسلام، فلا يعملون الطاعات إلا في

خسارة بعد رمضان

مواسم معينة، وأوقات محدودة، فإذا انتهت، كان ذلك آخر عهدهم بها.

قال الله تعالى: « وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا » [النحل: ٩٢]. تلك هي النكسةُ المردية، والخسارةُ الفادحة.

فيا من عرفتم الخير في رمضان، كيف تزهدون فيه بعده؟ أنسيتم أنَّ ربَّ الشهور كلها واحد، وهو على كل أحوالكم وأعمالكم رقيب وشهيد؟ يا من أقبلتم على ربكم في رمضان، كيف نسيتموه بعده؟ يا من عرفتم أن الصلاة واجبة في أوقاتها، وفي الجماعة في بيوت الله، كيف تجاهلتم الصلاة بعد رمضان؟ يا من علمتم أن الله حرم عليكم المعاصي كيف رجعتم إليها؟ يا من كنتم تقبلون على القرآن كيف هجرتموه، يا لعظم الحرمان، أن يحور أناس بعد الخير إلى الشر وبعد الهدى إلى الضلال، وبعد طريق الجنة إلى طريق الجحيم، «أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ»!!

علامات الربح والخسارة بعد العمل:

ينبغي لكل مسلم أن ينظر في حاله، ويفكر في أمره ويتعرف على علامات الربح والخسارة بعد العمل، وأهمها الاستمرار على العمل الصالح، وإتباع الحسنة الحسنةَ، فمن كانت حاله بعد رمضان أحسنَ منها قبله بأن كان مقبلاً على الخير، حريصًا على الطاعة، مُواظبًا على حضور الجمع والجماعات، تائبًا منيبًا مُلتزمًا مستقيمًا صالحًا، بعيدًا عن المعاصي - فهذه أمارة قبول عمله إن شاء الله تعالى.

أما من كان حاله بعد رمضان كحاله قبله، فهو - وإن أقبل على الله في هذا الشهر - إلا أنه سرعان ما ينكص على عقبيه، ويعودُ إلى المعاصي، ويهجر الطاعات، ويجترحُ ما حرَّم الله ويضيِّعُ الصلوات، ويتبع الشهوات، ولا يصون سمعه وبصره وجوارحه، وأقواله وأفعاله وأمواله من المحرمات، فهذا لا يزداد من الله إلاَّ بعدًا، والعياذ بالله.

إذن للقبول والربح في هذا الشهر علامات، وللخسارة والرد أمارات، وإنَّ من علامة قبول الحسنة: فعل الحسنة بعدها، ومن علامات السيئة: السيئة بعدها، فأتبعوا الحسنات بالحسنات تكن علامة على قبولها، وأكثروا من الحسنات بعد السيئات تكن كفارة لها، قال الله تعالى: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ» [هود: ١١٢]. وقال صلى الله عليه وسلم: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها». [صحيح الجامع: ٩٧].

فكونوا - إخواني - بقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعمل، فالله لا يتقبل إلا من المتقين، وما أقبح فعل السيئة بعد الحسنة، ولئن كانت الحسنات يذهبن السيئات فإن السيئات قد يحبطن الأعمال الصالحات.

ألا فاتقوا الله عبادَ الله، وأروه من أنفسكم خيرًا، فمن كان مجتهدا فليزدد، ومن كان مقصرًا فليقصرْ، فالكيسُ من شمر في عبادة الله قبل أن يتوفاه الله، وتذكر بذلك سرعة تصرُّمه - أي سرعة انقضائه وانقطاعه - وقرب حلول الأجل، والعاجز من فتح على نفسه باب التسويف، واكتفى بالآمال والأماني، فيندم حيث لا ينفعه الندم حين يقول: «رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وفقنا الله وإياكم إلى عمل الصالحات، واجتناب المنكرات، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وعند الممات، إنه سميع قريب مجيب الدعوات.

أحوال النبي صلى الله عليه وسلم في الحج مع أهله

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله يهدي إلى الطيب من القول ويهدي إلى صراط الحميد، أحمده سبحانه وأشكره، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أدبَّه ربه فأحسن تأديبه صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا، وعلى آله وصحبه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أرعى الخلق لقريب، وأحناهم على رحم، وأكثرهم إحسانًا إلى أهل، شهد المخالطون له صلى الله عليه وسلم بذلك، فوصفه واصفهم بأنه صلى الله عليه وسلم كان أبر الناس، وأوصل الناس. [مسلم: ١٠٧٢].

وقد كان من أعظم ما وصل به صلى الله عليه وسلم أهله، وبر أقاربه به: دعوته إياهم إلى الخير، وحرصه على هدايتهم ونجاتهم من النار، ومن ذلك: وقوفه صلى الله عليه وسلم بمكة على الصفا - ينذرهم مغبة الشرك - قائلًا: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ».

وقوله لعمه أبي طالب لما حضرته الوفاة: «أَيْ عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ». [صحيح البخاري: رقم ٣٨٨٤].

وفي الحج تجلى برّه صلى الله عليه وسلم بأهله، وصلته لرحمه، وإحسانه إلى أقاربه في صور شتى ومشاهد مختلفة، ولعل من أبرز أحواله صلى الله عليه وسلم ما يلي:

أولًا: تعليمهم أحكام النسك:

اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بتعليم أهل بيته أحكام النسك؛ ليصفو لهم تقربهم، وتصح منهم عبادتهم، ومن دلائل ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: «افْعَلِي مَا يَفْعَلُ الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ» [صحيح مسلم ١٢١١].

وقوله صلى الله عليه وسلم لأُغيلمة بني عبد المطلب ليلة مزدلفة: «لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس». [صحيح سنن الترمذي رقم: ٧٠٩].

ولم يكن يكتفي في تفقيههم بمجرد التوجيه المباشر لهم بل كان صلى الله عليه وسلم يحاورهم، ويجيب عن أسئلتهم، كما يدل عليه

حديث حفصة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يَحْلِقْنَ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: فَمَا يَمْنَعُكَ؟ فَقَالَ: لَبَّدْتُ رَأْسِي، وَقَلَّدْتُ هَدْيِي، فَلَسْتُ أَحِلُّ حَتَّى أَنْحَرَ هَدْيِي». [البخاري: ٤٣٩٨].

وفي وقتنا نرى أن هذا الأمر عزيز، إلا من رحم ربي، من القلة النادرة من الناس من يهتمون بتعليم أهاليهم الأحكام قبل فعلها، ويفهمونهم بحكم النسك ومقاصده، ويجيبون عن استفساراتهم، فكن أخي الحبيب من هذا الصنف الفاضل، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي». [صحيح رقم: ٣٠٥٧].

وقم بالأمر على وجهه، فإنك مؤتمن على أهلك، وراع لهم، وكل راع مسئول بين يدي مولاه عما استرعاه، قال صلى الله عليه وسلم: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». [صحيح الجامع: ٤٥٦٩].

ولك أسوة حسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ بنذارة أهله وتعليمهم قبل الناس، امتثالاً لأمر ربه عز وجل في قوله: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ» [الشعراء: ٢١٤].

ثانيًا: إشغالهم بأمر النسك قبل الخروج له:

أشغل النبي صلى الله عليه وسلم أهله النسك قبل خروجه إلى الموسم، ومن دلائل ذلك: قول عائشة رضي الله عنها: «فَتَلْتُ لِهَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَعْنِي: الْقَلَائِدَ - قَبْلَ أَنْ يُحْرِمَ». [صحيح البخاري: ١٧٠٤]، فما أحرى بك أن تهتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، فتشغل نفسك وأهل بيتك بأمر النسك وتعلق قلبك وقلوبهم به، قبل السفر إلى مواضعه.

ثالثًا: الحرص على براءة ذممهم:

أوجب الله تعالى حج بيته الحرام على القادرين فقال سبحانه: «وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» [آل عمران: ٩٧]. ولذا فلا تزال ذمة المستطيع مشغولة به، ولا تبرأ إلا بأدائه، ومن تأمل في سيرته صلى الله عليه وسلم في الحج شاهد بجلاء حرصه صلى الله عليه وسلم على براءة ذمم أهل بيته، ومن أدلة ذلك: اصطحابه صلى الله عليه وسلم في خروجه للحج جميع زوجاته التسع رضي الله عنهن. [صحيح سنن أبي داود رقم: ١٥١٥، وزاد المعاد لابن القيم: ١٠٦/٢].

ومنها: خروجه صلى الله عليه وسلم بضعفة أهله معه. [صحيح البخاري: ١٦٧٨، ١٦٨٠، وصحيح مسلم: ١٢٩٣].

ومنها: تحريضه صلى الله عليه وسلم لآل بيته حتى المريض منهم على المسارعة بأداء النسك، ومن ذلك: أنه صلى الله عليه وسلم دخل على ابنة عمه: ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنها وهي عليلة، فقال لها: «مَا يَمْنَعُكِ يَا عَمَّتَاهُ مِنْ الْحَجِّ؟ فَقَالَتْ: أَنَا امْرَأَةٌ سَقِيمَةٌ، وَأَنَا أَخَافُ الْحَبْسَ، قَالَ: فَأَحْرِمِي وَاشْتَرِطِي أَنَّ مَحِلِّكِ حَيْثُ حُبِسْتِ». [صحيح البخاري: رقم ٥٠٨٩].

رابعًا: تشجيعهم على الخير:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يحث آل بيته رضي الله عنهم على فعل الطاعات، ويشجّعهم على التزود من الخيرات، ومن ذلك: أنه صلى الله عليه وسلم حين مرَّ على بني عمومته، وهم ينزعون الماء من زمزم ويسقون الناس، خاطبهم قائلاً:

«انْزِعُوا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَوْلَا أَنْ يَغْلِبَكُمْ النَّاسُ عَلَى سِقَايَتِكُمْ لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ». [صحيح مسلم رقم: ١٢١٨].

والمقصود: أنَّ الناس سيتأسون به صلى الله عليه وسلم في القيام بالسقاية فيزاحمونهم فيها.

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: «اعملوا، فإنكم على عمل صالح، لولا أن تُغلَبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه - يعني عاتقه-». [صحيح البخاري رقم: ١٦٣٦].

بل إنه صلى الله عليه وسلم كان ييسر لهم ذلك، ومنه: إذنه لعمه العباس رضي الله عنه أن يبيت بمكة ليالي أيام التشريق من أجل سقايته الحجيج. [صحيح البخاري: ١٧٤٥].

فإن أردت أن تتضاعف حسناتك، وتثقل موازينك بأعمال غيرك، وأن تحسن إلى الحجيج، وتربي أهل بيتك على القربات، فدُلهم على الخير، ويسّره عليهم، وشجّعهم على الإحسان إلى المحتاجين، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا». [صحيح مسلم رقم: ٢٦٧٤].

خامسًا: الاستعانة بالله ثم بهم:

استعان النبي صلى الله عليه وسلم بآل بيته رضي

الله عنهم في بعض أموره، ومن ذلك: جعله صلى الله عليه وسلم زوجه عائشة تفتل له قلائد بُدنه من صوف - كان عندها بالمدينة - قبل أن يحرم. [صحيح البخاري رقم ١٦٩٦، ١٧٠٤، ١٧٠٥].

ومنها: ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ: الْقُطْ لِي حَصًى فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ. [صحيح سنن ابن ماجه رقم: ٢٤٥٥].

ومنها إعطاؤه صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه ما بقي من بُدْنه لينحرها. [صحيح ابن ماجه: ٢٤٩٤].

ومنها: أمره صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه بأن يقوم على بُدْنه، وبأن يتصدق على الناس بلحومها وجلودها وأجلتها. [صحيح البخاري: ١٧١٨، ٢٢٩٩].

ومنها: استسقاؤه صلى الله عليه وسلم من بني عمِّه حين جاء إليهم وهم يسقون الناس من زمزم، فقال لعمه العباس رضي الله عنه: «اسقني فشرب». [صحيح البخاري: ١٦٣٥].

فيا من ينشد المعين البعيد فهلا القريب.. هذا هدي نبيك صلى الله عليه وسلم.

سادسًا: وقايتهم من الفتن:

ومنها: لَيُّه صلى الله عليه وسلم لعنق الفضل بن العباس رضي الله عنهما حين أخذ ينظر إلى الفتاة الخثعمية، عن علي رضي الله عنه قال: «قال العباس: يا رسول الله، لِمَ لويت عنق ابن عمك؟ قال: رأيت شابًا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما». [صحيح سنن الترمذي: ٧٠٢].

ومنها: توجيهه صلى الله عليه وسلم لنسائه بعدم مخالطة الرجال في الطواف، مع أنهن رضي الله عنهن كن يطفن معهم: قوله صلى الله عليه وسلم لأم سلمة رضي الله عنها حين اشتكت إليه أنها شاكية، قال صلى الله عليه وسلم: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة». [صحيح البخاري: ١٦١٩].

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لها: «إذا أقيمت صلاة الصبح فطوفي على بعيرك، والناس يصلون، ففعلت، ولم تصل حتى خرجت». صحيح البخاري رقم (١٦٢٦).

سابعًا: الرفق بهم والتيسير عليهم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم في الحج رفيقًا بآل بيته، رحيمًا بهم، يعطف على ضعيفهم، ويختار الأيسر لهم.

منها: اختيار صلى الله عليه وسلم الأيسر لزوجاته، وأمرهن به. لحديث حفصة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يَحْلِلْنَ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ». [صحيح البخاري: ٤٣٩٨].

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لما دخل على ضباعة بنت الزبير وهي وجعة: «حُجِّي وَاشْتَرِطِي وَقُولِي: اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي». [صحيح البخاري: ٥٠٨٩].

ومنها: إذنه صلى الله عليه وسلم لعمِّه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أن يبيت بمكة ليالي منها، من أجل سقايته. [صحيح البخاري: ١٦٣٤].

ثامنًا: الصبر عليهم:

إثبات صبره صلى الله عليه وسلم في الحج على آل بيته رضي الله عنهم لا يحتاج إلى دليل؛ إذ كان صلى الله عليه وسلم معلمًا لهم وقائمًا بشئونهم في وقت واحد، وكان في أهله من كبر سنه كزوجه سودة، والمريض الشاكي كضباعة وأم سلمة، وكثير من النساء كابنته فاطمة وجميع زوجاته، وغلمان بني عبد المطلب وبني هاشم، فما رُئي صبر كصبره، ولا مَن هو أكثر احتمالاً لأهله منه صلى الله عليه وسلم، إذ وجَّه وأرشد، ورحم ورفق، وأحسن وأنفق، وراعى وواسى، وفاكه ولاطف، وصان الحقوق، وشجَّع على الخير، ودبَّر شأنهم أحسن تدبير، وقام بالأمر خير قيام، كل ذلك بنفس منبسطة وصدر منشرح، ودون أن يُسمع منه صلى الله عليه وسلم لفظ نابٍ، أو يصدر منه مَنّ أو أذى.

فيا لله.. تلك الشمائل المحمدية، والأخلاق القرآنية، فالصبر على الأهل مهمة شاقة، وعمل جليل لا يطيقه إلا الكبار، ولا يحتمله إلا الرجال، وبخاصة في موسم الحج الذي يزداد فيه العدد وتعظم المشقة وتشتد.

تاسعًا: رعايتهم ومواساتهم:

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يراعي خواطر أهله، فيفعل ما يريدون إذا كان الأمر لا يعارض شرع الله تعالى، ويواسي أقاربه حين كان الأمر يقع على خلاف ما يشتهون، وأبرز ما كان هذا الأمر في الحج: مع زوجه عائشة رضي الله

عنها، وذلك حين دخل عليها وهي تبكي؛ لأنها مُنعت العمرة المفردة بسبب الحيض، فواساها صلى الله عليه وسلم وطيب خاطرها قائلاً لها: «فلا يضرك، أنت من بنات آدم، كتب الله عليك ما كتب عليهن، فكوني في حجك عسى الله أن يرزقكها». [صحيح البخاري: ١٧٨٨، وصحيح مسلم: ١٢١١].

وحين قالت رضي الله عنها: «يَا رَسُول اللَّه، أَتَرْجِعُ صَوَاحِبِي بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَأَرْجِعُ أَنَا بِالْحَجِّ فَأَمَرَ رَسُول اَللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ فَذَهَبَ بِهَا إِلَى التَّنْعِيمِ فَلَبَّتْ بِالْعُمْرَةِ». [صحيح البخاري: ١٥٦١، وصحيح مسلم: ١٢١١].

فمن يا ترى يفعل اليوم بأهله في الحج كفعله صلى الله عليه وسلم؟

عاشرًا: التلطف معهم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم في الحج جميل العشرة، حسن المنطق، يتودد إلى أهله، ويتلطف معهم، ويباسط صبيانهم ويداعبهم، يقول جابر رضي الله عنه واصفًا إياه حين أهلّ صلى الله عليه وسلم بحج، وأهلت عائشة رضي الله عنها بعمرة: «وَكَانَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً سَهْلاً إِذَا هَوِيَتْ الشَّيْءَ تَابَعَهَا عَلَيْهِ». [صحيح مسلم: ١٢١٣].

منها: قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها، حين حاضت فدخل عليها وهي تبكي: «مَا يُبْكِيكِ يَا هَنْتَاهُ؟» [صحيح البخاري رقم ١٥٦٠]. [معنى: [يا هنتاه: يا هذه].

فإلى الله المشتكى من قوم هجروا في التعامل مع أهاليهم هذا الخُلق النبوي الكريم، حتى صار أهالي كثير منهم لا يعرفون منهم في موسم الحج أو العمرة غير المشاحنة وسوء العشرة والتحقير والسخرية، والمن والإساءة، والتضجر والشكوى، والغلظة والفظاظة، بل قد يصل الأمر في أحيان إلى حد السب والشتم، بل ربما يصل الأمر إلى الضرب والقذف.

يرحم الله ابن عمر رضي الله عنهما: «كان له فسطاطان: أحدهما في طرف الحرم، والآخر في طرف الحل، فإذا أراد أن يعاقب أهله أو غلامه فعل ذلك في الفسطاط الذي ليس في الحرم، يرى أن مثل ذلك يدخل في الإلحاد فيه بظلم»؛ لقوله تعالى: «وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» [الحج: ٢٥]، فكيف بمن يريدُ ويفعل؟

الحادي عشر: الإحسان إليهم:

تعددت وجوه إحسانه صلى الله عليه وسلم إلى آل بيته وتنوعت بصورة جعلت المتأمل يجزم بأن كل أحواله صلى الله عليه وسلم معهم إحسان؛ إذ ما من جانب إلا وأنت راءٍ بأنَّ فضله صلى الله عليه وسلم عليهم ظاهر.

منها: كما في قصة ضباعة رضي الله عنها حين دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها: «أَرَدْتِ الْحَجَّ قَالَتْ: وَاللَّه لاَ أَجِدُنِي إِلاَّ وَجِعَةً، فَقَالَ لَهَا: حُجِّي وَاشْتَرِطِي، وَقُولِي: اَللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي». [صحيح البخاري: ٥٠٨٩، وصحيح مسلم: ١٢٠٧].

ومنها: إردافه لابن عمِّه الفضل رضي الله عنهما من مزدلفة إلى منى. [صحيح البخاري: ١٥٤٤ي.

ومنها: هديه صلى الله عليه وسلم عن نسائه رضي الله عنهن إذ ذبح البقر عنهن من غير أمرهن. [صحيح البخاري ١٧٠٩].

فانهج أخي هذا النهج مع أهلك، فهم أحق بإحسانك الديني والدنيوي تحظ بالأجر الجزيل وتبصر بركات ذلك عاجلاً وآجلاً.

الثاني عشر: حماية حقوقهم:

صان النبي صلى الله عليه وسلم حقوق آل بيته رضي الله عنهم، وحرص على حفظها، وعدم تعدي الآخرين عليها، وأبرز ما يتجلى ذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيت، ويجعل يستلم الحجر بمحجنه، ثم أتى السقاية بعدما فرغ، وبنو عمِّه ينزعون منها، فقال: ناولوني، فرُفع له الدلو فشرب، ثم قال: لولا أنَّ الناس يتخذونه نسكًا، ويغلبونكم عليه لنزعت معكم». [صحيح البخاري رقم: ١٦٣٦].

هذه بعض جوانب أحواله صلى الله عليه وسلم في الحج مع أهل بيته، ونحن مأمورون بالتأسي به صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: « لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا » [الأحزاب: ٢١].

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبسنة سيد المرسلين، وصلى اللهم وسلم على نبينا محمد.

سرعة استجابة الصحابة لأمر الله ورسوله

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله الذي خلقنا وهدانا، ورزقنا واجتبانا، ومن كل ما سألناه منحنا وأعطانا، فضلاً منه ونعمة وامتناناً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنزل علينا قرآناً، هدى للناس وبياناً، وحجة وفرقاناً، وأشهد أنَّ نبينا محمداً عبده ورسوله، أعظم الأمة إيماناً، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، الذين كانوا بنعمة الله إخواناً، وعلى الخير أعواناً، وعلى من تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم بإيمان، أما بعدُ:

فمن المعلوم الثابت أنَّ جيل الصحابة رضوان الله عليهم كان جيلاً فريدًا، لم يشهد الزمان مثله، لأنه جيل تخرج من مدرسة الدعوة الإسلامية، التي كان يقودها المربي الأسوة، والنبي الخاتم، صلوات الله وسلامه عليه، ولقد شهد الله تعالى لهم بهذا، فقال تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» [آل عمران: ١١٠]، وهذا الخطاب وإن كان عامًا للأمة كلها، إلا أنَّ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هم أحق الناس به، فإنه لم يبلغ إيمانهم أحد، ولم يقم في مقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقامهم أحد، ثم إنهم هم أول من خوطب بهذه الآية وعليهم أنزلت، وقد مدحهم الله تعالى صراحة في أكثر من آية:

قال الله تعالى: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [سورة التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [الحشر: ٨- ٩].

ونحن اليوم ننظر ونتساءل: أليس في الإمكان أن يعود المسلمون اليوم عودة حميدة إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، ونرى جيلاً كريمًا كالجيل الأول؟ هل يمكن أن تتكرر الصورة المشرقة المضيئة التي أراها السلف الصالح للدنيا كلها؟ أيمكن أن تعود سيرة المسلمين الأولى بجمالها وبهائها؟ والجواب: أما من ناحية الإمكان: فالإمكان حاصل، من الممكن، بل من اليسير - بإذن الله - وذلك إذا تأسينا بهم في سرعة الاستجابة لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد كان الواحد منهم - رضوان الله عليهم - يتلقى الأمر من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما يتلقى الجندي الأمر في الميدان ليعمل به فور تلقيه.

وإليك أخي القارئ صورًا مشرقة في المسارعة والاستجابة لهذا الجيل العظيم:

أولاً: مسارعة قوم من الأنصار إلى تولية وجوههم نحو الكعبة وهم ركوع:

روى البخاري عن البراء - رضي الله عنه قال: «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحبّ أن يُوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى: « قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا» [البقرة: ١٤٤]. فوُجِّه نحو الكعبة، وصلى معه رجل العصر، ثُمَّ خرج فمرّ على قوم من الأنصار، فقال لهم: «إنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم وإنه قد وُجِّه إلى الكعبة، فانحرفوا وهم ركوع في صلاة العصر». [صحيح البخاري: ٧٢٥٢، ٢٣٢/١٣].

ما أسرعهم تأسيًا بالرسول صلى الله عليه وسلم!! وقد سمعوا خبرًا عنه صلى الله عليه وسلم فلم يترددوا في التمسك به، بل لم ينتظروا رفع رؤوسهم من الركوع، وبادروا بالتوجه إلى حيث توجّه الحبيب الكريم صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة المشرفة، وهم ركوع.

ثانيًا: مبادرة الصحابة رضي الله عنهم إلى تنفيذ أمره صلى الله عليه وسلم باجتماعهم عند النزول في سفر: عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: «كان الناس إذا نزلوا منزلاً تفرقوا في الشعاب والأودية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن تفرّقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان». فلم ينزل بعد ذلك منزلاً إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال: «لو بُسط عليهم ثوب لعمهم». [صحيح سنن أبي داود رقم ٢٢٨٨، ٤٩٨/٢].

ثالثًا: إكفاء الصحابة القدور وهي تفور باللحم عند استماعهم النداء بتحريم لحوم الحمر الأهلية:

روى البخاري عن أَنَس بْن مَالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَهُ جَاء فَقَالَ: أُكِلَتْ الْحُمُرُ، فَسَكَتَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: أُكِلَتْ الْحُمُرُ، فَسَكَتَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: أُفْنِيَتْ الْحُمُرُ، فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى فِي النَّاس: إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ، فَأُكْفِئَتْ الْقُدُورُ وَإِنَّهَا لَتَفُورُ بِاللَّحْمِ. [صحيح البخاري: ٤١٩٩، ٤٦٧/٧- ٤٦٨].

فلم يفكر أولئك الأبرار - المحبون الصادقون للحبيب صلى الله عليه وسلم في التحايل أو البحث عن فرصة أو استثناء.

رابعًا: جري الخمر في سكك المدينة فور تحريمها:

لم يكن ابتغاء أولئك الأبرار المحبين الصادقين للحبيب الكريم صلى الله عليه وسلم عند النهي عما رغبوا فيه فحسب، بل تركوا أشياء كانوا تعودوا عليها منذ سنوات، بل ورثوها عن آبائهم، روى البخاري عن أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْخَمْرَ الَّتِي أُهْرِيقَتْ الْفَضِيخُ، وَزَادَنِي مُحَمَّدٌ الْبِيكَنْدِيُّ عَنْ أَبِي النُّعْمَانِ قَالَ: كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ فَنَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ فَانْظُرْ مَا هَذَا الصَّوْتُ. قَالَ: فَخَرَجْتُ: فَقُلْتُ هَذَا مُنَادٍ يُنَادِي أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ، فَقَالَ لِي: اذْهَبْ فَأَهْرِقْهَا، قَالَ: فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ. [البخاري: ٢٤٦٤، ١١٢/٥].

سبحان الله، وتم هذا كله من غير تردد ولا استفسار، يا له من استسلام مطلق، وانقياد كامل، كما قال الله تعالى: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» [النور: ٥١].

خامسًا: مبادرة الصحابة إلى خلع نعالهم في الصلاة حينما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم خلع نعليه:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلي بأصحابه، إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم». فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته قال: «ما حملكم على إلقائكم نعالكم؟».

قالوا: «رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا».

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ جبريل صلى الله عليه وسلم أتاني فأخبرني أنَّ فيهما قذرًا». وقال: «إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر، فإن رأى في نعليه قذرًا أو أذى فليمسحه، وليصل فيهما». [صحيح سنن أبي داود: ٦٠٥، ١٢٨/١].

الله أكبر، كم كانوا حريصين على المبادرة على التأسي به صلى الله عليه وسلم.

سادسًا: خلع المرأة سواريها عند استماع تهديد النبي صلى الله عليه وسلم:

لم تكن سرعة الاستجابة لله ورسوله من قبل الرجال فحسب، بل كانت كذلك من المؤمنات الصادقات.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «إن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها ابنة لها، وفي يد ابنتها مسكتان [تثنية مسكة وهي السوار] غليظتان من ذهب، فقال: أتعطين زكاة هذا؟ قالت: لا. قال: أيسرك أن يسوِّرك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟» قال: فخلعتهما

فألقتهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت: هما لله عز وجل ولرسوله. [صحيح سنن أبي داود: ١٣٨٢، ١/٢٩١].

الله أكبر، لم تقتصر المرأة المؤمنة المحبَّة للرسول الله صلى الله عليه وسلم على امتثال أمره بدفع زكاة السوارين، بل تنازلت عنهما وقدمتهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة لله عز وجل.

سابعاً: عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «يرحم الله نساء المؤمنات الأول، لما أنزل الله تعالى: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ» [النور: ٣١]، قمن إلى مروطهن فشققنها ثم اختمرن بها». [البخاري: ٤٧٥٨/٨/٤٨٩]. هكذا استجابة المسلمات لأمر الله تعالى.

ثامناً: التصاق النساء بالجدار تنفيذاً لأمره صلى الله عليه وسلم بالمشي في حافات الطريق:

عن أبي سعيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خارج من المسجد، فاختلط رجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «استأخرن فإنه ليس لكنَّ أن تحققن الطريق». يعني: تركبن حقها وهو وسطها. «عليكنّ بحافات الطريق». فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إنَّ ثوبها يتعلّق بالجدار من لصوقها. [صحيح سنن أبي داود رقم (٤٣٩٢، ٣/٩٨٩].

تاسعاً: عفو الصديق رضي الله عنه عند مسطح بن أثاثة:

كان فيمن خاض في حادثة الإفك مسطح بن إثاثة، وكانت أمه ابنة خالة الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح رجلاً فقيرًا، وكان الصديق ينفق عليه، فلما قال ما قال في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ونزلت الآيات ببراءتها، قال أبو بكر: «والله لا أعود أنفق على مسطح أبدًا بعدما قال ما قال». فنزل القرآن: «وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [النور: ٢٢]. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فتلاها عليه، فوالله ما هو أن سمعها حتى قال: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، والله لأردّن على مسطح ما كنت قطعته عنه». [متفق عليه].

عاشراً: سرعة استجابة أبي طلحة رضي الله عنه لأمر الله تعالى:

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان أبو طلحة رضي الله عنه أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فقال أنس: فلما نزلت هذه الآية: «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» [آل عمران: ٩٢]. جاء أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن الله تعالى أنزل إليك: «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» [آل عمران: ٩٢]، وإن أحب مالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بخ بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. [متفق عليه: البخاري: ١٤٦١/٣/٣٢٥، ومسلم: ٩٩٨/٢/٦٩٣].

فانظروا رحمكم الله: كيف استجاب أبو طلحة رضي الله عنه لأمر الله بالإنفاق، وبادر إلى الخروج من أحب أمواله إليه صدقة لله تعالى، ثمَّ لما أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعلها في أقاربه لم يسعه أيضًا إلا السمع والطاعة، فقام فقسمها في أقاربه وبني عمه.

والسؤال كما كانَ الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم؟ أليس في الإمكان أن يعود المسلمون اليوم عودة حميدة إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم؟ هل يعود للمسلمين عزّهم ومجدهم؟

والجواب: نعم، إذا رجعوا إلى دينهم، وتمسكوا بهدي نبيهم صلى الله عليه وسلم، كما كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، كانوا يعظّمون شعائر الله، ويعظّمون حرمات الله، وكانوا يعلمون أنه يجب عليهم سرعة التنفيذ لكل ما يأتيهم من عند الله، فإن أتاهم أمر فعلوه، وإن أتاهم نهي انتهوا؛ لأنهم علموا أنهم ليس لهم الخيرة من أمرهم إذا قضى الله ورسوله أمرًا، هكذا كان منهجهم في التلقي.

وفقني الله وإياكم للتأسي بهم.

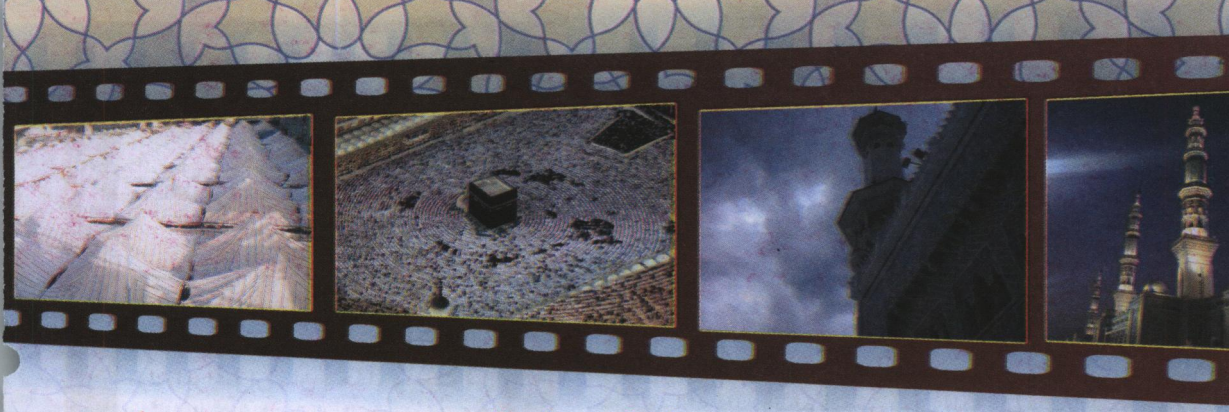

الإسلام يريد الـ

الحمد لله جعل التآخي سمةً من سمات أهل الإسلام، ولازمًا من لوازم الإيمان، وصيَّر عبادَهُ بعد الفُرقة كأشدّ وأقوى بنيان، وأصلي وأسلم على نبينا محمد الصادق الأمين الذي آخى بين المؤمنين، وسعى إلى التأليف بين قلوب المسلمين، فجمع الله به بعد الفُرقة، وأغنى به بعد العَيْلة، وأعزّ به بعد الذلة، فصلوات الله وتسليماته عليه وعلى آله الأطهار، وصحبه الأخيار، المهاجرين منهم والأنصار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

أما بعدُ:

فإنَّ الإسلام يريد لأهله حياة طيبه في الدنيا والآخرة ، ومن أعظم أسباب سعادة الدنيا أن تسودهم المحبة، وتنتشر بينهم المودة، حتى يكون المجتمع كله على قلب رجل واحد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ المؤمنين كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا - وشبَّك صلى الله عليه وسلم أصابعه». [البخاري: ٤٨١، ومسلم: ٢٥٨٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». [البخاري: ٦٠١١، ومسلم: ٢٥٨٦].

ومن المبادئ العظيمة التي أرسى دعائمها ديننا الحنيف: مبدأ الأخوة بين أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. هذه الأخوة لا تتغير بتغير الأحداث والزمان، ولا تختلف باختلاف القوم والمكان، بل تجمع أهل الإسلام على تباعد الأقطار، وتنائي الديار، واختلاف البقاع والأمصار، أُخوةٌ أساسها العقيدة والإيمان، وقاعدتها الدينُ الخالصُ للواحد الديان، أخوة متينة البناء لا تنالُ منها العواصف الهوجاء، وتقضي على العصبيَّات القومية، والفوارق الجنسية، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فهذه الأُخوة التي أُمرنا بها ليست أخوة نظرية فحسب، ولكنها أخوة عملية عميقة كامنة في النفوس والقلوب، غَرْسُها إخلاص الودّ، وثمرتها المعاملة الحسنة، كحال سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم-.

وأشهر المؤاخاة: مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، فكان لكل أنصاري أخٌ له من المهاجرين، حتى إنَّ الأنصاريّ ليذهب بأخيه المهاجر إلى بيته، فيعرض عليه قسمة كُلِّ شيء في بيته من مال أو متاع، ويشاركه حياته.

عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: «لما قدمنا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعدُ بن الرَّبيع: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسمُ لك نصف مالي، وانظر إلى أيِّ زوجتي هَويتَ نزلتُ لك عنها، فإذا حلت تزوجتها، فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سُوق فيه تجارة؟» [البخاري: ٢٠٤٨/٢٨٨/٤].

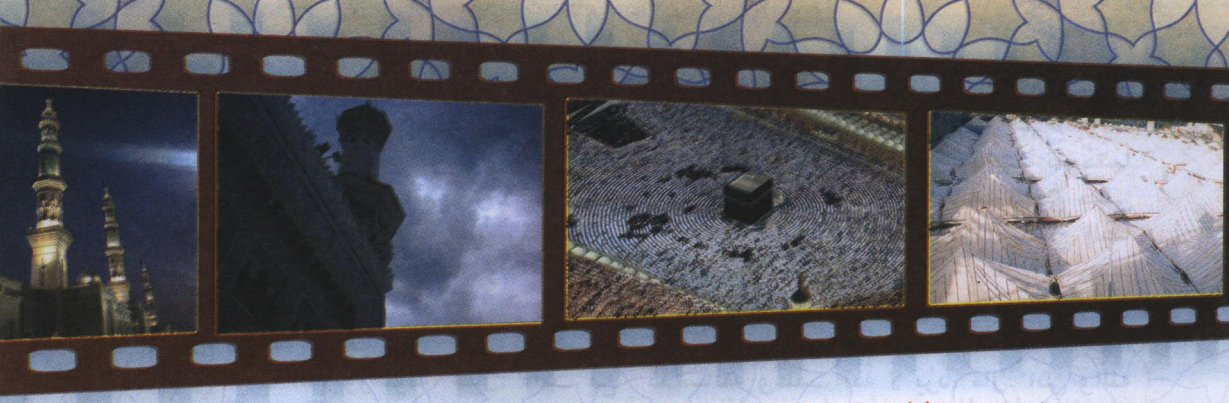

سعادة للمسلمين

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

فأيُّ إخاءٍ في الدنيا يعدل هذا الإخاء الإسلامي؟!!

فحسبهم ثناء الله عليهم بقوله: (وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) [الحشر: ٩].

وإنه لا يزال المجتمعُ بخير ما عرف فيه أفراده حقوق بعضهم تجاه بعض، وسادت بينهم الأخلاق الفاضلة، ومن هذه الحقوق:

أولاً: الحب في الله:

إن التحاب في الله والأخوة في دينه من أفضل القُرُبَات، منها: ذوق حلاوة الإيمان.

وحلاوة الإيمان تفوق كل حلاوة، حلاوة يجدها الإنسان في قلبه، ولذة عظيمة لا يساويها شيء، يجد انشراحًا في صدره، رغبة في الخير، حلاوة لا يعرفها إلا من ذاقها بعد أن حُرمها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثٌ من كن فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن أحبَّ عبدًا لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النار». [متفق عليه: البخاري: ١/٥٨، ٥٦، ومسلم: ٤٣].

ومنها: الظفر بمحبة الله:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تحابَّ رجلان في الله إلا كان أحبَّهما إلى الله عزَّ وجلَّ أشدُّهما حبًا لصاحبه». [صحيح الترغيب: ٣٠١٤].

ومنها: أنه أوثق عُرى الإسلام:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أوثق عُرى الإسلام: أن تُحبَّ في الله، وتبغض في الله». [صحيح الجامع: ٢٠٠٩].

ومنها الفوز بكرم الله:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أحبَّ عبدٌ عبدًا لله إلا أكرمهُ الله عزَّ وجل». [صحيح الجامع: ٦٩٣٩].

ومنها: كمال الإيمان:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان». [صحيح الجامع: ٦٩٦٥].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله جُلساءَ يوم القيامة عن يمين العرش، وكلتا يدي الله يمينٌ، على منابر من نور، وجوههم من نور، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ولا صديقين». قيل: يا رسول الله، مَن هم؟ قال: «هم المتحابون بجلال الله تبارك وتعالى». [صحيح الترغيب: ٣٠٢٢].

ومنها: المتحابون في الله وجوههم نور:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليبعثن الله أقوامًا يوم القيامة في وجوههم النور، على منابر اللؤلؤ، يغبطهم الناس، ليسوا بأنبياء ولا شهداء».

فجثا أعرابيٌ على رُكبتيه، فقال: يا رسول الله، جَلِّهم لنا نعرفهم؟ قال: هم المتحابُّون

في الله من قبائل شتَّى يجتمعون على ذكر الله يذكرونه». [صحيح الترغيب: ٣٠٢٥].

ومنها: أن يُحشر المرء مع من أحبَّ:

عن أنس رضي الله عنه: أنَّ رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: متى الساعة؟

قال: «وما أعددت لها؟» قال: لا شيء، إلا إني أحبُّ الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أحبُّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبِّي إياهم، وإنْ لم أعمل عملهُم. [متفق عليه].

هذه الثمرات من الحبِّ ليست كلاماً بلا معنى، ولكنها إخاءٌ روحيٌ وتعاقدٌ على الوفاء بتعاليم الإسلام، إخاءٌ خالصٌ لله وودٌ قائمٌ على الإيمان بالله، وترابطٌ يشدُّهُ حبل الله ومنّة منه سبحانه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٢- ٦٣].

وهذا الحبُّ كما يكون بين الإخوان والرفاق المتعاصرين فإنه يحمل طابع الاستمرار والبقاء ما بقي الإيمانُ فلا يقتصرُ هذا الحبُّ على أبناء الجيل، ولكنه حبُّ الخلف الصالح للسلف الصالح، فتحسُّ الأمةُ برابطة علويةٍ تجمعُها بسلفها وتشدُّها إليه، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ثانيا: الإيثار:

وهذا لا يكون إلا من خُلُق زكي، ومحبة لله تعالى، فالمسلم متى رأى مجالاً للإيثار آثر غيره على نفسه، وفضَّله عليها، فقد يجوع ليشبع غيره، ويعطش ليروي سواه، ولقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في الإيثار: فعَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ فِيهَا حَاشِيَتُهَا- قال سهل لأصحابه: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ قَالُوا: الشَّمْلَةُ. قَالَ نَعَمْ- قَالَتْ: نَسَجْتُهَا بِيَدِي فَجِئْتُ لِأَكْسُوَكَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ، فَحَسَّنَهَا فُلَانٌ، فَقَالَ: اكْسُنِيهَا مَا أَحْسَنَهَا! قَالَ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ؛ لَبِسَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ، قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهُ، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي، قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ. [البخاري: ٣/١١٣، ١١٤].

وقد تأسى الأنصار - رضوان الله عليهم - برسول الله صلى الله عليه وسلم في الإيثار، فأثنى الله عليهم، ومدحهم، وأنزل الله فيهم قرآنًا يُتلى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وهذه صور تشكل أنموذجًا حيًا لخُلق المسلم في الإيثار وحب الخير، لعل المسلم يُورد عليها خاطرَه فيعود مشبَّعًا بروح حب الخير والإيثار:

أتى أبا هريرة رضي الله عنه رجلٌ، فقال: يا أبا هريرة: إني أريد أنْ أواخيك في الله، فقال أبو هريرة: وهل تدري ما حق الأخوة؟ قال: لا، عرِّفني، قال: إنَّ من حق الأخوة ألا تكون أحقَّ بدرهمك ولا دينارك مني. فقال الرجل: لم أبلغ هذه المنزلة. قال: فإليك عني. [منهاج المسلم ص١٣١].

وقال أبو جعفر لأصحابه يومًا: أَيُدْخل أحدُكم يده في جيب أخيه فيأخذ من ماله ما يريد؟ قالوا: لا. قال: فلستم بإخوان كما تزعمون. [مختصر منهاج القاصدين: ص١٠٠].

وقال بعض السلف: ما كنتُ لأقول لرجل: إني أحبُّك في الله، فأمنعه شيئًا من الدنيا، وقال بعضهم: إني لأستحيي من الله أن أسأل الجنة لأخ من إخواني ثُمَّ أبخل عنه بدينار أو درهم.

إذن من حقِّ هذه الأخوة، ودلائل صدق المحبة، أن يشعر المسلم أن إخوانه مظاهرون

له في السراء والضراء.

ثالثًا: حب الخير لهم:

قال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». [البخاري: ١٣، ومسلم: ٤٥].

رابعًا: التواصي بالحق والصبر وأداء النصيحة إليه، وتبيين الطريق له وإعانته على الخير ودفعه إليه:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١- ٣].

خامسًا: الذب عن عرض أخيه:

قال صلى الله عليه وسلم: «من ذبَّ عن عِرْض أخيه بالغيبة، كان حقًا على الله أن يُعتقه من النار». [صحيح الجامع: ٦٢٤٠].

وإلا فإنَّ خذلان المسلم شيءٌ عظيمٌ، وهو - حين يحدث - ذريعةٌ إلى التخاذل بين المسلمين جميعًا، بل إنه لما هان المسلمون أفرادًا هانوا أممًا، فوهنتْ أواصر الأخوة بينهم، بل وصل الحالُ إلى أنْ أصبحَ المسلمُ يُنتقصُ أمام أخيه فلا يحرّكُ ساكنًا، ولا يزيدُ على أن يَهزَّ كتفه - إن هزَّهما - ويمضي لشأنه، وكأن الأمر لا يعنيه، وهذه الأنانية آفةٌ قاتلةٌ، إذا سيطرت على امرئٍ أفسدت عليه دنياه وأخراه.

سادسًا: إحسان الظن:

ينبغي أن يسودَ حسنُ الظنِّ بالمؤمنين، والاطمئنان إلى طوِيّتهم، والثقةُ بحسن نواياهم، وتغليبُ جانبِ الصدق في أقوالهم والخير في تصرفاتهم، ما دامت أحوالُهم الظاهرةُ مأمونةً، والمساوئُ مستورة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «من خدعنا بالله انخدعنا له».

وليكنْ حظُّ أخيك منك ثلاثًا: إنْ لم تنفعه فلا تضرَّه، وإنْ لم تُفرحه فلا تغمَّه، وإن لم تمدحه فلا تذمه، وهذا من أهمِّ السجايا الحميدة التي ينبغي أن تسود بين أفراد المجتمع المسلم.

سابعًا: من حقوق المسلم على المسلم لين الجانب، وصفاء السريرة وطلاقة الوجه، قال صلى الله عليه وسلم: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقي أخاك بوجه طلق». [مسلم: ٢٦٢٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولو كان كل ما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا، لم يبقَ بين المسلمين عصمةٌ ولا أخوة».

ثامنًا: ومن حق المسلم على المسلم دلالته على الخير، وإعانته على الطاعة، وتحذيره من المعاصي والمنكرات، وردعه عن الظلم والعدوان، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قيل: كيف أنصره ظالمًا؟ قال: تحجزه عن الظلم، فإنَّ ذلك نصره». [صحيح الجامع: ١٥٠٢].

حُكِي عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه: ألا تقاطعه وتهجره، فقال: أحوج ما كان إليَّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته؛ أن آخذ بيده، وأتلطَّف له في المعاتبة، وأدعو له بالعودة إلى ما كان عليه!!!

تاسعًا: القيام بالأمور التي تدعو إلى التواد وزيادة الصلة، وأداء الحقوق. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتَّبعه». [مسلم: ٢١٦٢].

عاشرًا: وتكتمل المحبة بين المؤمنين في صورة عجيبة ومحبة صادقة، عندما يكونان متباعدين، وكل منهم يدعو للآخر بظهر الغيب في الحياة وبعد الممات، قال صلى الله عليه وسلم: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك مُوَكَّل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل ذلك». [صحيح الجامع: ٣٣٨٠].

وقال صلى الله عليه وسلم: «من استغفر للمؤمنين وللمؤمنات، كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة». [صحيح الجامع: ٢٠٢٦].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وجعلنا الله من المتحابين فيه، ورزقنا محبة المؤمنين والقيام بحقوقهم.

إلى المتجرئين على الفُتيا

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وأصلي وأسلم على نبينا محمد الداعي إلى السبيل الأقوم.

أما بعدُ: فإنَّ من أكبر الجنايات أن يتقول على الله بغير علم، ومن ذلك أن يقول الشخص عن شيء: إنه حلال أو حرام، وهو لا يدري عن حكم الله فيه.

إعداد/ عبده الأقرع

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٥٩- ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦- ١١٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فانظروا كيف قرن الله سبحانه القول عليه بلا علم، بالشرك به والبغي، والإثم والفواحش؟ بل لقد جاءت هذه المحرمات الأربعُ مرتبةً على حسب مراتب الشدة فيها على سبيل التعلي، فأهونها أولها، وأخطرها آخرها، ولا عَجَبَ، فما الشركُ بالله إلا ضرب من القول على الله بغير علم.

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عند هذه الآية: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]: أي: من الافتراء والكذب، من دعوى أنَّ له ولدًا ونحو ذلك ممَّا لا علم لكم به.

كما بيّن سبحانه وتعالى أنَّ القول على الله بغير علم من عمل الشيطان، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨- ١٦٩].

إن التحليل والتحريم حقٌّ لله وحده، فالحلالُ ما أحلَّه، والحرامُ ما حرَّمه الله.

وإنَّ من العقل، وإنَّ من الإيمان، وإنَّ من تقوى الله وتعظيمه أن يقول الرجل عما لا يعلم (لا أدري)؛ فإن ذلك من تمام العقل، لأنَّ الناس إذا رأوا تثبُّته وثقوا به، ولأنه يعرف قدر نفسه حينئذٍ وينزلها منزلتها، وإنَّ ذلك من تمام الإيمان بالله وتقوى الله؛ حيث لا يتقدم بين يدي ربه، ولا يقول عليه ما لا يعلم، ولقد رسَمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ومن بعده من السلف الصالح - رضوان الله عليهم - المسلك الوضاء في هذه القضية الخطيرة، ديانةً وورعًا وتثبتًا.

فهذا أعلمُ الأمة وإمامها صلى الله عليه وسلم يُسأل عما لم ينزل عليه فيه وحي، فينتظر حتى ينزل عليه الوحي. وأمثلة ذلك غير قليلة، من ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]، وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

وَكُفْرٌ بِهِۦ) [البقرة: ٢١٧].

وقوله سبحانه: (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ) [البقرة: ٢١٩].

وقوله سبحانه: (وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ) [البقرة: ٢١٩].

وقوله سبحانه: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة: ٢٢٠].

وقوله سبحانه: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة: ٢٢٢].

وقوله سبحانه: (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [الأعراف: ١٨٧].

وقوله سبحانه: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا) [الكهف: ٨٣].

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علمه ربه، قال الله تعالى: (وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء: ١١٣]، ومع هذا كان صلى الله عليه وسلم يتوقف حتى ينزل عليه الوحي من السماء بالجواب من الله سبحانه.

وهكذا كان الأجلاءُ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض لهم المسألة لا يدرون حكم الله فيها، فيتوقفون فيها.

فهذا أبو بكر - رضي الله عنه - يقول: «أيُّ سماء تُظلني، وأي أرض تُقلني، إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟».

وها هو عمر الفاروق رضي الله عنه تنزل به الحادثة، فيجمعُ لها أكابر الصحابة، ويستشيرهم فيها، قال ابن سيرين رحمه الله تعالى: «لم يكن أحدٌ بعد النبيِّ صلى الله عليه وسلم أهيب لما لا يعلم من أبي بكر، ولم يكن أحدٌ بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ الذي يُفتي الناس في كل ما يسألونه لمجنونٌ». [جامع بيان العلم: ٢٢٠٦].

وقال أيضًا: «من سُئل منكم عن علم هو عنده، فليقل به، فإن لم يكن عنده، فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم». [البخاري: ٤٨٠٩، ومسلم ٢٧٩٨].

ورحم الله الإمام الشعبي حينما سُئل عن مسألة، فقال: لا أدري، فقال له أصحابه: إنا نستحي لك من كثرة ما تُسأل فتقول: لا أدري، فقال: «لكن الملائكة لم تستح حين قالت: (سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ) [البقرة: ٣٢]. (الفقيه والمتفقه: ١١٢٣].

وكان عطاء بن رباح يقول: «لا أدري» نصف العلم. [سير أعلام النبلاء ٥/٨٥].

وقال بعضهم: «إذا أخطأ العَالِمُ (لا أدري)، فقد أُصيبت مقاتلُهُ». [جامع بيان العلم: ١٥٨٠].

وفي تدافع الفتوى، وذمِّ المسارعة إليها يقول عبد الرحمن بن أبي ليلى - رحمه

الله-: «أدركتُ عشرين ومائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما كان منهم مُحدِّثٌ إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه الحديث، ولا مُفتٍ إلا ود أنَّ أخاه كفاه الفتيا». [جامع بيان العلم: ٢١٩٩].

وهذا إمامُ دار الهجرة - رحمه الله - يقدمُ عليه رجلٌ من مسافة بعيدة، فيعرضُ عليه أربعين مسألة، فيجيبُ عن أربع منها، ويقول في ستٍّ وثلاثين: الله أعلمُ، فيقول الرجل: أنت مالك بن أنس، إليك تُضرب أكباد الإبل، وإليك الرحلةُ من كلِّ بلدٍ، وتقول: الله أعلم؟ ماذا أقول لأهل بلدي إذا رجعتُ إليهم؟ قال: تقول لهم: «إنَّ مالكًا يقولُ: الله أعلم». [التمهيد: ١/ ٧٣].

وقال سُحنون بن سعيد رحمه الله: «أجرأُ الناس على الفتيا أقلهم علمًا، يكون عند الرجل البابُ الواحد من العلم، يظن أن الحق كله فيه». [جامع بيان العلم: ٢٢١١].

وقال بشر الحافي رحمه الله: «من أحبَّ أن يُسأل، فليس بأهل أن يُسأل». [الفقيه والمتفقه: ١٠٨٤].

وقال الخطيب البغداديُّ رحمه الله: «كل من حرص على الفتوى، وسابق إليها، وثابر عليها إلا قل توفيقه، واضطرب في أمره، وإذا كان كارهًا لذلك، غير مختار له، وما وجد مندوحةً عنه، وقدر أن يُحيل بالأمر فيه على غيره كانت المعونة له من الله أكبر، والصلاحُ في فتاويه وجوابه أغلب». [الفقيه والمتفقه: ٢/ ٣٥٠].

إذا كان هؤلاء الأئمة - مع جلالة قدرهم، وعظيم مكانتهم - يسلكون مسالك التورُّع والتثبت، فكيف هي الحال الآن؟

وعن مالك قال: « دخل رجل على ربيعة بن عبد الرحمن، فوجده يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ وارتاع لبكائه، فقال له: أمصيبة دخلت عليك؟ فقال: لا، ولكن استُفتي من لا علم له وظهر في الإسلام أمر عظيم، قال ربيعة: ولبعض من يفتي ها هنا أحق بالسجن من السراق».

قال بعض العلماء: «فكيف لو رأى ربيعةُ زماننا؟!». [أدب الفتوى لابن الصلاح (ص٣٥)].

فاعلم أخي الحبيب أنَّ الجرأة على الفتوى جرأةٌ على النار، فالويلُ لكلِّ من ارتقى هذا المرتقى الصعب، فأضلَّ فئامًا من الأُمة، ممن سيحملون أوزارهم وأوزارًا مع أوزارهم.

وحسبنا جميعًا قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة». [صحيح الجامع: ١٦١٩].

وقول صلى الله عليه وسلم: «وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم». [البخاري: ٦٤٧٨].

فكيف بمن أحلَّ ما حرَّم الله، أو حرَّم ما أحل الله؟ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢- ١٣].

اللهم اعصمنا من الزلل.

الحدود

رحمة من الله

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

فإنَّ طبيعة البشر أن يكون لهم إرادات متباينة ونزعات مختلفة، فمنها نزعات إلى الحق والخير، ومنها نزعات إلى الباطل والشر. قال تعالى: «إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ» [الليل: ٤].

ولما كانت النزعات إلى الباطل والشر في ضرورة إلى ما يكبح جماحها، ويخفف من حدتها من وازع إيماني أو رادع سلطاني، جاءت النصوص الكثيرة بالتحذير من الباطل والشر، والترغيب في الحق والخير وبيان ما يترتب على الباطل والشر من مفاسد في الدنيا وعقوبة في الآخرة، وما يترتب على الحق والخير من مصالح في الدنيا ومثوبات نعيم في الآخرة، ولكن لما كان هذا الوازع لا يكفي في إصلاح بعض النفوس الشريرة الموغلة في الباطل والشر وكبح جماحها، والتخفيف من حدتها، فرض رب العالمين برحمته وحكمته عقوبات دنيوية وحدودًا متنوعة بحسب الجرائم؛ لتردع المعتدي وتُصلِح الفاسد، وتقوِّم الأعوج، وتظهر الملة وتستقيم الأمة وتكفر جريمة المجرم فلا تجتمع له عقوبة الآخرة مع عقوبة الدنيا، من أجل ذلك كله فرض الله الحدود وشرعها.

عدل الإسلام في الأحكام:

أوجب الله تعالى على ولاة الأمور إقامة الحدود على الشريف والوضيع، والغني والفقير، والذكر والأنثى، والقريب منهم والبعيد.

عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقيموا حدود الله في القريب والبعيد، ولا تأخذكم في الله لومة لائم». [صحيح ابن ماجه: ٢٠٥٨].

وعن عائشة - رضي الله عنها - أن أسامة كَلَّم النبي صلى الله عليه وسلم في امرأة، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحدَّ على الوضيع، ويتركون الشريف، والذي نفسي بيده لو أنَّ فاطمة فعلتْ ذلك لقطعتُ يدها». [البخاري: ١٢/٨٦/٦٧٨٧].

وعنها أيضًا - رضي الله عنها -: أن قريشًا أهمتهم المرأةُ المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يُكلِّمُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم؟! ومن يجترئُ عليه إلا أسامة حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكلَّم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟» ثم قام فخطب، فقال: «يا أيها الناس، إنما ضلَّ من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ، وأيمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمدٌ يدها». [متفق عليه: البخاري ١٢/٨٧/٦٧٨٨، ومسلم: ٣/١٣١٥/١٦٨٨].

الله أكبر. هكذا الحق، أشرف النساء نسبًا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سيدة نساء أهل الجنة، ويقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق البارّ أن لو سرقت لقطع يدها، أين الثرى من الثريا، أين هذا القول وما كان عليه الناس اليوم من المماطلات في إقامة الحدود والتعليلات الباردة والمحاولات الباطلة لمنع إقامة الحدود!!

وفي الحديث عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدودِ اللهِ، فقد ضادَّ

الله في أمره، ومن مات وعليه دينٌ فليس بالدينار والدرهم، ولكن بالحسنات والسيئات، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه، لم يزل في سخط الله حتى ينزع، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه، أسكنه الله ردغة الخبال، حتى يخرج مما قال، وليس بخارج». [صحيح الجامع: ٦١٩٦].

كمال الشريعة ودورها الإصلاحي في المجتمع:

ومع هذا الوعيد الشديد فقد تعالت صيحات من هنا وهناك تتكاتف لتحول بين تطبيق حدود الله؛ بحجة أن هذا لا يتناسب في هذا الزمان!!

إنَّ شريعة الإسلام شرعها رب العالمين جامعة شاملة مانعة، ليس فيها نقص ولا زيادة، تمثلت فيها قدرة الخالق وعظمته وكماله، وإحاطته وعلمه وبقاؤه، فجعلها باقية ما بقيت الدنيا، ومحيطة بكل متطلبات الناس في كل زمان ومكان، لم تكن لجماعة دون جماعة، ولا لإقليم دون آخر، ولا لدولة دون دولة، وإنما هي للناس كافة؛ عجمهم وعربهم، وأسودهم وأبيضهم، لا يؤثر عليها مرور الأزمنة، ولا تتنافى مع التقدم، بل تنظّمه وتُصلحه، وتوجّهه الوجهة النافعة بلا ضرر، ولقد أدت شريعة الإسلام وظيفتها حينما كان المسلمون متمسكين بها عاملين بأحكامها، فصنعت أمة هي خير الأمم، وكوَّنت قرنًا هو أفضلُ القرون، فلما تركها المسلمون رجعوا القهقرى، وفاتهم التقدم والرقي.

جمع الشريعة بين الرحمة والحزم:

ومن أروع الأمثلة من الصدر الأول ما جاء عن سليمان بن بريدة، عن أبيه: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم جاءته امرأةٌ من غامد من الأزد، فقالت: يا رسول الله، طهِّرني. فقال: «ويحك، ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه» فقالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك. قال: «وما ذاك؟» قالت: إنها حُبلى من الزنا. قال: «أنْت؟» قالت: نعم. فقال لها: «حتى تضعي ما في بطنك» قال: فكفلها رجلٌ من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قد وضعت الغامدية. فقال: «إذن لا نرجمها وندعُ ولدها صغيرًا ليس له من يُرضعه». فقام رجلٌ من الأنصار، فقال: إليَّ رضاعُهُ يا نبيَّ الله. قال: فرجمها». [مختصر مسلم: ١٠٣٩].

ومن هنا يعلم أنَّ الدِّين لا يقفُ متربصًا من أجل أن تزلَّ قدمٌ ليُجهزَ على صاحبها، ولكنه يمنحُ الفرص تلو الفرص من السِّتر المحدود ليرشد الضالَّ ويصلح العاصي، إنه يُؤثرُ ستر طالبي الستر، ويدرأ الحدود بالشبهات، ويفتح منافذ الأمل لمستقبل يتوبون فيه إلى ربهم.

الحدود تربي الضمائر وتهذب الأخلاق:

ولا شك أنَّ فوائد الحدود تعم بركتها على البشر، حتى الذي أُقيم عليه الحدّ. فإقامة الحدود تربي الضمائر، وترقق الطباع، وتهذب الأخلاق، وتصدُّ عن طريق الشر وترشد إلى طريق الخير، وتكسرُ شوكة الباطل من النفوس، وتحمل على القناعة بالرزق المباح وإن قلَّ، وتكسر سَوْرَة الحسد والنظر إلى ما في أيدي الناس، وتنشر الأمن والاستقرار، وتسبّب الرضا والخيرات، وتحث على التوبة إلى الله والاستقامة، فالقطع في السرقة واعظٌ ملازم، وزاجرٌ مشاهَد، من رآه اتعظ به؛ فبقطع واحد يَصْلح ملايين، وتستقر أقاليم، وتتعظ أمم.

في شرائع القصاص والحدود حياة للأمم والأفراد:

والعجب كلُّ العجب ممن يقول: إن القطع فيه شدة ولا يتفق مع المدنية المعاصرة!!

سبحان الله! وهل المدنية من حقها أن تنشر الفوضى، وتخل بالأمن، وتبث الإرهاب، وتغمط الحقوق، وتسعى بالظلم؟ هل هؤلاء أعرف بمصالح الناس من خالقهم؟ هل هم أرحم بالناس من ربهم؟

بل أقول: إنَّ شرائع القصاص والحدود بعضُ مظاهر الرحمة في هذا الدِّين، ويومَ قالت العربُ: القتلُ أنفى للقتل، قال القرآنُ الكريم عبارة أوجزَ لفظًا وأحكمَ أسلوبًا « وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ » [البقرة: ١٧٩].

نعم إنَّ في القصاص حياةً، حين يكُفُّ من يُهِمُّ

بالجريمة عن الإجرام، وفي القصاص حياةٌ حين تُشفى صدورُ أولياء القتيل من الثأر الذي لم يكنْ يقفُ عند حد لا في القديم ولا في الحديث، ثأرٌ تسيلُ معه الحياةُ على مذابح الأحقاد العائلية والثارات القبلية جيلاً بعد جيلٍ لا تكف الدماء عن المسيل.

في القصاص حياةٌ أعمُّ وأشملُ، حياةٌ تشمل المجتمع كله، حيث يسود البلاد الأمان الذي يصونُ الدماء، وإذا تأملنا البلاد التي تُحكم بشرع الله، وتقام فيها حدود الله، وجدنا الجرائم فيها قليلة ضئيلة لا تُذكر بالنسبة للجرائم والحوادث، في البلاد التي لا تحكم بشرع الله، ولا تقيم حدود الله؛ ذلك لأن من الناس صنفًا غليظًا لا يكفيه توجيه رفيق، ولا يكفيه وعظٌ بليغ، بل لا تردعه إلا عقوبة زاجرة، وقوةٌ صارمة، لذا كان لا بدَّ من سوط السلطان مع زواجر القرآن، فـ «إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، ومن ثَم يشيع الأمان، ويطمئن الإنسان، فالأمة التي فيها العزم والحزم وتحكم بشرع الله تعيش في أمن واستقرار، وراحة في النفس، واطمئنان في البدن، وحرية في العمل والانتقال، إذن فليس المراد من إقامة الحدود إيلام الجاني فقط، ولا منعه من العودة فقط، ولا تشفي المجني عليه فقط، بل مع هذا يُراد إصلاح المجتمع، وتطهيره من الفوضى، وتنظيمه عن الغوغاء وحفظ كيانه من التردي والانهيار، وصيانته من الهبوط إلى مستوى الحيوان، الذي ينهش بعضه بعضا، وينزو بعضه على بعض.

وأيضًا فإنَّ إقامة الحدود- متى وجبت- طاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فكما أن المسلم يؤمن بأن الله خلق هذا الكون وأتقن نظامه، يجب عليه أن يؤمن بأنَّ الله أنزل هذا النظام وأتقن نظامه، وكما أنه يصلي ويصوم، ويزكي ويحج، طاعة لله، يجب أيضا إقامة الحدود طاعة لله، ذلكم حكم الله أنزله إليكم، هذا الدستور الذي تكفل الله له بالخلود إلى أن تقوم الساعة، وتكفل لمن اتبعه وسار على منهجه بالعز والتمكين، خضعت له الجن والإنس طوعًا وكرهًا، طوعًا بالإيمان، والتصديق، وكرهًا بالفطرة والأمر الواقع، نظام الإسلام هو كتاب الله الذي « لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » [فصلت: ٤٢].

من عشرات السنين اجتمعت هيئة الأمم المتحدة لدراسة نظمها وقوانينها، وكل مندوب قدم دستور بلاده من القوانين الوضعية، ولما جاء الدور لمندوب بلاد الإسلام مندوب الدولة المسلمة حقًا، رفع المصحف العظيم وقال: «هذا هو دستورنا»، فخضع له جميع الحاضرين من المسلمين وغيرهم، وحَنَوا صدورهم وأرخوا رءوسهم خضوعًا له وتعظيمًا، ولو قدم دستورًا من وضع البشر به فقرات ومواد لدخل في النقاش مثل غيره، ولكن كلام الله العظيم يقف عنده كل قول، وتذوبُ أمامه جميع المعارضات والأباطيل. «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا » [النساء: ٨٢].

وأخيرًا من فوائد إقامة الحدود أنها كفارة لصاحبها.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: كُنا عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم في مجلس، فقال: «بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا ولا تزنوا- وقرأ هذه الآية كلها- فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعُوقب به فهو كفارتُهُ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عاقبه». [متفق عليه: البخاري: ١/٦٤/١٨، ومسلم: ٣/١٣٣٣/١٧٠٩].

ومنها: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «حدٌّ يُعْمَل به في الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يُمْطَرُوا أربعين صباحًا». [صحيح ابن ماجه: ٢٠٥٧].

اللهم: أبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويُؤمَر فيه بالمعروف، ويُنهَى فيه عن المنكر، إنك سميع الدعاء.

الإجـــــازة الصيـ

الحمد لله ذي الفضل والإحسان، والعطاء والامتنان، أحمده سبحانه وأشكره على كل حال، وفي كل زمان، وأصلي وأسلم على نبينا محمد إمام الأتقياء، وعلى آله وأصحابه أئمة الهدى ومصابيح الدجى والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعدُ:

فإننا نستقبل في هذه الأيام الإجازة الصيفية، وذلك بعد إمضاء عام دراسي كامل في الجد والمذاكرة والبذل والتحصيل على تفاوت في الهمم وتباين في العزائم، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذه الأيام هو: ما الذي ينبغي لطالب العلم الحريص والمسلم الجاد أن يفعله في هذه الإجازة المقبلة؟

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

وهي لحظات عزيزة ستمر وتذهب سريعًا، أيناسب أو يليق بالمسلم أن يتركها تذهب وتضيع دون أن يغتنمها في الخير، ودون أن يتزود فيها بزاد التقوى؟!.

الوقت هو الحياة:

فالوقت زمن تحصيل الأعمال والأرباح، بل هو الحياة كلها، وقد أقسم الله بأجزائه، بالليل والنهار والفجر والضحى والعصر والشفق، لما فيها من العبر والآيات والأعاجيب، والعمر لا يُقوم نفاسة وغلاء إلا به، وقد أنَّبَ الله الكفار إذ أضاعوا أعمارهم من غير إيمان، فقال جل وعلا: «أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ» [فاطر: ٣٧]، ولعظم أهمية الوقت كان مما أفرد بالمساءلة عند العرض يقول صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدمًا عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه، وعن عمله فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه». [صحيح الترمذي: ٢٤١٧].

الوقت جزءٌ من الإصلاح:

وفي حديث الإجازة يجب أن يتربى الشباب، ويعرفوا أن الوقت جزءٌ من الإصلاح، جزءٌ من الحل لمشكلاتهم المستعصية، طال هذا الوقتُ أو قصر، أليس الوقتُ من ذهب كما يقول المثل الشائعُ، بل هو أغلى من الذهب واللؤلؤ، ومن كل جوهر نفيس، أو حجر كريم، إنه الحياةُ والعمر، والإنسان يفتدي عمره بكل غالٍ ونفيس، حتى قال ابن مسعود رضي اللهُ عنه: «ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي» [حلية الأولياء (٣ / ٢٨)].

نعوذ بالله من تناقص الأجل من غير زيادةٍ في صالح العمل.

أيها الشبابُ، من أمضى يومًا من عمره في غير حقٍ قضاه، أو فرض أداه، أو مجد أصَّله، أو فعلٍ محمودٍ حصَّله، أو علم اقتبسه، فقد عقَّ يومه، وظلم نفسه، وخان عمره.

ولقد تكاثرت النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم في بيان أهمية الوقت والحث على اغتنامه وعدم إضاعته، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك». [رواه الحاكم ٤/٣٠٦،

ـفية فرصة ذهبية

وهو في صحيح الجامع: ١٠٧٧].
وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». [صحيح سنن الترمذي: ١٩٦٩].

اغتنام الصالحين لأوقاتهم:

فالموفق من عرف كيف يتدارك فراغه وصحته ويضعهما في الموضع الذي يحقق له السعادة الأبدية، قال قتادة: والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله.
أما آن النائم أن يستيقظ من نومه؟ أما حان للغافل أن ينتبه من غفلته؟
فإنه ما من يوم من أيام الله إلا ولربنا فيه على عباده وظيفة من وظائف طاعته، ولطيفة من لطائف نفحاته يصيب بها من يشاء بفضله ورحمته، خطب الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله في آخر خطبة خطبها فقال: «إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معادًا، ينزل الله فيه للفصل بين عباده، فقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيرثها بعدكم الباقون، وفي كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله، قد قضى نحبه، فتودعونه وتدعونه في صدع من الأرض، غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، غنيًا عما خلف، لكن هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي، ولكن أستغفر الله وأتوب إليه، ثم رفع طرف ردائه وبكى حتى شهق، ثم نزل فما عاد إلى المنبر حتى مات رحمه الله [تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٢/ ١٨٢].
ذلكم- يا إخواني- هو نهج الراشدين المهتدين، لهم من كل شيء في الحياة عبرة، تهطل لها العَبرة، ولهم من السنين خير حافز لاغتنام الفرصة، فرصة العمر الذي جعله الله مجالاً واسعًا للعمل، كالزارع الحاذق، لا يضيع فرصة للبذر في موسمه، ليحصد يوم الحصاد ثمار زرعه، وليغتبط بعظيم إنتاجه، ويعيش قرير العين.

كيفية اغتنام الأوقات

ولكي يحافظ الإنسان على وقته يجب أن يعرف أين يصرِفه؟ وكيف يصرفه؟ وأعظم المصارف وأجلّها طاعة الله عز وجل ، فاجتهدي يا نفسُ في صالح العمل، ولا تميلي إلى الاستراحة والكسل فيفوتك من درجات عليين ما وعد الله به المحسنين، فتبقى فيك حسرةٌ لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألمُ الغبن وحسرته لا يطاق، وإن كان دون ألم النار، وقد قال بعضهم: هب أنَّ المسيء قد عُفيَ عنه أليس قد فاته ثوابُ المحسنين؟
فيا معشر الطلاب الدارسين الذين أنتم في إجازة، ويا معشر الشباب الذين تخرجتم وأنهيتم الدراسة ولم تعملوا بعدُ، اغتنموا شبابكم، واغتنموا فراغكم، واغتنموا صحتكم، اغدوا وروحوا إلى بيوت الله، حافظوا على الصلوات في جماعة.
قال صلى الله عليه وآله وسلم: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهنَّ، لم يُضيع منهنَّ شيئًا استخفافًا بحقهنَّ كان له عند الله عهدٌ أن يدخله الجنة، ومن لم يأتِ بهنَّ فليس له عند

الله عهدٌ، إن شاء عذَّبه، وإن شاء أدخله الجنة». [صحيح الجامع رقم: ٣٢٤٣].

حافظوا على إدراك تكبيرة الإحرام:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من صلى لله أربعين يومًا في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كُتب له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق». [صحيح الترغيب: ٤٠٧].

احرصوا على صلاة النوافل:

قال صلى الله عليه وسلم : «من ثابر على ثنتي عشرة ركعة في اليوم والليلة دخل الجنة، أربعًا قبل الظهر، وركعتين قبل الفجر». [صحيح الترغيب: ٥٧٩].

الاجتهاد في أعمال البر:

وإذا كان على الشباب دور في استثمار أوقاتهم، فإن الدور الأهم والأكبر يقع على أسرهم ابتداء، ثم على جماعات الخير في أحيائهم، ثم على مؤسسات الدولة، كل بحسب طاقته؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته». الحديث.

وهذا الدور يتمثل في حث الشباب أولاً على قراءة وحفظ القرآن الكريم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت تُرتل في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها». [صحيح الجامع: رقم ٨١٢٢].

وقال صلى الله عليه وسلم : «من قرأ حرفًا من كتاب الله، فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: «الم» حرفٌ، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ». [صحيح الجامع: ٦٤٦٩].

ثم حثهم على لزوم مجالس العلم، قال صلى الله عليه وسلم: «...مَن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة». [مسلم: ٢٦٩٩، ٤/٢٠٧٤].

ومراقبة الشباب في اختياراتهم، فنختار لهم صحبة الأخيار؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي». [صحيح الجامع: ٧٣٤١].

ونحذرهم من صحبة الأشرار، حتى لا يندموا، قال الله تعالى : « وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا » [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

وكذلك حثهم على المشاركة في المشروعات الخيرية من جمع الزكوات وتوزيع الصدقات، وبناء المساجد، والقيام على أمر الفقراء واليتامى، معاونين في ذلك أئمة المساجد وأعضاء الجمعيات الأهلية.

ومحاولة استثمار طاقاتهم في البحث عن سبب من أسباب الكسب الحلال، فندلهم على التجارات الخفيفة التي لا تحتاج إلى رأس مال كبير، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمر على عبد الله بن جعفر في السوق فيدعو له بأن يبارك الله في صفقة يمينه، وكان عبد الله بن جعفر، ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم يتاجر في جلود الغنم المدبوغة في السوق، فتخيروا من التجارات الخفيفة ما يحتاجه الناس من حاجاتهم اليومية، ورُب سبب صغير أتى برزق كبير، والله هو الرزاق ذو القوة المتين.

ولا مانع من الترويح عن النفس بتنظيم الرحلات المباحة إلى الأماكن التي لا معصية فيها ولا إثم، واستغلال هذه الرحلات في بث الأخلاق الحميدة فيهم، وتربيتهم على الانضباط والطاعة.

ويمكن الاستفادة من هؤلاء الشباب في الأعمال النافعة التي تعود بالخير على الناس، كتشجير الشوارع، وزراعة النخيل على حوافها، وتوعية الناس بتنظيف طرقاتهم وأحيائهم، متعاونين في ذلك مع المجالس المحلية وإدارات المساجد.

وفقكم الله للعمل برضاه، والحمد لله رب العالمين.

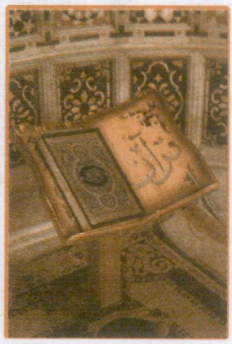

يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

فإنَّ من أعظم آلاءِ الله على عباده: ما شرع لهم من العبادات العظيمة، والمواسم الكريمة، التي بها تزكو نفوسهم، وتعلو هممهم، إلا وإنَّ من أجلِّ هذه المناسبات زمنًا، وأعظمها قدرًا، وأبعدها أثرًا: هذا الوافدُ الحبيب، والضيف العزيز، والشهر الكريم: «شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ» [البقرة: ١٨٥].

إعداد: عبده الأقرع

إنَّ واجب الأحياء استشعارُ هذه النعمة، واغتنام هذه الفرصة، إنها إن فاتت كانت حسرة ما بعدها حسرة، أي خسارةٍ أعظمُ من أن يدخل المرءُ فيمن عناهم المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله على منبره في مساءلة بينه وبين جبريل الأمين: «من أدرك شهر رمضان فلم يُغفر له فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين».[صحيح الترغيب للألباني: ٩٩٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجِنَانِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ وَنَادَى مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ وَذَلِكَ عِنْدَ كُلِّ لَيْلَةٍ». [الترمذي ٦٨٢ وصححه الألباني].

هل من متعرض لنفحات المولى جل وعلا؟!

فهذه مواسم المتاجرة مع الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افعلوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإنَّ لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يسدوا عوراتكم وأن يُؤمن روعاتكم». [السلسلة الصحيحة للألباني: ١٨٩٠].

فهذه فرصة للطائعين للاستزادة من العمل الصالح، وفرصة للمذنبين للتوبة والإنابة، فـ«يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر».

وأمر الله تعالى بالتنافس في الطاعات والتسابق في الخيرات فقال تعالى: «سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ» [الحديد: ٢١]. وأمر الله تعالى بالتنافس في الطاعات، والتسابق في الخيرات.

وقد ضرب صلى الله عليه وسلم المثل

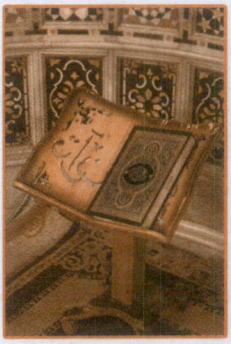

الأعلى في كل ميدان من ميادين الخير، فعَنْ عُقْبَةَ بن عامر قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ الْعَصْرَ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ فَرَأَى أَنَّهُمْ عَجِبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ فَقَالَ: ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تِبْرٍ عِنْدَنَا فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ» [البخاري: ٨٥١].

تنافس السلف في الطاعات

ولقد تأسى سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم- بالنبي صلى الله عليه وسلم في علو الهمة في التنافس في الطاعات والتسابق في الخير، فهذا صدِّيق الأمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ» [صحيح البخاري: ١٧٩٨].

عجل بالتوبة

فـ «يا باغي الخير أقبل» أقبل بسرعة، وإياك والتسويف؛ فإنه لا يأتي بخير، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ». [متفق عليه: البخاري: ١٤١٩، ومسلم: ١٠٣٢].

و«يا باغي الشر أقصر» فإنَّ شهر رمضان فرصة عظيمة للتوبة، فجدّ أخي في التوبة وسارع إليها، وهُبَّ من الغفلة، واعلم أن خير أيامك يوم العودة إلى الله عزَّ وجلَّ تائبًا.

فقد جاء في قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ». [متفق عليه: البخاري: ٤٤١٨، ومسلم: ٢٧٦٩].

عواقب المعاصي:

«يا باغي الشر أقصر» فإنَّ للمعاصي شؤمها، ولها عواقبها في النفس والأهل، في البر والبحر، تضل بها الأهواء، وتفسد بها الأجواء.

بالمعاصي يهون العبد على ربه، فيرفع مهابته من قلوب خلقه: «وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ» [الحج: ١٨]. يقول الحسن رحمه الله: «هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم».

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: لما فُتحت قبرص رأيتُ أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعزَّ اللهُ فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير؟ ما أهون الخلق على الله إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمةٌ قاهرةٌ ظاهرةٌ لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى.

بسبب الذنوب والآثام تزول النعم وتحلُّ النقم، قال الله تعالى: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [العنكبوت: ٤٠].

وإذا ابتلى العبد بالمعاصي استوحش قلبه، وضعفت بأهل الخير والصلاح صلته، وجفاه الصالحون من أهله وأقاربه، حتى قال بعضُ السلف: «إني لأعصى الله فأرى ذلك في خُلق امرأتي ودابتي». ومن قارف المعاصي ولازمها تولد في قلبه الاستئناس بها وقبولها، ولا يزال كذلك حتى يذهب عنه استقباحها، ثم يبدأ بالمجاهرة بها وإعلانها، قال صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَاةٌ إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الإِجْهَارِ أَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ قَدْ سَتَرَهُ رَبُّهُ، فَيَقُولُ يَا فُلاَنُ قَدْ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ فَيَبِيتُ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ». [متفق عليه: البخاري (١٠/٥٠١)، ومسلم (٤/٢٢٩١)].

ومن آثار الذنوب السيئة: أن الذنب بعد الذنب يقطعُ طرق الطاعة، ويصدُّ عن سبل الخيرات، ومن ثمَّ يقسو القلب، فيا إخواني- احذروا السيئات واستكثروا من الحسنات، يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «إنَّ للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعةً في الرزق، وقوة في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبُغضةً في قلوب الخلق».

شهر رمضان نقطة تحول:

فـ «يا باغي الشر أقصر» واجعل شهر رمضان نقطة تحول في حياتك، من السيئ إلى الحسن، ومن الحسن إلى الأحسن، واعلم أن من نعم الله عليك إدراكك شهر رمضان، شهر مضاعفة الحسنات، ورفعة الدرجات، ومغفرة الذنوب والسيئات، وإقالة العثرات.

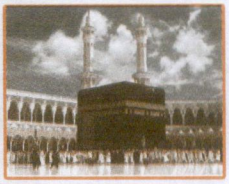

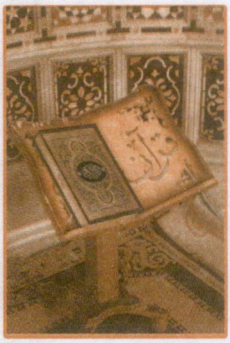

فيا أيها التاركون لما أوجب الله، من صلاة وزكاة، وبر وصلة، المرتكبون ما حرم الله من شرك، أو قتل نفس، أو سحر، أو منع زكاة، أو أكل ربا، أو زنا ولواط، أو شهادة زور أو قذف محصنات، أو شرب خمر أو لعب قمار، أو ظلم أو أكل حرام، أو غيبة أو نميمة أو بهتان، أو أكل مال يتيم ظلمًا أو أكل ميراث، أو تبرج، أو غير ذلك من المعاصي والآثام، التوبة التوبة قبل فوات الأوان. فمن كان يرجو لقاء ربه فليقلع عن ذنبه، وليحل عقدة الإصرار، ممتثلاً أمر ربه الرحيم الرحمن: «قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ» [الزمر: ٥٣-٥٩].

اللهم تب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

فرحة العيد تُذَكِّر بأخوة الدِّين

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله وفق من شاء لطاعته فكان سعيهم مشكورًا، ثم أجزل لهم العطاء والمثوبة فكان جزاؤهم موفورًا، وأصلي وأسلم على خير من صلى وصام وتلا القرآن، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه البررة الكرام، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعدُ:

فحريٌّ بكم، يا من وُفِّقتم لصيام شهر رمضان، وتقربتم إلى ربكم بأنواع القربات، راجين الأجر والثواب من الله أن تفرحوا بعد ذلك بعيدكم السعيد، فإنه اليوم الذي توَّج الله به شهر الصيام، وافتتح به أشهر الحج إلى بيت الله الحرام، وأجزل فيه للصائمين والقائمين جوائز البر والإكرام، عيد امتلأت القلوب به فرحًا وسرورًا، وازدانت به الأرض بهجة ونورًا؛ لأنه اليوم الذي يخرج فيه المسلمون إلى مصلاهم، لربهم حامدين معظمين، وبنعمته بإتمام الصيام والقيام مغتبطين ولخيره وثوابه مؤملين، يسألون ربهم الجواد الكريم أن يتقبل عملهم، وأن يتجاوز عن مسيئهم وأن يعيد عليهم مثل هذه الأيام، وهم في خير وأمن وإيمان واجتماع على الحق والعبادة وابتعاد عن الباطل والعصيان.

حُقَّ لمن امتثل أمر مولاه فصام وصلَّى وقام أن يفرح يوم العيد، كيف لا وقد قال الله تعالى: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ» [يونس: ٥٨]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «للصَّائم فَرْحَتَان يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بفطره، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ». [متفق عليه: البخاري: ١٩٠٤، ومسلم: ١١٥١].

والعيد غبطةٌ في الدين والطاعة وبهجة، في الدنيا والحياة، ومظهر القوة والإخاء، إنه فرحةٌ بانتصار الإرادة الخيرة على الأهواء والشهوات، والرضا بطاعة المولى، والوعيد الكريم بالفوز بالجنة والنجاة من النار، فالعيد موسم بهجة، ابتهاجٌ بالتوفيق للطاعة، لكن مع هذه البهجة، وهذا الفرح الممدوح حري بنا جميعًا أن نتذكر أمورًا مهمة لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا في يوم عيدنا ؛ لأن من الناس من تطغى عليه فرحة العيد فتستبد بمشاعره ووجدانه لدرجة تنسيه واجب الشكر والاعتراف بالنعم، وتدفعه إلى الزهوِّ بالجديد، والإعجاب بالنفس حتى يبلغ درجة المخيلة والتباهي، وما علم هذا أن العيد قد يأتي على أناس قد ذلوا من بعد عزّ، فتهيج في نفوسهم الأشجان، وتتحرك في صدورهم كثيرٌ من الأحزان.

ذاقوا من البؤس ألوانًا بعد رغد العيش، وتجرعوا من العلقم كيزانًا بعد وفرة النعم، فاعتاضوا عن الفرحة بالبكاء، وحل محل البهجة الأنين والعناء.

تذكروا - إخواني - وأنتم تعيشون فرحة العيد إخوانًا لكم اخترمتهم المنية وأدركهم الموتُ فلم يدركوا يومكم هذا، فهم في قبورهم محتجزون، وبأعمالهم مرتهنون، وإنكم إلى ما صاروا إليه صائرون، فهم السابقون، وإنا إن شاء الله بهم لاحقون، فلا تنسوهم من دعوة صالحة بأنْ يقيل اللهُ عثراتهم ويغفر زلاتهم ويتجاوز عن ذنوبهم.

وتذكروا - إخواني- وأنتم تعيشون فرحة العيد بصحة وعافية إخوانًا لكم أقعدهم المرض، وأعاقهم

عن مشاركتكم الفرحة، فاحمدوا الله على ما أنتم فيه من صحة وعافية وسلامة، ولا تنسوا إخوانكم أولئك من دعوةٍ صالحةٍ أنْ يشفي مريضهم، ويزيل بأسهم، ويفرج همهم، ويكشف كربتهم.

وتذكروا - إخواني- وأنتم تعيشون فرحة العيد بأمن وأمان وراحة واطمئنان إخوانًا لكم أهلكتهم الحروب، وأرقتهم الخطوب وأقلقتهم الفتن، وتسلط عليهم العدوُّ، فأريقتْ فيهم الدماء، ورمِّلت النساء، ويُتم الأطفال، ونُهبت الأموال، فاحمدوا الله على ما أنتم فيه من أمن وأمان، ولا تنسوا إخوانكم أولئك من دعوة صالحة بأن ينفس الله كربتهم، ويفرج همهم، ويكبت عدوهم.

وتذكروا - إخواني- وأنتم تعيشون فرحة العيد بالحلل البهية والملابس الجميلة إخوانًا لكم أرَّقهم الفقرُ، وأقعدتهم الحاجةُ، فمنهم من لم يجد لباسًا يواريه، أو مسكنًا يؤويه، أو طعامًا يشبعه ويغذيه، أو شرابًا يرويه، فاحمدوا الله على ما أنتم فيه من نعمة وخير، ولا تنسوا إخوانكم هؤلاء من دعوات صالحات بأنْ يغنيهم الله من فضله، يغني فقيرهم، ويشبع جائعهم، ويكسو عاريهم، ويسدّ حاجاتهم، ويكشف فاقتهم، ولا تنسوهم كذلك من مدِّ يد المساعدة لهم، إمَّا بمال أو لباس أو طعام أو لحاف: «وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا» [المزمل: ٢٠].

وتذكروا - إخواني - وأنتم تعيشون فرحة العيد إخوانًا لكم قيدتهم الذنوب، وكبلتهم الخطايا، فمضى المؤمنون المجدّون في طاعة الله، وتنافس الصالحون في التقرب إليه سبحانه، وهؤلاء في لهوهم وغيهم سادرون، وعن طاعة الله والتقرب إليه متقاعسون، وعلى المعاصي والخطايا والآثام مكبون، تمرُّ عليهم مواسم العبادة والمنافسة في فعل الخير فلا يتحركون، فاحمدوا الله على ما أمدكم به من توفيقه، وما هداكم إليه من التقرب إلى مرضاته، قال الله تعالى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» [فاطر: ٣٢]، لا تنسوا إخوانكم أولئك من دعوة صالحة أن يهديهم ربهم إلى الخير، وأن يردَّهم إلى الحق ردًا جميلا، وأن يصلح ضالهم، ويوفق حائرهم، ويشرح صدورهم، ويحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم.

استدامة أمر الطاعة وامتداد زمانها:

وتذكروا - إخواني - وأنتم تعيشون فرحة العيد، إن استدامة أمر الطاعة وامتداد زمانها زاد الصالحين، وتحقيق أمل المحسنين، وليس للطاعة زمن محدود ولا للعبادة أجل معدود، بل هي حق لله على العباد يعمرون بها الأكوان على مرّ الأزمان، وشهر رمضان ميدان لتنافس الصالحين، وتسابق المحسنين، يسمون بأرواحهم إلى الفضائل ويمنعون عنها الرذائل، ويجب أن تسير النفوس على نهج الهدى والرشاد بعد رمضان، فالمسلم حقًا من تكون تقوى الله دثاره طيلة عمره، ولباسه مدة حياته، والمؤمن الحق من يكون عمله بالطاعات، واجتنابه للمعاصي، ديدنًا له ومنهاجًا، إلى أن يتوفاه الله، فلا تزيده مواسم الخير إلا اجتهادًا في العبادة، وحرصًا على الطاعة، قرأ الحسن البصري رحمه الله تعالى قوله: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» [الحجر: ٩٩] ، فقال: «إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت».[الزهد لابن المبارك صـ ٢٧١]

وقال ابن المبارك في الزهد: واعلموا - إخواني- أن للقبول والربح في هذا الشهر علامات، وللخسارة والرد أمارات، وأنَّ من علامة قبول الحسنة فعل الحسنة بعدها، ومن علامات السيئة: السيئة بعدها، فأتبعوا الحسنات بالحسنات تكن علامة قبولها، وأكثروا من الحسنات بعد السيئات تكن كفارة لها ووقاية من خطرها، قال الله تعالى: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ» [هود: ١١٤].

والمعنى: فمن كانت حاله بعد رمضان أحسن منها قبله؛ بأن كان مُقبلاً على الخير، حريصًا على الطاعة، مواظبًا على حضور الجمع والجماعات، بعيدًا عن المعاصي والسيئات، فهذه أمارة قبول عمله، إن شاء الله تعالى.

أما من كان حاله بعد رمضان كحاله قبله، من ترك الطاعات والانغماس في المعاصي والسيئات، فهذا أمره إلى مولاه.

وأخيرًا تذكروا إخواني وأنتم تعيشون فرحة العيد أن يكون هذا العيد نقطة تحول من حياة الأمة من الفرقة والاختلاف إلى الاجتماع على كلمة التوحيد والائتلاف، إنَّ أخوة الإسلام هي روح الإيمان القوي، وأساس المشاعر الكريمة التي يكنها المسلم لإخوانه، حتى إنه ليحيا بهم، ويعيش معهم وفيهم، فكأنهم جميعًا أغصان تفرّعت من دوحة عظيمة متسعة واحدة، وانبثقت من أصل واحد، لتبقى القاعدةُ الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي العالمي، تضمه أصرة خاصة، وتظله رايةٌ واحدةٌ لا ثاني لها، إنها راية الإيمان، وأصرة الأخوة في الإسلام، يقول الله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [الحجرات: ١٣- ١٤].

والحمد لله رب العالمين.

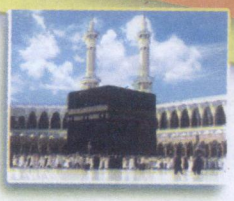

منهج النبي صلى الله عليه وسلم في تعليم أمته خلال رحلة الحج

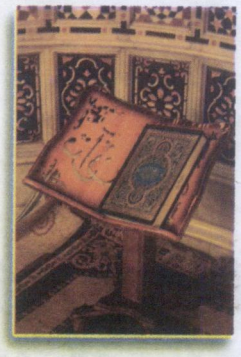

الحمد لله الذي جعل لكل أمة مُنسكًا، وجعل لهم إلى الخير طريقًا ومسلكًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه واقتفى. أما بعد:

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

إن الناظر إلى أحوال النبي صلى الله عليه وسلم عموما و في الحج خصوصا ليرى عجبا ، فمن تأمل حجَّه صلى الله عليه وسلم وجد أنه حرص على البلاغ وإقامة الحجة على الخلق فحفزهم على التعلم، وشحذ همهم، وشدَّ انتباههم إلى ما يقول ويفعل، بتنويع أساليب الخطاب وطريق التعلم، فوضع صلى الله عليه وسلم منهجا للعالم والمتعلم لتعليم أمته وقيادتهم في هذه الرحلة العظيمة .

ملامح هذا المنهج

١-حرصه على تعليمهم ابتداء:

وكما في حديث بلال رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له غداة جَمع: «يا بلال، أسكت الناس». أو: «أنصت الناس». ثم قال: «إن الله تطول عليكم في جمعكم هذا فوهب مسيئكم لمحسنكم ، وأعطى محسنكم ما سأل، ادفعوا باسم الله». [صحيح سنن ابن ماجه: ٢٤٦٨].

ولم يقتصر صلى الله عليه وسلم على البلاغ والتعليم بنفسه، بل جعل صلى الله عليه وسلم حين خطب الناس بعرفة - ربيعة بن أمية- رضي الله عنه- يصرخ خلفه صلى الله عليه وسلم في الناس يُسمعهم خطبته. [انظر: السيرة النبوية لابن كثير: ٣٤٢/٤].

وفي منى جعل صلى الله عليه وسلم عليًا رضي الله عنه يعبر عنه، ويردد كلامه، والناس بين قاعد وقائم. [صحيح سنن الترمذي: ٧٠٠].

٢-بيانه صلى الله عليه وسلم منزلة أركان الإسلام وقواعده الكبار:

إذ قال في إحدى خطبه في المواسم: «اتقوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمر منكم، تدخلوا جنة ربكم». [صحيح سنن الترمذي رقم: ٥١٢].

ومنها: عن فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ. [السلسلة الصحيحة رقم: ٥٤٩].

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ». [صحيح البخاري: ٦٧].

٣-بيانه صلى الله عليه وسلم بعض الأحكام الشرعية:

ككيفية غسل الميت مُحرمًا وتكفينه، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما رجل واقف بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته، قال النبي صلى الله عليه وسلم: اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه، ولا تخمروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا». [صحيح

الجامع رقم: ١٠٧٩]. وبما أنا نرى اليوم الملايين من البشر في الحج تتوافد على الديار المقدسة عامًا بعد آخر، فإنَّ الفرصة متواتية لأن يتصدى أهل العلم لتعليمهم أصول الدين وتفقيههم بأحكامه.

٤- جوابهم عما أشكل عليهم:

ولعل من أشهرها: «أنَّ امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله، إنَّ أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج، وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فحجي عنه». [صحيح مسلم: ١٣٣٥].

٥- وقوفه صلى الله عليه وسلم للناس وبروزه لهم لكي يروه ويسألوه:

كما يدل ذلك حديث جابر رضي الله عنه قال: «طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيت في حجة الوداع على راحلته، يستلم الحجر بمحجنه، لأن يراه الناس، وليشرف، وليسألوه، فإنَّ الناس غشوه». [صحيح مسلم: ١٢٧٣].

٦- جنوحه إلى التيسير في فتاويه، والتخفيف على ذوي الحاجات؛ والشواهد على ذلك كثيرة، منها:

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ فَقَالَ لَهَا أَرَدْتِ الْحَجَّ قَالَتْ وَاللَّهِ مَا أَجِدُنِي إِلَّا وَجِعَةً فَقَالَ لَهَا حُجِّي وَاشْتَرِطِي وَقُولِي اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي. [مسلم: ١٢٠٧].

وقوله صلى الله عليه وسلم لكل من سأله عن التقديم والتأخير في أعمال يوم النحر: «افعل ولا حرج». [صحيح البخاري: ٨٣].

٧- حرصه صلى الله عليه وسلم على الإقناع لمن يستفتيه:

كقوله صلى الله عليه وسلم لرجل قال له: يا رسول الله، إني أبي أدركه الإسلام، وهو شيخ كبير، لا يثبت على راحلته، أفأحج عنه؟ قال: أرأيت لو كان عليه دين فقضيته عنه، أكان يُجزيه؟ قال: نعم. قال: «فاحجج عن أبيك». [المسند لأحمد: ١٨١٢].

٨- استثماره صلى الله عليه وسلم الفرص وربطه بين المواقف:

كقوله صلى الله عليه وسلم حين خطب الناس يوم النحر: «أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ قُلْنَا بَلَى قَالَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ فَقَالَ أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ قُلْنَا

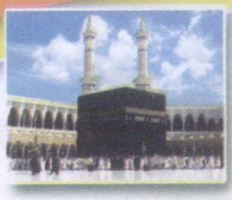

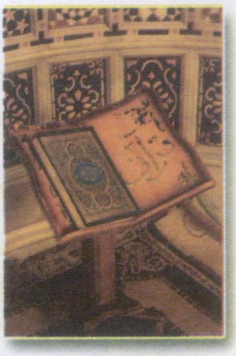

بَلَى قَالَ أَيُّ بَلَدٍ هَذَا قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ قُلْنَا بَلَى قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ». [صحيح البخاري: ١٧٤١].

٩- حثه صلى الله عليه وسلم على التبليغ عنه، وتحذيره من الكذب عليه:

إذ قال صلى الله عليه وسلم: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ». [صحيح ابن ماجه: ٢٤٨٠].

١٠- التربية على الاتباع، وتوحيد مصدر التلقي:

ومن ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم وحثه الناس في خطبة يوم عرفة على الاعتصام بالتنزيل والتمسك به، لأنه طريق الوقاية من الزيغ والضلال، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله». [مسلم: ١٢١٨].

١١- توحيد الأمة، وتحذيرها من الفتن ودواعي الافتراق:

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم وهو بالخيف بمنى: «ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الْأَمْرِ وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ». [صحيح سنن ابن ماجه: ٢٤٨٠]. ومنها: نهيه صلى الله عليه وسلم عما يسبب الفرقة، ويؤدي إلى الفتنة في المجتمع المسلم، كالاقتتال، حيث قال صلى الله عليه وسلم بعد أن استنصت الناس: «لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض». [صحيح البخاري: ١٢١].

وصلى الله وسلم وبارك عليك يا خليلي يا رسول الله، اللهم امنن علينا بحج بيتك الحرام.

وقفة مع النفس

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله يبدئُ ويعيدُ، خلق السماوات والأرض بالحق، يكورُ الليل على النهار، ويكورُ النهار على الليل، أحصى على الخلق أعمالهم، فهو بكل شيء محيط، وعلى كل شيء شهيد، وأصلي وأسلم على إمام المرسلين وسيد ولد آدم يوم الدِّين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

أما بعدُ:

فإنَّ المُوَفَّق من يسعى لصلاح حاله، بحيث يكون غده خيرًا من يومه، ويومه أفضل من أمسه، وعامه الجديد أفضل من عامه الماضي، والكيِّس مَن حاسبَ نفسه، وراجع حساباته، وفتح صفحةً جديدة من حياته، وتعهد رصيده الأخرويَّ، وتزود من العمل الصالح، وقدَّر لخطاه مواضعها، فعمر الإنسان هو موسم الزرع في هذه الدنيا، والحصاد هناك في الآخرة، فلا يحسن بالمسلم أن يضيّع أوقاته وينفق رأس ماله فيما لا فائدة فيه، ومن جهل قيمة الوقت الآن فسيأتي عليه حين يعرف فيه قدره ونفاسته وقيمة العمل فيه، ولكن بعد فوات الأوان، وفي هذا يذكر القرآن من أنَّ الكافر والمقصر في عمل الخير إذا حضر أحدهما الموت طلب الرجعة إلى الحياة؛ ليعمل العمل الصالح الذي يدخلهما الجنة، ويتدارك به ما سلف منهما من الكفر والتفريط وأنه لا يُجاب لذلك، كقوله تعالى: « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ » [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠].

وقوله تعالى: « وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ » [المنافقون:١٠- ١١]، وقوله تعالى: « وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ » [إبراهيم: ٤٤].

وكما أن المفرطين يطلبون الرجعة عند حضور الموت، ليصلحوا أعمالهم فإنهم يطلبون ذلك يوم القيامة، ومعلوم أنهم لا يُجابون إلى ذلك، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: « يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا

بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ » [الأعراف: ٥٣].

وقوله تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » [السجدة: ١٢]. وقوله تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ » [الأنعام: ٢٨].

وقوله تعالى: «وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ » [الشورى: ٤٤].

وقوله تبارك وتعالى: «قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ » [غافر: ١١].

وقوله سبحانه: «وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ » [فاطر: ٣٧].

وقوله تعالى: « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ » [سبأ: ٥١- ٥٣]، وقد تضمنت هذه الآيات التي ذكرنا، وأمثالها في القرآن أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند حضور الموت، ويوم النشور ووقت عرضهم على الله تعالى، ووقت عرضهم على النار.

وإذا كان الأمر كذلك- أيها الأحبة- ، فعلى صاحب البصر النافذ أن يتزود من نفسه لنفسه، قال الله تعالى: «وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا » [المزمل: ٢٠]، ومن حياته لموته، ومن شبابه لهرمه، ومن صحته لمرضه، فما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا سوى الجنة أو النار.

الحذر من دار الغرور:

وأما الدنيا فحياتها عناء، ونعيمها ابتلاء، جديدها يبلى، وملكها يفنى، ودّها ينقطع، وخيرها يُنتزع، المتعلقون بها على وجل؛ إما في نعيم زائل أو بلايا نازلة، أو منايا قاضية، العمر قصير، والخطر المحدق كبير، والمرء بين حالين: حالٍ قد مضى لا يدري ما اللهُ صانعٌ فيه، وأجل قد بقى لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيه، ومن أصلح بينه وبين ربه كفاه ما بينه وبين الناس، ومن صدق في سريرته حسنت علانيته، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه، والمحاسبة الصادقة ما أورثت عملاً.

أهمية محاسبة النفس:

فعليك أخي الحبيب أن تستدرك ما فات بما بقي، فتعيش ساعتك ويومك، ولا تستغل بالندم والتحسر من غير عمل، واعلم أن من أصلح ما بقي غُفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي أُخذ بما مضى وبما بقي، والموت يأتي بغتة، فأعط كل لحظة حقها، وكلل نفسٍ قيمته.

قرأ الحسنُ- رحمه الله- قول الله تعالى: «عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ» [ق: ١٧]، فقال: يا ابن آدم، بُسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان أحدُهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فصاحبُ اليمين يكتبُ الحسنات، وصاحبُ الشمال يكتب السيئات، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر، فإذا متَّ طويت صحيفتك، وجُعلت في عنقك، فتخرجُ يوم القيامة، فيقال لك: « ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » [الإسراء: ١٤]، ثم قال- رحمه الله-: عدل- والله- من جعلك حسيب نفسك.

وا علموا- إخواني- إن من حاسب نفسه في الدنيا خفَّ في القيامة حسابه، وحسن في الآخرة منقلبه، ومن أهمل المحاسبة دامت حسرتُه وساءَ مصيره، وما كان شقاء الأشقياء إلا لأنهم كانوا لا يرجون حسابًا، قال الله تعالى: «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » [النبأ: ٢١- ٣٠].

وقفة محاسبة في نهاية العام:

فيا إخواني- ما دمنا جميعًا نوقن بأنَّ الموت نهايةُ كل حيٍّ في هذه الدنيا، وأن بابه سيلجه كل أحد، وكأسه تذوقها كل نفس، وأنه خاتمةُ المطاف، ونهاية التطواف في عالَم الدنيا، فإنه يجدر بنا- ونحن نُودِّع في هذه الأيام عامًا

هجريًا كاملاً، ونختتم سنة من أعمارنا- أن نقف وقفةً حازمةً مع نفوسنا، نذكرها بهذه الخاتمة، وأهميتها في حياة الإنسان، من كونِ كلِّ إنسان.

خَطَبَ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: «ألا إن الدنيا قد ولت مدبرةً، والآخرة قد أسرعت مقبلة، ولكل واحدةٍ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليوم عملٌ ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل».

فتزودوا- إخواني- من دنياكم قبل الممات، وتداركوا هفواتكم قبل الفوات، وحاسبوا أنفسكم وراقبوا الله في الخلوات، وتفكروا فيما أراكم من الآيات، وبادروا بالأعمال الصالحات، واستكثروا في أعماركم القصيرة من الحسنات، قبل أن يُنادى بكم مُنادِ الشتات، قبل أن يُفاجئكم هادم اللذات، قبل أنَ يتصاعد منكم الأنين والزفرات، قبل أن تنقطع قلوبكم عند فراقكم حسرات، قبل أن يغشاكم من غمِّ الموت الغمرات، قبل أن تُزعجوا من القصور إلى بطون الفلوات، قبل أن يُحال بينكم وبين ما تشتهون من هذه الحياة، قبل أن تتمنوا رجوعكم إلى الدنيا وهيهات.

المبادرة إلى التوبة وترك التسويف:

قال بلال بن سعد: يُقال لأحدنا: تريد أن تموت؟

فيقول: لا، فيقال له: لِمَ؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحًا، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل، فلا يحب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله تعالى ولا يؤخر عمل الدنيا.

فالواجب المبادرة إلى التوبة وترك التسويف، فإنَّ تأخير التوبة هو- بحدِّ ذاته- ذنبٌ يستحقُّ التوبة، كيف وإن المؤمن ليخشى أن يُحال بينه وبين التوبة وهو لا يشعر، فتفوته فيندم حيث لا ينفع الندم؟ يطلبُ حُسن الخاتمة، وينشدُ الميتة الحسنة ليفوز بما بعدها، ويخشى من سوء الخاتمة وميتة السوء، لشدة ما بعدها وهوله، ولقد جاء في كتاب الله سبحانه التأكيد على أهمية حُسن الخاتمة، يقول الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ» [آل عمران: ١٠٢]، ويقول سبحانه: «وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ» [الحجر: ٩٩].

فالأمر بتقوى الله وعبادته مستمرٌّ حتى الموت، لتحصل الخاتمة الحسنة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأعمال بالخواتيم». [البخاري: ٦٦٠٧]، وإذا كان الإنسان لا يدري متى يفجؤه الأجل؟ ولا متى يباغته الموت؟ فإنَّ عليه أن يستعدَّ لهذه اللحظة المفاجئة بالعمل الصالح، وقد حذر المولى- تبارك وتعالى- من ذلك، فقال سبحانه: «إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا» [النساء: ١٧- ١٨].

فجد- أخي- في التوبة وسارع إليها فليس للعبد مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد، فسارع إلى التوبة، وهُبَّ من الغفلة، واعلم أنَّ خير أيامك يوم العودة إلى الله عز وجل، فاصدق في ذلك السير.

أعظم الاغترار:

قال يحيى بن معاذ- رضي الله عنه-: من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط، ومن أحبَّ الجنة انقطع عن الشهوات، ومن خاف من النار انصرف عن السيئات. اهـ.

وقال الحسن البصري: إنَّ قومًا ألهتهم أماني المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي. وكذب.. لو أحسن الظن لأحسن العمل. اهـ.

اللهم إنا نسألك أن تجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أعمارنا أواخرها، وخير أيامنا يوم نلقاك، واختم لنا عامنا هذا بالتوبة النصوح والعمل المتقبل المرفوع إنك ولي ذلك والقادر عليه.

والثمن مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله المنعم المتفضل بجزيل العطايا والإحسان، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فلقد كانت البشرية في فترة من عصورها قد التوت بها سبلُ الحياة، فانطفأت في قلبها مشاعل الرحمة والفهم المستنير، وأظلمت في نفسها معاني السمو والشفقة، فقتلت الأبناء مخافة الفقر، ووأدت البنات خشية العار، فإنَّ ذلك كان شذوذًا خرجت به البشرية عن دائرة العقل السليم، وعاطفة الأبوة الرحيمة، وخسرت بسببه كثيرًا من النعم، هذا الأمر الذي عبّر عنه القرآن الكريم: « قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ » [الأنعام: ١٤٠].

وجاء عرب الجاهلية فأكملوا الجرم بوأد البنات خشية من عار التزوج بزوج دون أبيها في المكانة والشرف، أو عار الفاحشة، قال الله تعالى: « وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » [الأنعام: ١٣٧]، وكان للعرب تفنن في الوأد، فمنهم من إذا صارت بنته سداسية يقول لأمها: طيّبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئرًا في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها ثُمَّ يدفعها من خلفها ويهيل عليها بالتراب حتى تستوي بالأرض. ومنهم من كان إذا ضربت امرأته من الوضع، حفر حفرة للمخاض على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتًا رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابنًا حبسته. انظر إلى هذه القسوة وغلظ القلب وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر والعار، قال الله تعالى: « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ » [النحل: ٥٨- ٥٩].

وجاء الإسلام فانتقل بهذه الأُمة الجاهلية نقلة كبيرة واسعة، فبعد أنْ كانت البنات عارًا يلاحقهم، صاروا يُكنون بهن ولا يجدون في ذلك حرجًا أو ضيقًا ولا عيبًا أو أذى، وربما رُضي بالبنت- واحدة قسمًا وحظًا من الذرية، فأبو أمامة صدي بن عجلان الباهلي، وأبو أمامة إياسُ بن ثعلبة الأنصاري الحارثي، وأبو رقية تميم بن أوسي الداري، وأبو كريمة المقدام بن معديكرب وغيرهم، رضي الله عنهم جميعًا، وكان من أثر هذه الوثبة: أن صار أدباء الصدر الأول يصوغون في مدحهن ما هو أبهى من عقود الجمان، فمن ذلك قول معن بن أوس:

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم
وفيهن لا نكذب نساء صوالحُ
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى
خوادم لا يملكنه ونوائح

وحُكي أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنته، فقال: من هذه يا معاوية؟ فقال: هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف. وفي رقعة للصاحب بالتهنئة بالبنت: أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد والأطهار. والمبشرة بإخوة يتناسقون، وبنجباء يتلاحقون.

نظرة جاهلية حرمها الإسلام:

والآن من الزوجات من تُبكر ببنت، وتُثني ببنت، وتثلث ببنت، وقد تربع ببنت، فلا تجد هذه الحالة قبولاً لدى كثير من الأسر، فيهجرها زوجها ويقاطعها أو يجبرها على أخذ مانع يمنعها من الحمل، وتصبح الزوجة وتُمسي وهي تسمع عبارات عدم الرضا واللوم والنقد والتوبيخ تقرع أذنها، وتنظر النساء في الأسرة إليها نظرة ازدراء واستخفاف، وتصبح حياتها حياة تعسة لما ترى من المعاملة، ولما تحس من التحقير، إننا نؤكد أنَّ هذه النظرة نظرة جاهلية حرمها الإسلام تحريمًا قاطعًا؛ لأنها تحمل في طياتها الأمور التالية:

أولاً: الرجوع إلى الجاهلية الظالمة التي تبرأ منها المجتمع الإسلامي منذ العصر النبوي.

ثانيًا: الاعتراض على قدرة الله، والسخط على عطائه.

والسبب في ذلك يعود إلى ضعف الإيمان، وزعزعة اليقين؛ لكونهم لم يرضوا بما قسمه الله لهم من إناث، لم يملكوا ولا نساؤهم، ولا مَن في الأرض جميعًا، أن يغيّروا من خلق الله تبارك وتعالى في تدبيره المبرم، وإرادته النافذة ومشيئته المطلقة وأمره الغالب في شأن الإناث، وشأن الذكور، قال الملك الحق: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ» [الشورى: ٤٩، ٥٠]، فهو سبحانه وتعالى بحكم سلطانه على الأرض والسماء، فإنه يتصرف كيف يشاء، وهذا ناتج عن علم أحاط بكل شيء، وقدرة أخضعت لها كل شيء.

من السفه الاعتراض على حكم الله:

فالواجب أن يُسلم العبد لربه فيما وهبه وأعطاه، ومن السفه الاعتراض على حكم الله، فالتشاؤم من البنات مرفوض شرعًا وعقلاً، عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مرَّ بالنُّطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكًا فصوّرها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكرٌ أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتبُ الملك، ثم يقول: يا رب أجله؟ فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخر الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيدُ على أمرٍ ولا ينقصُ». [صحيح الجامع: ٧٩٧].

دور الرضا بالقدر في اقتلاع جذور الجاهلية:

يجب على الأسرة المسلمة الرضا بما قسم الله لها من البنين والبنات، وترضى كذلك إذا حرمها، فلا تسخط إذا جاء القسم على غير هواها أو مزاجها، وهذا الرضى ينم عن إيمان عميق في القلب، ولكي يقتلع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض النفوس الضعيفة جذور الجاهلية خصَّ البنات بالذكر، وأمر الآباء والمربين بحسن صحبتهن، والعناية بهنَّ، والقيام على أمورهن، ليستأهلوا دخول الجنة، وبالتالي حتى تكون تربية البنات وتحقيق الخير لهن على الوجه الذي يرضي الله سبحانه، ويأمر به الإسلام.

بعض التوجيهات النبوية في وجوب العناية بالبنات:

وإليكم بعض التوجيهات النبوية في وجوب العناية بالبنات والاهتمام بهنَّ: فعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين، وضم أصابعه». [مسلم: ١٤٣٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس أحدٌ من أُمتي يعول ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، فيحسن إليهن، إلا كُنَّ له سترًا من النار». [صحيح الجامع: ٢٦٣٠].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان له ثلاث بنات يؤويهنَّ ويكفيهن ويرحمهن، فقد وجبت له الجنة البتة». فقال رجل من بعض القوم: وثنتين يا رسول الله؟ قال: وثنتين. [الصحيحة: ١٠٢٧].

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عال جاريتين حتى يدركا، دخلت أنا وهو الجنة كهاتين، وأشار بأصبعيه». [صحيح الجامع: ٦٣٩١].

فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها، وما أجدر هذا الفضل في تربية البنات!!

ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إمامًا، وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فضل العلم وواجبنا نحو العلماء

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله رافع أهلِ العلم درجات، والمفضّل ذوي العلم في الحياة والممات، وأصلي وأسلم على سيد الدعاة وإمام الأنبياء وعلى آله وأصحابه ومن استن بسنته واهتدى بهداه، أما بعدُ:

فالعلم منة يَمُنّ الله به على من شاء من عباده.

قال الله تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » [يوسف: ٢٢]، وقال تعالى عن كليمه موسى عليه السلام: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » [القصص: ١٤]، وقال تعالى عن داود وسليمان عليهما السلام: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » [النمل: ١٥]، فخصّ العلم بالذكر مع أنه آتاهما مالاً وملكًا، «وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » [الأنبياء: ٧٩]، وذكر سبحانه أنهما قالا: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ » [المؤمنون: ٢٨]؛ لاعتقادهما أنهما بالعلم فُضلا على كثير من عباده المؤمنين، وامتن سبحانه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: «وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » [النساء: ١١٣]، فمن أورثه الله علم الكتاب والسنة فقد اصطفاه، قال صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» رواه البخاري.

إذن فالعلماء وارثو علم الرسالة؛ بهم قام الكتاب وبه قاموا، وهم مثال الاستقامة، بالعلم عاملون، وعلى الحق سائرون، يهدون بالحق وبه يعدلون، مصابيح الدجى، وأعلام الهدى، بهم يُهتدى ويُقتدى، وعلى خطاهم تعيش الأمم على هدى وبصيرة من أمرها بعيدًا عن البدع والخرافات ودروب الجهل والضلال، استشهد الله بهم دون غيرهم من البشر على أجَل مشهود به وأعظمه: «شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » [آل عمران: ١٨].

وأخبر سبحانه أنهم أهل خشيته: «إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ » [فاطر: ٢٨]، وأمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستشهد بهم على رسالته، «وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ » [الرعد: ٤٣]، واستشهد بهم سبحانه على صحة ما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم: «أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ » [الأنعام: ١١٤]، وجعل سبحانه كتابه آيات بينات في صدورهم، قال تعالى: «وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ » [العنكبوت: ٤٨، ٤٩]، ونفى سبحانه التسوية بين العالمين والجاهلين، فقال تعالى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » [الزمر: ٩]، وأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يكتفي بشهادة أهل العلم ولا يعبأ بالجاهلين، فقال تعالى: «وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا » [الإسراء: ١٠٦-١٠٨]، وأخبر سبحانه عن رفعة درجات أهل العلم، فقال تعالى: «يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ » [المجادلة: ١١]، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما خصّ اللهُ العلماءَ في شيءٍ من القرآن ما خصَّهم في هذه الآية، فضَّلَ اللهُ الذين آمنوا وأتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم. [الدر المنثور ٨/٨٣].

ودعا الله الناس إلى سؤالهم فيما يجدُّ من مسائل وقضايا، فإجابتهم تزيل الشبهات، قالَ الله تعالى: «فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » [النحل: ٤٣]، وأخبر سبحانه أنهم المنتفعون بضرب الأمثال، قال الله تعالى: «وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ » [العنكبوت: ٤٣]، لذا كان بعض السلف إذا مرَّ بمثلٍ لا يفهمه يبكي ويقول: لست من العالمين.

وأخبر سبحانه أن العلماء سيشهدون للأنبياء على أممهم يوم القيامة، فقال تعالى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » [البقر: ١٤٣]، والخطابُ وإن كان للأمة إلا أنه من العام المخصوص، لأن الجاهل شهادته مردودة، ولذلك قال الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه: «باب: وكذلك جعلناكم أمة وسطًا، وما أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم، وقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل العلم، فقال صلى الله عليه وسلم: «وإن العالِمَ ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضلُ العالِم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر». [متفق عليه].

علامة هلاك الناس:

وقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم باغتنام

حياة العلماء، وأخذ العلم عنهم قبل أن يموتوا، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبق عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جُهَّالاً، فَسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا». [متفق عليه].

وقد قيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: إذا هلك علماؤهم.

مصيبة الطعن في العلماء:

ومع هذا الثناء من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على أولي العلم- فإنهم لم يسلموا من أقوام يحطون من أقدارهم ويجترئون على مقامهم وينزعون مَن مهابتهم، يطعنون في أعمالهم وجهودهم، ويشككون في قدراتهم وكفاءاتهم، ويبلبلون على العامة، يوزعون الاتهامات، ويتبعون المعايب، والأشدُّ من ذلك والأنكى اتهام النيات، والحكم على المقاصد، والتطاول على السرائر التي لا يعلمها إلا الله، ولا شك أن هذا ضرر على الدين، فالطعن في العلماء ليس طعنًا في شخوصهم، إنما طعن في العلم الذين يحملونه، وبالتالي طعن في الإسلام.

فاحذروا- إخواني- كل الحذر من التطاول على علماء الأمة، فالتجريحُ بغير حقٍ لا يجوز، ورفض الدليل محرمٌ لا يسوغ، والمنهج الحق الأخذ بالدليل مع وافر الحرمة والتقدير لأئمة العلم والدِّين، ومن كانت له نادرة ينبغي أن تدفن في بحر علمه، وتنسى في جانب عظيم فضله، فالعصمة غير مضمونة لأيِّ عالم، ولكن المضمون لهم- إن شاء الله- الأجر على اجتهادهم- أصابوا أو أخطأوا.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله: لو أنا كلما أخطأ إمامٌ في اجتهادٍ في آحاد المسائل خطأً مغفورًا له، قمنا عليه، وبدَّعناه وهجرناه، لما سلم معنا لا ابنُ نصر ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، ونعوذ بالله من الهوى والفظاظة. اهـ.

احذروا التطاول على مناهج الأئمة، وعلماء الأمة، أو التهوين من فقه السلف، ومن ظَفِر بخطأ عالم فلا يفرح، ولا يتبع العثرات، ولكن ليصحح الخطأ، ولْينبِّهه إلى الصواب، يحيط ذلك سياج من الخُلق الفاضل، في لسان عفيف، ونظر متورع وقبل ذلك وبعده هو بحاجة إلى إخلاص القصد لله وحده والتجرد للحق، وليحذر التشهير والتشنيع، وألا يظن بهم إلا خيرًا، قال الله تعالى: «لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا» [النور: ١٢]، وبخاصة أولئك الأعلام الذين يعلمون الناسَ الخيرَ، يجبُ على الأمة أن تحفظ حقوقهم، وتعرف مكانتهم، وتقدرهم حق قدرهم، وتلتزم الأدب معهم، إنهم العلماء وارثوا علم الرسالة خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم في أمته، المحيون لما مات من سنته، فمعلم الناس الخير يصلي عليه الله وملائكته ويستغفر له كل شيء حتى الحيتان في جوف البحر، والنملة في جحرها، فعليكم إخواني بتبجيل العلماء أهل الفضل والإيمان، قال الإمام الطحاوي رحمه الله: «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يُذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل». [الطحاوية ص٥٨].

وقال الحافظ ابن عساكر: اعلم وفقنا الله وإياكم لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حقَّ تقاته، أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في الانتقام من منتقصيهم معلومة، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب. [مقدمة المجموع شرح المهذب].

ومن قبل قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من آذى فقيهًا فقد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد آذى الله عز وجل».

إلى دعاة التجريح:

ألا فليتق الله من أشغل نفسه بتجريح العلماء وطلبة العلم والتحذير منهم، فينشغل بالبحث عن عيوبه للتخلص منها بدلاً من الاشتغال بعيوب الآخرين، ويحافظ على حسناته فلا يضيق بها ذرعًا، فيوزعها على من ابتلى بتجريحهم والنيل منهم، وهو أحوجُ من غيره إلى تلك الحسنات في «يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» [الشعراء: ٨٩]، وأن يشغل نفسه بدلاً من التجريح والتحذير بتحصيل العلم النافع، والجدِّ والاجتهاد فيه ليستفيد ويفيد، وينتفع وينفع، فمن الخير للإنسان أن يشتغل بالعلم تعلمًا وتعليمًا ودعوة وتأليفًا، إذا تمكن من ذلك ليكون من أهل البناء، وألا يشغل نفسه بتجريح العلماء وطلبة العلم من أهل السنة، وقطع الطريق الموصلة إلى الاستفادة منهم، فيكون من أهل الهدم، ومثل هذا المشتغل بالتجريح لا يخلف بعده إذا مات علمًا يُنتفع به، ولا يفقدُ الناس بموته عالمًا ينفعهم، بل بموته يسلمون من شره.

فيا إخواني- العلماءَ العلماء، أنزلوهم منازلهم وأجلوهم واحترموهم، قال صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه». [صحيح الجامع: ٥٤٤٣].

ومن وصايا لقمان: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل المطر».

وأسأل الله عز وجل أن يوفق الجميع لما يرضيه وللفقه في الدِّين والثبات على الحق، والاشتغال بما يعني عمَّا لا يغني، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

لسعادة الدارين..
وخيرهما الذي يبدأ بالسلام

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله ولي الصالحين، وأصلي وأسلم على سيد ولد آدم يوم الدين صلى الله عليه وسلم، أما بعدُ:

فإنَّ الناظر المتأمل في واقعنا اليوم يكاد يقول: إنَّ منافرةً شديدةً واقعةً بين الأمة وإسلامها، أو إنَّ عداوةً شرسةً آخذةً بمجامع قلوبها ونواصيها، تقودُها قودًا ذليلاً حثيثًا إلى حيث تكون هلكتها!! ثم لا تجد لنفسها سبيلاً يهديها، أو سبيلاً يُنجيها!!

أسباب التقاطع والخصام:

ولم يكن ذلك كذلك إلا حين سادت الخصومات، وكثرت المنازعات، وغلب الجفاء، واستحكمت القطيعة، فأذهبت الوُدَّ والصفاء، وأدى ذلك إلى الشقاق والمخاصمات، وعمت الأثرة والأنانية وحُب الذات، بل حتى بين أبناء الأسرة الواحدة، وأصحاب المنهج القويم..

وصار السؤال: تُرى ما السبب في ذلك؟

والجواب الذي لا يختلف عليه اثنان أمران: هما: الشيطان، والذنوب، قال الله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ» [المائدة: ٩١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم». [مسلم: ٤/٢١٦٦/٢٨١٢].

أي: في الخلاف والشرور والعداوة والبغضاء بينهم حتى تكون من ذلك الفتن العظيمة والخطوب الجسيمة.

لذا أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالحذر من الشيطان الرجيم، والعمل على سد المداخل التي قد يدخل عليهم منها، فقال تعالى: «وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا» [الإسراء: ٥٣]، وكثيرون أولئك الذين عصوا الرحمن واستجابوا للشيطان فهجروا إخوانهم المسلمين لأسباب غير شرعية كالخلاف على المال، وتستمر القطيعة مدة من الزمن، وقد يحلف أن لا يكلمه، وينذر ألا يدخل بيته، وإذا رآه في طريق أعرض عنه، وإذا لقيه في مجلس صافح من قبله ومن بعده وتخطاه، أهذه الأمةُ الواحدة؟ أهذه تعاليمُ الأخوة الإسلامية الصادقة؟!

وأما الذنوب: فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ما توادَّ اثنان في الله فيُفرِّق بينهما إلا بذنب يُحدثه أحدهما». [صحيح الجامع: ٥٦٠٣]، وهذا حديث عظيم يدل على أثر من آثار الذنوب المُرَّة، ألا وهو التفريق بين المتوادين في الله المتحابين فيه.

فالعدو الماكرُ اللئيم يعرفُ متى ينقضُّ على هذه الأمة، فأول عمل يقوم به تشتيتُ جمعهم، وتفريقُ كلمتهم، والوقيعةُ بينهم، فإذا تفرقوا خَلَا بهم على انفراد، ولقد حذَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا يُؤَذَّن فيهم، ولا تُقام فيهم الصلاةُ، إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية». [صحيح الجامع: ٤٢٧]، أي: المتخلفة عن القطيع، المنفردة وحدها؛ لأنَّ نجاتها وسلامتها ببقائها مع جماعتها من الأغنام، فالاجتماع قوة والتفرق ضعفٌ وتشتت وهوان.

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرًا
وإذا افترقن تكسرت آحادًا

أهمية التعاون في حياة البشر:

فالتعاون مطلوب من الجميع، أفرادًا وجماعات، وقد شبَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة بالبنيان المتراصِّ المركب من اللبنات، وكل فرد من أمة وكل فرد من أمة النَّبي صلى الله عليه وسلم لبنةٌ في هذا البنان، فلا بدَّ لكمال هذا البناء وسلامة بنيانه من اللبنات وتماسكها، أما إذا تفككت وتهلهلت تصدع البناء وانهار، وكذلك الأمة الإسلامية، أفرادها لبناتٌ في المجتمع

الإسلامي، لابدَّ من تضافر جهودهم واجتماع كلمتهم على طاعة الله سبحانه وتعالى على ما يعودُ على أمة الإسلام بالخير.

فضائل العفو عن الآخرين:

وإذا كانت السلامةُ متعسرة فقد أرشد الإسلام المسلمين إلى ما يجب عليهم إذا نالَ الشيطان من بعضهم وحرضه على أذى الغير والاعتداء عليه، فقال تعالى في معرض مدح عباده المؤمنين: «وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ» [الشورى: ٣٧]. قال الطبري: «يقول الله تعالى ذكره: وإذا ما غضبوا على من اجترم إليهم جرمًا، هم يغفرون لمن أجرم إليهم ذنبه، ويصفحون عن عقوبة ذنبه». [الطبري: ٢٣/٢٥].

ولقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالعفو عن زلات المؤمنين فقال تعالى: «فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ» [آل عمران: ١٥٩].

وأمر المؤمنين بالعفو عن زلات بعضهم البعض فقال تعالى: «وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ» [الشورى: ٤٠].

وقال تعالى: «وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [التغابن: ١٤].

وبين سبحانه أن العفو من صفات المتقين فقال تعالى: «وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» [البقر: ٢٣٧]، ووعد على العفو مغفرةً وأجرًا عظيمًا، فقال سبحانه: «وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [النور: ٢٢]، ورغّب رسول الله صلى الله عليه وسلم في العفو فقال صلى الله عليه وسلم: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه». [مسلم: ٢٥٨٨].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه: لقيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخذت بيده فقلتُ: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: «يا عقبة: صِلْ من قطعك، وأعطِ من حرمك، واعفُ عمن ظلمك». [الصحيحة: ٨٩٠، ٨٩١].

وقال صلى الله عليه وسلم: «من كتم غيظًا، وهو قادر على أن يُنفذه، دعاهُ الله على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور شاء». [صحيح الجامع: ٦٥١٨] أي: يزوجه إياها.

وبيّن صلى الله عليه وسلم أن خير الرَّجُلين من بدأ بالسلام فقال صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيُعرض هذا ويُعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام». متفق عليه: البخاري (١٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يحلُّ لمؤمنٍ أن يهجر مؤمنًا فوق ثلاث، فإن مرت به ثلاث فليلقه فليُسلم عليه، فإن ردَّ عليه السلام فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم وخرج المسلم من الهجرة». [صحيح الترغيب: ٢٧٥٧].

ويكفي من سيئات القطيعة بين المسلمين الحرمان من مغفرة الله، قال صلى الله عليه وسلم: «تعرض الأعمال يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لمن لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلاً بينه وبين أخيه شحناء، يقول: دعوا هذين حتى يصطلحا». [صحيح أبي داود: ٤١٠٦].

الحذر من داء التنافر والتناحر:

فالتوبة التوبة: من داء التنافر والتناحر، والتشاحن والتدابر، اصطلحوا أيها المتشاحنون، وتواصلوا أيها المتقاطعون، وأفيضوا جميعًا إلى ظلال المحبة والسلام، والتعاون والأخوة والوئام، تصلوا إلى ما تصبون إليه من رُشدٍ وخير، في دنياكم وأخراكم.

أَذن فلا بد من العفو عن الزلات، والغض عن الهفوات، ويبادر كلٌ متشاحنين إلى التسامح والصفاء، والتزاور والنقاء، وليعلموا أنَّ خيرهما عند الله، وأبعدهُما من الشيطان الذي يبدأ بالصلة والسلام. وحسبه قول الله: «وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ» [الشورى: ٤٠]، قال يحيى الرازي: «ليكن أقل حظ المؤمن منك ثلاث: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه» [الزهد والرقائق للبغدادي ١/١١٤].

فما أجمل الاتفاق! وما أقبح الفرقة والاختلاف! وإن اتحاد المسلمين هو أول خطوة في طريق العز والمجد والسؤدد فإذا رضي المسلمون بذلك وتعاونوا عليه فبشرهم بالنصر والتمكين، «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» [الروم: ٦].

نسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، والحمد لله رب العالمين.

الرِّفق جماع الخير

عبده الأقرع

الحمد لله ولي من اتقاه، يهدي إلى الطيب من القول من اصطفاه واجتباه، وأصلي وأسلم على مَن أدبَّه ربُّه فأحسن تأديبه فكان مثالاً يحتذى به ويقتدى، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم التناد.

أما بعدُ: فلا شك أن رسالة الإسلام رسالة خير وبرٍّ وسلام، ومبادئه مبادئ عدل وحب ووئام، ومن مقاصده: إصلاح أحوال العباد في أمور المعاش والمعاد، والحث على الإصلاح، وحماية الناس من طرق الشرِّ والفساد، يدرأ المفاسد، ويجلب المصالح، ويقلل الخلاف، ويحث على الجماعة والائتلاف، ويزْجُرُ أبناءَهُ عن العنف والقسوة والجفاء، ويربي أتباعه على التوادد والتراحم، والترابط والتلاحم، في تعامل رفيق، وترابط وثيق، ولهذا كان المجتمع الإسلامي مجتمع محبة وصفاء، ومودة وإخاء، وطهر ونقاء، وسلامة وهناء، لا يعرف الحقد والبغضاء، والعنف والشحناء.

أكثر الناس رفقًا وأعظمهم حلمًا:

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا عائشة، إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يُعطي على ما سواه». [مسلم: ٢٥٩٣، باب فضل الرفق].

إن الرجل العظيم كلما ارتفع إلى آفاق الكمال، اتسع صدره، وامتد حِلمه، وتطلب للناس الأعذار، وما أظلت السماء وأقلت الغبراء، أكثر رفقًا، وأعظم حلمًا، من نبينا المصطفى وحبيبنا المجتبى- بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام- وسع خُلُقُه الناس سهولة ورفقًا، وفاضت طبيعته العالية، وسجيته الكريمة المحسن والمسيء، فاستحق هذه الشهادة من الرب الرحيم، «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم: ٤]، وهو الموصوف «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ» [آل عمران: ١٥٩].

وعن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في نفرٍ من قومي فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيمًا رفيقًا، فلما رأى شوقنا إلى أهالينا قال: «ارجعوا فكونوا فيهم وعلموهم وصلوا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم». [البخاري- الفتح: ٦٢٨، واللفظ له، ومسلم: ٦٧٤].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن يهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: السَّام عليكم. فقالت عائشة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم، قال: «مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق وإياك والفحش». قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «أو لم تسمعي ما قلتُ رددت عليهم؛ فيُستجاب لي فيهم ولا يُستجاب لهم فيَّ». [البخاري- الفتح: ١٠/٦٠٣٠].

سبحان الله ما أعظم هذا الخُلق العظيم!!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابيٌ في المسجد، فقام الناسُ إليه ليقعوا فيه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء، أو ذَنُوبًا من ماء، فإنما بُعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين». [البخاري: ٢٢٠].

معنى: «السَّجْل»: هي الدلو الممتلئة ماء.

وفي هذا الحديث فوائد:

منها: العذر بالجهل، وأنَّ الإنسان الجاهل لا يُعامَل كما يعامل العالم، لأن العالم معاند، والجاهل متطلع للعلم فيُعذر بجهله، ولهذا عذره النبي صلى الله عليه وسلم ورفق به.

ومنها: أنَّ الشرع يقتضي دفع أعلى المفسدتين بأدناهما، يعني إذا كان هناك مفسدتان لا بد من ارتكاب أحدهما، فإنه يُرتكب الأسهل.

فلهذا ترك النبي صلى الله عليه وسلم هذا الرجل يبول حتى انتهى، ثم أمر بأن يُصَبّ على بوله ذنوب من ماء؛ دفعًا للمفاسد التي تترتب على منعه من إكمال بوله، ومنها: الضرر على هذا البائل؛ لأنَّ البائل إذا مُنع البول المتهيئ للخروج ففي ذلك ضرر، فربما تتأثر مجاري البول ومسالك البول.

ومنها: لئلا تصيب قطرات البول سائر المسجد، وحينئذ تكون القطرات منتشرة في المكان كله. [شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ٦٧٣/١].

الله أكبر؛ هذه سمات أهل القلوب الشفيقة، والعقول الراجحة، والأفكار النيرة، وهي في الرجال تُدرج في سُلم الكمال عقلاً ورزانة.

فالرفق جماع الخير، وطريق محبة الخلق، والوصول إلى الحق ورضا الرب، وأنه ما قال صلى الله عليه وسلم: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه». [مسلم رقم: ٢٥٩٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: «من يُحرَم الرفق يحرم الخير كله». [مسلم: ٢٥٩٢].

العنف في الإنسان دليل نقص:

وإذا كنا نعيش في زمن رفع العنف صوته، وتوارى الرفق على استحياء، فنقول: إن العنف في الإنسان دليل نقص ونَزَق (أي: خِفة في كل أمر)، وعجلة في جهل وحمق، ومتى اجتمع في فرد عنف وعجلة، ضر نفسه، وأوكسها، وجنى على مجتمعه وأمته وأركسها، وهو لا يحل المشكل من الأمور، يقول ابن القيم رحمه الله: «ومن تأمل ما جرى للإسلام من الفتن صغارها وكبارها، رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على المنكر، فطلب إزالته، فتولد منه ما هو أكبر منه». [إعلام الموقعين ٤/٣].

ولهذا لا عجب أن نرى أناسًا داخلهم اليأس، فانفتلوا قبل منتصف الطريق، وفهموا دُرُوب الإصلاح، على أنها مواجهة ومناطحة، فحصل بذلك من الفتن ما لا يعلمه إلا الله.

الرفق في الدعوة إلى الله:

وإن من الرفق: الرفق في الدعوة إلى الله، فقد أرسل الله موسى وهارون- عليهما السلام- إلى فرعون مُدَّعي الربوبية، والمعتدي على مقام الألوهية، فقال: «اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ» [طه: ٤٣-٤٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فينبغي أن يكون عليمًا بما يأمر به، عليمًا بما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رحيمًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه، فالفقه قبل الأمر، والرفق عند الأمر، والحلم والصبر بعد الأمر». [مجموع الفتاوى: ١٦٧/١٥].

ولذلك قيل: «ما أحسن الإيمان يزينه العلم، وما أحسن العلم يزينه العمل، وما أحسن العمل يزينه الرفق، وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم». [إحياء علوم الدين: ١٨٩/٣].

فالناصح الأمين شفيق على إخوانه، رفيق بهم، فالرفق يُحبب فيك الرفيق، ويدني منك الصديق.

إذا نزل الرفاق وأنت ممن بلا رفق بقيت بلا رفيق

أما العنف فيبعدك عن الصواب، ويجرُّ عليك اللوم والعتاب، ويفقدك الصحاب والأحباب، فلا تقبل منك دعوة، ولا يُسمع منك توجيه، ولا يرتاح لك جليسٌ، «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» [آل عمران: ١٥٩].

وعليه: فلا ينبغي أن يُتخذ العنف منهاجًا للدعوة والإصلاح، ولقد صح واستقام لدى العقلاء، أن العنف لا يُولِّدُ إلا عُنفًا مثله وأشد منه، ومهما يكن من أمر فحلُّ الأمور بالرِّفق والتؤدة، والحكمة مطلبٌ مُلحٌّ، لتحقيق مصالح الأمة من الرعاة والرعية، والحكيم من يضع الأمور مواضعها.

ألا وإن من الرفق: الرفق في الأمور الأُسَرِيَّة، فما كثرت المشكلات، وما عم الشقاق والطلاق والفراق، إلا بسبب العنف، ومجانبة الرفق في الأمور.

فالرفق في الأمور كلها سر النجاح والتوفيق.

إذ بالرفق تسهل الأمور، ويتصل بعضها ببعض، ويرجع إلى المأوى ما شذ، وبه يُجمعُ الشتات، فهو إذن جامعُ الجماعات، وجامعٌ أيضًا للطاعات، وبالطاعات يؤلف الله القلوب، ويجمع الجماعات المتفرقة، ويؤلف بين الجماعات المتباغضة. [فيض القدير: ٤٦١/٥].

فعلى العبد أن يتحلى بالرفق، وأن يتخلى عن العنف، فإنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أُعطي حظه من الرفق فقد أُعطي حظهُ من الدنيا والآخرة». [الصحيحة رقم: ٥١٩].

وعن قيس بن أبي حازم، قال: «كان يُقال مَن يُعط الرفق في الدنيا نفعه في الآخرة». [أخرجه وكيع في الزهد ٧٧٧/٣].

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا الرفق في الأمور كلها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

{ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً }

(الإسراء: الآية٢٣)

بر الوالدين

والديك؛ ضعهما في عينيك

الحمد لله وكفى، والصلاةُ والسلام على نبيه المصطفى، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعدُ:

فإن النفوس قد جُبلت على حبِّ من أحسن إليها، وليس في الناس أعظم إحسانًا ولا أكثر فضلاً من الوالدين؛ لأنهما اللذان لولا الله ثم لولاهما لم تخرج إلى هذا الوجود، ولأنهما اللذان سخرهما الله لك فصبرا على ما رأيا من الأهوال، وسخرهما لتربيتك والعناية بك في هذه الحياة.

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

منزلة الأم:

تذكر زمن حمل أُمك بك وأنت في بطنها عِلةٌ من أكبر العلل، وتذكر وقت ولادتك وهي بين الحياة والممات.

وتذكر أنك كنت تمتص من دمها مدة الرضاع، وسرورها بك، كل هذا تقصر عن شرحه العبارات، وتذكر تنظيفها لبدنك وملابسك من الأقذار، وتذكر فزعها عندما يعتريك خوفٌ أو مرض أو نحو ذلك، وتذكر دفاعها عنك إذا اعتدى عليك معتدٍ، تجوع لتشبع أنت، وتسهر لتنام أنت؛ فهي بك رحيمة، وعليك شفيقة، إذا غابت عنك دعوتها، وإذا أعرضت عنك ناجيتها، وإذا أصابك مكروه استغثت بها، تحسب كل الخير عندها، وتظن أن الشر لا يصل إليك إذا ضمتك إلى صدرها، أو لحظتك بعينها، وتستمر معها المتاعب حتى بعد أن تشب أنت وتصبح رجلاً وزوجًا، وذا أولاد، فالوالدة دائمًا تبحث عنك وتتفقد أحوالك، يسوءها ما يسوءك، ويحزنها ما يحزنك، فلله درهنَّ من أمهاتٍ مشفقات، ومربيات رفيقات، ووالدات رقيقاتٍ- جزاهنَّ الله عنا جناتٍ عرضها الأرض والسماوات.

منزلة الأب:

أما الأب الغالي، والوالدُ الحاني: فأنت له مجبنة مبخلة، يكدُّ ويسعى، ويدفع عنك صنوف الأذى، ينتقل في الأسفار، يجوبُ الفيافي والقفار، ويتحمل الأخطار بحثًا عن لقمة العيش، ينفق عليك، ويصلحك ويربيك، إذا دخلت عليه هشَّ، وإذا أقبلت إليه بش، وإذا حضر أقعدك على حجره وصدره، وإذا غبت

عنه سأل عنك، وانتظر مجيئك، وإذا رآك ابتسم مُحياه وبرقت ثناياه.

وتذكر عنايته بك في تعليمك، وتوجيهك إلى ما فيه صلاح دينك ودنياك، وتذكر فرحه واستبشاره بمحبتك ونجاحك، وتذكر دفاعه عنك بيده ولسانه، وتذكر دعاءه لك في مظنة أوقات الإجابة أن يُصلحك الله ويوفقك، هذان هما والداك، وتلك هي طفولتك وصباك.

والداك نالا بسببك التعب والمشقة، غُرست محبتك في قلوبهما لا يتركان شيئًا في وسعهما إلا بذلاه لإسعادك، أنت قرة عينيهما وزينة دنياهما، وأنت أنس حياتهما وأمل مستقبلهما، يرخصان المال إذا مرضت، ويجزلان العطاء إذا طلبت، من رحيقهما أخذت، وفي حُجورهما وأحضانهما نشأت.

هذان هما الأبوان اللذان جاءت الوصية بهما: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وفي مشكاة النبوة يأتي برُّ الوالدين قرينًا للصلاة عمود الإسلام ومتقدمًا على الجهاد ذروة سنام الأمر.

عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: سألت النبيَّ صلى الله عليه وسلم: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أيٌّ، قال: «الجهاد في سبيل الله». [صحيح البخاري: ٥٢٧، وصحيح مسلم: ٨٥].

فانظروا- يرعاكم الله- كيف فاق برُّ الوالدين الجهاد في سبيل الله!!

ويشهد لذلك أيضا- أنَّ رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد». [البخاري: ٣٠٠٤، ومسلم: ٢٥٤٩].

الغفلة عن البر ومساوئ العقوق:

ورغم هذه الوصايا الإلهية والتوجيهات النبوية إنك لتأسف أشد الأسف من صور تراها، أو حقائق تسمعها، من تساهل كثير من الأبناء في بر والديهم، فلا تقدير ولا احترام، ولا سمع ولا طاعة، بل غلظةٌ وفظاظة، ونهرٌ وعقوق، وقد كانا يتطلعان للإحسان، ويؤملان البر والشكران، ولكن خاب ظنهما، وكأني بهما وقد تمنيا أن لو كانا عقيمين، تئن لهما الفضيلة، وتبكي من أجلهما المروءة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فإلى العاق نذكر بهذه التحذيرات النبوية:

عقوق الوالدين يمنع دخول الجنة:

قال صلى الله عليه وسلم: «ثلاثةٌ حرم الله تبارك وتعالى عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق، والديوث، الذي يقرُّ الخبث في أهله». [صحيح الترغيب: ٥١٢].

وعقوق الوالدين يمنع العاق من نظر الله إليه يوم القيامة: قال صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان عطاءه». [صحيح الترغيب: ٢٥١١].

وعقوق الوالدين من أكبر كبائر الذنوب:

قال صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئًا فجلس، فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور». [البخاري: ٢٦٥٤، ومسلم: ٨٧].

وعقوق الوالدين يحبط الأعمال:

عن عمرو بن مرة الجهني- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت رمضان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا- ونصب أصبعيه- ما لم يعق والديه». [صحيح الترغيب رقم: ٢٥١٥].

فقوله صلى الله عليه وسلم: «ما لم يعق والديه». يفيد أن الصلوات الخمس، وصيام الشهر، وإيتاء الزكاة لا ينفع ذلك صاحبه إذا كان عاقًا لوالديه، يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يقبل الله عز وجل منهم صرفًا ولا عدلاً، عاق، ومنان، ومكذب بقدر». [صحيح الترغيب: ٢٥١٣].

عقوق الوالدين من أسباب تعجيل العقوبة في الدنيا، مع ما يُدَّخر له في الآخرة:

قال صلى الله عليه وسلم: «ما من ذنب أجدر أن

يُعجّل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من البغي، وقطيعة الرحم». [صحيح الجامع رقم: ٥٧٠٤].

وهذا أمر مشاهد وملموس، ولو لم يكن للعاقّ من العقوبة إلا ما يُرى من سوء حاله لكفى، فإنك تراه غالبًا في أبأس الحالات وأشدها، بخلاف البارّ بوالديه؛ فإن أموره -في مجملها- ميسَّرة بركة في العمر، وزيادة في الرزق، قال صلى الله عليه وسلم: «من سرَّه أن يمد له في عمره ويزاد له في رزقه فليبر والديه وليصل رحمه». [صحيح الترغيب: ٢٤٨٨].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يردُّ القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر». [صحيح الترغيب: ٢٤٨٩].

ويظفر البارّ بوالديه برضا الرب سبحانه، قال صلى الله عليه وسلم: «رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد». [صحيح الجامع: ٣٥٠٦].

البار بوالديه مُجاب الدعاء:

قال صلى الله عليه وسلم: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بارّ، لو أقسم على الله لأبره». [مسلم: ٢٥٤٢].

وبرُّ الوالدين: منهج الأنبياء والمرسلين، وعمل الكرام والصالحين، قال الله تعالى عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]، وقال تعالى عن نبيه يحيى بن زكريا- عليهما السلام-: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

وقال تعالى عن نبيه سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، وقال تعالى عن المؤمن: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥].

والدعاء لهما - دأب المرسلين من أولي العزم:

قال الله تعالى عن نبيه نوح- عليه السلام-: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ومن الآثار الواردة في بر الوالدين:

عن أبي مرة، مولى أم هانئ بنت أبي طالب: «أنه ركب مع أبي هريرة إلى أرضه بـ«العقيق»، فإذا دخل أرضه صاح بأعلى صوته: عليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أمتاه، تقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، يقول: رحمك الله كما ربيتني صغيرًا، فتقول: يا بني، وأنت، فجزاك الله خيرًا ورضي عنك كما بررتني كبيرًا». [صحيح الأدب المفرد للبخاري: ص٣٧].

وعن أبي بُردة أنه شهد ابن عمر، ورجل يماني يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره يقول:

إني لها بعيرُها المذلل

إن أذعرت ركابها لم أُذعر

ثم قال: يا ابن عمر، أتراني جزيتها؟ قال: لا، ولا بزفرة واحدة. [صحيح الأدب المفرد ص٣٦]، ومعنى: «ركابها» أي: بعيرها. ومعنى: «ولا بزفرة واحدة» المرة من الزفير وهو تردد النفس حتى تختلف الأضلاع، وهذا يعرض للمرأة عند الوضع.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله من بر الوالدة. [الأدب المفرد].

وسُئل الحسن البصري: ما بر الوالدين؟ قال: أن تبذل لهما ما ملكت، وأن تطيعهما فيما أمراك به؛ إلا أن يكون معصية. [الدر المنثور للسيوطي ٢٥٩/٥].

إذا علمت ذلك فاعلم أن حق الوالدين عظيم، وأنَّ الأبناء عاجزون عن القيام بهذا الحق مهما قدموا، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يجزي ولدٌ والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه». [مسلم: ١٥١٠].

فأنت أيها الابن مهما فعلت في بر الوالدين والإحسان إليهما فلن تقوم بواجبهما أو توف حقهما، ولكن الجأ إلى الله بالدعاء لهما في حال الحياة وبعد الممات، فهذا خلق الأنبياء، ودأب الصالحين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

والحمد لله رب العالمين.

فرحة العيد

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على سيد ولد آدم، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

أما بعدُ:

تكتمل بجمع شمل المسلمين

إعداد
عبده أحمد الأقرع

فكم هو جميلٌ أن تظهر أعيادُ الأمة بمظهر الواعي لأحوالها وقضاياها، وقد قيل: من أراد أنْ يرى أخلاق أمة فليراقبها في أعيادها، إذ تنطلقُ فيه السجايا على فطرتها، وتبرز العواطف والميول والعاداتُ على حقيقتها، والمجتمع السعيدُ الصالحُ هو الذي تسمو أخلاقه في العيد إلى أرفع ذروة، وتمتدُّ فيه مشاعر الإخاء إلى أبعد مدى، حيث يبدو المجتمعُ في العيد متماسكًا متعاونًا متراحمًا، تخفق فيه القلوبُ بالحبِّ والودِّ والبرِّ والصفا؛ لأنَّ أخوة الإسلام في روح الإيمان القوي، ولباب المشاعر الفياضة، التي يبذلها المسلم لإخوانه في العقيدة، حتى إنه ليحيا بهم، يعيش معهم وفيهم، فكأنهم جميعًا أغصانٌ تفرعت من دوحة [الدَّوحة: الشجرة العظيمة المتسعة] زاهرة، لأن من المبادئ العظيمة التي أرسى دعائمها ديننا الحنيف مبدأ الأخوة بين أهل الإيمان، قال الله تعالى: «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» [الحجرات:١٠]، إخوة في ماذا؟ إخوة في الدين والحرمة، لا إخوة في النسب، وأخوة الدين والحرمة تبقى، أما أخوة النسب فتنقطع ولا تبقى، قال الله تعالى: «ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ» [الزخرف:٦٧].

> من أراد أنْ يرى أخلاق أمة فليراقبها في أعيادها، إذ تنطلقُ فيه السجايا على فطرتها، وتبرز العواطف والميول والعاداتُ على حقيقتها.

وقد ذكر الله تعالى المؤمنين بأخوتهم لبعضهم البعض، فقال تعالى: «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» [الحجرات:١٠]، وقال تعالى: «وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا» [آل عمران:١٠٣]، وقال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ» [البقرة:١٧٨]، وقال تعالى: «فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ» [التوبة:١١]، وقال تعالى: «وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» [الحجرات:١٢]، وقال تعالى: «وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ

رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ » [الحشر:١٠]، وقال تعالى: «وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ» [الحجرات:١١]، والمراد في هذا المقام: إخوانكم؛ لأن المؤمنين فيما بينهم- فيما يلزم بعضهم لبعض من تحسين أمرهم وطلب صلاحهم ومحبتهم للخير- كالجسد الواحد، فمن لمز أخاه فقد لمز نفسه، ومن عاب إخوانه فقد عاب نفسه، وقال الله تعالى: « وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ » [البقرة:١٨٨]. أي: أموال إخوانكم.

وقال تعالى: « لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا » [النور:١٢].

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين بأخوتهم لبعضهم البعض، فقال صلى الله عليه وسلم: «إياكم والظن، فإنَّ الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا». [متفق عليه: البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣)].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». متفق عليه: البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

وقال صلى الله عليه وسلم: لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث. متفق عليه: البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣)].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث». متفق عليه. البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩).

وقال صلى الله عليه وسلم: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». [مسلم: ٢٦٩٩].

وقال صلى الله عليه وسلم في شأن الغيبة: «ذكرك أخاك بما يكره». [مسلم: ٢٥٨٩].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يبيع الرجل على بيع أخيه». [متفق عليه: البخاري (٢١٣٩)، ومسلم (١٤١٢)].

وقال صلى الله عليه وسلم: «ولا يخطب على خطبة أخيه». [متفق عليه: البخاري ٥١٤٢، ومسلم....].

وقال صلى الله عليه وسلم: «إنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها». [متفق عليه: البخاري ٢٦٨٠، ومسلم ١٧١٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا». [متفق عليه: البخاري ٢٤٤٤، ومسلم ٢٥٨٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا كفرَّ الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما». [البخاري ٦١٠٤].

كما ذكَّر صلى الله عليه وسلم المؤمنات بذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لامرأة تسأل طلاق أختها لتستفرغ صحفتها». [البخاري: ٥١٥٢].

ولما أمر صلى الله عليه وسلم النساء العواتق، والحيض، وذوات الخدور أن يخرجن لصلاة العيد ويشهدن الخير، ودعوة المسلمين، قالت أم عطية رضي الله عنها: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب؟ قال: «لتلبسها أختها من جلبابها». [متفق عليه: البخاري ٩٧١، ومسلم ٨٩٠].

أُخوةٌ أساسها العقيدة والإيمان، وقاعدتها الدين الخالص للواحد الديان، تتوارى معها التميزات العرقية، وتموت العصبيات القومية، والفوارق الجنسية، لتبقى القاعدة الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي الذي تضمه آصرةٌ خاصة، وتظله راية واحدة لا ثاني لها، إنها راية الإيمان.

أُخوةٌ الإسلام أساسها العقيدة والإيمان، وقاعدتها الدين الخالص للواحد الديان، تتوارى معها التميزات العرقية، وتموت العصبيات القومية، والفوارق الجنسية

كم هو جميل أن نفرح بالعيد ونجعله نقطة تحول من حياة الفرقة والاختلاف، إلى الاجتماع على كلمة التوحيد والائتلاف، فاتحاد المسلمين هو أول خطوة يخطونها في طريق العزّ والمجد والسؤدد.

كم هو جميل أن نفرح بالعيد ونجعله نقطة تحول من حياة الفرقة والاختلاف، إلى الاجتماع على كلمة التوحيد والائتلاف، فاتحاد المسلمين هو أول خطوة يخطونها في طريق العزّ والمجد والسؤدد.

ولعل الناظر يدرك أنه لم يكن لأمة الإسلام أن تجتمع لها كلمة، أو يتوحد لها صف، أو ترفع لها راية، أو تقوم لها دولة، أو يرهب منها عدو- إلا بتآخيها فيما بينها.

ولمثل هذا جاء التوجيه في محكم التنزيل: « وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ » [آل عمران:١٠٣]، « وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ » [المائدة:٢]، تعاونًا يشمل أمور الحياة كلها، بقدر ما تشمله هاتان الكلمتان الجامعتان: كلمة البرِّ وكلمة التقوى، فالبرُّ جماع كل خير، والتقوى اتقاءُ كلِّ شر، بتحقيق التعاون على البر والتقوى، يهون كل عسير، ويتحقق كل مطلوب، وتُحل المشكلات، وينعم الجميع بالسعادة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ مَن أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب». [الصحيحة: ٥٤٩]. تعميم يفيد أنَّ كمال الإيمان يقتضي أن يحافظ المؤمن على أموال المؤمنين وأرواحهم، وأن يحافظ على أموال المعاهدين وأرواحهم ما داموا ملتزمين بعهدهم،

فيا إخواني- أناشدكم بالله- أن تجعلوا من عيدكم هذا نقطة تحول من داء التنافر والتناحر، والتشاحن والتدابر، وأفيضوا جميعًا إلى ظلال المحبة والسلام تحققوا ما تصبون إليه من رشد وخير في دنياكم وأخراكم، وأن يسعى ويبادر كل متشاحنين إلى التسامح والصفاء، والتزاور والنقاء، ويتسابق الجميع من الذي يبدأ بالسلام وخيرهما الذي يبدأ بالسلام. [البخاري: ٦٠٧٧، ومسلم: ٢٥٦٠].

ويظفر بالجائزة الكبرى، « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ » [الشورى:٤٠]، اللهم ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام.

تهنئة

تتقدم جمعية أنصار السنة المحمدية بالتهنئة للشيخ عبد الظاهر محمد عبد الفتاح، أحد أبناء أنصار السنة، وإمام أحد مساجدها، بمنطقة فيصل بمحافظة الجيزة؛ بامتنان الله تعالى عليه، وتعيينه شيخًا للإقراء والإجازات بالمسجد الحرام بمكة المكرمة.

وننوه أن الشيخ- حفظه الله- مع صغر سنه (٣٢) عامًا، حصل على أعلى الأسانيد في القرآن الكريم، وعمل على نشر عقيدة أهل السنة في مساجد الجماعة بمصر.

وجماعة أنصار السنة تتمنى له مزيدًا من التوفيق.

ميلاد جديد.. وصحيفة بيضاء

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبيَّ بعده، نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، وبعدُ:

فلقد مرَّت على المسلمين قبل أيام عبادة من أجل العبادات، ومناسبة من أعظم المناسبات، هي ميلاد جديد، وعهد سعيد، إنها مناسبة الحج إلى بيت الله الحرام، أقبلوا فيها على ربهم جلَّ في علاه، مهللين مكبرين، داعين ومستغفرين، راجين من الله الرحيم أن يمحو عنهم السيئات، ويرفع لهم الدرجات، كما وعدهم بذلك على لسان رسوله الكريم: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه». (البخاري: ١٨١٩، ومسلم: ١٣٥٠).

ولم يرد لهم ثوابًا إلا الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: «والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة». (البخاري: ١٧٧٣، ومسلم: ١٣٤٩).

والآن قد قوَّضت في الحج خيامه، وانتهت أيامه، وولى الحجاج وجوهَهم شطر أوطانهم، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذه الآونة: وماذا بعد الحج؟ ماذا بعد محو السيئات ورفع الدرجات؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم للأنصاري: «وأما طوافك بالبيت بعد ذلك، فإنك تطوف ولا ذنب لك، يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول: اعمل فيما تستقبل فقد غُفر لك ما مضى». (صحيح الترغيب والترهيب: ١١١٢).

وها أنت أيها الحج تعود بصحيفة نقية لا ذنب فيها، وإنما تعمل فيما تستقبل من عمكر من عمل صالح تزين به تلك الصحيفة النقية، ولقد شهدت المشاهد والمشاعر، وجددت العهد مع الله في كل نسك من المناسك، ولكأنك تصغي لسماع آية الكمال والإتمام، إكمال الدِّين وإتمام النعمة حيث أنزلها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بعرفات: «اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» (المائدة:٣).

والدِّين الكامل لا يقبل زيادة، والنعمة التامة لا يجوز

نقصانها وما ارتضاه الله لنا لا بديل عنه أبدًا، وها أنت أيها الحاج قد أعلنت التوبة لله وأشهدته عليها، وأرقت دموع الندم في تلك المشاعر، وعاهدت ربك أن توحد بالعبادة، وأن تفرده بالعمل الخالص لوجهه، وربما بُح صوتك بهذا العهد مع الله: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

فأوف بعهدك وحافظ على توبتك، وانظر ماذا تصنع في صحيفتك، واحذر كل الحذر أن تنقض عهدك مع الله، احذر كل الحذر أن تُدنس صحيفة تعبت على تنقيتها، احذر كل الحذر أن تكون ممن عناهم الله بقوله: «وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ» (التوبة:٧٧).

فبأيِّ حجٍّ رجع من دنس العقيدة بضروب الإشراك، ولوثها بألوان البدع والمحدثات، بأي حجٍّ رجع من هدم دينه بترك عموده وهو الصلاة؟ بأي حج رجع من أصرَّ على ما يتعاطى من محرمات، فلم يمنعه حجه عما كان يقترف من ربًا أو تعاطٍ للمسكرات والمخدرات، أو تعامل بالغش والتزوير وسيئ المعاملات، أو وقوع في القطيعة والعقوق وسافل الأخلاق والصفات؟

ألا فلينظر كل حاج في حياته نظرة صحيحة، وبدأ صحفة جديدة، وانطلاقة جادة، هل غيَّر الحاج حياتهم من سيئ إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن.

إنَّ من مقاييس قبول العمل أو رده أن ينظر المرء إلى آثار ذلك العمل في حياته، فإن من علامة قبول الحسنة الحسنةَ بعدها، فلا بد من تغير كامل، وتبديل شامل، في كل بكير وصغير، وظاهر وباطن، وحاضر ومستقبل، عملاً بقوله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ» (فصلت:٣٠).

وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك. قال: «قل آمنت بالله، ثم استقم». (مسلم: ٣٨).

بل الأمر أعظم من ذلك بالنسبة إليك أيها الحاج، لأنك وأنت في منى قد حملة أمانة التبليغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والدعوة إلى دين الله، فأنت وافد أهلك من بيت الله وقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم من جوامع الكلم ومجامع الحكم، أصول الدِّين ومحاسن الإسلام، وقال صلى الله عليه وسلم: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب». (البخاري: ١٧٤١، ومسلم: ١٦٧٩).

وأنت إن لم تشهد وقت الخطبة وزمانها فقد شاهدت مكانها، وسمعت مضمونها، فبلغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليكن بالاغك قولاً وعملاً، ليرى أثر هذه الفريضة العظيمة في سلوكنا وحياتنا كلها وأخلاقنا السامية متأسين بنبينا صلى الله عليه وسلم.

ثم اننا بعد ذلك نقول لغير الحاج وإن كان ما سبق ذكره لمن عاد من الحج ، فالكلام لهم ولغيرهم لأن التوبة إلى الله مقام لازم لكل مسلم وهأنتم عباد الله تودعون عما قريب عاماً كاملاً مضى من أعماركم، بما أودعتموه من خير وشر، تودعون عامًا ماضيًا شهيدًا، وتستقبلون عامًا مقبلاً جديدًا، فليت شعري ماذا أودعتم في العام الماضي وماذا تستقبلون به العام الجديد، فليحاسب العاقل نفسه ولينظر في أمره فإن كان

الدِّين الكامل لا يقبل زيادة، والنعمة التامة لا يجوز نقصانها وما ارتضاه الله لنا لا بديل عنه أبدًا.

قد فرط في شيء من الواجبات فليتب إلى الله وليتدارك ما فات، وإن كان ظالمًا لنفسه بفعل المعاصي والمحرمات فليقلع عنها قبل حلول الأجل والفوات، وإن كان ممن من الله عليه بالاستقامة فليحمد الله على ذلك، وليسأله الثبات عليها إلى الممات، فإن العمر قصير وكل آت قريب، والموت يأتي بغتة، والآجال محدودة، والأنفاس معدودة، والموفق من يسعى لصلاح حاله، بحيث يكون غده خيرًا من يومه، ويومه أفضل من أمسه، وعامه الجديد أفضل من عامه الماضي، فمن أصلح ما بقي غُفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي أخذ بما مضى وبما قضى، فالسعيد من وفق لختام عامه بالتوبة الصادقة بشروطها المعتبرة، وهي: الإقلاع عن الذنوب، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، لأن الأعمال بالخواتيم، والله عز وجل يقول: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ» (طه:٨٢).

والكيس من اعتبر بمن ودعناهم إلى دار البرزخ من آباء وأمهات، وإخوان وأخوات، وجيران وأصدقاء، فهم الآن بين أطباق الثرى، وقد سرى فيهم البلى.

ولابد وبكل يقين سيهجم علينا الموت كذلك في آية لحظة من ليل أو نهار، فهل يا ترى: سنبشر بروح وريحان أم لا قدر الله سنقول: «رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا» (المنافقون:١١) أو نقول: «رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ» (المؤمنون:١٠٠)، وهيهات هيهات، قال بلال بن سعد: يُقال لأحدنا: تريد أن تموت؟ فيقول: لا، فيقال له: لم؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحًا، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل، فلا يجب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله تعالى ولا يؤخر عمل الدنيا، فالواجب المبادرة إلى التوبة، وترك التسويف، فإنَّ تأخير التوبة هو- بحدِّ ذاته- ذنبٌ يستحق التوبة، كيف وإن المؤمن ليخشى أن يحال بينه وبين التوبة، فتفوته فيندم حيث لا ينفع الندم؟ قال الله تعالى: «إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» (النساء:١٨).

فيا أيها الحاج: ميلاد لك جديد، اعمل فيما تستقبل حتى تلقى ربك.

خلَّ الذنوب صغيرها
وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق أرض
الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة
إن الجبال من الحصى

ويا إخواني: بعد أيام تطوى صحيفة عام كامل بما فيها ما الله به عليم من خير وشر، وتفتح صحيفة عام جديد بيضاء نقية لا إثم فيها ولا وزر، فحافظ أخي على بياضها وصفائها وتذكر قول الله تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يؤمنَّ إلا نفسه». (مسلم: ٢٥٧٧)

الواجب المبادرة إلى التوبة، وترك التسويف، فإنَّ تأخير التوبة هو- بحدِّ ذاته- ذنبٌ يستحق التوبة.

اللهم إنا نسألك أن تجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أعمارنا أواخرها، وخير أيامنا يوم نلقاك، واختم لنا عامنا هذا بالتوبة النصوح والعمل المتقبل المرفوع.

من قبل أن تندم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء، الذي أرسله ربه بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، فدلَّ أُمته على كل خير، وحذرها من كل شر، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث.

أما بعد:

إعداد/ عبده الأقرع

فنعم الله على عباده لا تُعد ولا تُحصى، ومن أعظم هذه النِّعم نعمة النطق التي يُبين بها الإنسان عن مراده، ومن فقَدها لا يمكنه التفاهم مع غيره إلا بالإشارة أو الكتابة إن كان كاتبًا، قال الله عز وجل: « وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (النحل:٧٦)، وقد أقسم الله بنفسه على تحقيق البعث والجزاء على الأعمال، كما أنَّ النطق حاصلٌ واقعٌ من المخاطبين، وفي ذلك تنويه بنعمة النطق، قال الله تعالى: « فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ » (الذاريات:٢٣)، وقال الله تعالى: « خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ » (الرحمن:٤)، وفسَّر الحسن البيان بالنطق، وفي ذلك تنويهٌ بنعمة النطق التي يحصل بها إبانة الإنسان عما يريده، وقال الله تعالى: « أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ » (البلد:٩).

ومن المعلوم أنَّ هذه النعمة إنما تكون نعمة حقًّا إذا استعُمل النطق بما هو خير، وإمَّا إذا استعمل بشرٌّ فهو وبالٌ على صاحبه، ويكونَ من فقد هذه النعمة أحسنَ حالاً منه، ولذا كثرت وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ اللسان، والتحكم فيه، فقال صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر: فليقل خيرًا أو ليصمت». (متفق عليه: البخاري ٦٠١٨، ومسلم: ٤٧).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك». (الترمذي: ٢٤٠٦، والصحيحة: ٨٩٠).

ولما سأل معاذ النبي صلى الله عليه وسلم عن عمل يدخله الجنة ويباعده عن النار، دلَّه صلى الله عليه وسلم أولاً على الواجبات من الصالحات، ثم دلَّه على المستحبات، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» ملاك الشيء ما به إحكامه وتقويته، قال معاذ: بلى يا نبي الله. فأخذ بلسانه، قال: كُفَّ عليك هذا؟ فقلتُ: يا نبي الله، إنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم، أو على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم». (الترمذي: ٦١٦٢، وصحيح الجامع: ٥١٣٦).

والمعنى: «وهل يكبُّ الناسُ» أي: يُلقيهم ويُسقطهم ويُصرعهم «في النار على وجوههم، أو على مناخرهم»، شك من الراوي، وخصهما بالذكر لأنهما أوَّل الأعضاء سقوطًا، «إلا حصائد ألسنتهم» أي: محصوداتها. (تحفة الأحوذي: ٧/٣٦٥).

والمراد بحصائد ألسنتهم جزاءُ الكلام المحرَّم وعقوباته، فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات، ثم يحصد يوم القيامة ما زرع، فمن زرع خيرًا من قول أو عمل حصد الكرامة، ومن زرع شرًا قول أو عمل حصد الندامة. (جامع العلوم والحكم: ٢٤١).

وهذا الكلام من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم، «فَكَمَا أَنَّ الْمِنْجَلَ يَقْطَعُ وَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الرَّطْبِ وَالْيَابِسِ وَالْجَيِّدِ وَالرَّدِيءِ، فَكَذَلِكَ لِسَانُ بَعْضِ النَّاسِ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْكَلَامِ حَسَنًا وَقَبِيحًا».

(تحفة الأحوذي: ٧/٣٦٥).

فاحفظوا ألسنتكم فإنَّ حصائد اللسان هلاك الإنسان، في دنياه وأخراه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ». (متفق عليه: البخاري: ٦٤٧٧، ومسلم: ٢٩٨٨).

معنى: «يتبين» يتفكر أنها خيرٌ أم لا.

وعن أبي عبد الرحمن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه». (صحيح الجامع: ١٦١٩).

فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث!!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قتل رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيدًا فبكت عليه باكية فقالت: واشهيداه! قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما يدريك أنه شهيد لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه. (صحيح الترغيب: ٢٨٨٤).

لذا كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يُقسم فيقول: «والذي لا إله غيره ما على ظهر الأرض من شيء أحوج إلى طول سجن من لسان». (صحيح الترغيب: ٢٨٥٨).

وعن أبي وائل عن عبد الله رضي الله عنهما أنه ارتقى الصفا فأخذ بلسانه فقال: يا لسان! قل خيرا تغنم، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم، ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أكثر خطأ ابن آدم في لسانه. (صحيح الترغيب: ٢٨٧٢).

فالزم الصمت- أخي- فإنه يكسوك ثوب الوقار، ويكفيك مؤمنة الاعتذار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليك بحسن الخلق، وطول الصمت فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلائق بمثلهما». (صحيح الجامع: ٤٠٤٨).

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: عظني وأوجز، وفي رواية علمني وأوجز، فقال عليه الصلاة والسلام: «إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدًا، واجمع اليأس مما في أيدي الناس». (الصحيحة: ٤٠١).

«ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدًا» فيه دعوةٌ إلى محاسبة النفس فيما يقوله الإنسان، بأن يتأمل فيه، فإن وجده خيرًا تكلم به، وإن وجده شرًا امتنع من قوله، وإن كان الذي سيقوله مشتبهاً عليه لا يدري أشر هو أم خيرٌ، يكف عنه اتقاءً للشبهات، حتى يستبين له أمره، قال صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». (صحيح الجامع: ٣٣٧٨).

وكثير من الناس يورطون أنفسهم ورطات عظيمة بكلمة يقولونها بألسنتهم لا يُلقون لها بالاً، ثم يترتب عليها من التبعات في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله، فجاهد نفسك أخي على منع لسانك من كل كلمة تخشى أن تعتذر منها، وكل كلمة تتطلب منك اعتذارًا، فإنك ما لم تتكلم بها فإنك تملكها، وأما إذا تكلمت بها ملكتك، والعاقل من الناس من يزن كلامه، ويصون حديثه، ولا يتكلم إلا كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام بكلام لا يحتاج معه إلى اعتذار، وقوله صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه، فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار، ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة». (صحيح الجامع: ٥٧٩٨).

أو تعتذر منه غدًا: أي من الناس حينما يطالبونك بتبعات كلامك وأقوالك.

تكفير المسلم مسألة خطيرة:

فيا أخي: «قل خيرًا تغنم، واسكت عن شر تسلم، من قبل أن تندم، حيث لا ينفع الندم، أقصر قبل أن تندم على تكفيرك للمسلمين». وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدوَّ الله، وليس كذلك إلا حار عليه». (البخاري: ٣٥٠٨، ومسلم: ٦١)، وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء به أحدهما، فإن كان كما قال، وإلا رجعت عليه». (البخاري: ٦١٠٤، ومسلم ٦٠).

وأهل السنة والجماعة: أعظم الناس ورعًا في باب التكفير، لأن تكفير المسلم مسألة خطيرة، ويترتب عليها آثار عظيمة، فيجب عدم الخوض

فيها بدون دليل بيِّن، ولأن الأصل في المسلم الظاهر العدالة بقاء إسلامه وعدالته، حتى يتحقق زوال ذلك عنه بمقتضى الدليل الشرعي، ومن هنا ينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد إلى ذلك سبيل، فباب التكفير بابٌ خطير وعظيم، وأهل السنة والجماعة في مسائل الكفر والإيمان يحكمون على الناس بظواهرهم، فإن أظهروا الإسلام حُكم لهم بالإسلام ظاهرًا وباطنًا.

وأمسك عليك لسانك قبل أن تندم لغيبتك لإخوانك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم، يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته، يفضحه في بيته». (أحمد: ٤/٤٢١، وصحيح الجامع: ٧٩٨٤).

وقال صلى الله عليه وسلم: «الربا اثنان وسبعون بابًا، أدناها مثل إتيان الرجل أمه، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه». (صحيح الترغيب: ٢٨٣٠). أمسك عليك لسانك قبل أن تندم..

العلماء ورثة الأنبياء:

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه». (صحيح الجامع: ٥٣١٩).

وقال الحافظ ابن عساكر: اعلم وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في الانتقام من منتقصيهم معلومة، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (النور:٦٣). (مقدمة المجموع شرح المهذب: ١/٢٤).

أمسك عليك لسانك قبل أن تندم على مشيك بالنميمة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة نمام». وقال صلى الله عليه وسلم: «خيار عباد الله الذين إذا رُؤوا ذُكر الله، وشرارُ عباد الله المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب». (صحيح الترغيب: ٢٨٢٤).

أمسك عليك لسانك قبل أن تندم على قولك على الله بغير علم: قال الله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (الأعراف:٣٣).

أمسك عليك لسانك قبل أن تندم على شهادتك زورًا، قال الله تعالى: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» (الحج:٣٠)، وقال صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ (ثلاثا) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت». (البخاري: ٢٦٥٤، ومسلم: ٨٧).

أمسك عليك لسانك قبل أن تندم على قذفك المحصنات، قال الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» (النور:٢٣- ٢٥).

وقال تعالى: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (النور:٤).

أمسك عليك لسانك قبل أن تندم على الكذب، قال الله تعالى: «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ» (النحل:١٠٥).

أمسك عليك لسانك قبل أن تندم على حلفك بغير الله، قال صلى الله عليه وسلم: «من كان حالفًا فلا يحلف إلا بالله». (مختصر: ١٠١١).

وبالجملة أمسك عليك لسانك عن كل ما لا خير فيه.

قال عطاء بن رباح: إن من كان قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد منها، أتنكرون أن عليكم حافظين، كرامًا كاتبين، «عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» (ق:١٧- ١٨).

أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره، وليس فيها شيء من أمر آخرته؟ فالزم الصمت- أخي- فإنه يكسبك صنوف المحبة، ويؤمنك سوء المغبة، ويلبسك ثوب الوقار، ويكفيك مؤنة الاعتذار، فرحم الله من حفظ لسانه ليوم فقره.

اللهم نزه ألسنتنا عما يشين، وانطقها في مرضاتك يا كريم، آمين.

أيتهما أولى بالإيثار؟!

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبيّ بعده، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ:

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

فمن المعلوم أن من طلب شيئًا من نفائس الدنيا لا يهدأ ولا ينام، بل يسعى للوصول إليه، ليله، ونهاره، سعي النشيط الهُمام، وكلما سُدّ في وجهه بابٌ، قرع بابًا آخر، وإن تعدّدت الأبواب، كما هو دأبُ الحريص المقدام، وكلما نظر إلى قدر ما يطلبُ هانَ عليه السعي، وما يلقاهُ من مصاعبَ ومتاعب وآلام، والعجيب أنه لا يمل ولا يسأم، وإن واصل السَّعي سنين.

وأنت تطلبُ الجنة يا هذا ولا نفيس أنفس منها لأنها لا تفنى ولا تبيد، قال الله تعالى: «وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» (هود:١٠٨)، معنى «عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» أي: غير مقطوع، وقال تعالى: «مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا» (الرعد:٣٥)، وقال الله تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ» (الحجر:٤٥- ٤٨)، وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» (البينة:٧- ٨).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة: يُنَادِي مُنَادٍ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا». (مسلم: ٢٨٣٧).

ولأنَّ فيها ما اشتهت نفسك، ولذتَّ عينك دون أي تقيد. قال الله تعالى: «يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (الزخرف: ٦٨- ٧١).

وقال الله تعالى: «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ» (فصلت: ٣١- ٣٢).

وقال الله تعالى: «لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ» (ق:٣٥).

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيءُ بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له: أدخل الجنة. فيقول: كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ، ربِّ. فيقول: لك ذلك ومثلُه ومثله ومثله. فقال في الخامسة: رضيتُ، رب. فيقول: هذا لك وعشرةُ أمثاله. ولك ما اشتهتْ نفسك ولذت عينك. فيقول: رضيتُ، ربِّ، فيقول: لك ذلك. ومثلُه ومثله ومثله. فقال في الخامسة: رضيتُ، رب. فيقول: ولك ما اشتهتْ نفسك ولذت عينك. فيقول: رضيتُ، ربِّ، قال: ربِّ. فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم تر عينٌ ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر». (مسلم: ١٨٩).

قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ» (السجدة:١٧)، ففيها

ما تشتهيه أنفس أهلها من صنوف الأطعمة والأشربة والألبسة، ونحوها مما تطلبه النفوس وتهواه، كائنًا ما كان.

دارٌ قصورها لبنة من ذهب ولبنة من فضة، طينها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، وخيامها اللؤلؤ المجوف.

هي- والله- نورٌ يتلألأ، وريحانة تهتز، ونهر مطرد، وفاكهة وخضرة وزوجات حسان.

فيها العباد المنعمون الذين يأكلون ولا يتمخطون، ولا يبولون، بل مسك يرشح، فيها العباد المنعمون الذين يضحكون ولا يبكون، ويقيمون ولا يظعنون، ويحيون ولا يموتون، فيها الوجوه المسفرة، الضاحكة المستبشرة، فيها الجمال المبين، والحور العين، فيها النعيم الدائم، بل كل شيء باسم، فيها يرفع الحجاب فينظر الفائزون إلى وجه العزيز الوهاب، تلك الغاية الكريمة التي ترنو إليها العيون الحالمة، وتهفو إليها الأرواح المشوقة، عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا. (متفق عليه: البخاري: ٦٥٤٩، ومسلم ٢٨٢٩).

وعَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ. (مسلم: ١٨١).

فيا قرة عيون الأبرار، بالنظر إلى وجه الكريم الوهاب، وحسبنا قول سهل بن سعد رضي الله عنه قال: شهدت من النبي صلى الله عليه وسلم مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خطر عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». ثم قرأ: « تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ » (السجدة:١٦). (البخاري: ٤٧٧٩، ومسلم: ٢٨٢٤).

والخلاصة: أنَّ من يدخل الجنة يتمتع بنعيمها ولذاتها، ويكون بذلك في شغل عما سواه، إذ يرى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». فأنى له أن يفكر فيما سواه وهو بذلك فرحٌ مستبشر، ضحوك السِّنِّ، هادئ البال، لا يرى شيئًا يغمه، أو ينغص عليه حبوره وسروره، فهل شمَّرت عن ساق وسعيت للوصول إليها، كما تسعى فقط لذلك الفاني من الحطام؟

المشاهدُ أنك لا تسعى لتلك الجنة، ولا يخطرُ لك السعيُ إليها على بال، ولو أنك ساويتها في السعي عليها بأي مطلوب دنيوي لكنت من عظماء الرِّجال، ولكن يا للأسف، لم يكن من ذلك شيءٌ، والسَّعيُ للجنة لا يكونُ بالكلام، ولا بالأماني والأحلام، ولكن بصالحات الأعمال.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما رأيتُ مثل النار نام هاربُها، ولا مثل الجنة نام طالبها». (صحيح الجامع رقم: ٥٦٢٢).

وكيف تنامُ العينُ وهي قريرةٌ ولم تدرِ في أي المكانين تنزلُ

ألم تقرأ- أخي- قول الله تعالى: « وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا » (الإسراء:١٩)، وقال تعالى: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ » (الحاقة:١٩- ٢٤)، والمعنى: يخبر تعالى عن سعادة من أوتي كتابه يوم القيامة بيمينه، وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: «هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ » (الحاقة:١٩) أي: خذوا اقرؤوا كتابيه، لأنه يعلم أنَّ الذي فيه خير وحسنات محضة، لأنه مما بدل الله سيئاته حسنات، «إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ » (الحاقة:٢٠) أي: كُنت موقنًا في الدنيا أنَّ هذا اليوم كائن لا محالة، فيُقال لهم إكرامًا: «كلوا واشربوا» أي: من كل طعام لذيذ

وشراب شهيّ، «هنيئًا» أي: تامًا حلالاً من غير مكدر ولا منغص، وذلك الجزء حصل لكم «بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ» (الحاقة:٢٤) من الأعمال الصالحة، من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر الله، وإنابة إليه، وترك الأعمال السيئة، فالأعمال جعلها الله سببًا لدخول الجنة، ومادة لنعيمها، وأصلاً لسعادتها. (تسير الكريم الرحمن ٤٦٢/٧- ٤٦٣).

وقوله سبحانه: «إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا» (الإنسان:٢٢) أي: القليل منه، يجعل الله لكم به، من النعيم ما لا يمكن حصره، فيا إخواني- الذي يخاف النار لا ينام، والذي يرجو الجنة لا ينام، كما وصفهم الملك العلام، حيث قال: «وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا» (الفرقان:٦٤)، وقال الله تعالى: «أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ» (الزمر:٩)، وقال الله تعالى: «تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ» (السجدة:١٦). ورضي الله عن أبي بكر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من أنفق زوجين من شيءٍ من الأشياء في سبيل الله دُعي من أبواب- يعني الجنة- يا عبد الله هذا خيرٌ فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام وباب الريان». فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال: هل يُدعى منها كلها أحدٌ يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر». (البخاري: ٣٦٦٦، ومسلم: ١٠٢٧).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رَجُلٌ للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنة. فألقى تمرات كُنَّ في يده، ثُمَّ قاتل حتى قُتل. (البخاري: ٤٠٤٦، ومسلم ١٨٩٩).

«وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ» (المطففين:٢٦). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك». (البخاري: ٦٤٨٨)، قال الله تعالى: «بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ» (الأعلى:١٦- ١٧)، فالعاقل الموفق هو الذي يطلب العلو والرفعة في الآخرة دار المقامة لا يبغون عنها حولاً، قال الله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا» (الكهف:١٠٨)، قال الحسن: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة. اهـ. ففي درجات الآخرة الباقية يكون التنافس، قال صلى الله عليه وسلم: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجرُ أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن». (البخاري مع الفتح: ١١/٦).

وأما الفاني المنقطع الذي يعقب صاحبه غدًا حسرة وندامة وهوانًا وصغارًا، فهل رأيتم أشد غبنًا ممن يبيع الجنان العالية بحياة أشبه بأضغاث أحلام، يبيعُ الفردوس بدنيا قصيرة وأحوال زهيدة مشوبة بالنقص ممزوجة بالغصص، حياة إن أضحكت قليلاً أبكت كثيرًا، وإن سرَّت أيامًا أحزنت دهورًا، فبأي عقل ينكر من يبيع مساكن طيبة في «جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرٖ» (القمر:٥٤- ٥٥)، بدار قال عنها خالقها سبحانه وتعالى: «ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا» (الحديد:٢٠).

وقد قيل: لو كانت الدنيا من ذهب يُفنى، والآخرة من خزف يبقى، لأثرت العقول السليمة الذي يبقى على الذي يفنى، فكيف والدنيا من خزف يفنى، والآخرة من ذهب يبقى، فيا حسرة هذا المتخلف حين يعاين كرامة الله لأوليائه وما أخفي لهم من قرة أعين فلسوف يعلم أي بضاعة أضاع؟

اللهم إنا نسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ولذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة.. آمين.

من مكارم الأخلاق..

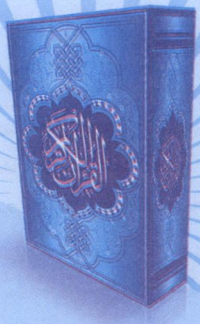

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله الذي وفّق من شاء من عباده لمكارم الأخلاق، وأصلي وأسلم على أفضل الخلق على الإطلاق، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم التلاق، أما بعدُ،

فإن مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، بها ترفع الدرجات، وتضاعف الحسنات، ولما كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم متخلقًا بجميعها كان أجمل خلق الله أجمعين، فأثنى عليه رب العالمين سبحانه بقوله: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» (القلم:٤)، ولما سُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خُلق النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قالت للسائل: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإنَّ خُلُق نبيِّ الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن». (مسلم: ٧٤٦/٥١٢- ١/٥١٤).

والمعنى: فما حثَّ القرآنُ الكريمُ على اعتقاد ولا عبادة ولا معاملة إلا وتخلَّق به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حدَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم الغاية الأولى من بعثته والمنهاج المبين في دعوته، فقال صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق». (الصحيحة: ٤٥). وفي رواية: «إنما بعثتُ لأتمم صالح الأخلاق». (صحيح الجامع: ٢٣٤٩).

ومما يدلُّ على أنَّ للأخلاق الحسنة مكانةً عظيمةً: أن المؤمنين يتفاضلون في الإيمان وأن أفضلهم فيه أحسنهم خُلُقًا. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رجلٌ من الأنصار فَسَلَّم على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقًا». (ابن ماجة: ٢/١٤٢٣).

ومن ذلك أن المؤمنين يتفاوتون في الظفر بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرب منه يوم القيامة، وأكثرهم ظفرًا بحبه والقرب منه صلى الله عليه وسلم الذين حسُنت أخلاقهم.

قال صلى الله عليه وسلم: «إن من أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا». (صحيح الجامع).

لذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرغِّب

في مكارم الأخلاق، ويحث عليها، ويبين لهم فضلها.
فأخبر صلى الله عليه وسلم أن حُسن الخلق عنوان كمال الإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا». (صحيح الترمذي: ١١٦٢).

حسن الخلق من موجبات الجنة

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن حسن الخلق يثقلُ الميزان يوم القيامة، فقال صلى الله عليه وسلم: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق». (صحيح الترمذي ٢٠٠٢ في البر والصلة).
وأخبر صلى الله عليه وسلم أنَّ حسن الخلق من موجبات الجنة، سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحُسْنُ الخلق». (صحيح الترمذي: ٢٠٠٤).
قال ابن القيم رحمه الله: جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين تقوى الله وحُسن الخلق لأنَّ تقوى الله تصلحُ ما بين العبد وربِّه، وحُسن الخلق يصلح ما بين العبد وبين خلقه، فتقوى الله توجبُ له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته.
وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن حسن الخلق يبلغ صاحبه درجة الصائم القائم، قال صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم». (صحيح أبي داود: ٤٧٩٨). وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة القائم بالليل، الظامئ بالهواجر». (صحيح الترغيب: ٢٦٤٤).
«درجة الصائم القائم»: أي: قائم الليل في الطاعة، وإنما أُعطي صاحب الخلق الحسن هذا الفضل العظيم؛ لأنَّ الصائم والمصلي في الليل يجاهدان أنفسهما في مخالفة حظهما، وأما من يحسن خُلُقه مع الناس مع تباين طبائعهم وأخلاقهم فكأنه يجاهد نفوسًا كثيرة فأدرك ما أدركه الصائم القائم فاستويا في الدرجة. (عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٣/١٥٤).
وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن حُسن الخلق يرفع صاحبه أعلى درجات الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: «أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حُسن خلقه». (صحيح أبي داود: ٤٨٠٠).
ومعنى زعيم: ضامن. قال الخطابي: البيت هاهنا القصر. يقال: هذا بيت فلان، أي: قصره.

حسن الخلق خير ما يتحلى به المسلم

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن حسن الخلق خير ما تجمل به الإنسان، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلائق بمثلهما». (صحيح الجامع: ٤٠٤٨).
وأخبر صلى الله عليه وسلم أنَّ أحسن الناس إسلامًا أحسنهم خلقًا، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كنت في مجلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم وسمرة وأبو أمامة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء، وإنَّ أحسن إسلامًا أحسنهم خلقًا». (صحيح الترغيب: ٢٦٥٣).

خير عطاء

وأخبر صلى الله عليه وسلم أنَّ خيار الناس أحاسنهم أخلاقًا، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بخياركم؟».
قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أطولكم أعمارًا، وأحسنكم أخلاقًا». (صحيح الترغيب: ٢٦٥١).
وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ أحبَّ عباد الله إلى الله أحسنهم خلقًا. عن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: كُنا عند النبي صلى الله عليه وسلم كأنما على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلمٌ؛ إذ جاءه أناسٌ فقالوا: من أحب عباد الله إلى الله تعالى؟ قال: «أحسنهم خلقًا». (صحيح الترغيب: ٢٦٥٢).
وأخبر صلى الله عليه وسلم أن خير ما أعطي الإنسان حسن الخلق، عن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: سُئل النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقيل له: يا رسول الله، ما خيرُ ما أعطي الإنسان؟ قال: «حسن الخلق». البخاري في الأدب المفرد: ٢٩١).
ومما لا شك فيه أنَّ حُسن الخلق منَّةٌ من الله يَمُنّ به على من يشاء من عباده، قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» (آل عمران:١٥٩).
قال السعدي رحمه الله: «أي: برحمة الله لك ولأصحابك منَّ الله عليك فألنتَ لهم جانبك وخفضت لهم جناحك، وترفقت لهم، وحسنت لهم خُلُقك فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك «ولو كنت فظًا» أي: سيئ الخلق «غليظ القلب» أي: قاسية.
فالأخلاق الحسنة تجذبُ الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع لصاحبه من المدح والثواب الخالص.
والأخلاق السيئة تنفّر الناس عن الدين وتبغّضه إليهم، مع لصاحبه من الذم والعقاب الخالص. اهـ. (تفسير السعدي: ١/٤٤٤).

حسن الخلق وأثره في الدعوة

فلحسن الخلق تأثير هائل في الدعوة إلى الله، وله عظيم الأثر في نفوس المدعوين، فإذا كان للشخص رصيدٌ طيب من حسن الخلق كانت دعوته أنفع وأنجع وأولى بالقبول عند الناس، ومن ثم أثار رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا من هذا الرصيد في بداية بعثته، ألا وهو صدقه في الحديث صلى الله عليه وسلم فقال للمشركين: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً يخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي»؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. (البخاري: ٤٨٠١، ومسلم: ٢٠٨).

وصية النبي صلى الله عليه وسلم

لذا وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الأمة بالحلال والحرام العالم الفقيه معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال له صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». (صحيح الجامع: ٩٧).

فخيار المسلمين من حسنت أخلاقهم وكرمت صفاتهم، أما من ساءت منهم الأخلاق وقبحت الصفحات فأولئك مع الأشرار، وإن كانوا يصلون ويصومون ويحجون، فإن صلاتهم ليست بصلاة الخاشعين، وصيامهم مجاراة، وحجهم رياء، ولو كان ذلك منهم بإخلاص لأثمر بلا مراء كرام الأخلاق، فإن الصلاة الحقة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصيام الخالص داعية الصبر والكرم، والحج المبرور يُثمر خلق الصبر، وحسن العشرة والمعونة، فبرهان الصدق في العبادات والإخلاص فيها كرم الأخلاق، وآية التقصير فيها سوءها. (الأدب النبوي: ١٦٠).

عنوان القبول

فحسن الخلق عنوان قبول الأعمال، وسوء الخلق يحبط الأعمال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وإن سوء الخلق ليفسد العمل، كما يفسد الخل العسل». (صحيح الجامع: ١٧٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في النار». قال: يا رسول الله، فإن فلانة تذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها إنها تصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «هي في الجنة». (صحيح الترغيب: ٢٥٦٠).

معنى: «الأثوار» جمع ثور وهي القطعة من الأقط.
ومعنى: «الأقط» شيء يتخذ من مخيض اللبن الغنمي، فديننا الحنيف لا ينظم علاقة الإنسان بخالقه فقط، وإنما ينظم علاقة الإنسان بخالقه والناس أجمعين مؤمنين وكافرين، ويدعو الدِّين إلى أن يكون الإحسانُ هو أصل علاقة الإنسان بربه والناس أجمعين. قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧)، فما أحوجنا جميعًا أن نعيد النظر في أنفسنا أين نحن من مكارم الأخلاق؟ أين نحن من التأسي بنبينا صلى الله عليه وسلم الذي كان خُلقه القرآن ؟!

قال الحسن البصري رحمه الله: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تدبر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن ما أسقطت منه حرفًا وقد- والله- أسقطه كله ما يُرى القرآن له في خلق ولا عمل». (الزهد: ٢٧٦).

حسن الخلق وصلاح المجتمع

ما أحوجنا أن يُرى أثر القرآن في مكارم أخلاقنا مع الصغير والكبير، والقريب والبعيد.

«إن نهوض الأمة وصلاح المجتمع إنما يتحقق بالتخلي عن رذائل الأخلاق، والتحلي بفضائلها، وإن علاج أمراضنا الاجتماعية يتطلبُ إصلاحًا أخلاقيًا يكفل الأنساب والائتلاف بين طبقات الأمة، ويوجه النفوس إلى الخير المفطور فيها، ويخلص القلوب من أدران الحقد والأنانية».

فاحرص أخي الحبيب على التحلي بمكارم الأخلاق واستعن بالله على ذلك، وألح على الله تعالى بهذه الأدعية المأثورة عن أحسن وأكمل الناس خلقًا صلى الله عليه وسلم.

«اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت». (مسلم: ٧٧١/٥٣٤- ١/٥٣٦).

«اللهم كما أحسنت خلقي فأحسن خلقي». (صحيح الجامع: ١٣٠٧).

«اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء». (صحيح الجامع: ١٢٩٨). آمين.

وصل اللهم وسلم وبارك على النبي محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المرأة في مملكتها

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبيَ بعده نبينا وأسوتنا وسيدنا وقدوتنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

الأسرة تلك اللبنةُ التي تشكل أساس المجتمع، وتتكون من أفراد تقومُ بينهم علاقاتٌ دائمة، تكادُ تكونُ أكثر العلاقات الإنسانية أهمية، علاقات الصحبة والاقتران القائمان على الودِّ والأنس والتآلف. علاقات عميقة الجذور بعيدةُ الآماد، إنها أشبهُ ما تكون صلةَ للمرء بنفسه، «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» (البقرة:١٨٧)، فضلاً عما تهيؤه هذه العلاقات من تربية البنين والبنات وكفالة النشء التي لا تكون إلا في ظل أمومة حانية، وأبوة كادحة، وأيُّ بيئة أزكى من هذا الجو الأسري الكريم، ذلك أنّ الإنسان تقضي فطرته أن يعيش حياة اجتماعية هانئة في إطار أسرة مترابطة متعاونة متقاربة في المشاعر والأهداف، وقد كان تشريع الإسلام للزواج نقطة البدء في تكوين الأسرة وأدائها لرسالتها وفق قواعد وأحكام وتعاليم وآداب بلغت المنزلة التي ليس بعدها منزلة في بناء الأسرة وانتظامها واستقرار حياتها، نعم، شرع الإسلام الزواج، بأن يقيم الرجل والمرأة بينهما علاقة زوجية شرعية تسودها المودة والرحمة، ويتعاونا على الأخذ والعطاء، ويتبادلا الرأي والمشورة في كل شأن من شئون الأسرة، وهذا يعين كلاً منهما على القيام بواجباته بروح من الرضا والثقة والمحبة والإيثار.

ثم إنَّ الزوجة بالنسبة للزوج مستودع سرّه وقوته، يجدد بها نشاطه وحيويته، وهي له مستقر راحته وسكنه، والأسرة للمرأة موئلها ومملكتها يؤدي من خلالها رسالته، وتلبي نداء الفطرة في حنانها، وتحقق ذاتها وتمارس نشاطها بصفته مصدرًا للهناء ودواء لهموم الحياة وآلامها، وهي تزرع في الأطفال كل النوازع

الخيرية والقيم الكريمة.

ويجدر بنا أن نعلم أنَّ الحياة الزوجية من جهة النظر الإسلامية هي في الحقيقة حياة منضبطة، تقوم على قواعد أخلاقية، وتحكمها آداب وتوجيهات ربانية، وتحدد علاقاتها أحكام وتعاليم شرعية، وليست حياة سائبة يتصرف فيها أفراد الأسرة بما يحلو لهم من التصرفات دون شعور بالمسئولية وبلا وازع من دين، أو رادع من إيمان.

ابحث ما شئت في بطون الكتب، واقرأ ما عنَّ لك من أسفار، وانظر في جنبات العالم وآفاقه، وابحث في مجتمعاته وأعماقه، واكشف النقاب عن تاريخه، ابحث بالعقل النزيه، واقرأ بالقلب الواعي، وانظر بالعين بالفاحصة بكل عقلانية وموضوعية عن نظام أسري فلن تجد بديلاً عن النظام المحكم الذي قرره الدين الحنيف الأسرة، ولن تعثر على أروع ولا أشمل ولا أعدل من نظام الإسلام، لأنه هو النظام الفطري الإلهي المحكم في كلياته وجزئياته، ولا تستقيمُ حياةُ الأسرة، إلا إذا عرف كل فرد من أفرادها ماله من حقوق، وما عليه من واجبات، فيؤدي ما عليه في طواعية وحب، ويأخذ ماله في رجاء وشكر، فتتحقق السعادة للأسرة، وتبسط رداءها على أفرادها جميعًا.

قال الله تعالى: « وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (الروم:٢١). وحتى يكون كذلك فلا بد من تذكير الأسرة وتثقيفها بصورة مستمرة لحمايتها وأدائها لرسالتها في المجتمع بنجاح ولن تستغني الأسرة عن هذا التذكير يومًا من الأيام، ولاسيما إذا كان هذا الذكر مستنبطاً من كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، فلا يكون أمام المسلم أو المسلمة مجال للانسلاخ منها، أو التقليل من شأنها، أو اعتبارها أمورًا ثانوية تقع على هامش الحياة، بل إننا نجد القرآن الكريم يصرح بأنَّ الاستجابة لأمر الله ورسوله لا يجوز أن تكون حالة مزاجية بل يستلزمها الإيمان ويقتضيها الدين.

قال الله تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا » (الأحزاب:٣٦).

ولما كانت الزوجة بالنسبة للزوج مستودع سره وقوته، والأسرة للمرأة موئلها ومملكتها تؤدي من خلالها رسالتها، أردت أن أذكر بشيء من سلوك الزوجة الصالحة.

أختاه!!:

١- من المستحيل أن يتحقق نجاح العلاقة الزوجية إذا لم تؤد الزوجة دورًا إيجابيًّا فعالاً فيها مهما كان الزوج مثاليًّا ورائعًا، فانتبهي- أيتها الزوجةُ الصالحة- لهذا الأمر وتحملي مسئولياتك، فعليك يكون نجاحُ الأسرة أو فشلها.

٢- إذا أردت أن تصومي تطوعًا فلا تفعلي ذلك قبل أن تستأذني زوجك، فإن لم يأذن لك، فليس من حقك حينئذ الصومُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ. (متفق عليه: البخاري ٥١٩٥، ومسلم ١٠٢٦).

٣- إذا لم يرغب زوجك بدخول أحد أقاربه أو أقاربك أو الجيران أو غيرهم من الناس، فلا تأذني بدخول ذلك الشخص منزلك، وذلك للحديث السابق ذكره.

٤- انتبهي باستمرار لنظافة أسنانك، وطيب رائحة فمك، وحافظي على مظهرك اللائق باستمرار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير النساء التي تسرُّه إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره». (صحيح الجامع: ٣٢٩٨).

٥- في حالة غياب زوجك عنك، كوني أكثر محافظة على نفسك ورعاية لماله وأولاده ومنزله. عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير النساء من تسرك إذا أبصرت، وتطيعك إذا أمرت، وتحفظ غيبتك في نفسها ومالك». (صحيح الجامع: ٣٢٩٩).

٦- قابلي ما يُنفق زوجك عليك وعلى المنزل بالشكر والعرفان، لا بالجحود والنكران، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ، قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟

قَالَ: يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ». (البخاري: ١/١٠٤، ومسلم ٢/٦٢٦).

٧- إياك أن تهجري فراش زوجك مهما كانت الأسباب التي تجعلك تُقدمين على ذلك، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ. (متفق عليه: البخاري ٥١٩٣، ومسلم ١٤٣٦).

وفي رواية: «إِذَا بَاتَتْ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ». وفي رواية: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا فَتَأْبَى عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا» (متفق عليه: البخاري ٥١٩٣، ومسلم ٤٣٦).

معنى: «فراشه» هو كناية عن الجماع، ومعنى: «فتأبى عليه» أي: تمتنع.

٨- اعلمي أنَّ لقدرة زوجك المادية حدودًا، فارضي منه باليسير، ولا تكلفيه ما لا يُطيق، فتطالبيه بما هو فوق طاقته، فتوقعيه وتوقعي الأسرة كلها في الديون، حتى لو كان زوجك من الأغنياء، فإنَّ الإسراف في اللباس والأثاث أمرٌ مكروه بغيض لا يليق الإقدام عليه بسيدة عاقلة، قال الله تعالى: «لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا» (الطلاق:٧). وقال الله تعالى: «إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا» (الإسراء:٢٧).

٩- المرأة العاقلة لا تخرج من بيتها إلا بإذن زوجها، ولو إلى المسجد؛ لقول الله تعالى: «وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ» (الأحزاب:٣٣) وللحديث الذي رواه البخاري (٨٧٣).

١٠- ولا تنفق شيئًا من بيت زوجها إلا بإذنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ولا تنفق امرأة شيئًا من بيت زوجها إلا بإذنه». قيل: ولا الطعام؟ قال: «ذلك أفضل أموالنا». (صحيح ابن ماجه: ١٨٥٩).

١١- احذري نشر أسرار الزوج ولا سيما المتعلقة بالفراش. عن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجال والنساء قعود فقال: «لعل رجلا يقول ما يفعل بأهله ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها؟ فأرم القوم فقلت: إي والله يا رسول الله إنهن ليفعلن وإنهم ليفعلون. قال: فلا تفعلوا فإنما ذلك مثل الشيطان لقي شيطانة في طريق فغشيها والناس ينظرون. (آداب الزفاف للألباني رحمه الله ص٧٢).

١٢- الزوجة الذكية تحرص على دوام العشرة بينها وبين زوجها ولا تسأله الطلاق من غير سبب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة». (إرواء الغليل ٢٠٣٥).

١٣- الزوجة الصالحة تطلب رضا زوجها وتجتنب سخطه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تؤذي امرأةٌ زوجها في الدنيا، إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه، قاتلك الله، فإنما هو دخيل عندك يوشك أن يفارقك إلينا» (سنن الترمزي ١١٧٤ وصححه الألباني).

معنى: «دخيل» بمعنى اللاجئ إلى حين، ويكون عندها ضيف ونزيل لا بد من رحيله القريب غالبًا.

١٤- والزوجة الصالحة تبيت كل ليلة وزوجها عنها راض، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بنسائكم في الجنة؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: ودود ولود، إذا غضبت أو أسيء إليها أو غضب زوجها قالت هذه يدي في يدك لا أكتحل بغمض حتى ترضى». (صحيح الترغيب: ١٩٤١).

١٥- حسب الزوجة العاقلة قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها دخلت الجنة». (صحيح الجامع: ٦٦٠).

هذه قواعد عامة مبنية على دلائل من الكتاب والسنة، إذا وعاها الرجل، وطبقتها المرأة، كان ذلك سبيلاً للسعادة والمحبة ويصبح البيت جنة كلما أراد الزوج أن يلجه وقف ببابه وقال: «مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ» (الكهف:٣٩)، «رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ» (الفرقان:٧٤).

الحمد لله رب العالمين.

فلذات الأكباد

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أما بعدُ:

فإن نعم الله عز وجل لا تحصى، وعطاياه لا تُعد، ومن تلك النعم العظيمة وأجلها نعمة الأبناء، فلذات الأكباد.

قال الله تعالى: « وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ » (النحل:٧٢)، ولا يعرف عظم هذه النعمة إلا من حُرم منها.

وهم زينة، قال الله تعالى: «ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ » (الكهف:٤٦)، وزينة الذرية لا يكتمل بهاؤها وجمالها إلا بصلاحها.

وهذا النعمة العظيمة هي أمانة ومسئولية، يسأل عنها الوالدان يوم القيامة، أحفظا أم ضيعا؟

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِه وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِه وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه "، قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيه وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه». (متفق عليه).

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيه اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ

غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». (متفق عليه).

ولقد استهان كثيرٌ من الآباء بهذا الحق فأضاعوا أولادهم ونسوهم كأن لا مسئولية لهم عليهم، لا يسألون أين ذهبوا ولا متى جاءوا، ولا من أصدقاؤهم وأصحابهم، ولا يوجهونهم إلى خير ولا ينهونهم عن شر.

يقول ابن القيم رحمه الله: «فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه، وتركه سدًى، فقد أساء غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قِبل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا». اهـ.

فعلى الآباء أن يقوموا بتربية أولادهم وتوجيههم وإرشادهم ومراقبتهم مراقبة تامة، لا سيما في الوقت الذي تكثر فيه الفتن وتشتد فيه المنكرات، فإن الأمانة تحتم عليهم الرقابة أكثر مما إذا خفت الفتن وقلت المنكرات.

ألسنا في أموالنا إذا كثرت السرقة وكثرت الخيانة نتحفظ فيها أكثر ونطلب لها المكان الأحرز؟ فكذلك يجب علينا في أولادنا، بل ملاحظة أولادنا أوجب علينا من ملاحظة المال، لما في إهمالهم من الخطر علينا وعلى أنفسهم وعلى الأجيال المقبلة كلها.

إن أولادنا- وليس أموالنا- هم الذين يصحبوننا في الجنة- إن شاء الله- إذا اتبعونا في الإيمان، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ» (الطور:٢١).

إن كل واحد من الناس لا يرضى أن يكون منعمًا في الجنة وأولاده معذبين في النار، إننا نجزم أن الشخص لو رأى النار في الدنيا تأكل أولاده أو أقرباءه لسعى بكل جهده في دفعها عنهم، أفلا يعقل ويقيس كيف يرى ولده يسعى في المعاصي التي هي أسباب دخول النار ثم لا يبالي بذلك مع أن إهماله يوجب أن يعذب عليه، لأنه عاص لله حيث قال الله سبحانه وتعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ» (التحريم:٦).

وقفات سريعة إلى كل أب وأم لعل الله أن ينفع بها

الدعاء للأبناء بالهداية والصلاح:

قال الله تعالى: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» (البقرة:١٨٦)، وقال الله تعالى: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ» (غافر:٦٠)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدعاء هو العبادة». (صحيح الجامع: ٣٤٠٧).

وقال صلى الله عليه وسلم: «الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء». (صحيح الجامع: ٣٤٠٩).

وقد دعا الأنبياء والمرسلون لأبنائهم، فهذا خليل الرحمن إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، قال الله تعالى: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ» (البقرة:١٢٨).

ويقول الخليل عليه السلام: «رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ» (إبراهيم:٣٥).

ويقول عليه السلام: «رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ» (إبراهيم:٤٠).

ويقول أيضًا عليه السلام: «رَبِّ هَبْ لِى مِنَ

الصَّٰلِحِينَ» (الصافات:١٠٠).

وهذا نبي الله زكريا عليه السلام يقول: «رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ» (آل عمران:٣٨).

وقال تعالى: «ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» (مريم: ١- ٦).

وهذه الولاية، ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل، أي: عبدًا صالحًا ترضاه، وتحببه إلى عبادك، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد.

وعباد الرحمن يقولون: «رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا» (الفرقان:٧٤).

والذي بلغ أشده وبلغ أربعين سنة يقول: «رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ» (النمل:١٩).

فعليك أيها الوالد بالتأسي بالأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين بالدعاء لأولادك بالهداية والصلاح، فكم من دعوة اهتدى بسببها ضال، وكم من دعوة اختصرت مسافات التربية.

وعليك تحرّي أوقات الإجابة، قال صلى الله عليه وسلم: «الدعاء بين الأذان والإقامة مستجاب فادعوا». (مسند أبي يعلى وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٣٤٠٥).

وقال صلى الله عليه وسلم: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة». (سنن الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٣٤٠٨).

ويوم الجمعة: قال صلى الله عليه وسلم: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي، يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه». (متفق عليه).

وقال صلى الله عليه وسلم: «يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة لا يوجد فيها عبد مسلم يسأل الله شيئًا، إلا أتاه إياه فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر». (سنن أبي داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٨١٩٠).

وفي السجود: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ». (مسلم: ١٠١٥).

وحتى تكون مستجاب الدعوة طيب أيها الأب مطعمك ومشربك وملبسك، حتى ترفع يديك بالدعاء إلى الله بأيد طاهرة ونفس زكية.

صلاح الوالدين ينفع الأبناء بإذن الله:

ولصلاح الوالدين عظيم الأثر في صلاح الأبناء، قد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته، كما حدث مع موسى والخضر عليهما السلام حين مر على أهل قرية فطلبا من أهلها الطعام، فأبوا أن يُضيفوهما، فوجدا فيه هذه القرية جدارًا مائلاً يريد أن يسقط فأقامه الخضر.

وأما الجدار فقد علمت من الله أن تحته كنزًا ليتيمين صغيرين، تحدَّرا من رجلٍ صالح كريم، فأردت أن أحمي هذا الجدار، حتى يشتد أزرهما، ويقوي على الحياة أمرهما، فيستخرجا كنزهما مالاً حلالاً طيبًا لهما، وما فعلت هذا بعلمي ولا برأيي، ولكنه وحي من الله.

قال الله تعالى: «فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا» (الكهف:٧٨).

وقال تعالى: «وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى

ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا » (الكهف:٨٢).

فانظر أيها الوالد كيف حفظ الله سبحانه وتعالى أموال الأيتام بصلاح الآباء؟

قال سعيد بن المسيب لابنه: لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك، ثم تلا هذه الآية: «وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا» (الكهف:٨٢).

وقال عمر بن عبد العزيز: ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه.

وقال ابن المنكدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولده ولده والدويرات التي حوله، فما يزالون في حفظ من الله وستر.

فالولد الصالح ينتفع بصلاح أبويه في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: « وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » (الطور:٢١).

فهؤلاء المذكورون يلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة، وإن لم يبلغوها جزاءً لآبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك، لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئًا.

ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك يلحق الله بهم ذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكمًا واحدًا، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى ألا يعذب أحدًا إلا بذنب، ولهذا قال: «كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ» (الطور:٢١) أي: مرتهن بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد، وهذا اعتراض، من فوائد إزالة هذا الوهم المذكور. (تفسير السعدي ١٩١/٧).

العناية بالنشء مسلك الأخيار:

إن العناية بالنشء مسلكُ الأخيار، وطريق الأبرار، ولا تفسدُ الأمة وتهلك في الهالكين إلا حين تفسد أجيالها، ولا ينالُ الأعداء من أمة إلا إذا نالوا من شبابها وصغارها.

وفي كتاب الله تعالى إخبارٌ عن أنبياء الله تعالى، يقول الله عز وجل عن خليله إبراهيم عليه السلام: « وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ » (البقرة:١٣٠-١٣٣).

ويقول: « وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا » (مريم:٥٥).

وهذا نبي الله يعقوب عليه السلام في اللحظات الأخيرة من حياته يريد أن يطمئن على عقيدة بنيه من بعده، يقول الله تعالى: « أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ » (البقرة:١٣٣).

ولهذا نجد لقمان الحكيم يوصي ابنه وصية تكون سببًا لسعادة الدارين سجلها لنا ربنا سبحانه وتعالى لتكون عبرة وعظة: «لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » (ق:٣٧).

يقول الله تعالى: « وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ

إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (لقمان:١٣-١٩).

ما أحوجنا معشر الآباء إلى هذه الموعظة، نتدبرها ونعمل بها في أنفسنا، ثم نعظ بها أبناءنا.

العقيدة هي أهم ما نربي عليه أولادنا:

ولقد رسم النبي صلى الله عليه وسلم فيما رسم منهجًا واضحًا في وصايا وجّهها لشباب الأمة وأبناء الأمة المحمدية، ممثلة في ابن عمّه الغلام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حيث قال: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». (سنن الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٧٩٥٧).

فالأصل في تربية النشء إقامة عبودية الله تعالى في قلوبهم، وغرسها في نفوسهم وتعاهدها.

إن أول لبنة في بناء الشباب لبنة العقيدة، ورسوخ الإيمان، وصدق التعلق بالله وحده والاعتماد عليه.

إن أولها حفظ الله بحفظ حقوقه وحدوده، ومن ثم الاستعانة به وحده في الأمور كلها، والتوكل عليه، واليقين الجازم بأن بيده سبحانه الضر والنفع.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله: أما بعدُ؛ فإنه من اتقى الله وفاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن أقرضه جزاه، فاجعل التقوى عماد قلبك، وجلاء بصرك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا خشية له، ولا جديد لمن لا خَلَق له.

فاجتهد أيها الوالد في تربية أولادك، واعلم أنك لن تنتفع بعد مماتك إلا بمن صلح منهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ». (مسلم: ١٦٣١).

وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ» (صحيح سنن ابن ماجة: ٢٤٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ عَبْدٍ يُؤْمِنُ ثُمَّ يُسَدِّدُ إِلَّا سُلِكَ بِهِ فِي الْجَنَّةِ وَأَرْجُو أَلَّا يَدْخُلُوهَا حَتَّى تَبَوَّءُوا أَنْتُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ذَرَارِيِّكُمْ مَسَاكِنَ فِي الْجَنَّةِ وَلَقَدْ وَعَدَنِي رَبِّي عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». (صحيح الجامع: ٧٠٦٢).

والحمد لله رب العالمين

رمضان كريم

نستقبل رمضان.. فماذا أعددنا؟

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على خاتم النبيين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، سيدنا محمد الصادق الأمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ومن الأئمة المهديين والدعاة المصلحين.

أما بعدُ:

فإذا كان لبلوغ الآمال فرحة، وللظفر بالمطلوب والمرغوب متعة وبهجة؛ فإنَّ من حق المسلمين جميعًا أن يستجمعوا الفرصة، وتكون لهم أعظم متعة وبهجة ببلوغ رمضان وإشراق شمسه؛ لأن بلوغ رمضان فرصة عظمى ونعمة كبرى تقع في حساب من أحياه الله بعد طي شهور العام حتى بلغ رمضان، فكم من مؤمل أن تسلمه الأيام إلى رمضان لتكون له به الحظوة، فقعد به الأجل عن بلوغ الأمل، فكان من حقه الدعاء له بالرحمة والغفران، وكان من واجب المسلمين ممن أسبغ الله عليه النعمة ببلوغ شهر الصيام أن يستشعر النعمة ويقوم بشكر المنة، فإن طول العمر على الطاعة من أجلّ النعم على العبد يقدم بها من سبقه، رُبَّ ساعة قبول أدركت عبدًا فبلغ بها درجات الرضا والرضوان!!

عن طلحة بن عبيد الله أن رجلين من بلي قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إسلامهما جميعًا، فكان أحدُهما أشدَّ اجتهادًا من الآخر فغزا المجتهد منهما فاستشهد، ثم مكث الآخر بعده سنةً ثم توفي، قال طلحة: فرأيت في المنام بينا أنا عند باب الجنة إذا أنا بهما فخرج خارجٌ من الجنة، فأذن للذي تُوفي الآخر منهما، ثم خرج فأذن للذي استُشهد ثم رجع إليَّ، فقال: ارجع فإنك لم يأن لك بعدُ، فأصبح طلحة يحدِّث به الناس فعجبوا لذلك، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثوه الحديث، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أي ذلك تعجبون؟ فقالوا: يا رسول الله، هذا كان أشد الرجلين اجتهادًا ثم استُشهد ودخل هذا الآخر الجنة قبله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أليس قد مكث هذا بعده سنة؟ قالوا:

بلى، قال: وأدرك رمضان فصام وصلى كذا وكذا من سجدة في السنة؟ قالوا: بلى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض». (سنن ابن ماجه: ٣١٧١ وصححه الألباني).

فإدراك رمضان فرصةٌ عظيمة للتزود من الطاعات، وقد لا تتكرر الفرصة، فكم من أناس كانوا يتمنون إدراك رمضان فلم يدركوه، بكى أحد الصالحين عند موته، فلما سُئل: قال: «إنما أبكي على أن يصوم الصائمون لله ولستُ فيهم، ويصلي المصلون ولست فيهم».

فإن أفزعتك دورة الأيام وأهمك أمر الآخرة، وأردت أن تعمل فلا تقصر، فاقصد باب التوبة، واطرق جادة العودة، وقل: لعله آخر رمضان في حياتي، ولا تستكثر عليك هذا!! فكم غيَّب الموت من صاحب، ووارى الثرى من حبيب، فاحزم أمرك وسر إلى الآخرة، فوالله أنا وأنت في أمس الحاجة إلى الحسنة الواحدة، بل أقل من ذلك، قال الله تعالى: « وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ » (الأنبياء:٤٧)، وقال الله تعالى: « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ » (الزلزلة: ٧- ٨).

أفلا نستبق الخيرات، قال الله تعالى: « وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » (البقرة:١٤٨).

وقال الله تعالى: « فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » (المائدة:٤٨).

وهذا كله فيه حث على المبادرة والمسارعة إلى القيام بما يحبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال، والحرص على أن يكون الإنسان في ذلك سابقًا لا مسبوقًا، وقد مدح الله تعالى المسارعين بالخيرات، وبيّن أن عاقبتهم الفلاح في الدنيا والنعيم الذي لا يزول في الآخرة، فقال الله تعالى في مدح أهل الكتاب الذين يتبعون آيات الله والمسارعين بالخيرات: « يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ » (آل عمران:١١٤).

كما بيّن سبحانه وتعالى أن المسارعة في الخيرات من أسباب استجابة الدعاء، فقال تعالى: « وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ » (الأنبياء:٨٩- ٩٠).

كما بين سبحانه وتعالى أن المسارعة في الخيرات من صفات الموحدين الذين هم من خشية ربهم مشفقون، فقال الله تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ » (المؤمنون: ٥٧- ٦١)، وقال الله تعالى بعد ذكره للعديد من الأنبياء: « وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ » (الأنبياء:٧٣)، وقال الله تعالى: « ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ » (فاطر:٣٢).

وإذا كانت المسارعة بالخيرات محمودةً مطلوبةً في كل آنٍ وحين وكل زمان ومكان، فإنَّ حدوث ذلك في الأزمان الشريفة أكثر فضلاً وخيرًا وأعظم أجرًا، ومن أزمان الفضل شهر رمضان تُفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب النار، وتسلسل فيه الشياطين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفدت الشياطين ومردة الجن، وغُلقت أبوابُ النار فلم يُفتح منها باب، وفُتحت أبوابُ الجنة فلم يُغلق منها باب، وينادي منادٍ كل ليلة: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة». (صحيح الجامع: ٧٥٩).

شهر رمضان تضاعف فيه الحسنات، وتُكفّر فيه السيئاتُ، وتُقالُ العثراتُ، وترفعُ الدرجاتُ،

وتُجابُ الدعواتُ، ويتوبُ الله على من تاب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي باغتنام مثل هذه الفرص التي هي أغلى من كل نفيس أن يتعرض فيها العبد لنفحات الله عز وجل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افعلوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، وسَلوا الله أن يستُر عوراتكم، وأن يُؤمِّن رَوعاتكم». (السلسلة الصحيحة: ١٨٩٠).

وقد فهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منه ذلك فصاروا يرددونها، قال أبو الدرداء: «التمسوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم».

ولا يشك أحد، ولا يختلف اثنان أن رمضان كله: ليله ونهاره أوله وأوسطه وآخره، من الأزمان التي تكثر فيها نفحات الله تعالى، لذا أكثر الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك المتابعون لطريقته المستنون بسنته من الصحابة والتابعين ومن تبعهم من التعرض لتلك النفحات، بحضور القلب، ولزوم الذكر، والدعاء، وقراءة القرآن، والصدقة، والصلاة بالليل والناس نيام، والإحسان إلى خلق الله تعالى، فهؤلاء وجدوا ضالتهم برمضان حيث لذة العبادة، ولحظات التدبر والترتيل للقرآن، وروحانية الصيام والقيام، وروعة الخلوة والاعتكاف، والأعمال الصالحات؛ أيقنوا أن شهر رمضان أيام معدودات تمضي سريعة فهي فرصة لو أفلتت من العبد كانت له حسرة يا لها من حسرة، قال صلى الله عليه وسلم: «إن جبريل عليه السلام أتاني فقال: من أدرك شهر رمضان فلم يُغفر له فدخل النار، فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين». (صحيح الجامع: ٩٩٧).

فذلك شأن الغافلين، شأن من لم يستشعر في قرارة نفسه عظمة رمضان، فاستقبله بالتأفف والتبرم واستثقال ظله، والتعبيس لشمسه، وكان مراده فقط الاستعداد لهذا الشهر المبارك بالموائد الزاخرة بألوان من الطعام والشراب، وبالسمر في اللهو العابث الممتد إلى بزوغ الفجر، والنوم العميق إلى غروب الشمس، فلم يتعرض لنفحات رحمة الله التي يصيب بها من يشاء من عباده، فالشقي من حُرم فيه رحمة الله عز وجل؛ ذلك لأن وسائل الغفران والرضوان في رمضان لا يحدها الحسبان فمن حُرم من الرحمة في شهر الرحمة، ومن لم يغفر له في رمضان فهو الشقي المحروم.

فليبكِ بدموع الأسى والحسرة على الشقاء والحرمان، وهيهات أن تُجدي الحسرة أو ينفع البكاء بعد فوات الفرصة، وبعد أن يسعد الصالحون بالجوائز والرضوان، فمن كان هذا حاله فليذكر قول الله تعالى: «بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ» (المؤمنون: ٧٠- ٧٦).

وأما الذين يستقبلونه على أنه مدرسة لتجديد الإيمان وتهذيب الخُلق وتقوية الروح واستئناف حياة أفضل وأكمل، فهؤلاء هم الذين يستفيدون منه وهم الذين تُفتح لهم أبواب الجنان، وتُغلق عنهم أبواب النيران، فكونوا عباد الله خير الفريقين تفوزوا بالسعادة في الدارين، فالنفس تحتاج لوقفات وخلوات، لزيادة رصيد الإيمان، وسكب العبرات، وبقدر ما في القلب من النور سيكون قوة إشعاعه؛ لأن تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقيقة الإيمان ولذته، ولذا قال أبو بكر المزني: «ما فاق أبو بكر- رضي الله عنه

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم ولا صلاة، ولكن بشيء كان في قلبه». (جامع العلوم والحكم ١/ ٢٢٥).

فهيا بنا لانتهاز الفرص، واستثمار هذا الموسم، لتقوية العلاقة بالله، وتصفية القلب مما علق عليه من الران، فرمضان جُنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، يعيد للقلب والجوارح صحتها التي سلبتها أيدي الشواغل والصوارف حتى وإن كانت خيرًا، ونردد قول القائل: من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يصلي عنك بعد الموت؟ العاقل يعلم يقينًا أن أول ما عليه النجاة بنفسه، وأنه إن لم يأخذ فلن يعطي، وبحسب كمية الوقود يكون طول المسير، ورمضان فرصة فهو شهر التوبة والمحاسبة، وشهر إقبال القلوب وصقلها، والتزود بالإيمان، فإن فاتت هذه المحطة فلا يجد غيرها بسهولة، فهو في صحراء مترامية الأطراف شديدة الغليان والذوبان، وعندما يتأمل الإنسان ما في رمضان من مجالات متعددة للمسارعة في الخيرات، يتعجب أشد العجب ممن لم يكن همه إلا الدنيا نظر إلى رمضان على أنه موسم للكسب والتجارة وتنمية الثروة، وإن نقص رصيده الإيماني، وقد يستغرب الإنسان حينما يقارن ذلك بما كان عليه كثير من العلماء من تركهم الاشتغال بالعلم في هذا الشهر مع فضل العلم وعظيم أجره، اشتغالاً بما فيه من العبادة من ذكر وقيام وقراءة للقرآن، كإمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس رحمه الله كان يترك حلق التدريس في رمضان، ويتفرغ للعبادة وقراءة القرآن.

فكل تجارة في غير طاعة الله فهي خاسرة مصيرها إلى زوال.

وأما التجارة الرابحة التي لن تبور، والتي فيها يتنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، هي التي أشار الله إليها في قوله سبحانه: « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ » (فاطر: ٢٩- ٣٠)، وقوله سبحانه: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (الصف: ١٠- ١٣).

فيا أيها التاركون لما أوجب الله، المرتكبون ما حرم الله اجعلوا من شهر رمضان نقطة تحول من الشر إلى الخير، من الشرك إلى التوحيد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن العقوق إلى البر، ومن القطيعة إلى الصلة، ومن الإساءة إلى الإحسان، ومن البدعة إلى السنة، ومن الكذب إلى الصدق، ومن مساوئ الأخلاق إلى مكارم الأخلاق، ومن أكل الحرام إلى أكل الحلال، ومن الفرقة والاختلاف إلى المحبة والوئام، فينبغي أن يكون شهر رمضان شهر تآخ ووحدة وائتلاف لا سيما والمسلمون جميعًا في هذا الشهر يقومون بعبادة واحدة في وقت واحد، وفي لحظة واحدة، فليكن هذا التوحيد بين القلوب كما هو في المظهر والصورة، «فأروا الله من أنفسكم خيرًا».

فرحم الله عبدًا بادر بالإقلاع عن السيئات، وواصل الإسراع والمبادرة في الأعمال الصالحات قبل انقطاع مدد الأوقات وطي صحائف المستودعات ونشر فضائح الجنايات، فلا تغتروا بحياة تقود إلى الممات فو ربِّ السماء والأرض إنما توعدون لآت، فالبدار البدار قبل أن تتمنوا المهلة وهيهات.

قال الله تعالى: « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » (المؤمنون: ٩٩-١٠٠).

فاللهم أعنا على صيام هذا الشهر وقيامه، وجُد علينا من رحمتك ورضوانك، وتكرم علينا بعفوك وغفرانك، واجعلنا من عتقائك من النار، إنك جواد كريم.

كل عام وأنتم بخير

العيد دعوة للتآلف

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أما بعدُ،

فالعيدُ شعيرة من شعائر الإسلام، ومظهر من أجل مظاهره، فإنه اليوم الذي توَّج الله به شهر الصيام، وافتتح به أشهر الحج إلى بيته الحرام وأجزل فيه للصائمين والقائمين جوائز البر والإكرام، عيد امتلأت القلوب به فرحًا وسرورًا وازدانت به الأرض بهجة ونورًا؛ لأنه اليوم الذي يخرج فيه المسلمون إلى مصلاهم لربهم حامدين معظمين، وبنعمته بإتمام الصيام والقيام مغتبطين، ولخيره وثوابه مؤملين، راجين أن يتقبل الله منهم الصيام والقيام وسائر الطاعات والفوز بالجنة والعتق من النار.

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

فيوم العيد يوم فرح وسرور لمن طابت سريرته، وخلص لله نيته، والمجتمع السعيد الصالح هو الذي تسمو أخلاقه في العيد إلى أرفع ذروة، وتمتد فيه مشاعر الإخاء، تخفقُ فيه القلوب بالحب والودِّ والبر والصفاء، لا سيما والمسلمون جميعًا كانوا بالأمس يقومون بعبادة واحدة في وقت واحد، وفي لحظة واحدة، لحظة الإفطار انتظر الجميع تكبير المؤذن، فيحمدوا الله على إتمام صومهم ويفرحوا بفطرهم، وفي الليل يقومون خلف إمام واحد يقف كلٌّ منهم إلى جانب الآخر، فليكن هذا التوحيد بين القلوب كما هو في المظهر والصورة.

فكم هو جميلٌ أن تظهر أعيادُ المسلمين بمظهر الواعي لأحوالها وقضاياها، واننا اليوم بحاجة ماسة إلى التآلف والتناصح وتوحيد القصد والعمل والتعاون في الحق؛ لأنَّ أخوة الإسلام هي روح الإيمان القوي، التي يكنّها المسلم لإخوانه في العقيدة، حتى إنه ليحيا بهم ويعيش معهم وفيهم، فكأنهم جميعًا أغصانٌ تفرعت من دوحة (الدوحة: الشجرة العظيمة المتسعة) واحدة؛ لأن من المبادئ العظيمة التي أرسى دعائمها ديننا الحنيف

مبدأ الأخوة بين أهل الإيمان، قال الله تعالى: «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (الحجرات:١٠)، إخوة في ماذا؟ إخوة في الدِّين والحرمة، لا إخوة في النسب فحسب، وأخوة الدين والحرمة تبقى، أما أخوة النسب فتنقطع ولا تبقى، قال الله تعالى: «ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ» (الزخرف:٦٧).

وقد ذكر الله تعالى المؤمنين بأخوتهم لبعضهم البعض، فقال الله تعالى: «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (الحجرات:١٠)، وقال الله تعالى: «وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا» (آل عمران:١٠٣).

وقال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ» (البقرة:١٧٨)، وقال الله تعالى: «فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ» (التوبة:١١)، وقال الله تعالى: «وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» (الحجرات:١٢)، وقال الله تعالى: «وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ» (الحشر:١٠).

وقال الله تعالى: «وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ» (الحجرات:١١)، والمراد في هذا المقام: إخوانكم؛ لأن المؤمنين فيما بينهم فيما يلزم بعضهم بعضاً من تحسين أمرهم وطلب صلاحهم ومحبتهم للخير- كالجسد الواحد، فمن لمز أخاه فقد لمز نفسه، ومن عاب إخوانه فقد عاب نفسه، وقال الله تعالى: «وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ» (البقرة:١٨٨). أي: أموال إخوانكم.

وقال الله تعالى: «لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا» (النور:١٢).

وقد ذكّر رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين بأخوتهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «إياكم والظن، فإنَّ الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا». (البخاري: ٦٠٦٤، ومسلم: ٢٥٦٣).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». (البخاري: ١١٣، ومسلم: ٤٥).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث». (البخاري: ٦٠٦٥، ومسلم: ٢٥٥٩).

وقال صلى الله عليه وسلم: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». (مسلم: ٢٦٩٩).

وقال صلى الله عليه وسلم في شأن الغيبة: «ذِكْرك أخاك بما يكره». (مسلم: ٢٥٨٩).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يبيع الرجل على بيع أخيه». (البخاري: ٢١٣٩، ومسلم: ١٤١٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «ولا يخطب على خطبة أخيه». (متفق عليه).

وقال صلى الله عليه وسلم: «إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها». (متفق عليه).

وقال صلى الله عليه وسلم: «انصر أخاك ظالمًا

أو مظلومًا». (متفق عليه).
وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا كفَّر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما». (متفق عليه).
كما ذكَّر صلى الله عليه وسلم المؤمنات بذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لامرأة تسأل طلاق أختها لتستفرغ صحفتها». (البخاري: ٥١٥٢).
ولما أمر صلى الله عليه وسلم النساء العواتق والحيض، وذوات الخدور أن يخرجن لصلاة العيد ويشهدن الخير، ودعوة المسلمين، فقالت أم عطية رضي الله عنها: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب، قال: «لتلبسها أختها من جلبابها». (متفق عليه).

أخوةٌ أساسها العقيدة والإيمانُ، وقاعدتها الدِّين الخالص للواحد الديان، تتوارى معها التميزات العِرقية، وتموت العصبيات القومية، والفوارق الجنسية، لتبقى القاعدة الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي الذي تضمه آصرةٌ خاصة، وتظله راية واحدة لا ثاني لها، إنها راية الإيمان.
كم هو جميل أن يقارن الفرح بالعيد وبهجته بجمع الشمل، وأن يكون هذا العيد نقطة تحول من حياة الفُرقة والاختلاف، إلى الاجتماع على كلمة التوحيد والائتلاف، فاتحاد المسلمين هو أول خطوة يخطونها في طريق العز والمجد والسؤدد.
ولعل الناظر يدرك أنه لم يكن لأمة الإسلام أن تجتمع لها كلمةٌ، أو يتوحد لها صف، أو تُرفع لها رايةٌ، أو تقوم لها دولة، أو يرهب منها عدو- إلا بتآخيها فيما بينها.
ولمثل هذا جاء التوجيه في محكم التنزيل: «وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟» (آل عمران:١٠٣)، «وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ» (المائدة:٢)، تعاونًا يشملُ أمور الحياة كلها، بقدر ما تشمله هاتان الكلمتان الجامعتان كلمة البرِّ وكلمة التقوى، فالبر جماع كل خير، والتقوى اتقاء كل شر، بتحقيق التعاون على البر والتقوى، يهون كل عسير، ويتحقق كل مطلوب، وتُحل المشكلات وينعم الجميع بالأمن والأمان، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب». (السلسلة الصحيحة: ٥٤٩).
تعميم يفيد أنَّ كمال الإيمان يقتضي أن يحافظ المؤمن على أموال المؤمنين وأرواحهم، وأن يحافظ على أموال المعاهدين وأرواحهم ما داموا ملتزمين بعهدهم.
فيا إخواني!! أناشدكم بالله أن تجعلوا من عيدكم هذا نقطة تحول من داء التنافر والتناحر والتشاحن والتدابر، وأفيضوا جميعًا إلى ظلال المحبة والسلام تُحققوا ما تصبون إليه من رشد وخير في دنياكم وأخراكم، وأن يسعى ويبادر كل متشاحنين إلى التسامح والصفاء والتزاور والنقاء، ويتسابق الجميع من الذي يبدأ بالسلام: «وخيرهما الذي يبدأ بالسلام». (البخاري: ٦٠٧٧، ومسلم: ٢٥٦٠)، ويظفر بالجائزة الكبرى: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ» (الشورى:٤٠)، اللهم ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام.

وصايا للحجيج

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

فإن من أعظم علامات اليُمْن، وأمارات الخير، وتباشير النصر لهذه الأمة العظيمة العزيزة بدينها، حبَّها لبيت ربها، تشتاق إليه النفوس، وتتلهف له القلوب، وتثور شجون الحب، وتضج بلابل القلب، وتنفق فيه الأموال، وتترك من أجله الأوطان، طاعة وعبودية لله، واستجابة لنداء الواحد الديان، لترتوي النفوس، وتطمئن القلوب، وتزكو الجوارح، لتزداد من الحسنات، وتتقرب إلى رب الأرض والسماوات، وترجو الجنات والنجاة من النيران، وتقرّ الأعين بالكعبة والحطيم وزمزم والمقام، دعوة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام: «رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ» (إبراهيم:٣٧).

وفي هذه الأيام المباركة يفد المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج امتثالاً لأمر الله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ» (آل عمران:٩٧)، وقوله سبحانه: «وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ» (الحج:٢٧). راجين ما أعده الله لهم من عظيم الأجر.

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ حَجَّ للهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ". (البخاري: ١٥٢١، ومسلم ١٣٥٠).

وعنه أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ". (البخاري: ١٧٧٣، ومسلم: ١٣٤٩).

وها أنت أخي المسلم قد اصطفاك الله واختارك من بين الملايين من البشر لتكون من جملة حجاج بيت الله الحرام هذا العام، فهذه نعمة من أجلّ النعم، ومنة من أعظم المنن، نعمة تستوجب الشكر، ومنة تستوجب الحمد. عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحجاج والعُمار وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم». (صحيح الترغيب: ١١٠٧).

فعليك أخي الحاج أن تُجرد الهمة لهذه المهمة التي كتبها الله عليك وجعلها أحد مباني الإسلام، لترجع بحج مبرور، وذنب مغفور، وتجزى بالجنة، فتغسل حوبتك، وتعلن توبتك، وترجع من ذنوبك كيوم ولدتك أمك، صافيًا نقيًا كالثوب الأبيض المنقى من الدنس.

واليك أخي الحاج بعض التوصيات لتكون على بينة من دينك:

أولاً: يجب على الحاج وغيره أن يخلص نيته وقصده لله تعالى

فيعمل عمله خالصًا لوجهه الكريم حتى يقع أجره على الله، وينال ثوابه، قال الله تعالى: «وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ» (البينة:٥). فلا رياء، ولا سمعة، ولا انصراف عن الله إلى غيره، وذلك أن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ". (صحيح مسلم: ٢٩٨٥).

فمن حج يبتغي الذِّكر والصيت انقلب إليه عمله، ولم يرفع فوق رأسه.

ثانيًا: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

فالإخلاصُ لله دون متابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكفي ولا يجزئ، فأبى الله أن يقبل عملاً إلا إذا أخلص فيه صاحبه لله وجرَّد المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو القائل عليه الصلاة والسلام: «خذوا عني مناسككم». (مسلم: ١٢٩٧).

وحذر صلى الله عليه وسلم من مخالفته، فقال صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». (البخاري: ٢٦٩٧، ومسلم: ١٧١٨). وفي رواية: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد». (مسلم: ١٧١٨). أي: مردود عليه، غير مقبول.

ثالثًا: اجتناب الشرك بأنواعه وأشكاله:

وذلك أن الشرك أعظم ذنب عُصيَ الله به، وهو محبط للعمل، قال الله تعالى: «وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ» (الزمر: ٦٥- ٦٦). والمعنى: لئن أشركت يا محمد ليبطلن عملك الصالح، ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك، وهذا على سبيل تعليم أمته، وإلا فالرسول صلى الله عليه وسلم قد عصمه الله وحاشا أن يشرك بالله، وهو الذي أرسله الله لإقامة صرح التوحيد.

فالشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل.

فالعبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك فيها فسدت كالحدث إذا دخل في الصلاة، وأعظم مقاصد الحج تحقيق التوحيد لله، والبعد عن الإشراك به، يقول سبحانه: «وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا» (الحج:٢٦)، فلا يجوز أن يلجأ العباد في قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، وشفاء مرضاهم إلا لمن بيده وحده تصريف الأمور، ودفع الشرور، لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه، فالتوكل على الله وحده، وتفويض الأمور إليه دون غيره، واعتقاد أنه مالك النفع والضر دون سواه، أمورٌ يجب على المسلم أن يعتقدها دينًا لله الواحد الأحد، لا يشرك فيها أحدٌ من الخلق، قال الله تعالى: «قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ» (الزمر:٣٨). وقال الله تعالى: «وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ» (يونس:١٠٧)، فعلق قلبك بربك أيها الحاج، وضع نصب عينيك وصية المصطفى صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف». (أحمد: ١/٢٩٣).

رابعًا: التوبة النصوح ورد المظالم:

على الحاج أن يتوب من ذنوبه توبة نصوحًا، قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا» (التحريم:٨). وإن للتوبة النصوح شروطًا:

الأول: الإقلاع عن الذنب، بأن يخلع نفسه من الذنب كما يخلع قميصه.

الثاني: الندم على ما فات، والتأسف عليه.

الثالث: العزم على ألا يعود إلى هذا الذنب أبدًا.

الرابع: أن تقع التوبة حال الصحة والعافية قبل اليأس من الحياة ومعاينة ملك الموت، قال الله تعالى: «وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا» (النساء:١٨).

الخامس: إذا كان الذنب متعلقًا بعباد الله فإن على التائب أن يرد على العباد حقوقهم إن استطاع، وأن يتحللهم إن أمكن.

خامسًا: الاستعداد للحج بالعلم النافع، والفقه في أحكام المناسك:

فالمسلم إنما يعبد الله على بصيرة وعلم، وإذا أوجب الله على العبد أن يحج إلى بيته، وجعل ذلك أحد أركان دينه، كان من الواجب على المسلم أن يتعلم ما يلزمه في حجه. فمن الخطأ أن تجد الرجل يحج، ويقتحم أبواب هذه العبادة بغير علم، وإنما يبني عبادته على شيء يظنه أو سمعه ممن لا علم له، ثم يذهب بعد وقوع المحذور في حجه مستفتيا أهل العلم؛ وكان الواجب عليه أن يعلم قبل أن يعمل. قال الإمام البخاري في كتاب العلم: «باب: العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ» (محمد:١٩). فبدأ بالعلم. (فتح الباري: ١/ ٦١).

فلا يجوز أن يُعبَد الله على جهل، أو تُؤدَى المناسك على غير هدى، وذلك أمرٌ ينبغي أن يُعنَى به الحجاج أيما عناية.

سادسًا: التماس الرفيق الصالح:

نهى الإسلام أبناءه عن الوحدة في السفر، وحثهم على الترافق واتخاذ الصحبة؛ لما في ذلك من تلبية لاحتياج النفس إلى الاجتماع، ولما يشتمل عليه ذلك من أنس وتكامل وعون ووقاية وتبادل خدمة، فقال صلى الله عليه وسلم: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب». (صحيح سنن الترمذي: ١٦٧٤).

وفي الوقت نفسه جاءت النصوص بالحث على حسن اختيار الرفيق، ومن ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» (مسلم: ٢٦٢٨).

فاستعن بالله تعالى واسأله أن يوفقك لحسن الرفقة وطيب العشرة، والانتفاع بالصحبة، فينبغي للحاج أن يصاحب رفيقًا يُذكِّره إذا نسي، ويقويه إذا عجز، ويصبره إذا يئس، ويشجعه إذا جبن، يأخذ بيده للخير ويدله عليه، يحب له الخير كما يحبه لنفسه، ينصح له في حله وترحاله.

سابعًا: التحلي بمكارم الأخلاق وحسن العشرة:

فإن مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، بها ترفع الدرجات، وتضاعف الحسنات، وهي غاية من بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». (الصحيحة رقم: ٤٥).

فالمسلم مطالب بالتحلي بحسن الخلق في كل زمان ومكان وكل وقت وحين، ولا سيما في هذا الموطن، فالسفر غالبًا يعري الإنسان من الأقنعة التي كانت تحجب طبيعته، وما سُمي السفر سفرًا إلا لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال.

فكن أخي الحاج حَسَن الخلق مع إخوانك؛ فإن حسن الخلق عنوان كمال الإيمان: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا». (صحيح الجامع رقم: ١٢٣٢).

ومن ذلك استعمال مفاتيح القلب والولوج من بوابات النفس: من تبسم الوجه وطلاقته، وكلمة طيبة، وحسن استماع، ومشاركة وجدانية، والحفاظ على المشاعر والحقوق والممتلكات، وإحسان الظن، والتماس العذر، وتذكر الحسنات، وتغليب التسامح والرحمة على المحاققة، وترك الملامة، وتجاوز الإساءة، والتغافل عن الخطأ، وسرعة الاعتذار عند الزلل، وحسبك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من كظم غيظًا وهو قادرٌ على أن يُنفذه، دعاه الله على رءوس الخلائق، حتى يخيره من الحور العين يزوجه منها ما شاء».

ومن أجمل الأخلاق الاجتماعية: الرفق، ولقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق فقال: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ». (مسلم: ٢٥٩٤).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه». (صحيح أبي داود: ٤٠٢٣).

وقد دفع النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوم عرفة، فسمع وراءه زجرًا شديدًا، وضربًا للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: «أيها الناس، عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع». (البخاري: ١٦٧١).

ومن مكارم الأخلاق حسن معاشرة الزوجة، فمن كان معه أهله في الحج فليحسن إلى أهله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً متأسيًا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فحين حاضت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ودخل عليها فوجدها تبكي، سلاها وعزاها، قائلاً:

«إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم». وحين ألحت أن تأتي بعمرة بعد الحج قال: «اذهب بها يا عبد الرحمن فأعمرها من التنعيم». وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً سهلاً، إذا هويت الشيء تابعها عليه. (مسلم: ١٢١١، ١٢١٣).

ثامنًا: تجنب الرفث والفسوق والجدال:

قال الله تعالى: «ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ» (البقرة:١٩٧). يعني أنه من أوجب الحج على نفسه خلال هذه الشهور بأن تلبس به، وألزمه نفسه فليحترم ما التزمه من شعائر الله، وليصنه من الرفث الذي هو مقاربة النساء ما دام محرمًا، ومن الفسوق الذي هو الخروج عن حدود الشرع بفعل أي محظور يخل بإحرامه، ومن الجدال. قال عطاء رحمه الله: «الجدال: أن تجادل صاحبك حتى تغضبه ويغضبك».

تاسعًا: الحذر كل الحذر من مقارفة المعاصي:

قال الله تعالى: «وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» (الحج:٢٥)، فإذا كان ذلك لمجرد الإرادة. فكيف بمن يُريد ويفعل؟ إن في هذا التعبير البليغ زيادة في التحذير، ومبالغة في التوكيد، ولقد ضرب السلف الصالح أروع الأمثلة في الأدب مع حرم الله عز وجل، يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «كنا نعد: لا والله، وبلى والله، من الإلحاد في الحرم، ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: «لأن أخطئ سبعين خطيئة بـ «رُكبة» - أحبُّ إليَّ من أخطئ خطيئة واحدة في الحرم». (المصنف لعبد الرزاق: ٢٨/٥). ومعنى «ركبة اسم موضع بالحجاز بين غمرة وذات عرق».

عاشرًا: استثمار الوقت في الحج:

الحج أيام معدودة، وسويعات محدودة، ينقضي بانقضائها، ويستفاد منه بمقدار استثمارها، فمن صدق فيها ربَّه فنفر من المعاصي والمنكرات وجدَّ في الطاعات، واستكثر من الخيرات بانيًا عمله على إخلاص واتباع، فحري به أن ينال عالي الدرجات، ويخرج من الموسم بحج مبرور وسعي مشكور وتجارة لن تبور، بإذن الله، وقد وردت في ثنايا آيات الحج إشارات تحث العبد على الاستكثار من الطاعات وقت أداء النسك، ومن ذلك: قوله عز وجل: «وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ» (البقرة:١٩٧).

ولعل من أهم الطاعات التي ينبغي أن يستكثر منها العبد ويشغل بها وقته أثناء النسك:

١- أعمال القلوب: من إخلاص، ومحبة، وتوكل، وخوف، ورجاء، وتعظيم، وخضوع، واظهار افتقار، وصدق في الطلب والمسألة، التوبة والإنابة، والصبر، والرضا والطمأنينة.. ونحو ذلك، فهذا من أهم ما ينبغي أن ينشغل به العبد في حجه؛ إذ مدار الإسلام على هذه الأمور.

٢- قراءة القرآن والذكر والاستغفار، وقد أمر الله الحجيج بالذكر والاستغفار في ثنايا آيات الحج، وقال صلى الله عليه وسلم حاثًا على التلبية والذكر: «ما أهل مُهل ولا كبر مكبر إلا بُشِّر. قيل بالجنة؟ قال: نعم». (الصحيحة: ١٦٢١).

٣- بذل المعروف:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ". (مسلم: ٢٦٢٦). وقوله صلى الله عليه وسلم: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس». (صحيح الجامع: ١٦٧).

٤- استشعار حقيقة الحج:

إدراك العبد حقيقة الحج، والحكم والأسرار التي شرعت الشعائر من أجلها، يهيئ العبد ليكون حجه مبرورًا، إذ القيام بذلك بمنزلة الخشوع في الصلاة، فمن كان فيها أكثر خشوعًا كانت صلاته أكثر قبولاً، وكذلك الحج، كلما استوعب المرء حقيقة الحج، وروحه، والحكم والغايات التي شرع من أجلها، واتخذ ذلك وسيلة لتصحيح عقيدته وسلوكه، كلما كان حجه أكثر قبولاً وأعظم أجرًا، هكذا يجب أن يعي الحاج هذه الفريضة العظيمة، وأن يلتزموا بهذه الوصايا في قلوبهم، ويتمثلوها واقعًا عمليًا بأفعالهم وسلوكهم، «ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ» (الحج:٣٠).

فتعظيم شعائر الله يكون بإجلالها بالقلب ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، أن يكتب لنا ولكل متشوق حج بيته الحرام، وأن يتقبل من الحجاج، وأن يجعل حجهم مبرورًا، وسعيهم مشكورًا، وذنبهم مغفورًا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أمسك عليك لسانك

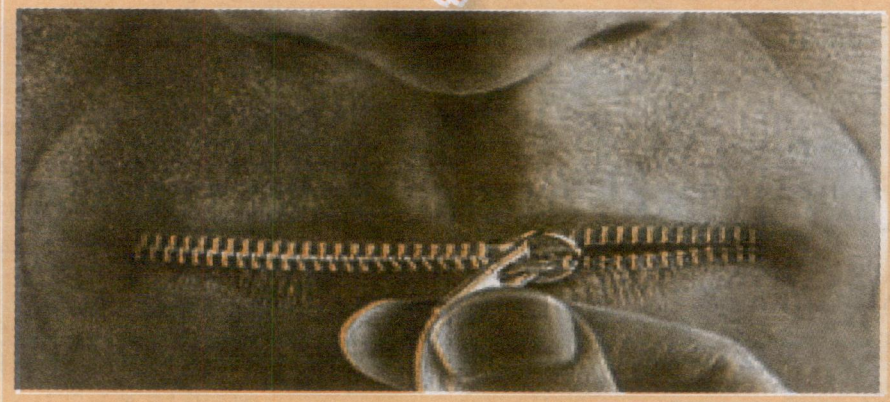

الحمد لله الذي ألف بين قلوب المؤمنين، وجعلهم إخوة متحابين متراحمين، على الخير متعاونين، ، وللفحش والزور مجتنبين، وعن أعراض إخوانهم ذابين ومدافعين، وأصلي وأسلم على خاتم النبيين وإمام المتقين، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعدُ:

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

فمن أهم ما يميز المجتمع الإسلامي: أنه مجتمع مودة وتراحم، وتكاتف وتلاحم، ومحبة وتلاؤم، ولكن فيه من لا تحجزه مروءة ولا يردعه دين أو أدب، جرَّد لسانه مقراضًا للأعراض بكلمات تنضح فحشًا، وألفاظ تنهش نهشًا، يسرف في التجني على عباد الله بالسخرية واللمز، فهذا طويلٌ وذاك قصير وهذا أحمق وذاك جهول، وكأنه قد وُكل إليه تجريح عباد الله، ويزدادُ الأمر وتعظمُ البلية حين ترى عليه علامات اللوم وملامح الاحتشام، سيما الوجاهة، وهيئات العلماء، ومع هذا المظهر الخداع، يصم بالخوض في الباطل أذني جليسه، لا يدع لأصحاب فضل فضلاً.. يحمل عليهم الحملاتَ الشعواءَ أحياءَ وأمواتًا تُرى ما هذا الداء إنه «داءُ الغيبة»، قل أن تسلم منه المجالس، ويندرُ أن ينفك منه مجتمع من المجتمعات، إلا من رحم ربي.

فالغيبة هي: الداء العضال، والسم الذي عند بعض الألسن أحلى من الزلال، وقد جاء الإسلام بتحريم الغيبة تحريمًا قاطعًا، وقد جعلها من أوتي جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم عديلة قتل النفس، وغصب المال فقال صلى الله عليه وسلم: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله

وعرضه». (مسلم: ٢٥٦٤).

وأعظم من ذلك وأجلُّ كلام ربنا عز وجل: «وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» (الحجرات:١٢).

فتأمل أخي المسلم رحمك الله هذا الأسلوب البليغ، في النهي المقرون بالمثال الذي يزيد الأمر شدةً وتغليظًا، والعمل تقبيحًا وتشنيعًا، «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» (الحجرات:١٢).

فإن أكل لحم الإنسان من أعظم ما يستقذر جبلة وطبعًا، بل فكيف إذا كان ميتًا وجيفة؟

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنه مر على بغلٍ ميت فقال لبعض أصحابه: «لأن يأكل الرجل من هذا حتى يملأ بطنه، خيرٌ له من أن يأكل لحم رجلٍ مسلم». (صحيح الترغيب: ٨٣٨).

فسبحان الله، ما أعظم خطر الغيبة وما أشنع جرمها، ويا سبحان الله، ما أكثر تساهل الناس بها اليوم، حتى لكأنها مائدة مجالسهم، والغيبة ذات أسماءٍ ثلاثة، كلها في كتاب الله عز وجل (الغيبةُ والإفك والبهتانُ)، فإذا كان في أخيك ما تقولُ فهي الغيبة، وإذا قلت فيه ما بلغك عنه فهو الإفكُ، وإذا قلت فيه ما ليس فيه فهو البهتانُ.

وللمغتابين نسوقُ هذا الوعيد قال صلى الله عليه وسلم: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم، يتبع الله

> **ما أعظم خطر الغيبة وما أشنع جرمها، ويا سبحان الله، ما أكثر تساهل الناس بها اليوم، حتى لكأنها مائدة مجالسهم.**

عورته، ومن يتبع الله عورته، يفضحه في بيته». (رواه أحمد: ٢٠/٤).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما عُرج بي، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم». (سنن أبي داود: ٤٨٧٨).

معنى: يخمشون: يخدشون ويجرحون.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: بينا أنا أماشي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذٌ بيدي، ورجلٌ عن يساره، فإذا نحن بقبرين أمامنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، وبلى، فأيكم يأتيني بجريدة؟» فاستبقنا، فسبقته فأتيته بجريدة، فكسرها نصفين، فألقى على ذا القبر قطعةً، وعلى ذا القبر قطعةً، وقال: «إنه يهون عليهما ما كانتا رطبتين، وما يعذبان إلا في الغيبة والبول». (صحيح الترغيب: ٢٨٤١).

وقال قتادة: ذُكر لنا أن عذاب القبر من ثلاث أثلاث: ثُلُث من الغيبة، وثُلُث من البول، وثلث من النميمة، وقال عمر رضي الله عنه: «عليكم بذكر الله، فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس، فإنه داءٌ».

ويقولُ بعض السلف: «الغيبة أشد من الزنى، قيل: وكيف؟ قال: الرجل يزني ثم يتوب، فيتوب الله عليه، وصاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه». (كتاب الصمت: ص١٦٤).

واغتاب رجلٌ آخرَ عند بعض السلف، فنهره، فقال: «يا هذا، إياك ولوغ الكلاب». (الصمت: ص٢٩٩).

ويقول الحسن رحمه الله: «إذا رأيت الرجل يشتغل بعيوب غيره، ويترك عيوب نفسه، فاعلم أنه قد مُكر به». (الصمت: ١٩٨).

ويقول بعض السلف: «أدركنا السلف الصالح وهم لا يرون العبادة في الصوم والصلاة ولكن في الكفِّ عن أعراض الناس.

ويُروى أن معروفًا الكرخي رحمه الله إذا اغتاب عنده أحدٌ قال: «يا هذا، اذكر الكفن والقطن والحنوط إذا وُضعن عليك». (سير أعلام النبلاء: ٣٤١/٩).

ويا سلوى لمن اغتابهم الناس لاستفادتهم من حسناتهم، يُروى أنه لما بلغ الحسن البصري أن رجلاً اغتابه، أرسل إليه طبقًا من رطب، وقال له: «بلغني أنك أهديت إليَّ حسناتك- أي:

بغيبتك لي- فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني، فإني لا أقدرُ على مُكافأتك على التمام». (إحياء علوم الدين: ٣/١٦٤).

وقيل لبعض الصالحين: لقد وقع فيك فلانٌ حتى أشفقنا عليك ورحمناك، قال: عليه فأشفقوا وإياه فارحموا. وقال رجلٌ للحسن: بلغني أنك تغتابني، فقال: لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي.

أسباب وبواعث الغيبة

وإذا بحثنا عن الأسباب والبواعث لهذا المرض الخطير، وجدناها لا تعدو: ضعف الإيمان، وقلة الوازع، وعدم الخوف من الله، فالذي يغتاب الناس يقول بلسان حاله: «أنا الكامل، والناسُ مخطئون، وأنا المحق، والناس مبطلون».

واعلم أخي الحبيب أنَّ المستمع للغيبة شريك للمغتاب، فقد قيل: إنَّ التصديق بالغيبة غيبة والساكتُ شريك للمغتاب، يقول ابن المبارك- رحمه الله-: «فِرَّ من المغتاب فرارك من الأسد.

وكان ميمونُ بن سياه لَا يغتابُ أحدًا ولا يدع أحدًا يغتاب أحدًا عنده، ينهاه فإن انتهى وإلا قام من المجلس.

فيا ترى أين هو المؤمن القوي الذي يأبى أن يُغتاب أحدٌ في مجلسه؟ أين المؤمن الذي يأبى أن تسمع أذناه عيب أخيه المسلم؟

أين المؤمن الذي يريد أن يرد الله عن وجهه النار يوم القيامة؟

عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من رد عن عرض أخيه، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة». (صحيح الترغيب: ٢٨٤٨). وحسب المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأنَّ حسناته تُنقل إلى من اغتابه ، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يُطلق لسانه بالغيبة.

فيا أخي الحبيب: أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك. (صحيح الترغيب: ٢٨٥٤). وسارع في رد المظالم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». (مسلم: ٢٥٨٢).

وخذ بلسانك وقل: «يا لسان: قل خيراً تغنم، واسكت عن شر تسلم، من قبل أن تندم».

فضل صوم عاشوراء

عن عبيد الله بن أبي يزيد : أنه سمع ابن عباس، وسئل عن صيام يوم عاشوراء؟ فقال : « ما علمت أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- صام يوما يطلب فضله على الأيام إلا هذا اليوم ، ولا شهرا إلا هذا الشهر- يعني : رمضان ».

أخرجه البخاري (٢٠٠٦) ، ومسلم (٢٧١٨)، والنسائي (٢٣٦٩).

قال ابن قيم الجوزية في زاد المعاد (٢ / ٧٢) : «فمراتب صومه ثلاثة :

- أكملها : أن يصام قبله يوم وبعده يوم .
- ويلي ذلك أن يصام التاسع والعاشر وعليه أكثر الأحاديث .
- ويلي ذلك إفراد العاشر بالصوم».

أعجل الذنوب عقوبةً

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد:

فإن صلاح الأسرة طريقُ أمان الجماعة، وصلة الرحم سبيل حفظ الأمة، لذا كثرت الوصايا القرآنية، وكذلك الأحاديث النبوية بالحث على صلة الرحم.

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

قال الله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ» (النحل:٩٠).

وقال تعالى: «وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ» (الأحزاب:٦).

واقترن حق الله، وحق الوالدين وحق الأقربين في أكثر من آية ووصية، قال الله تعالى: «وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ» (النساء:٣٦).

وقال تعالى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا» (الإسراء:٢٢-٢٦).

وفي مقام آخر قُرنت الرحم بحقِّ الله في التقوى، قال الله تعالى: «وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ» (النساء:١). أي: اتقوها أن تقطعوها، واعرفوا حقَّها أن تهضموها، فأسرة الإنسان وقرابته هم عدته وسنده، وهم أصله وقوته، لذا فإنه حين قلَّتْ عشيرةُ نبيِّ الله لوط عليه السلام وضعف ركن قرابته أعذر نفسه بقوله: «لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ» (هود:٨٠).

ومن بعد لوط قال قوم شعيب لشعيب عليه السلام: «وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ» (هود:٩١).

وقد قال علي رضي الله عنه: عشيرتك هم جناحك الذين بهم تُحلِّقُ، وأصلك الذي به تتعلق، ويدك التي بها تصول، ولسانك الذي به تقول، هم العدة عند الشدة، أكرم كريمهم، وعُد سقيمهم، ويسر على معسرهم، ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك، بصلة الرحم تقوى المودة وتزيد المحبة وتشتد عرى القرابة وتضمحل البغضاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر». (صحيح الجامع: ٩٦٥).

بركة صلة الرحم

بصلة الرحم تزيد الأعمار، وتعمر الديار وتبارك الأرزاق، وتستجلب السعادة، وتتقى مصارع السوء.

عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أحب أن يُبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه». (متفق عليه).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: «إنه من أُعطي حظه

من الرفق، فقد أُعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الجوار- أو حسن الخلق- يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار». (صحيح الترغيب: ٢٥٢٤).

شؤم قطيعة الرحم

وفي المقابل فإن قطيعة الرحم شؤم وخراب، وسبب للعنة وعمى البصر والبصيرة، قال الله تعالى: « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ » (محمد: ٢٢، ٢٣).

وقال الله تعالى: «وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» (الرعد: ٢٥).

كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقطيع الأرحام من أعظم كبائر الذنوب، وعقوبتها معجلة في الدنيا قبل الآخرة.

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا- مع ما يدخر له في الآخرة- من البغي وقطيعة الرحم». (صحيح الجامع: ٢٧٠٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة، فلا يقبل عمل قاطع رحم».

> **بَيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقطيع الأرحام من أعظم كبائر الذنوب، وعقوبتها معجلة في الدنيا قبل الآخرة.**

(صحيح الترغيب: ٢٥٣٨).

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله». (متفق عليه).

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله عز وجل: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته». أو قال: «بتته». (صحيح الترغيب: ٢٥٢٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ خَلْقِه قَالَتْ الرَّحِمُ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَة قَالَ: نَعَمْ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ قَالَ: فَهُوَ لَكِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ » (محمد: ٢٣). (متفق عليه).

وعنه رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الرحم شجنة من الرحمن تقول يا رب إني قطعت يا رب إني أسيء إلي يا رب إني ظلمت يا رب فيجيبها ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك». (صحيح الترغيب: ٢٥٣٠). ومعنى «شجنة» أي: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق.

فقه صلة الرحم

ومن ثمَّ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن تصلهم وإن جفوا، وتحلم عليهم وإن جهلوا، وتحسن إليهم ولو أساؤوا.

فإن مقابلة الإحسان بالإحسان مكافأةٌ، ولكن الصلة الواصلة: «من إذا قطعت رحمه وصلها»، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنَ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا». (البخاري: ٥٩٩١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ فَقَالَ

لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ (صحيح مسلم: ٢٥٥٨).

معنى: «الملل» هو الرماد الحار، أي: كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد من الألم، ولا شيء على المحسن إليهم، لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه، وإدخالهم الأذى عليه، والله أعلم.

وكما قيل: لا تقطع القريب وإن أساء، فإن المرء لا يأكل لحمه لو جاع.

فالنفس الرحيمة الواصلة، الكريمة الباذلة، يورث الله لها ذكرًا حسنًا في الحياة وبعد الممات، الألسنُ تلهج بالثناء والأيدي تمتدُّ بالدعاء، تعيش بين الناس بذكرها وذكراها أمدًا طويلاً، يبارك لها في الحياة فتكون حافلة بجليل الأعمال وجميل الفعال وعظيم المنجزات وكثرة الآثار، ومن وصل أقاربه أحبه الله وأحبه الناس.

فاعلم أن من حق أهلك وأرحامك أن تعود مريضهم، وتواسي فقيرهم، وتتفقد محتاجهم، وترحم صغيرهم، وتكفل يتيمهم، وتوقر كبيرهم، وتلين لهم في القول، وتحسن لهم في المعاملة، وأن تغفر الهفوة، وتستر الزلة، ويزداد الإحسان، ويعظم الفضل وتسمو النفس حين تحسن الظن بهم، وتحمل أخطاءهم على المحمل الحسن.

مقتضيات الصلة

حكي عن بنت عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبدالرحمن بن عوف أجود قريش في زمانه، فقالت له امرأته يوماً: ما رأيت قوما أشد لؤماً من إخوانك..!!

قال: ولم ذلك..؟ قالت: أراهم إذا اغتنيت لزموك. وإذا افتقرت تركوك، فقال لها: هذا والله من كرم أخلاقهم. يأتوننا في حال قدرتنا على إكرامهم. ويتركوننا في حال عجزنا عن القيام بحقهم.

فانظروا كيف تأول بكرمه هذا التأويل، وفسر بنبيل أخلاقه هذا التفسير، حتى جعل قبيح فعلهم حسناً، وظاهر غدرهم وفاء.

وهذا محض الكرم ولباب الفضل، وبمثل هذا يلزم ذوي الفضل أن يتأولوا الهفوات، ويمحوا الزلات من إخوانهم وأرحامهم وأصهارهم.

أين هذا من أناس ماتت عواطفهم، وغلب عليهم لؤمهم؟ فلا يلتفت إلى أهل، ولا يسأل عن قريب، ولا يود عشيرة، إن قربوا أقصاهم، وإن بعدوا تناساهم، بل يبلغ به اللؤم أن يقرب أصحابه وزملاءه، ويجفوا أهله وأقرباءه، يحسن للأبعدين، ويتنكر للأقربين، بطون ذوي رحمه جائعة، وأمواله في الأصدقاء والصحاب ضائعة. تراه يحاسب لهفوة صغيرة، ويقطع رحمه لزلة عابرة، إما بسبب كلمة سمعها، أو وشاية صدقها، أو حركة أساء تفسيرها.

من لم يصل رحمه ويتعاهد بخيره أقاربه فلا خير فيه ولا نفع منه. «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» (الرعد: ١٩-٢٤).

وحسب الواصل نعت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم: «كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ». (متفق عليه).

صلة كريمة تحوطها السماحة، ويظللها الحلم، ويحيط بها العفو، ويحكمها ضبط النفس، ولا يعين على هذه الخصال إلا الاستعانة بالصبر.

فالصبر عنهم ونسيان معايبهم، وإن لم يعتذروا؛ من كرم النفس، وعلو الهمة، ومن أخلاق أهل الفضل، فالزم جانب العفو، ودع الخصام، فإن معاداة الأقارب شر وبلاء، الرابح فيها خاسر، والمنتصر مهزوم، وكل رحم آتية يوم القيامة أمام صاحبها تشهد له بصلة إن كان وصلها وتشهد عليه بقطيعة إن كان قطعها.

اللهم اجعلنا من الواصلين لأرحامهم، العافين عن زلاتهم.

الإحسان إلى الجار من علامات الإيمان

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. أما بعدُ:

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

فاعلم أخي- وفقنا الله وإياك لما يحبُّه ويرضاه- أن للجار على جاره حقًا عظيمًا في الأديان كلها، والعربُ كانوا يعظّمون حق الجار ويحترمون الجوار في الجاهلية قبل الإسلام، ويعتزون بثناء الجار عليهم ويفخرون بذلك، والضعيف إذا جاور الأقوياء صار قويًا بإذن الله، له ما لهم وعليه ما عليهم، وحين جاء الإسلامُ أعزَّهُ وأكد حقَّ الجوار وأنزل فيه قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، قال الله تعالى: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا» (النساء: ٣٦)، وجعل الإحسان إلى الجار عنوان الإيمان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يأخذ عني هذه الكلمات فيعمل بهنَّ أو يُعلم من يعمل بهن؟» فقال أبو هريرة: قلتُ: أنا يا رسول الله. فأخذ بيدي فعد خمسًا، فقال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك، فإنَّ كثرة الضحك تميتُ القلب». (صحيح الجامع: ١٠٠).

وجعل من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر كفّ الأذى عن الجار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليسكت». متفق عليه.

وعظّم الإسلام حق الجار حتى كاد أن يورثه. عن ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما زال جبريل عليه السلام يُوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». متفق عليه.

وبين أن حُسن الجوار يعمّر الديار، ويزيد في الأعمار: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صلةُ الرحم، وحُسن الخلق، وحُسن الجوار، يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار». (أخرجه أحمد: ١٥٩/٦، والصحيحة: ٥١٩).

وجعل الجار الصالح من السعادة: عن نافع

بن عبد الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سعادة المرء، الجارُ الصالح، والمركبُ الهنيء، والمسكن الواسعُ». (البخاري في الأدب المفرد: ١١٦).

وفي حجة الوداع يوصي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجار: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته في حجة الوداع يقول: «أوصيكم بالجار» حتى أكثر، فقلتُ: إنه يورِّثه. (صحيح الترغيب: ٢٥٧٣).

كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصبر على أذى الجار من أسباب محبة الله. عن مُطرِّف- يعني ابن عبد الله- قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديثٌ، وكنت أشتهي لقاءه، فلقيته، فقلتُ: يا أبا ذر، كان يبلغني عنك حديثٌ، وكنت أشتهي لقاءك. قال: لله أبوك، لقد لقيتني فهات. قلتُ: حديثٌ بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثك، قال: «إن الله عز وجل يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة». قال: فما إخالني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فقلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل؟ قال: رجل غزا في سبيل الله صابرًا محتسبًا فقاتل حتى قُتل، وأنتم تجدونه عندكم مكتوبًا في كتاب الله عز وجل، ثم تلا: «إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ» (الصف: ٤).

قلت: ومن؟ قال: «رجلٌ له جارٌ

> **من سعادة المرء: الجارُ الصالح، والمركبُ الهنيء، والمسكن الواسعُ.**

سوء يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يكفيه الله إياه بحياة أو موت». (صحيح الترغيب: ٢٥٦٩).

وجعل صلى الله عليه وسلم شهادة الجار يعتدّ بها عند الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنيين أنهم لا يعلمون عنه إلا خيرًا، إلا قال الله تبارك وتعالى: قد قبلتُ قولكم، أو قال: بشهادتكم، وغفرتُ له ما لا تعلمون». (أخرجه أحمد: ٢٤٢/٣، وهو في أحكام الجنائز للألباني ص٤٥).

وبيّن أن الإنسان يعرف نفسه أنه محسن أو مسيء من شهادة الجيران. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، كيف لي أعلم إذا أحسنت أو أسأت؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «إذا سمعت جيرانك يقولون: قد أحسنت، فقد أحسنت، وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأت، فقد أسأت». (صحيح الجامع: ٦١٠).

وفي المقابل نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان عن الذي لا يأمن جاره شره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه». يعني: شروره. متفق عليه.

سبحانه الله! يقسم صلى الله عليه وسلم ويكرر القسم ثلاثًا بنفي الإيمان عن الذي لا يأمن جاره شره، ومع هذا يحسبه الكثير هينًا وهو عند الله عظيم. فيا ليت قومي يتذكرون ويكفون، كما بين صلى الله عليه وسلم أنه لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره شره. فقال صلى الله عليه وسلم: «لا يستقيم إيمانُ عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة حتى يأمن جاره بوائقه». (صحيح الترغيب: ٢٥٥٤).

وقال صلى الله عليه وسلم: «المؤمن من أمنه الناس، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر السوء، والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة عبدٌ لا يأمن جاره بوائقه». (صحيح الترغيب: ٢٥٥٥).

الله أكبر! يحرم الإنسان الجنة دار النعيم، دار الخلد، دار المقامة، دار الإسلام، «فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر» من النعيم السرمدي بسبب أذية الجار. على ذلك أقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة

عبدٌ لا يأمن جاره بوائقه». فإذا حُرم الإنسان أغلى سلعة وهي الجنة فماذا يرجو بعد ذلك؟

كما بيّن صلى الله عليه وسلم صراحة أنَّ أذى الجار من موجبات دخول النار. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانه يذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «هي في النار». قال: يا رسول الله، فإنَّ فلانة يُذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، أوأنها تتصدق بالأثوار (الأشياء القليلة) من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في الجنة». (صحيح الترغيب: ٢٥٦٠).

معنى «الأثوار» جمع ثور وهي القطعة من الأقط. والأقط: شيء يتخذ من مخيض اللبن الغنمي.

كما بين صلى الله عليه وسلم أن الذنب يعظم إذا ارتكب في حق الجار ويضاعف إثم فاعله.

سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعظم الذنب عند الله فذكر ثلاث خصال. قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك، وأن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، وأن تزني بحليلة جارك». متفق عليه.

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرامٌ، حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن يزني الرَّجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره». قال: «ما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام. قال: «لأنْ يسرق الرجل من عشرة أبيات، أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره». (رواه أحمد: ٨/٦، وصحيح الترغيب: ٢٥٤٩).

> اصبر أخي على جارك السوء وصابر، واحذر أن يضيق صدرك عليه فتؤذيه فتأثم.

فاصبر أخي على جارك السوء وصابر، واحذر أن يضيق صدرك عليه فتؤذيه فتأثم. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره، فقال له صلى الله عليه وسلم: «اذهب فاصبر». فأتاه مرتين أو ثلاثًا، فقال: «اذهب فاطرح متاعك في الطريق». ففعل، فجعل الناس يمرون ويسألونه، فيخبرهم خبر جاره، فجعلوا يلعنونه: فعل الله به وفعل، وبعضهم يدعو عليه، فجاء جاره فقال: ارجع فإنك لن ترى مني شيئًا تكرهه. (البخاري في الأدب المفرد: ١٢٤).

ويُروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه، فقال له: إن لي جارًا يؤذيني ويشتمني ويضيق عليَّ، فقال: «اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه». (إحياء علوم الدين: ٣١٤/٢).

وقال الغزالي رحمه الله: «وجملة حق الجار: أن يبدأه بالسلام ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال ويعوده في المرض ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح ويظهر الشركة في السرور معه ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره ولا في مصب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طرقه إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره ويستر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلاماً ويغض بصره عن حرمته، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه".

وقال أيضًا رحمه الله: "واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى فإن الجار أيضا قد كف أذاه فليس في ذلك قضاء حق ولا يكفي احتمال الأذى بل لابد من الرفق وإسداء الخير والمعروف قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كم من جار متعلق بجاره يقول: يا رب، سل هذا: لم أغلق عني بابه ومنعني فضله؟» (صحيح الترغيب: ٢٥٦٤).

فكن أخي خير الجيران فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره». (صحيح الترغيب: ٢٥٦٨).

والحمد لله رب العالمين.

تلك أمنيته.. ولكن!

الحمد لله الذي جعل الصلاة عماد الدِّين، وعصام اليقين، وقرة عين نبينا الأمين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعدُ:

إعداد/ إعداد: عبده الأقرع

فالصلاة عماد الدين، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، مَن حافظ عليها فهو السعيد، ومن أضاعها وأهملها فهو الشقي العنيد، وعلى قدر المحافظة على أدائها كاملة، والمسارعة إليها حبًّا لله تعالى يكون حفظ المرء من الإسلام، وكفاها تشريفًا أن الله تعالى فرضها من فوق سبع سموات تعظيمًا لقدرها، وتنويهًا بشأنها، فإنها المنحة التي منحها الله حبيبه ليلة المعراج، ليلة الوصل الأعظم بين الرب الرحيم، وبين العبد الحبيب- مكافأة له على ما قام به من العبودية الصادقة لله سبحانه، بما لم يسبقه إليه سابق، ولن يلحقه لاحق، فكانت الصلة والمنحة الكريمة التي تفضل الله بها على عبده ورسوله، وإليها يفزع صلى الله عليه وسلم كلما حزبه أمر يناجي فيها حبيبه ويشكو إليه، فيستجيب له، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من عمله، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، وهي خاتمة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم». (صحيح الجامع: ٣٧٦٧).

وقد مدح الله المحافظين عليها، ووعدهم الفردوس، أعلى درجات الجنة، وسقفه عرش الرحمن، فقال سبحانه: « وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ » (المؤمنون:٩- ١١). وذم مضيعها فقال سبحانه: « فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » (مريم:٥٩).

أما الذين لا يصلون أبدًا فقد توعدهم بسقر: « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » (المدثر:٢٧- ٣٠).

قال تعالى: « كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ » (المدثر:٣٨-٤٣). وعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر». (الترمذي: ٢٦٣٢، وصحيح الترغيب والترهيب: ٥٦٤)، وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن بين الرجل وبين الشرك

والكفر ترك الصلاة». (مسلم: ٨٢، وصحيح الترغيب والترهيب: ٥٦٣).

وعن عبد الله بن شقيق العقيلي رضي الله عنه قال: «كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة». (الترمذي: ٢٦٢٤).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم أن لا تشرك بالله شيئًا وإن قطعت أو حرقت، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدًا، فمن تركها متعمدًا فقد برئت منه الذمة، ولا تشرب الخمر، فإنها مفتاح كل شر». (صحيح الترغيب: ٥٧٤).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «لا إيمان لمن لا صلاة له، ولا صلاة لمن لا وضوء له». (صحيح الترغيب: ٥٦٦).

فنصيحتي لك أن تصلي وأن تحافظ على صلواتك في أوقاتها، فوالله لا يغني أحد عنك من الله شيئًا، ولا يتحمل وزرك، ولا يجادل الله فيك ولا يدفع نقمته إذا حلت بك، ولا ينفعك مالك ولا بنوك، ولا يدوم لك جاهك ولا سلطانك، وستندم على تقصيرك يوم لا ينفعك الندم، وسيحل بك الموت فجأة، وأنت في غفلة عنه، فخذ عدتك وتدبر أمرك واتعظ بمن سبقك.

> إن الصلاة نور، ونور في قلبك، ونور في قبرك، ونور بين يديك يوم القيامة، ومن لم يحافظ على الصلاة لم يجعل الله له نورًا.

صل إن كنت تخاف الله الكبير لأنه توعد من لم يصل بالنار، وأنت يا مسكين لا تستطيع أن تتحمل حر الشمس فكيف تقدر على النار؟! ونار الدنيا جزءًا من سبعين جزءًا من نار الآخرة، ونار الآخرة سوداء مظلمة يهوي بها الإنسان سبعين عامًا حتى يدرك قعرها.

أيسرك أن يقال عنك يوم القيامة: إنك من المجرمين لأنك لم تك من المصلين؟ أيسرك أن يقول الله لملائكته الغلاظ: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ» (الحاقة: ٣٠- ٣٢).

هل ينجيك أسفك إذا عاينت النار؟ وأي فائدة تدخرها لآخرتك في دنياك إذا لم تصل؟ وأي خسارة تلحقك إذا صليت؟ وأيهما أحب إليك: أن تكون من السعداء في الجنة أم مع الأشقياء في النار؟ (بتصرف من رسالة لماذا أصلي، عبد الرؤوف من).

صل فإن الصلاة نور، نور في قلبك، ونور في قبرك، ونور بين يديك يوم القيامة، ومن لم يحافظ على الصلاة لم يجعل الله له نورًا، فوجهه في الدنيا مُسودٌ، وقلبه في الدنيا أسود وقبره مظلم، ويوم القيامة يتخبط في ظلمات بعضها فوق بعض فلا يستطيع أن ينجو من نار جهنم.

حافظ على الصلاة وأنت سليم صحيح:

إنها قصة رجل آتاه الله قوة في جسمه، وفتوة في عضلاته فنسي أن الله هو القوي العزيز، كان يسمعُ داعي الله فلا يجيبه فإذا سمع داعي النفس والهوى أسرع في إجابتهما، وجُلّ همه جمعُ أكبر قدر من المال، ولا يبالي أمِنْ حرام كان أم من حلال.. كان يعمل حطابًا يحمل البضائع في الأسواق وذات يوم، داخل متجراً وهو يحمل بضاعة، فسقط عليه جدارٌ وقع على ظهره، فأصيب بشلل كليٍّ أفقده القدرةُ على المشي والحركة فصار حيًا ميتًا أو أشبه بالميت، حُكم عليه بعدم الحركة طوال الحياة، حتى البول والبراز لا يملك إخراجها بنفسه، فيحتاج إلى ثلاث ساعات على الأقل لإخراجهما بمحاليل طبية، بعد عرق غزير وألم عسير لا يعلمه

إلا الله.. وعندما سأله أحدُ الزائرين عن أمنيته الآن، قال: أتمنى أن أحضر صلاة الجماعة..

الآن، وقد كنت قبل ذلك تسمع صوت المؤذن فلا تلقى له بالاً، فما الذي جعلك اليوم تحب هذا الصوت وتتمنى إجابته؟

تخيل نفسك- أخي الحبيب- مكان هذا الرجل، وقد حيل بينك وبين الحركة والذهاب والإياب، ويئس منك الأهل والأقارب والأصحاب وأصبحت رهين الفراش لا تقوى على التقلب.

فقم لله واركع، وصلِّ لله واسجد، ولا تكن من المكذبين الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون، فإنهم سيندمون يوم الدين: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ» (القلم:٤٢-٤٣).

فاتقوا الله عباد الله، وحافظوا على صلواتكم فماذا يبقى من دينكم إذا ضيعتموها؟! فإن آخر ما تفقدون من دينكم الصلاة.

حافظوا على الصلاة فإنها تكفير لسيئاتكم، وتطهير من ذنوبكم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْفَجْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ

> **قم لله واركع، وصلِّ لله واسجد، ولا تكن من المكذبين الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون، فإنهم سيندمون يوم الدين.**

تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعَصْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْمَغْرِبَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعِشَاءَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَنَامُونَ فَلَا يُكْتَبُ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَسْتَيْقِظُوا». (صحيح الترغيب: ٣٥٤).

حافظوا على الصلاة فإنها تمحو الذنوب والخطايا كما يمحو الماء وسخ الثوب والبدن، قال صلى الله عليه وسلم: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ مَا تَقُولُونَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا». (صحيح الترغيب: ٣٤٩).

حافظوا على الصلاة فإنها الصلة بينكم وبين ربكم، فالمصلي إذا قام في صلاته استقبله الله بوجهه فإذا قرأ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (الفاتحة:٢)، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قرأ: «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» (الفاتحة:١) قال: أثنى عليّ عبدي، فإذا قال: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» (الفاتحة:٤) قال الله: مجدني عبدي، وإذا قرأ: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» (الفاتحة:٥) قال الله: هذا بيني وبين عبدي؛ نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قرأ: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» (الفاتحة:٦، ٧) قال: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل. (مسلم: ٣٩٥).

أفتجد أيها المسلم صلة أقوى من تلك الصلة؟! يجيبك ربك على قراءتك آية آية وهو فوق عرشه، ولهذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا صلاها على الوجه الذي أمر به؛ لأنه اصطبغ بتلك الصلة التي حصلت له مع ربه، فقوي إيمانه، واستنار قلبه، وتهذبت أخلاقه، قال الله تعالى: «اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» (العنكبوت: ٤٥).

حافظوا على الصلاة فإنها عون لكم على أمور دينكم ودنياكم، قال الله تعالى: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» (البقرة:٤٥)، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»

(البقرة:١٥٣).

وهي خير علاج لما يصيب النفس الإنسانية من القلق الفكري ونزغات الشيطان وضغط أمور الحياة، قال الله تعالى: «إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ» (المعارج:١٩- ٢٣).

وهي إحدى الدعائم التي يقوم عليها المجتمع الفاضل النقي حيث كانت من أبرز وأوضح الأسس لهذا المجتمع الفاضل، قال الله تعالى: «ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ» (الحج:٤٠، ٤١).

وهي سبب الفلاح في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: «الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» (لقمان:١- ٤)، وهي عنوان الإيمان، قال الله تعالى: «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» (الأنفال:٢- ٣).

وهي بشارة للصادقين في يقينهم وخشوعهم. قال الله تعالى: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ» (الحج:٣٤- ٣٦).

فحافظوا عليها واتبعوها. عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مسعود رضي اللهُ عنهُ قالَ: "مَنْ سَرَّهُ أنْ يَلْقَى اللهَ غدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ؛ فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ". (مسلم: ٦٥٤).

حافظوا عليها فإنها من أحب الأعمال إلى الله تعالى، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ. (متفق عليه).

حافظوا عليها ومروا أهليكم امتثالاً لأمر الله جل وعلا: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ» (طه:١٣٢).

ولقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام، قال الله تعالى: «وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا» (مريم:٥٤، ٥٥).

حافظوا عليها ومروا أولادكم امتثالاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع». (المشكاة: ٥٧٢، وصحيح أبي داود: ٥٠٩).

«رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ» (إبراهيم:٤٠).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

صبر الداعية على الأذى

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعدُ:

فالعلمُ أفضل مكتسب، وأشرف منتسب، وأنفس ذخيرة تُقتنى، وأطيب ثمرة تُجتنى، نور زاهر، وقوت هنئ، تنشرحُ به النفوس، وتُسرُّ به الأفئدة.

إعداد/ عبده الأقرع

ولقد عُني الإسلام بالعلم أبلغ عناية وأتمها دعوةً إليه، وترغيبًا فيه، وتعظيمًا لقدره، وتنويهًا بأهله، وامتن الله على الأنبياء الكرام بما آتاهم من العلم وذكرَ الله هذا الفضل العميم في كتابه فقال عن يوسف الصديق عليه السلام: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» (يوسف:٢٢).

وقال عن كليمه موسى عليه السلام: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» (القصص: ١٤).

وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: «وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا» (النساء:١١٣).

والدعوة إلى الله سبحانه من أبرز سمات هذه الأمة- أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي فاقت بها سائر الأمم، يقولُ الله جل وعلا: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ» (آل عمران:١١٠)، والمهمة الكبرى للأنبياء والمرسلين والصالحين، قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: «قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى» (يوسف:١٠٨).

وقد كرر الله تعالى في القرآن الخطاب إليه صلى الله عليه وسلم بأمره بالدعوة إليه سبحانه والاستمرار عليها وعدم التخلي عنها، فقال سبحانه: «وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ» (الحج:٦٧)، وقال سبحانه: «إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ» (الرعد:٣٦)، وقد قضت سنة الله أن ذوي العصيان أكثر عددًا ممن يطيع الرحمن، قال الله تعالى: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ» (المائدة:٤٩)، وقال تعالى: «وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ» (الأنعام:١١٦).

إذن لا بد للداعية إلى الله من زاد وافر من الصبر، صابرًا على ما يدعو إليه، صابرًا على ما يعترض دعوته، صابرًا على ما يعترضه من الأذى، فهذا هو الداعية الأول للأمة خاتم الرسل وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم بدأ الوحي يتنزل عليه بالعقائد والشرائع، فبدأت بواعث الحسد والسوء تتحرك تجاهه في شدة لا تهدأ، وأخذ المستكبرون يرون في أنفسهم أحقيتها بما يدعيه محمد صلى الله عليه وسلم لو كان صحيحًا، فقالوا: «لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» (الزخرف:٣١).

ورأوا فيما يتلو عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا غير مألوف لهم، فلا طاقة لهم بمثله، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغير لهم ما يريدون تغييره مما يسمعون من القرآن، بأن يجعل لهم الحلال حرامًا والحرام حلالاً، والوعد وعيدًا، والوعيد وعدًا، وذلك قوله سبحانه: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ» (يونس:١٥).

ويعلل هذا فيقول: «إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ» (يونس:١٥)، ثم يتبع الله تعالى ذكره تعريف نبيه الحجة على هؤلاء الذين قالوا له: «ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ» (يونس:١٥)، فيقول له: قل لهم: «قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ» (يونس:١٦).

يقول الإمام القرطبي في ذلك: "أي لو كنت منتحلاً ما ليس لي من القول لكنت انتحلته في أيام شبابي وحداثتي، وقبل الوقت الذي تلوته عليكم، فقد كان لي اليوم- لو لم يُوح إليّ ولم أومر بتلاوته عليكم- مندوحة عن معاداتكم، ومتسع في الحال التي كنت بها منكم قبل أن يوحى إليّ بتلاوته عليكم". (تفسير الطبري، الجزء الخامس عشر).

ولم يَدَعُوا سبيلاً يرون أن لهم فيه نهاية إلى غاية يرونها دانية أو بعيدة في محاولة إبطال الوحي أو صرف النبي صلى الله عليه وسلم إلا سلكوها، متناسين مكانته فيهم التي أقروا له جميعًا بها فسموه «الأمين»، فإن لم يفلحوا في صرف النبي صلى الله عليه وسلم عن الوحي فلا أقل من أن يُدخلوا الريبة منه في قلوب من حوله ممن آمن به وممن لم يؤمن به، ولو إلى حين، لا يحملهم على ذلك إلا وغر صدورهم بالحسد، وإلا ما أنشب فيها من إلف الباطل، وحجتهم: «إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ» (الزخرف: ٢٢).

سلكوا أولاً سبيل الاستكبار والإعراض، وجاهروا به حتى يراهم الأتباع فيصنعوا مثل ما صنعوا، ويجحدوا كما جحدوا، يرجون أن يقع اليأس في قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ويسكت عن ضلالهم فلا يدعوهم إلى الله، قال الله عنهم: «وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ» (فصلت:٢٦).

وقال الله تعالى: «وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ» (سبأ:٣١).

وقال تعالى: «وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا» (الإسراء:٤٦).

فلما رأوا أنهم لم يصيبوا نجحًا سلكوا ثانيًا سبيل الهزء والسخرية، قال الله تعالى: «وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا» (الأنبياء:٣٦).

وقال الله تعالى: «وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ» (الحجر:١١)، وعاقبة المستهزئين بالرسول إلى تَباب وخُسران، وهي سُنَّة مضت في الأمم السابقة كلها التي هزئت وسخرت بأنبيائها، قال الله تعالى: «وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ» (الأنبياء:٤١).

وقد عصم الله نبيه صلى الله عليه وسلم من المستهزئين وكفاهم مكرهم، فليس لهم إليه من سبيل.

قال الله تعالى: «إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ» (الحجر:٩٥).

ولكيلا يكون للمستهزئين سبيلٌ على أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه نهاهم عن الجلوس مع المستهزئين والاستماع والإصغاء إليهم، فقال تعالى: «إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ» (النساء:١٤٠)، وإن أصروا على استهزائهم بالحق الذي جاءهم به نبيهم، فإن العذاب الأليم في انتظارهم، قال الله تعالى: «فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ» (الأنعام:٥).

فلما لم يفلحوا في توهين وصرف الرسول صلى الله عليه وسلم عن دعوته عن طريق الإعراض والصد والاستهزاء، لجئوا إلى أسلوب ثالث، وهو الاتهام بالسحر والكهانة والجنون والشعر والكذب، وقد كانوا من يرون فيه الكمال الإنساني كله في حكمته وصدقه وأمانته، فلما أن جاءهم بشيرًا ونذيرًا بأمر من ربه نابذوه الخصومة، وبارزوه العداوة، وألقوا الاتهام عليه، الذي لا ينبئ إلا عن حسد يأكل صدورهم، وخوف على مكانتهم التي توارثوها كابرًا عن كابر أن تسقط، فاتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالسحر، قال الله تعالى: «وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا» (الفرقان:٨).

وقال الله تعالى: «نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا

مَسْحُورًا » (الإسراء:٤٧).

ثم استطالوا بتهمة الجنون، وهي أشد وأعظم من التهمة بالسحر.

وقد سجل القرآن الكريم هذه التهمة في كل حالاتها التي صورت حقيقة نفوسهم وهم يقذفون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتارة يصرخون بهذه التهمة صرخًا لا يملكون معه إخفاء ما تجيش به نفوسهم من حقد باطن: قال الله تعالى عنهم: « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » (الحجر:٦).

وتارة يتداولون هذه التهمة فيما بينهم عالمين أنهم يخادعون أنفسهم، قال الله تعالى: « وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ » (الصافات:٣٦).

وتارة يقولونها وهم أشبه ما يكون في حالة يأس وقنوط من قناعتهم هم أنفسهم بهذه التهمة.

قال الله تعالى: « ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ » (الدخان:١٤).

وتارة يحكونها وقد اعترتهم البغضاء والحسد في أشد حالاتهما ظانين أنهم يقنعون أنفسهم بها، قال الله تعالى: « وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ » (القلم:٥١).

ويحكي تعالى استخفافهم واستغرابهم بإلفهم عقيدتهم المتوارثة الباطلة مما جاءهم به من عقائد غريبة عنهم.

قال الله تعالى: « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ » (سبأ: ٧- ٨).

ويثبت القرآن من قلب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يأمره أن يذكر الناس بما أرسل به من عند ربه غير ناظر إلى ما يقولون داحضًا بقوة تلك الفرية، قال الله تعالى: « فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ » (الطور:٢٩).

ولكنهم كانوا يصفونه بالحكمة والعقل، قال الله تعالى: « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » (الأعراف:١٨٤).

ويذكر القرآن النبي صلى الله عليه وسلم بأن هذه التهمة قد أُلقيت على الأنبياء قبله، فلا ييأس ولا يحزن، قال الله تعالى: « كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » (الذاريات:٥٢- ٥٣).

ويستغلق الحقد في قلوبهم حتى يصفوا الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر، وقد جمع مع الشعر الجنون.

قال الله تعالى عنهم: « وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » (الأنبياء:٣- ٥).

وقال الله تعالى: « وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ » (الصافات:٣٦).

ثم يدفع القرآن هذه التهمة دفعًا قويًا، ويردها عليهم، قال الله تعالى: « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ » (يس:٦٩).

وقال الله تعالى: « فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » (الحاقة:٣٨).

ثم اتهموه صلى الله عليه وسلم بالكذب، قال الله تعالى حكاية عنهم: « وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ » (ص:٤).

وتكرر المعنى نفسه في موضع آخر بلفظ آخر، وذلك قوله سبحانه: « أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ » (القمر:٢٥)، ويأتيهم الرد في سرعة باهرة في تهديد قاطع أنهم سيلقون عاقبة افترائهم يوم القيامة: « سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ » (القمر:٢٦)، ولا ينبغي للنبي أن ييأس أو يضجر أو يتولى عنهم فلا يدعوهم.

وقال الله تعالى: « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ۝٣٤ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ » (الأنعام:٣٣- ٣٥).

وقال تعالى: «فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ» (الأنعام:١٤٧).

وهكذا آذوا النبي صلى الله عليه وسلم بكل ألقاب السوء والسخرية، ولم يقتصروا على ذلك فحسب بل آذوه بالأذى الفعلي.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبي عدو الله ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ» (غافر:٢٨).

ولما اشتد به الأذى صلى الله عليه وسلم من قومه خرج إلى الطائف رجاء أن يؤوه ويمنعوه من قومه، فلقي منهم أشد ما يلقى من أذى، وقالوا: أخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم يقفون له في الطريق ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبيه، وشُج رأسه.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، فَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ- عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ). قَالَ: (فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ولم يجد صلى الله عليه وسلم في أحب البلاد إليه ملجأ من الله إلا إليه، وصار ينظر أيمن منه فلا يرى إلا عدوًا متربصًا، وينظر أيسر منه فلا يرى إلا نصيرًا ضعيفًا، وينظر ورائه فلا يرى إلا سهامًا مصوبة على ظهره، وينظر أمامه فلا يرى إلا هزوًا وسخرية تتقيؤها أفواهٌ، وأشواكًا وحجارة موضوعة في طريقة، فنظر إلى السماء فوجد الرجاء كله، نورًا يمزق ركام الظلام الذي يحيط بمكة وما حولها، فتوجه إلى الله يسأله أن يجعل له ولأصحابه المستضعفين فرجًا ومخرجًا، وهو صلى الله عليه وسلم يرى أصحابه تهوي بهم قطعُ العذاب، وتأكل أجسادهم سياطُ العذاب، وقد امتد حبل هذا السلوك الشائن إلى المدينة بعد الهجرة، فأمسك المنافقون به بعد إفلاته من يد المشركين في مكة، وجعلوا يسخرون سرًا- وجهرة أحيانًا- من الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لا يحجزهم فزع من عذاب، ولا حرمة لجوار، فتشابه السلوكان والتقيا على طريق واحدة، ويصعد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد رحلة في الزمن، دامت ثلاثة وستين عامًا، حمل فيها هم الدعوة والأمة- وما أثقله حملاً- ويجتاز قنطرة الحياة، وهو أسعد ما يكون حالاً، وأرضى ما يكون نفسًا، أن خلف وراءه جيلاً من الحواريين، وساروا على أحسن ما كان عليه في حياته صلى الله عليه وسلم، فاستحقوا منه الثناء كله والتحذير للناس أن ينالوا من واحد منهم ولو بكلمة.

قال صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مد أحدهم، ولا نصيفه». (مختصر مسلم: ١٧٤٦).

إذن فكل داعية لا بد أن يناله أذى ولكن عليه أن يصبر وأن يستمر حتى يفتح الله له، وليس من الضروري أن يفتح الله له في حياته، بل المهم أن تبقى دعوته بين الناس ناصعة متبوعة، ليس المهم الشخص ولكن المهم الدعوة ، قال الله تعالى: «أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا» (الأنعام:١٢٢).

ففي الحقيقة أن حياة الداعية ليس معناها أن تبقى روحه في جسمه فقط، بل أن تبقى مقالته حية بين الناس، اللهم صبرنا على العلم والعمل والدعوة إليك، إنك ولي ذلك والقادر عليه.

مفهوم الأمانة في الإسلام

الحمد لله الذي أمر بأداء الأمانات، ورتب عليها جزيل العطايا والهبات، ونهى سبحانه عن المكر وسائر الخيانات، وأصلي وأسلم على سيدنا وأسوتنا وقدوتنا الصادق الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

إعداد/ عبده الأقرع

فالأمانة من الأخلاق الفاضلة، وأصل من أصول الدين، وهي ضرورية للمجتمع الإنساني، والأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة، فهي عمل لكل ما لله فيه طاعة، واجتناب كل ما له فيه مخالفة وعصيان، سواء كان ذلك في عبادة الله أو في معاملة عباده.

وقد أمر الله تعالى بأداء الأمانة فقال سبحانه: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ» (البقرة:٢٨٣)، وقال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» (النساء:٥٨).

وقد ضرب الله مثلاً لضخامتها، فأبان أنها تثقل كاهل الوجود كله فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بها، أو يفرط في حقها، فقال الله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» (الأحزاب:٧٢).

ومدح الله أهل الأمانة، ووعدهم الفردوس أعلى درجات الجنة، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (المؤمنون:٨- ١١).

وقال تعالى: «وَالَّذِينَ هُم لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ» (المعارج:٣٢- ٣٥).

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأداء الأمانة، فقال صلى الله عليه وسلم: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». (صحيح الجامع: ٢٤٠).

وبيّن صلى الله عليه وسلم أن حفظ الأمانة أثر كمال الإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا إيمان لمن لا أمانة له». (صحيح الجامع: ٧١٧٩).

وحذر الله تعالى من الخيانة، فقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ» (الأنفال:٢٧).

وبين سبحانه وتعالى أن الخائن مبغوض، فقال تعالى: «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» (الأنفال:٥٨).

والنبي صلى الله عليه وسلم حذر من الخيانة وبين أنها من خصائص المنافقين، فقال عليه الصلاة والسلام: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». (متفق عليه).

وبين عليه الصلاة والسلام أن أداء الأمانة من أسباب دخول الجنة، فقال عليه الصلاة والسلام: «اضمنوا لي ستًا من أنفسكم، أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم،

وكفوا أيديكم». (السلسلة الصحيحة: ٤٢٣).

إذا علمت ذلك فاعلم أن الأمانة من الأخلاق الفاضلة وأصل من أصول الدين، وهي ضرورية للمجتمع الإنساني، والأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة، فهي عمل لكل ما لله فيه طاعة، واجتناب كل ما له فيه مخالفة وعصيان، سواء كان ذلك في عبادة الله أو في معاملة عباده.

فالصلاة أمانة عندك: مطلوبٌ منك أن تؤديها في وقتها إن لم يكن عذر شرعي كاملة غير منقوصة مستوفية لفرائضها وأركانها وشروطها وسننها وآدائها بقلب مملوء من الخشوع والخضوع.

والزكاة أمانة عندك: مطلوب منك أن تؤديها في وقتها كاملة غير منقوصة إذا اجتمعت الشروط، طيبةً بها نفسك لكلي تطهر مالك وتزكي نفسك وتبرأ منك ذمتك وتسلم من عقوبتها.

والصيام أمانة: مطلوب أن تصوم وأن تصون صيامك عما يفسده وأن تتحرى الحلال للسحور والفطور، وألا يفكر عقلك إلا في الخير ولا ينطق لسانك إلا حسنًا، ولا تسمع أذناك إلا طيبًا، ولا تنظر عينك إلا مباحاً، ولا تمدَّ يدك إلا إلى إصلاح، ولا قدمُك إلا في طاعة ومعروف.

والحج أمانة لله في عنقك: إن كنت ممن توفرت لديه الشروط وهي الإسلام والحرية والبلوغ والعقل والاستطاعة وتزيدُ المرأة شرطًا سادسًا وهو وجودُ محرم لها.

وعليه: فإنه ينبغي للإنسان أن يستحضر في كل ساعة وفي كل نظرة ولفتة وفي كل إشارة وعبادة وفي كل حركة وسكون أنه مطالبٌ بالأمانة فلسانك أمانة عندك إن حفظته من الكذب والغيبة والنميمة والسخرية بعباد الله والقذف والفحش ونحو ذلك مما نهى عنه الشرع واستعملته في تلاوة كلام الله والباقيات الصالحات، فقد حفظت هذه الأمانة.

الأذن أمانةٌ، إن جنبتها استماع المحرمات من الغيبة والملاهي والغناء وغير ذلك مما نهى الله عن استماعه، واستعملته في استماع ما يعود نفعه عليك في الدنيا والآخرة فقد حفظت هذه الأمانة.

ورجلك أمانةٌ عندك إن استعملتها بالمشي إلى ما أمر الله به وحجزتها عن السير إلى ما نهى الله عنه فقد حفظتها.

وكذلك الفرج: إن جنبته الزنا واللواط والاستمناء باليد وكل ما نهى الله عنه، واستعملته فيما أباحه لك الشرع فقد حفظته، قال الله تعالى: « وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ » (المؤمنون:٥-٧).

وكذلك العقل: إن استعملته فيما يعود عليك بالسعادة دنيا وأخرى ولم تستعمله في المكر والدهاء وخداع المسلمين والكيد لهم ونحو ذلك فقد حفظته.

ومن معاني الأمانة: وضع كل شيء في مكانه اللائق به، والجدير له، فلا يُسْنَد منصبٌ إلا لمن ترفعه كفايته له، أما من يعجز عن القيام به فلا يجوز إسناده إليه. فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي قَالَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةُ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا. (مسلم: ١٨٢٥).

والأمة التي لا أمانة لها هي التي تنتشر فيها الرشوة وتعمل على إهمال الأكفاء وإبعادهم وتقديم الذين ليسوا أهلاً للمناصب، وهذا من علامات الساعة إذا وقع.

ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً سأله: متى الساعة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ. (البخاري: ٥٩).

ومن معاني الأمانة: أن يحرص الإنسان على أداء واجبه كاملاً في العمل الذي يُناط به وأن يستنفد جهده في تكميله وتحسينه وأن يفي بجميع ما اتفقا عليه عملاً ووقتًا، ومن ثم فالموظفون أمانتهم في وظائفهم أن يقوموا بها على الوجه المطلوب، وألا يتأخروا في أعمالهم أو يتشاغلوا بغيرهم إذا حضروا مكان العمل، وألا يتعدوا في أمر لا يعينهم، فإن «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». (الترمذي: ٢٣١٨).

إن بعض الموظفين يخدعون أنفسهم حينما يحسبون أن التقصير في أداء واجبهم ليس جُرْمًا وبأن هذه الأنظمة ليست أمورًا دينية أو أن الأجرة أو الراتب الذي يأخذه من بيت المال لا يكافئ العمل

ونحو ذلك، وهذه خدعة يغترون بها، فإن الراتب الذي يأخذه من بيت المال إنما تستحقه في مقابلة عمل فإن قمت بالعمل كان الراتب حلالاً لك، وإلا فما الذي يحلله لك ويحرمه على الآخرين الذي ليسوا في وظيفة؟

فاتق الله أيها المسلم وقم بما يلزمك نحو وظيفتك طاعة لله وإتقانًا للعمل وإبراء للذمة وتحليلاً لراتب وظيفتك. (الضياء اللامع ص٦٠٦ للشيخ ابن عثيمين).

وإن من واجب الأمانة في الوظيفة ألا تقدم معاملة أحد على أحد أولى منه لأنه قريبك أو صديقك أو أهدى إليك هدية أو دفع إليك رشوة أو ترجو منه أن يسهل لك مهمة أخرى من قبله.

ومن الأمانة: ألا يستغل الإنسان منصبه الذي عُين فيه لجر منفعة له أو إلى قريبه.

ومن معاني الأمانة: حفظ الأسرار التي لا يرضى أهلها أن تذاع، فكم من أضرار على الأبدان والأموال والأعراض حصلت بإفشاء الأسرار.

ومما يتعين كتمه وستره ما يجري بين الرجل وامرأته مما يُفضي به أحدهما إلى الآخر فإن التحدث به خيانة لهذه الأمانة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة: الرجل يُفضي إلى المرأة، وتفضي إليه، ثم ينشر سرَّها». (مسلم: ١٤٣٧).

وعن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجال والنساء قعودٌ عنده، فقال: «لعل رجلاً يقول ما فعل بأهله ولعل امرأة تُخبر بما فعلت مع زوجها فأرَمَّ القوم- أي سكتوا وجلين- فقلت: أي والله يا رسول الله، إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن، قال: «فلا تفعلوا فإنما مثل ذلك شيطان لقي شيطانة فغشيها والناس ينظرون». (أبو داود: ١/٣٣٩).

فإلى الله المشتكى مما يحدث بين الموظفين والموظفات، فإن أفواههم لا تُفض من الكلام في هذه الأمور قتلاً للوقت وإذهابًا للملل.

وكذلك الكيل والوزن أمانة إن أداه على الوجه المطلوب بلا بخس ولا غش فقد حفظها وأداها، وإن بخس أو غش أو دلس فقد خان أمانته.

وكذلك أولادك أمانة عندك إن أحسنت فيهم وربيتهم تربية صالحة ووجهتهم توجيهًا حسنًا لا سيما في الوقت الذي تكثر فيه الفتن وتشتد فيه المنكرات، فإن الأمانة تحتم عليهم الرقابة أكثر مما إذا خفت الفتن وقلت المنكرات ألسنا في أموالنا إذا كثرت السرقة وكثرت الخيانة نتحفظ فيها أكثر ونطلب لها المكان الأحرز؟ فكذلك يجب علينا في أولادنا بل ملاحظة أولادنا أوجب علينا من ملاحظة المال لما في إهمالهم من الخطر علينا وعلى أنفسهم وعلى الأجيال المقبلة كلها إن أولادنا وليس أموالنا هم الذين يصحبوننا في الجنة إذا تبعونا في الإيمان، قال الله تعالى: «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ» (الطور: ٢١).

إن كل واحد من الناس لا يرضى أن يكون منعمًا في الجنة وأولاده معذبين في النار، إننا نجزم أن الشخص لو رأى النار في الدنيا تأكل ولده أو قريبه لسعى بكل جهده في دفعها عنه، أفلا يعقل ويقيس كيف يرى ولده يسعى في المعاصي التي هي أسباب دخول النار ثم لا يبالي بذلك مع أن إهماله يوجب أن يعذب عليه لأنه عاص لله. (الضياء اللامع للشيخ ابن عثيمين ص٦٠٧).

قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» (التحريم: ٦).

وكذلك العلم أمانة في عنق العالم يسأله عنه يوم القيامة، إذا لم ينشره بين الناس وينور به قلوبهم يكونُ خائنًا لأمانته وغاشًا لإخوانه، قال الله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ» (البقرة: ١٥٩).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبد حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه». (الترمذي: ٢٤١٩، وصحيح الجامع: ٧١٧٧).

ومن الأمانة في العلم أنك إذا سئلت عن مسألة خافيًا عليك حكمها أن تقول: لا أدري غير مستنكف ولا مبال بما يكون لها من أثر عند السائلين والمستمعين، ولأن يُقال سُئل فقال لا أدري

خيرٌ من أن يقال سئل فأجاب خطأ. وقديمًا قيل:

ومن كان يَهْوي أن يُرى متصدرًا
ويكره لا «أدري» أُصيبت مقاتلُهُ

والاختبارات أمانة حين المراقبة فعلى المراقب أن يراعي تلك الأمانة التي ائتمنته عليها إدارة المدرسة ومن ورائها وزارة أو رئاسة، وفوق ذلك دولة بل ائتمنه عليها المجتمع كله، فعلى المراقب أن يكون مستعينًا بالله يقظًا في رقابته مستعملاً حواسه السمعية والبصرية والفكرية، يسمع وينظر ويستنتج من الملامح والإشارات، على المراقب أن يكون قويًا لا تأخذه في الله لومة لائم يمنع أي طالب من الغش أو محاولة الغش لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من غش فليس منا». (صحيح الجامع: ٦٢٨٢).

وتمكين الطالب من الغش ظلم لزملائه الحريصين على العلم المجدين في طلبه الذين يرون من العيب أن ينالوا درجة النجاح بالطرق الملتوية، إن المراقب إذا مكن أحدًا من هؤلاء المهملين الفاشلين في دراستهم إذا مكنهم من الغش فأخذ درجة نجاح يتقدم بها على الحريصين المجدين، كان ذلك ظلمًا لهم وكان كذلك ظلمًا للطالب الغاش وهو في الحقيقة مغشوش حيث انخدع بدرجة نجاح وهمية لم يحصل بها على ثقافة ولا علم، ليس له من ثقافته ولا علمه سوى بطاقة يحمل بها شهادة زيف لا حقيقة وإذا بحثت معه في أدنى مسألة مما تنبئ عنه هذه البطاقة لم تحصل منه على علم، إن تمكين الطالب من الغش خيانة لإدارة المدرسة وللوزارة التي من ورائها وخيانة للدولة وخيانة للمجتمع كله.

وإن تمكين الطالب من الغش أو تلقينه الجواب بتصريح أو تلميح ظلم للمجتمع وهضم لحقه حيث تكون ثقافته مهلهلة يظهر فشلها عند دخول ميادين السبق ويبقى مجتمعنا دائمًا في تأخر وفي حاجة إلى الغير وذلك لأن كل من نجح عن طريق الغش لا يمكن- إذا رجع الأمر إلى اختياره- أن يدخل مجال التعليم والتثقيف لعلمه أنه فاشل فيه، وإن تمكين الطالب من الغش كما يكون خيانة وظلمًا من الناحية العلمية والتقديرية يكون كذلك خيانة وظلمًا من الناحية التربوية لأن الطالب بممارسته الغش يكون مستسيغًا له هينًا في نفسه فيتربى عليه ويربي عليه أجيال المستقبل، «ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». (صحيح الجامع: ٦١٨١، ومسلم: ١٠١٧).

وكما يقال: «فاقد الشيء لا يعطيه»، إن على المراقب ألا يراعي شريفًا لشرفه ولا قريبًا لقربته ولا غنيًا لماله، إن عليه أن يراقب الله عز وجل الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

عليه أن يؤدي الأمانة كما تحملها لأنه مسئول عنها يوم القيامة ولربما قال مراقب إذا أديت واجب المراقبة إلى جنب من يضيع ذلك فقد أرى بعض المضايقات فجوابنا عليه أن نقول: اتق الله تعالى فيما وليت عليه واقرأ بقول الله تعالى: «وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا» (الطلاق:٢).

وقوله: «وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا» (الطلاق:٤).

وقوله: «فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» (هود:٤٩).

ومما يتعلق بأمانة الاختبارات التصحيح فإن المعلم الذي يقدر درجات أجوبة الطلبة ويقدر درجات سلوكهم هو حاكم بينهم لأن أجوبتهم بين يديه بمنزلة حجج الخصوم بين يدي القاضي فإذا أعطى طالبًا درجات أكثر مما يستحق فمعناه أنه حكم له بالفضل على غيره مع قصوره وهذا جور في الحكم وإذا كان لا يرضى أن يقدم على ولده من هو دونه فكيف يرضى لنفسه أن يقدم أولاد الناس من هو دونهم، وهذا كله خلاف العدل الذي أمر الله به ورسوله فإقامة العدل واجبة بكل حال على من تجب ومن لا تجب، فمن استحق شيئًا وجب إعطاؤه إياه، ومن لا يستحق شيئًا وجب حرمانه منه. (الضياء اللامع للشيخ ابن عثيمين ص٦٠٦).

وبالتالي فما من إنسان منا إلا وعمله أمانة لله في عنقه، فالشعب أمانة في يد الولاة للأمور، والدين أمانة في يد العلماء وطلبة العلم، والعدل أمانة في يد القضاة، والحق أمانة في يد المجاهدين، والصدق أمانة في يد الشهود، والمرضى أمانة في يد الأطباء، والتلميذ أمانة في يد الأستاذ، والولد أمانة في يد أبيه، والوطن أمانة في يد المجتمع، وهكذا باقي الأمانات.

فالأمانة سبيل السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحاج موسم رحمة وسلام

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ:

فإن الحج موسم رحمة وسلام، والمسلم حين ينوي الحج، ويُحرِمُ به، يحرم عليه الرفث، والفسوق، والجدال، ومقدمات ذلك، ودواعيه، فقد قال الله تعالى: «ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ » (البقرة:١٩٧).

والمعنى: أنه من أوجب الحج على نفسه خلال هذه الشهور بأن تلبس به، وألزمه نفسه، فليصنه من الرفث والفسوق الذي هو الخروج عن حدود الشرع بفعل أي محظور يخل بإحرامه، ومن الفسوق الخصومات والفحش واللجاجة بمفهوم النص على ترك الجدال بقوله سبحانه: «وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ » (البقرة:١٩٧). والحكمة في النهي عن هذه الأشياء هي تعظيم حرمات الله، قال الله تعالى: « ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ » (الحج:٣٢).

فالحج مدرسة تربوية جامعة يحصل به تهذيبٌ للنفوس وتزكية لها وقرب من الله عز وجل، فإن الحاج حين يصل إلى بيت الله الحرام يجد نفسه وسط جمع غفير من المسلمين أتوا من كل فج عميق يؤدون مناسكهم، ومن حق بعضهم على بعض أن يجد كل منهم الأمن، والراحة، والهدوء، والسكينة، فالمكان هو أقدس الأماكن في الإسلام، والزمان ليس زمن خصام أو جدال، فيجب على الحاج التحلي بالأخلاق الإسلامية العالية، والآداب الشرعية الرفيعة، والتخلي عن كل ما يخالف الخلق والأدب مع الله سبحانه أو مع عباد الله، والحذر من إيذاء المسلمين بالقول أو الفعل.

إن الحج مدرسة لتعليم الأخلاق الكريمة، والسجايا الحميدة، والشمائل النبيلة، والمثل العليا، من الصبر والتحمل، والتعاون والإيثار، بعيدًا عن العنف والشدة، والمزاحمة والإيذاء، ولا يكون ذلك إلا باستشعار عظمة هذه الفريضة العظيمة، واستشعار قول الرسول صلى الله عليه وسلم: « فَإِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ تَؤُمُّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ لا تَضَعُ نَاقَتُكَ خُفًّا وَلا تَرْفَعُهُ إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَكَ بِهِ حَسَنَةً، وَمَحَى عَنْكَ خَطِيئَةً، وَأَمَّا رَكْعَتَاكَ بَعْدَ الطَّوَافِ كَعَتْقِ رَقَبَةٍ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ بَعْدَ ذَلِكَ كَعَتْقِ سَبْعِينَ رَقَبَةً، وَأَمَّا وُقُوفُكَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَهْبِطُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُبَاهِي بِكُمُ الْمَلائِكَةَ، يَقُولُ: عِبَادِي جَاءُونِي شُعْثًا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ يَرْجُونَ جَنَّتِي، فَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُكُمْ كَعَدَدِ الرَّمْلِ، أَوْ كَقَطْرِ الْمَطَرِ، أَوْ كَزَبَدِ الْبَحْرِ لَغَفَرْتُهَا، أَوْ لَغَفَرْتُهَا، أَفِيضُوا عِبَادِي مَغْفُورًا لَكُمْ وَلِمَنْ شَفَعْتُمْ لَهُ وَأَمَّا

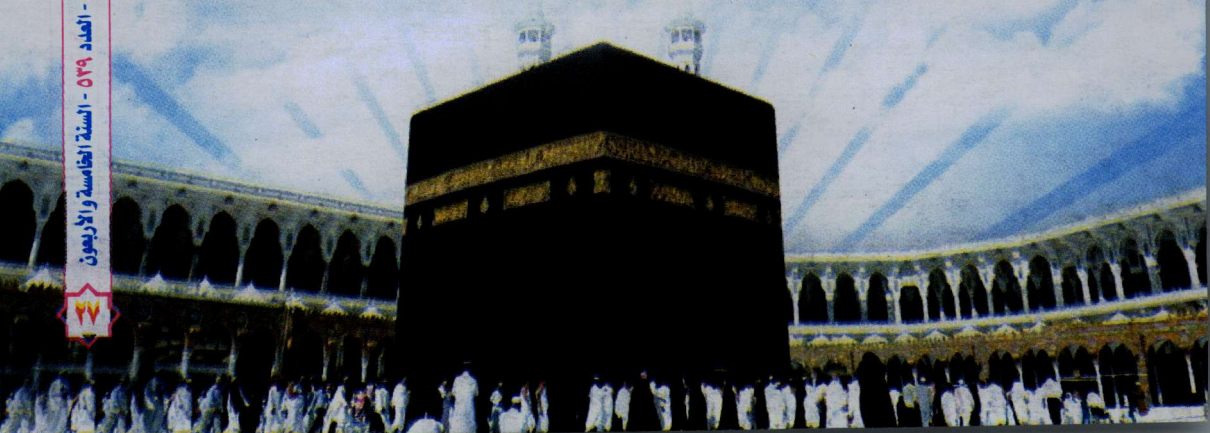

رَمْيُكَ الْجِمَارَ، فَلَكَ بِكُلِّ حَصَاةٍ رَمَيْتَهَا كَبِيرَةٌ مِنَ الْمُوبِقَاتِ، وَأَمَّا نَحْرُكَ فَمَذْخُورٌ لَكَ عِنْدَ رَبِّكَ، وَأَمَّا حِلَاقُكَ رَأْسَكَ فَلَكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ حَلَقْتَهَا حَسَنَةٌ، وَيُمْحَى عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ، وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالْبَيْتِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ تَطُوفُ وَلَا ذَنْبَ لَكَ، يَأْتِي مَلَكٌ حَتَّى يَضَعَ يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْكَ فَيَقُولُ: اعْمَلْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ، فَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى». (صحيح الترغيب: ١١١٢).

فإذا استشعر الحاج هذا الحديث وما فيه من منح من الله عظيمة، وعطايا كبيرة، فلا تراه إلا ملبيًا أو ذاكرًا، أو داعيًا، وإلا فما يصنع من يؤمُّ بيت الله الحرام إذا لم يكن فيه ورع يحجزه عما حرَّم الله، وحلمٌ يضبط به جهله، وحسن صحبة لمن يصحب. وقد توعد الله تعالى كلَّ من يريد اعوجاجًا عن النهج المستقيم.

فقال تعالى: «وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» (الحج:٢٥)، فرتب الله سبحانه وتعالى العقاب على الهمِّ والإرادة بالسيئة، وإن لم تفعل، فكيف بمن يريد ويفعل؟ لا ريب أن الأمر أشدُّ وأنكى.

إنَّ في هذا التعبير البليغ زيادة في التحذير، ومبالغة في التوكيد، ولقد ضرب السلف الصالح- رضوان الله عليهم- أروع الأمثلة في الأدب مع حرم الله.

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «كنا نعدُّ: لا والله، وبلى والله، من الإلحاد في الحرم». وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: «لأن أُخطئ سبعين خطيئة بـ (رُكبة) أحبُّ إليَّ من أن أخطئ خطيئة واحدة في الحرم». معنى: «ركبة» اسم موضع بالحجاز بين غمرة وذات عرق. وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان له فسطاطان: أحدهما في طرف الحرم، والآخر في طرف الحِلّ، فإذا أراد أن يعاتب أهله أو غلامه فعل ذلك في الفسطاط الذي ليس في الحرم، يرى أن مثل ذلك يدخل في الإلحاد فيه بظلم، فتأمل أخي الحاج فعل ابن عمر رضي الله عنهما، يتحرز من أن يعاتب أهله أو غلامه داخل حدود الحرم خشية أن يقع في الإلحاد.

ولقد كان الرجل في الجاهلية يلقى قاتل أبيه أو أخيه في البلد الحرام، فلا يعرض له.

فالمسلمون إذن هم أولى وأحق بأن يكرموا بيت الله. فيا وفد الرحمن: عليكم بالتحلي بمكارم الأخلاق، فالرفقُ والحلم، والأناة، خلال حثَّ عليها الإسلام، لما لها من آثار عظيمة، على الفرد والمجتمع والأمة.

يقول صلى الله عليه وسلم: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه». (البخاري: ٦٠٢٤، ٦٩٢٧).

يا وفد الرحمن: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدبروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث». متفق عليه.

يا وفد الرحمن: من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحبُّ أن يؤتى إليه. (مسلم: ١٨٤٤).

يا وفد الرحمن: الإيثار الإيثار: فقد أثنى الله على الأنصار، فقال الله تعالى: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (الحشر:٩).

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يكتب لنا ولكل متشوق حج بيته العتيق، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

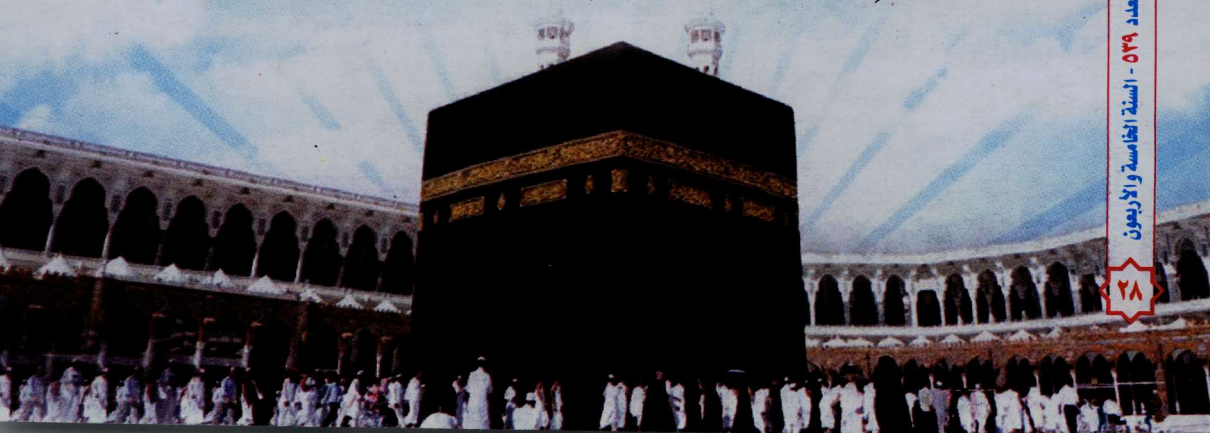

الوقاية خيرٌ من العلاج

اعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. أما بعدُ:

فلقد حرم الله تعالى الاقتراب من الفواحش التي توصل للزنا، فإنَّ الزّنا عارٌ كبير، يهدمُ البيوتَ الرفيعة، ويُطأطئ الرؤوس العالية، ويسوِّدُ الوجوه البيض، ويصبغُ بأسودَ من القار أنصع العمائم بياضًا ويخرسُ الألسنة البليغة، ويهوي بأطول الناس أعناقًا وأسماهم مقامًا، وأعرقهم قدرًا إلى هاوية من الذل والازدراء والحقارة ليس لها من قرار. فضلاً عن أنَّ الزنا إذا شاع في قوم جلب لهم سخط الله وغضبه وعقابه، وكان سببًا في انتشار الأسقام والأوجاع التي لم تكن فيمن قبلهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ظهر الزنا والربا في قوم فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله». (صحيح الترغيب: ٦٩٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «يا معشر المهاجرين: خمسٌ إذا ابتُليتم بهن، وأعوذ بالله أن تُدركوهنَّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضتْ في أسلافهم الذين مضوا». (صحيح الجامع: ٧٩٧٨).

كما أخبر صلى الله عليه وسلم إن ظهور الزنا من أمارات خراب العالم، وهو من أشراط الساعة. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لأحدثنكم حديثًا لا يُحدثكم أحد بعدي، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، ويقل الرجال، وتكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد». (البخاري: ٥٢٣١، ومسلم ٢٦٧١).

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد، كانت عقوبته في الدنيا أقسى العقوبات، قال الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور:٢)، وأما في الآخرة مضاعفة العذاب.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ (الفرقان:٦٨، ٦٩)، أما إذا كان سبق له زواج وزنى فعقوبته أشدّ فهو حلال الدم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة». (البخاري ٦٤٨٤، ومسلم ١٦٧٦).

إنَّ جريمة تؤدي إلى القتل لجريمة بالغة تعبر عن كون مرتكبها غير صالح للبقاء في المجتمع فهو جرثومة فاسدة

يجب القضاء عليها حتى لا تفسد المجتمع كله.

ومن صور عذاب الزناة ما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم وفيه: «فانطلقنا فأتينا على مثل التنُّور فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عُراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهبُ ضوْضَوُا. فقلت لهما: من هؤلاء؟ فقال: هم الزناة والزواني». (البخاري: ١٣٨٦). معنى: ضَوْضَوُا: أي: صاحوا. والتنور: الفرن.

بالإضافة إلى هذه العقوبات فإن الزنا فيه مفاسد عظيمة يفسد القلب والفكر، ويوجب الذل والعار، ويضيع النسك، ويخلط الأنساب، وينشر الأمراض التناسلية فهو فساد في الدين والدنيا والفرد والمجتمع، ويوجب الفقر، ويكسو صاحبه سوادُ الوجه وثوبُ المقت بين الناس، فلعظم هذه الجريمة وخطرها على الفرد والمجتمع، بل على الأمة كلها. حذر الله تعالى من قربها. قال الله تعالى: « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا » (الإسراء:٣٢)، والقول الكريم: «وَلَا تَقْرَبُوا» آكد- لا شك- وأبلغ في الدلالة من «ولا تزنوا» لما يحمل من تحذير حاسم من الاقتران من منطقة هي في الأمور الحسية منطقة خطر مواد مشتعلة «ممنوع الاقتراب». وقد عالج الدِّين هذه الجريمة المنكرة بالعلاج الناجع وقاية من الوقوع فيه فقطع كل سبب يوصل إليه وسد كل نافذة تطلب عليه.

فأمر الله تعالى بغض البصر، قال تعالى: « قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ » (النور: ٣٠- ٣١).

وفي تقديم الأمر بغض البصر على الأمر بحفظ الفروج إشارةٌ إلى أنَّ غضَّ البصر من أسباب حفظ الفروج، وعدم الغضِّ من أسباب عدم حفظ الفروج. وقد بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحذير من النظرة حتى عدها من الزنى.

وحرَّم على المرأة أن تسافر وحدها من غير محرم يحرسها ويحميها ويغار عليها ويدافع عنها، وكان ذلك العمل علامة الإيمان الكامل واليقين الصادق. وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لامرأة أن تسافر إلا ومعها ذو محرم منها». (صحيح الجامع: ٧٦٤٦). كذلك حرَّم على الرجال خلوتهم بالنساء وحرَّم على النساء خلوتهن بالرجال. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم». (البخاري: ٥٢٢٣، ومسلم: ١٣٤١).

وكذلك حرَّم دخول الرجال على النساء الأجنبيات. عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم والدخول على النساء». فقال رجلٌ من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت». (البخاري: ٥٢٣٢، ومسلم: ٢١٧٢). كذلك حرَّم التبرج.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات رؤوسهنَّ كأسنمة البخت المائلة لا يدخلنَّ الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا». (مسلم: ٢١٢٨).

كذلك حرَّم على المرأة أن تتعطر وتمر على الرجال الأجانب.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا». يعني: زانية. (البخاري: ٤/٧٢/١٨٦٢، ومسلم: ٩٧٨/١٣٤١).

وكذلك أوجب الاستئذان عند دخول البيت حفظًا للحرمات ومنعًا من الاطلاع على العورات، قال الله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » (النور: ٢٧- ٢٨).

وحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مصافحة المرأة الأجنبية. عن معقل بن يسار رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «لأن يُطعن في رأس أحدكم بمِخيطٍ من حديد خيرٌ له من أن يمس امرأة لا تحل له». (صحيح الجامع: ٥٠٤٥).

بهذا المنهج الذي رسمناه على عجل، نستطيع أن نضيِّق منافذ هذه الجريمة، ونقضي على هذا الداء، ويعيش الناس حياة الطهر والنقاء. فقد قيل الوقاية خير من العلاج.

والله وحده الهادي إلى سواء السبيل.

وباء المخدرات.. فهل أنتم منتهون؟

عبده أحمد الأقرع

الحمد لله الذي أباح لنا جميع الطيبات وحرم علينا الخبائث المضرات، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين الذي وصفه ربه، فقال: «وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ» (الأعراف:١٥٧). وبعدُ:

فمن المشاهد في واقعنا الاجتماعي الأليم أن ظاهرة المخدرات هي الأكثر انتشارًا، والأوسع تناولاً من آية ظاهرة أخرى، فحيثما قلَّب الإنسان النظر يجد هذه العادة الذميمة متفشية في ربوع المجتمع على اختلاف المستويات، وفي كافة الطبقات صغارًا وكبارًا، شيبًا وشبانًا.

لقد فشت هذه الجريمة في المجتمعات فشوًّا رهيبًا، وبلغت مبلغًا عظيمًا، وحطمت الأرقام القياسية والإحصاءات المذهلة من المدمنين، وتطالعنا الإحصاءات أن نصف شباب المجتمع في بعض البلاد يتعاطون الخمور والمخدرات، فإذا كان الأمر كذلك، لا يسع مسلمًا التغاضي عنه والسكوت عليه، وكيف يسكت المسلمون وهم يقادون عن طريق هذا الوباء إلى هوة سحيقة، لا يعلم مداها إلا الله؟!

أسباب تفشي هذا الوباء

ومن أسباب تفشي هذه الجريمة: ضعف الوازع الديني، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن». (متفق عليه).

ومنها: تجاهل الوعيد الذي جاء في كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لمن شربها.

منها قول الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ» (المائدة: ٩٠-٩١)، وقد دلت هذه الآية على تحريم الخمر من وجوه: من تسميتها رجسًا وقد سُمي به ما أجمع على تحريمه وهو لحم الخنزير.

ومن كونها من عمل الشيطان، لأن كل ما كان من عمل الشيطان حرم تناوله، ومن الأمر بالاجتناب، وهو للوجوب، وما وجب اجتنابه حرم تناوله، ومن الفلاح المترتب على الاجتناب فمن لم يجتنبها لم يفلح، ومن كونها سببًا للعداوة والبغضاء، وتعاطي ما يوقع ذلك حرام.

ومن كونها تصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، والله تعالى يقول: «إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ» (المائدة:٩١).

ومن ختم الآية بهذا الاستفهام: «فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ» (المائدة:٩١)، فإنه للزجر والردع، ولذلك قالوا: انتهينا، انتهينا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى حرم الخمر، فمن أدركته هذه الآية، وعنده منها شيء، فلا يشرب ولا يبيع». (مسلم: ٣٩/٥)، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخمر أيما تحذير، فقال صلى الله عليه وسلم: «مدمن الخمر كعابد وثن». (صحيح ابن ماجه: ٢٧٢).

وبيَّن صلى الله عليه وسلم أن الجنة حرام على مدمن الخمر، قال صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة مدمن خمر». (صحيح الجامع: ٧٥٥٠)، كما بين صلى الله عليه وسلم أن من مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية، قال صلى الله

عليه وسلم: «الخمر أم الخبائث، فمن شربها لم تقبل صلاته أربعين يومًا، فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية». (صحيح الجامع: ٣٣٣٩).

كما بيَّن صلى الله عليه وسلم أنها من أكبر الكبائر، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الخمر أم الفواحش، وأكبر الكبائر، من شربها وقع على أمه، وخالته، وعمته». (صحيح الجامع: ٣٣٤٠).

كما حذَّر صلى الله عليه وسلم شارب الخمر من الخسف والمسخ، قال صلى الله عليه وسلم: «ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، ويضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم قردة وخنازير». (صحيح الجامع: ٥٣٣٠).

كما بيَّن صلى الله عليه وسلم أن شارب الخمر ملعون- مطرود من رحمة الله-. قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومشتريها، وآكل ثمنها». (صحيح الجامع: ١٧٩٨).

كما بيَّن صلى الله عليه وسلم أن شرب الخمر أمارة من أمارات الساعة، قال صلى الله عليه وسلم: «إن من أشراط الساعة: أن يُرفع العلم، ويظهر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر ويقل الرجال، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيِّم الواحد». (مسلم: ٢٦٧١).

كما بيَّن صلى الله عليه وسلم أن من شرب الخمر في الدنيا ولم يتب حُرم من خمر الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: «من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حُرمها في الآخرة». (صحيح الجامع: ٦١٨٦).

وسيكرم الله أهل الجنة بخمر لذة للشاربين، قال الله تعالى: «مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ» (محمد: ١٥).

وقال تعالى عن أهل الجنة: «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ» (الواقعة: ١٧- ١٩)، وقال تعالى: «يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ» (الصافات: ٤٥- ٤٦).

فالمحروم الذي يُحرم هذه الخمر اللذيذة بسبب شربه لخمرٍ عفنة نتنة تذهب العقل الذي هو من أشرف هِبات الله للإنسان فكان جزاؤه أن يشرب شر شراب في الآخرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن على الله عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال». قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «عرق أهل النار، أو عصارة أهل النار». (مسلم: ٢٠٠٢).

وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: « لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب فيها طائفة من أمتي الخمر؛ يُسمُّونها بغير اسمها". (صحيح ابن ماجه: ٢٧٢٩)، وقال صلى الله عليه وسلم: «كل مسكر حرام، وما أسكر كثيره فقليله حرام». (صحيح ابن ماجه: ٢٧٣٦).

وعن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتّر. (فتح الباري: ١٠/٤٤).

وهنا يتبين أن الحشيش، والأفيون، والكوكايين، والبانجو، وغير ذلك مما هو معروف من المسكرات، كل ذلك والخمر سواء، لاشتراكها في علة التحريم، وهي إذهاب العقل مع النشوة، فأمرُ هذا جزاء متعاطيه عند الله، كيف تطيبُ نفس عاقل- فضلاً عن مسلم- بتناوله، بل بوجوده في مجتمعات المسلمين؟

إنه لعجيبٌ حالُ من يسمع عن هذه الآفات ويعلم أحوال من يتعاطى المسكرات والمخدرات، وما يقعون فيه من القبائح التي هي مسخٌ للدين والعقل والصحة، وما صار إليه أهلها من أخس حالة، وأقذر صفة وأفظع مصاب، ثم لا يستجيبون لخطاب، ولا يميلون إلى صواب.

ولقد أثبتت الدراساتُ أنه كلما زادت ظاهرةُ استعمال المخدرات في مجتمع من المجتمعات، ارتفعت معدلات أخطر الجرائم الأمنية والأخلاقية، فهل من تكاتف من الجميع للقضاء على هذا الشر المستطير؟ فإن قال قائل: كيف الخلاص من هذا الوباء؟

قلت: هذا الذي سنعرفه- إن شاء الله- في العدد القادم.

ظاهرة المخدرات .. فهل أنتم منتهون؟!

الحلقة الثانية

الحمد لله «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» (غافر:٣)، وأصلي وأسلم على نبي الرحمة الداعي لكل خير، الناهي عن كل شر، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فقد تحدثنا في العدد الماضي عن آفة تنذر بفناء المجتمعات، هي أم الخبائث ورأس الشرور، وكبيرة من كبائر الذنوب، متعاطيها معرضٌ نفسه لوعيد الله، ولعنته وغضبه، ألا وهي المخدرات، ووعدنا أنه بحول الله وقوته نتحدث في هذا العدد عن كيفية الخلاص من هذا الوباء. فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

أولاً: قد عرفت أخي أن كل مسكر حرام، وقد سقت لك الأدلة من الكتاب والسنة فالواجب عليك أن تستجيب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: «اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ» (الشورى:٤٧)، وشهد سبحانه للذين استجابوا بالإيمان ووعدهم بالزيادة من فضله، قال الله تعالى: «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ» (الشورى:٢٦)، وقال تعالى: «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ» (النساء: ١٣- ١٤)، فليكن شعارك: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (البقر:٢٨٥)، وردد قول الله سبحانه على سمعك: «فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ» (المائدة:٩١)، فتسارع وتقول: انتهينا، انتهينا.

وهذه أول بشارة تدل عن صدق التوبة فقد قال الله تعالى: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» (النساء:١٧)، هذا وإن لمحبة الله لعبده آثارًا يغبط عليها المحبون، منها: أن يلقى الله محبة حبيبه في قلوب عباده، قال الله تعالى لكليمه موسى عليه السلام: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي» (طه:٣٩)، وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا» (مريم:٩٦)، أي: محبة في قلوب العباد، ومنها: فرح الله بتوبتك، قال صلى الله عليه وسلم: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح». (مسلم: ٢٦٧٥).

ثانيًا: أن تتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه». (صحيح الجامع: ٧٢٩٩).

فتذكر أخي قول الله تعالى: «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ» (الحاقة:١٨). وتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه؛ فاتقوا النار بشق تمرة». (متفق عليه).

فتمثل نفسك- أخي- وأنت واقف بين يدي الله تعالى وقد سألك عن مالك، من أين اكتسبته وفيم أنفقته، ماذا أنت قائل لربك وقد أنفقته في الحرام؟ وتمثل نفسك وأنت مائل بين يدي الله سبحانه وقد سألك عن جسمك فيم أبليته؟ وقد ثبت ضرر تعاطي المخدرات

بالصحة، ومن ذلك أن جملة من الأطباء المعتبرين من الحذاق قرروا أنها تحدث داء السرطان الرئوي، ولو لم يكن فيه إلا هذه المضرة الواحدة لكان الجدير بالعاقل اللبيب الذي يحافظ على صحته وحياته أن يجتنبها، بل أثبتت الدراسات أن شرب المخدرات له تأثير مباشر على خلايا المخ فيفسد العقل الذي هو الجوهرة التي دون قدرها الأثمان بل الدنيا بأسرها لا قيمة لها بجانب هذا العقل العظيم الشأن، ومتى غاب عقل المدمن نسي ربه، فترك الصلاة، وقد يقتل، وقد يزني ويقع على محارمه، بل قد يسب الدين، عياذاً بالله.

فشارب المخدرات مفسد لدينه وبدنه، جانٍ على نفسه وأسرته ومجتمعه، عابثٌ بكرامته، وجوهر إنسانيته، ساعٍ إلى الإثم والعدوان، معرض لإتلاف المخ، وتدمير المراكز العصبية لدى الإنسان، فيصبح شخصًا معتلاً، شبحًا مخيفًا، مشوش التفكير، قلقًا غير متوازن، وتقل قواه العقلية فيهذي بما لا يدري، ويُصاب بالهلوسة والهستريا فتسوءُ علاقته مع أسرته ومجتمعه، وتراه في الغالب إما سجينًا أو محجوزًا بإحدى المستشفيات النفسية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فليحكم الإنسان عقله ولينظر في مصلحته ولحفظ صحته وليتدبر إرشادات ربه أرحم الراحمين القائل: «وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا» (النساء: ٢٩- ٣٠).

ثالثًا: كثيرًا ما يسيرُ الإنسان في الطريق الذي لا يهواه نزولاً على رغبة صاحبه، والدليل من الواقع أنه لو صاحب رجل غير مدمن رجالاً مدخنين مثلاً- لرأيته بعد أيام قليلة من جملتهم، ولنا في ذلك إطلالتان على أهل الجنة وأهل النار، قال الله تعالى عن أهل الجنة: « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ» (الصافات: ٥٠- ٥٧)، وهكذا نجى الله ذلك المؤمن من كيد قرينه، وربط الله على قلبه، «والله يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً، وذلك المؤمن مثال لمن يعصمهم الله عز وجل بفضله.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي». (صحيح الجامع: ٧٣٤١).

لا تصاحب إلا من إذا ذكرت الله أعانك، وإذا نسيت ذكرك، فيتعين على طالب التغير- وهو في بداية الطريق- أن يقطع علاقاته بأهل الفساد والغواية، لأنه إن استمر معهم لم يكن صادقًا في توجهه نحو التغير، وحتى إن لم يشاركهم في منكرهم شاركهم في الإثم بالجلوس معهم، قال الله تعالى: « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ» (النساء: ١٤٠)، وأيضا الاستمرار في مخالطة أهل الشر والفساد يؤدي إلى الانتكاس والعودة إلى الماضي السيئ، وكم من شاب انتكس بسبب حنينه إلى صحبته القديمة.

رابعًا: سؤال الله الهداية: قال الله تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم». (مسلم: ١٨٢٨).

والمعنى: «فاستهدوني» اطلبوا مني الهداية، وذلك شامل للهدايتين التوفيق والدلالة، وهداية الدلالة تكون باتباع الوسائل التي جعلها الله عز وجل سببًا للعلم، وقوله: «أهدكم» يعني: أوصلكم وأدلكم على طريق الفلاح.

خامسًا: أن تسأل الله الثبات: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». (صحيح الجامع: ٧٩٨٧). وتصبر وتصابر فإن عملية التغيير ليست بالأمر اليسير، فإنها ميلاد جديد وحياة بعد موت وسعادة بعد تعاسة وعز بعد ذل، عز الطاعة بعد ذل المعصية، وفرح بعد ترح، « قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » (يونس: ٥٨).

وأخيرًا: وإنني أناشد كل مسئول أن يتحمل مسئوليته تجاه دينه ومجتمعه وبلاده، وأن يكون عينًا ساهرة على جلب المصالح المجتمعة، ودرء المفاسد عن بلاده، وذلك بالقضاء على هذا الوباء العضال، كما أن على وسائل الإعلام- مرئيها ومسموعها ومقروئها النصيب الأكبر من تبصير الأجيال بخطورة المخدرة كما سبق وحسبهم قوله صلى الله عليه وسلم: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خيرًا لك من حُمر النعم». (متفق عليه).

والله الهادي إلى سواء السبيل.

إعلان الله الحرب على المرابين

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وشرع لنا أكمل الشرائع وأفضل الأحكام، وأبان لنا الحلال والحرام، وجعل في الحلال غنية عن الحرام، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعدُ:

فلقد جاء الإسلام دينًا كاملاً، ونظامًا شاملاً، عمَّ بإصلاحه البلاد والعباد، وأمر الإسلام أتباعه أن يسيروا في ذلك على وفق منهج الله، وعلى ضوء سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، مراعاة للمبادئ الإيمانية، والضوابط الأخلاقية، والمعاملات الشرعية، كل ذلك في حدود الحلال الطيب الذي يرعى الحقوق، ويصون المصالح، ويدرأ الأضرار والمفاسد، ويحفظ الدماء والأعراض والأموال، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته العظيمة يوم عرفة: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ؛ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا». (مسلم: ١٢١٨). ومع هذه الوصية النبوية فقد فشت وزادت في أيامنا كثير من المعاملات الربوية، والرِّبا من كبائر الذنوب، محرمٌ في جميع الشرائع السماوية، قال الله تعالى: « فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ » (النساء:١٦٠-١٦١).

ما ظهر الربا في أمة إلا أهلكها ولا في جماعة إلا دمرها.

وهو في شريعتنا الغراء حرام، ومن موجبات دخول النار، قال الله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ » (آل عمران: ١٣٠- ١٣١)، بل هو من الموبقات، قال صلى الله عليه وسلم: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ». وعد صلى الله عليه وسلم منهن: «وأكل الربا». (البخاري: ٢٧٦٦، ومسلم: ٨٩).

جزاء آكل الربا:

أكلة الربا متوعدون بالوعيد الشديد في الدنيا وفي القبر ويوم العرض أما في الدنيا، فقد قال الله تعالى: « يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ » (البقرة:٢٧٦)، فثروة المرابي إلى محق وزوال، «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا » (النساء:٨٧)، «لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ» (الروم:٦)، فما ظهر الربا في أمة إلا أهلكها، ولا في جماعة إلا دمَّرها، ولا فشا في أمة إلا حلَّ بها الفقر والأمراض، وكم نرى ونسمع من تلف الأموال وزوالها، بغرق، أو حرق، أو نحوهما من العقوبات العاجلة.

وفي القبر: عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ، وَعَلَى وَسَطِ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ،

فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِيْ فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِيْ فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ. فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: الَّذِيْ رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُ الرِّبَا". (البخاري: ٢٠٨٥).

ويوم العرض، يقول الله تعالى: «ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ» (البقرة:٢٧٥).

قال المفسرون: أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقومُ الذي مسَّه الشيطان وصرعه، كُلما قاموا، صُرعُوا، وكلما أرادوا النهوض، سقطوا، فهم كالمجانين والعياذ بالله. (تفسير ابن كثير: ١/٧٠٨).

فضلاً عن الحرب المعلنة من الله القوي على المرابين، «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ» (البقرة: ٢٧٨- ٢٧٩)، وأيُّ حربٍ هذه المعلنة هنا من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم؟ إنها الحربُ المدمرةُ للربا والمرابين، فهي حربٌ على الأعصاب والقلوب، وحربٌ على البركة والرضا، وحربٌ على الصحة والسعادة والطمأنينة، فالمرابي هو الخاسر المهزوم المخزي المحروم المطرود من رحمة الله الرحمن، فقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكلَ الرِّبَا وَمُوكلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ، وَقَالَ: "هُمْ سَوَاءٌ». (متفق عليه).

والربا من أشد المعاصي على الفرد والمجتمع، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله». (صحيح الترغيب: ١٨٥٩).

وآكل الربا مهدَّد أن يُمسخ. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليبيتن أناس من أمتي على أشر وبطر، ولعب ولهو، فيصبحوا قردة وخنازير باستحلالهم المحارم، واتخاذهم القينات، وشربهم الخمر، وأكلهم الربا، ولُبسهم الحرير». (صحيح الترغيب: ١٨٦٤).

هذه بعضُ العقوبات التي توعد الله ورسوله بها آكل الربا، ولا يُنجّي منها إلا التوبة النصوح، ونفض اليدين من هذا الوزر الوبيل إلى غير رجعة، كما قال الله تعالى: «وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ» (البقرة:٢٧٩).

ألا وإن من لطائف القرآن أنه يقرن الترهيب من الربا بالترغيب في الصدقة، فبعد أربع عشرة آية في الترغيب في الصدقة في سورة البقرة تلاها مباشرة الترهيب عن الربا في سبع آيات، وبعد أن قال سبحانه: «يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا» (البقرة:٢٧٦) أعقب مباشرة بقوله: «وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ» (البقرة:٢٧٦)، وبعد قوله سبحانه في سورة آل عمران: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً» (آل عمران:١٣٠)، جاء قوله تعالى: «ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ» (آل عمران:١٣٤)، وفي سورة الروم بعد قوله تعالى: «وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ» (الروم:٣٩)، أعقبه بقوله سبحانه: «وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ» (الروم:٣٩).

فأكد القرآن أن المال يُمحق بالربا أو يزول، وبالصدقة ينمو ويزداد ويُبارك فيه، والله وحده الهادي إلى سواء السبيل.

المال يُمحق بالربا أو يزول وبالصدقات ينمو ويزداد ويبارك فيه

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده؛ نبينا محمد وآله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

أما بعدُ:

فإن من عوامل سرور النفوس وبهجتها، ومن بواعث فرحها وغبطتها، عودة أيام السرور عليها، إنه شهر الصوم الذي ينطلق فيه الصائمون إلى آفاق الضياء والنقاء يجد فيه الصائم ما يمسح عن جبينه وعثاءَ الحياة، وما يمحو الله به الخطايا والسيئات، وما من شهر تكثر فيه نفحاتُ رحمة الله كشهر رمضان، قال صلى الله عليه وسلم: «إذا كان أولُ ليلة من شهر رمضان صُفِّدت الشياطينُ ومردةُ الجن، وغُلقت أبواب النار فلم يُفتح منها بابٌ، وفُتحت أبواب الجنة فلم يُغلق منها بابٌ، وينادي منادٍ كل ليلة: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاءُ من النارِ، وذلك كل ليلة». (صحيح الجامع: ٧٥٩).

فاقصد- أخي الحبيب- باب التوبة النصوح، واطرح جادة العودة، وانتهز هذه الفرصة فربما لا تعود، قال صلى الله عليه وسلم: «رَغِم أنفُ رجلٍ دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له». (صحيح الجامع: ٣٥١٠).

فكم من أُناس كانوا يتمنون إدراك رمضان فلم يدركوه، فقد آتاك الله ما لم يؤت كثيرًا من خلقه، فجد- أخي- في التوبة وسارع إليها كما أمرك الله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣)، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ (الحديد:٢١)، وأجب دعوة الله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ (البقرة:٢٢١)، فإن أجبت دعوة الله، بدَّل الله سيئاتك حسنات، قال الله تعالى بعد ذكر عقوبة عدد من الكبائر كالشرك، والقتل، والزنى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (الفرقان:٧٠).

وإن أجبت دعوة الله؛ كتب الله لك الفلاح. قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ (النور:٣١)، وإن أجبت دعوة الله، كفَّر الله عنك السيئات.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم:٨).

وإن أجبت دعوة الله: متعك متاعًا حسنًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ (هود:٣).

وإن أجبت دعوة الله: أحبك الله؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة:٢٢٢).

وإن أجبت دعوة الله: دعا لك حملة العرش؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (غافر:٧-٩).

وإن أجبت دعوة الملَك فرح الله بتوبتك؛ قال صلى الله عليه وسلم: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ». (مسلم: ٢٧٤٧).

فالذنوب مهما عظمت، فعفو الله أعظمُ، ومن ظن أن ذنبًا لا يتسعُ لعفو الله فقد ظنَّ بربِّه ظنَّ السوءِ؛ فقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة». (صحيح الترمذي: ٣٥٤٠، وصحيح الجامع: ٤٣٣٨).

فبادروا- رحمكم الله تعالى- بالتوبة النصوح قبل فوات الأوان، فالفرصةُ ها هي ذي سانحةٌ، ووسائلُ الهُدى ما تزالُ حاضرةً، وبابُ التوبة ها هو ذا مفتوحٌ، وليس على بابه من يمنع، ولا يحتاجُ من يلجُهُ إلى استئذان، وهي أمنيةٌ لا ينالها إلا الموفقون، فإذا انتهت هذه الحياةُ فلا كرة ولا رجوع، فهيا وأنتم أولاء في دار العمل، وهي فرصةٌ واحدةٌ، فإذا انتهت لا تعودُ.

فيا أيها التاركون لما أوجب الله، المرتكبون ما حرم الله بادروا بالتوبة من الآن، واجعلوا من شهر رمضان نقطة تحول من الشرّ إلى الخير، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن العقوق إلى البر، ومن القطيعة إلى الصلة، ومن الإساءة على الإحسان، ومن البدعة إلى السنة، ومن الكذب إلى الصدق، ومن مساوئ الأخلاق إلى مكارم الأخلاق، ومن أكل الحرام إلى أكل الحلال، ومن الفرقة إلى الاعتصام، ومن التهاجر إلى البدء بالسلام، ومن مجالس الغيبة والبهتان إلى مجلس العلم والقرآن.

وأنت أنت- يا أختاه- فري إلى الله من التبرج والسفور إلى الحشمة والوقار حتى لا تكونن من أهل النار فقد قال عليه الصلاة والسلام: «صنفان من أهل النار لم أرهما بعدُ: قومٌ معهم سياطٌ كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مميلات مائلاتٌ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا». (مختصر مسلم: ١٣٨٨، وصحيح الجامع: ٣٧٩٩).

فإدراك رمضان فرصةٌ عظيمةٌ للتزود من الطاعات، والإقلاع عن السيئات، فإنها لو أفلتت من اليد كانت حسرة يا لها من حسرة! لأن أسباب الغفران لا منتهى لها ولا حد يحدها، فمن حُرم المغفرة في شهر الغفران، والعتق من النار فهو المحروم حقًا، فليذرف على ما فرط دموع الأسى والحسرة، وهيهات أن تجدي الحسرة أو ينفع البكاء، بعد فوات الفرصة، وانقضاء المدة وانتهاء السباق، جعلني الله وإياكم ممن إذا زل تاب، وأن يرزقنا توبة نصوحًا قبل الممات، إنه هو الرحيم الرحمن.

وصايا للحجيج

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله الذي فرض الحج على عباده إلى بيته الحرام، ورتَّب على ذلك جزيل الأجر ووافر الإنعام، فمن حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، نقيًا من الذنوب والآثام، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة دار السلام، وأصلي وأسلم على نبينا محمد أفضل من حج وصلى وزكى وصام، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان ما تعاقبت الليالي والأيام، وبعدُ:

فيا أخي الحاجّ: هذه وصايا أذكِّر بها نفسي وإياك فتقبَّلْها مني مشكورًا:

أولاً: يجب على الحاج وغيره أن يُخلص نيته وقصده لله تعالى، فيجعل عمله خالصًا لوجهه الكريم حتى يقع أجره على الله، وينال ثوابه، قال الله تعالى: «وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ» (البينة:٥)، فلا رياء ولا سمعة، ولا انصراف عن الله إلى غيره؛ ذلك أنَّ الله لا يقبلُ من العمل إلا ما كان خالصًا وابتُغِيَ به وجهه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ". (مسلم: ٢٩٨٥).

فمن حج يبتغي الذِّكر والصيت انقلب إليه عمله، ولم يُرفَع فوق رأسه.

ثانيًا: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

فالإخلاصُ لله دون متابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكفي ولا يجزئ، فأبى الله أن يقبل عملاً إلا إذا أخلص فيه صاحبه لله، وجرَّد المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو القائل عليه الصلاة والسلام: «خذوا عني مناسككم». (مسلم: ١٢٩٧).

وحذَّر صلى الله عليه وسلم من مخالفته فقال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ». (متفق عليه).

وفي رواية: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد». (مسلم: ١٧١٨). أي: مردود عليه، غير مقبول.

ثالثًا: اجتناب الشرك بأنواعه وأشكاله:

وذلك أنَّ الشرك أعظم ذنب عُصِيَ الله به، وهو مُحبط للعمل، قال الله تعالى: «وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ» (الزمر:٦٥، ٦٦). والمعنى: لئن أشركت يا محمد ليبطلنَّ عملك الصالح، ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك، وهذا على سبيل تعليم أمته، وإلا فالرسول صلى الله عليه وسلم قد عصَمَه الله، وحاشاه أن يشرك بالله، وهو الذي أرسله الله لإقامة صرح التوحيد.

فالشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل.

فالعبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أنَّ الصلاة، لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك فيها فسدت كالحدث إذا دخل في الصلاة،

وأعظم مقاصد الحج تحقيق التوحيد لله، والبعد عن الإشراك به، يقول سبحانه: «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا» (الحج:٢٦)، فلا يجوز أن يلجأ العباد- في قضاء حاجاتهم، وتفريج كرباتهم، وشفاء مرضاهم- إلا لمن بيده وحده تصريف الأمور، ودفع الشرور، لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه، فالتوكل على الله وحده، وتفويض الأمور إليه دون غيره، واعتقاد أنه مالك النفع والضر دون سواه- أمورٌ يجب على المسلم أن يعتقدها دينًا لله الواحد الأحد، لا يشركه فيها أحدٌ.

قال الله تعالى: «قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» (الزمر:٣٨)، وقال تعالى: «وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» (يونس:١٠٧)، فعلِّقْ قلبك بربك أيها الحاج وضع نُصب عينيك وصية المصطفى صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف». (صحيح الجامع: ٧٩٥٧).

رابعًا: التوبة النصوح ورد المظالم لأصحابها:

فالتوبةُ هي الرجوع من معصية الله إلى طاعته، لأنه سبحانه هو المعبود حقًا، وحقيقة العبودية هي التذلل والخضوع للمعبود محبة وتعظيمًا، وأن تكون خالصة لله عز وجل؛ بأن يكون الباعث لها حبّ الله وتعظيمه ورجاء ثوابه والخوف من عقابه؛ حتى تعود كيوم ولدتك أمك.

خامسًا: الاستعداد للحج بالعلم النافع والفقه في الأحكام:

فالمسلم إنما يعبد الله على بصيرة وعلم، وإذا أوجب الله على العبد أن يحج إلى بيته، وجعل ذلك أحد أركان دينه، كان الواجب على المسلم أن يتعلم ما يلزمه في حجه.

فمن الخطأ أن تجد الرجل يحج، ويقتحم أبواب هذه العبادة بغير علم، وإنما يبني عبادته على شيء يظنه أو سمعه ممن لا علم له، ثم يذهب بعد وقوع المحذور في حجه مستفتيًا أهل العلم، قائلاً: أوجدوا لي مخرجًا.. وكان الواجب عليه أن يعلم قبل أن يعمل.

قال الإمام البخاري في كتاب العلم: «باب: العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ» (محمد:١٩). فبدأ بالعلم». (فتح الباري: ١/٦١).

فلا يجوز أن يُعبَد الله على جهل، أو تُؤدَّى المناسك على غير هُدًى، وذلك أمرٌ ينبغي أن يُعنَى به الحاج أيما عناية.

سادسًا: التماس الرفيق الصالح:

نهى الإسلام أبناءه عن الوحدة في السفر، وحثَّهم على الترافق واتخاذ الصحبة؛ لما في ذلك من تلبية لاحتياج النفس إلى الاجتماع، ولما يشتمل عليه ذلك من أنس وتكامل وعون ووقاية وتبادل خدمة، فقال صلى الله عليه وسلم: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا منتنة». متفق عليه.

فاستعن بالله تعالى وإسأله أن يوفِّقك لحسن الرفقة وطيب العشرة، والانتفاع بالصحبة، فينبغي للحاج أن يصاحب رفيقًا يذكِّره إذا نسي، ويقوِّيه إذا عجز، ويصبِّره إذا يئس، ويشجعه إذا جبن، يأخذ بيده للخير ويدله عليه، يحب له الخير كما يحب لنفسه، ينصح له في حله وترحاله.

سابعًا: التحلي بمكارم الأخلاق وحُسن العشرة:

فإن مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، بها تُرفَع الدرجات، وتُضاعَف الحسنات، وإنها الغاية الأولى من بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق». (الصحيحة: ٤٥).

فالمسلم مطالَب بالتحلي بحسن الخلق في كل

زمان ومكان وكل وقت وحين، ولاسيما في هذا الموطن؛ فالسفر غالبًا يُعَرِّي الإنسان من الأقنعة التي كانت تحجب طبيعته، وما سُمي السفر سفرًا إلا لأنه يُسْفِر عن أخلاق الرجال، فكن أخي الحاج حَسَن الخُلق مع إخوانك فإن حُسن الخلق عنوان كمال الإيمان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا». (صحيح الجامع: ١٢٣٢).

ومن ذلك استعمال مفاتيح القلب الولوج من بوابات النفس: من تبسُّم الوجه وطلاقته، وكلمة طيبة، وحُسن استماع، ومشاركة وجدانية، والحفاظ على المشاعر والحقوق والممتلكات، وإحسان الظن، والتماس العذر، وتذكر الحسنات، وتغليب التسامح والرحمة على المحاققة، وترك الملامة، وتجاوز الإساءة، والتغافل عن الخطأ، وسرعة الاعتذار عند الزلل، وحسبك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من كظم غيظًا وهو قادرٌ على أن يُنفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره من الحور العين، يزوِّجه منها ما شاء». (صحيح الجامع: ٦٥٢٢).

ثامنًا: تجنب الرفث والفسوق والجدال:

قال الله تعالى: «ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ» (البقرة:١٩٧)، يعني أنه من أوجب الحج على نفسه خلال هذه الشهور بأن تلبس به، وألزمه نفسه، فليحترم ما التزمه من شعائر الله، وليصنه من الرفث الذي هو مقاربة النساء ما دام محرمًا، ومن الفسوق الذي هو الخروج عند حدود الشرع بفعل أي محظور يخل بإحرامه، ومن الجدال.

تاسعًا: الحذر كل الحذر من مقارفة المعاصي:

قال الله تعالى: «وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» (الحج:٢٥)، فإذا كان ذلك لمجرد الإرادة، فكيف بمن يُريد ويفعل؟

إنَّ في هذا التعبير البليغ زيادة في التحذير، ومبالغة في التوكيد، ولقد ضرب السلف الصالح أروع الأمثلة في الأدب مع حرم الله عز وجل. يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «كنا نعدُّ: لا والله، وبلى والله، من الإلحاد في الحرم». ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: «لأن أخطئ سبعين خطيئة بـ(ركبة)- أحبُّ إليَّ من أن أخطئ خطيئة واحدةً في الحرم». (انظر: مصنف عبد الرزاق: ٥/٢٨).

ومعنى: «رُكبة» اسم موضع بالحجاز بين غمرة وذات عِرْق.

عاشرًا: استثمار الوقت في الحج:

الحج أيام معدودة، وسويعات محدودة، ينقضي بانقضائها، ويستفاد منه بمقدار استثمارها، فمن صدق فيها ربه فنفر من المعاصي والمنكرات وجدَّ في الطاعات، واستكثر من الخيرات بانيًا عمله على إخلاص واتباع، فحري به أن يَنال عالي الدرجات، ويخرج من الموسم بحج مبرور وسعي مشكور وتجارة لن تبور، بإذن الله تعالى.

وقد وردت في ثنايا آيات الحج إشارات تحثُّ العبد على الاستكثار من الطاعات وقت أداء النسك، ومن ذلك: قوله عز وجل: «وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ» (البقرة:١٩٧). ولعل من أهم الطاعات التي ينبغي أن يستكثر منها العبد ويشغل بها وقته أثناء النسك:

١- أعمال القلوب: من إخلاص، ومحبة، وتوكل، وخوف، ورجاء، وتعظيم، وخضوع، وإظهار افتقار، وصدق في الطلب والمسألة، والإنابة والصبر والرضا والطمأنينة، وقراءة القرآن والذكر والاستغفار، وقد أمر الله الجميع بالذكر والاستغفار في ثنايا آيات الحج، قال الله تعالى: «فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا» (البقرة: ١٩٨-٢٠٠). ثم يأمر الله بالذكر مرة أخرى، «وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ» (البقرة:٢٠٣)، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ قال: «أن تموت ولسانك رطبٌ من ذكر الله». (صحيح الجامع: ١٥٣).

بتفعيل هذه الوصايا عملياً أرجو الله لي ولك أخي الحاج القبول، والظفر بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «الحج المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنةُ» (متفق عليه).

اللهم اكتب لنا ولكل متشوق حج بيتك الحرام هذا العام، إنك ولي ذلك والقادر عليه.

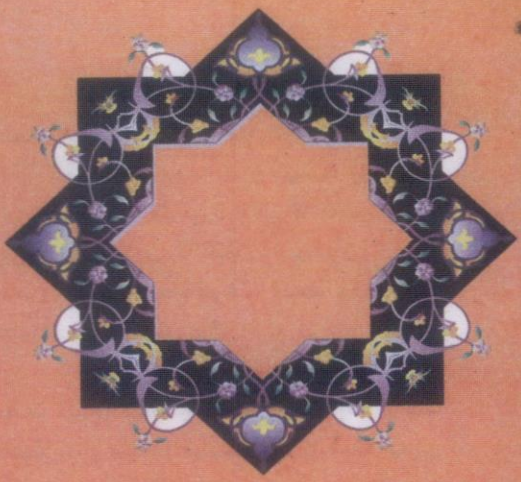

الأضحية وأحكامها

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله يهدي إلى الحقِّ، وإلى طريق مستقيم، أحمده سبحانه وأشكره، وأصلي وأسلم على صفوة خلقه ومصطفاه سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه الكرام، الذين اقتفوا أثر نبيهم، واقتدوا بهديه، ففازوا بالرضوان والنعيم، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين. أما بعدُ:

فإنَّ من أعظم ما يتقربُ به إلى الله عز وجل في هذه الأيام الأضحية، فهي سنة الخليلين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، يُكره لمن قدر عليها أن يتركها، وإن ذبحها لأفضل من الصدقة بثمنها؛ لما فيها من إحياء السنة والأجر العظيم ومحبة الله لها.

فضحُّوا أيها المسلمون عن أنفسكم وعن أهليكم متقربين بذلك إلى ربكم متبعين لسنة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم؛ حيث ضحى عنه وعن أهل بيته، ومن كان منكم لا يجد الأضحية فقد ضحى عنه النبي صلى الله عليه وسلم؛ جزاه الله عن أمته خيرًا.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَضْحَى بِالْمُصَلَّى، فَلَمَّا قَضَى خُطْبَتَهُ نَزَلَ مِنْ مِنْبَرِهِ وَأُتِيَ بِكَبْشٍ فَذَبَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي. (رواه أبو داود ٢٨١٠).

وهناك أحكام متعلقة بالأضاحي، يجدر بالمسلم أن يعرفها ليكون على علم في عبادته، وعلى بينة من أمره، ألخصها بما يأتي ذكره إن شاء الله.

تعريفها:

هي ما يُذبَحُ من النعم يوم النحر وأيام التشريق تقربًا إلى الله تعالى.

حكمها:

الأضحية سُنة واجبة على أهل كل بيت مسلم قَدَرَ أهله عليها، وذلك لقوله تعالى: «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ» (الكوثر:٢)، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من كان له سعةٌ، ولم يُصح فلا يقربن مصلانا». (صحيح سنن ابن ماجه: ٢٥٤٩).

ووجه الاستدلال به أنه صلى الله عليه وسلم لما نهى من كان ذا سعة عن قربان المصلى إذا لم يصح، دلَّ على أنه ترك واجبًا، فكأنه لا فائدة في التقرب بالصلاة للعيد مع ترك هذا الواجب.

وعن مخيف بن سُليم قال: كُنَّا وُقُوفًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَفَةَ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ عَلَى كُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ فِي كُلِّ عَامٍ أُضْحِيَّةً وَعَتِيرَةً، أَتَدْرُونَ مَا الْعَتِيرَةُ؟ هِيَ الَّتِي يُسَمِّيهَا النَّاسُ الرَّجَبِيَّةَ. (رواه ابن ماجه: ٣١٢٥).

وقد نُسخت العتيرة بقوله صلى الله عليه وسلم: «لاَ فَرَعَ وَلاَ عَتِيرَةَ». وَالْفَرَعُ أَوَّلُ النِّتَاجِ كَانُوا يَذْبَحُونَهُ

لطَوَاغيتهمْ، وَالْعَتيرَةُ في رَجَب. (متفق عليه).
وعن جُنْدَب بْن سُفْيَانَ الْبَجَلِيّ قَالَ: شَهِدْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يَوْمَ النَّحْر فَقَالَ مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيُعِدْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ. (متفق عليه).

مِمْ تكون الأضحية؟

ولا تكون إلا من البقر والغنم والإبل؛ لقول الله تعالى: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» (الحج:٣٤).

سن الأضحية:

ولا يجزئ منها إلا الجذعُ من الضَّأن، والثنيُّ مما سواه، والجذعُ من الضأن: قال الحافظ في الفتح (٥/١٠): الجذعة: بفتح الجيم والذال المعجمة هو وصف لسنٍّ معين من بهيمة الأنعام، فمن الضأن: ما أكمل سنة، وهو قول الجمهور، وقيل: دونها، والثني من الإبل: ما استكمل خمس سنين، ومن البقر ما استكمل سنتين ودخل في الثالثة، والثني من المعز ما استكمل سنة ودخل في الثانية.

عن كم تجزئ البدنة والبقرة؟

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ نَحَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ الْبَدَنَةَ عَنْ سَبْعَةٍ، وَالْبَقَرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ. (مسلم: ١٣١٨).

عن كم تجزئ الشاة؟

الشاةُ تجزئ عن الرجل وأهل بيته:

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ كَيْفَ كَانَتِ الضَّحَايَا فِيكُمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُضَحِّي بِالشَّاةِ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَيَأْكُلُونَ وَيُطْعِمُونَ، ثُمَّ تَبَاهَى النَّاسُ فَصَارَ كَمَا تَرَى. (سنن ابن ماجه: ٢٥٦٣).

ما لا يجوز أن يُضحى به

عَنْ أَبِي الضَّحَّاكِ عُبَيْدِ بْنِ فَيْرُوزَ مَوْلَى بَنِي شَيْبَانَ قَالَ: قُلْتُ لِلْبَرَاءِ حَدِّثْنِي عَمَّا نَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَضَاحِيِّ. قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَدِي أَقْصَرُ مِنْ يَدِهِ فَقَالَ: أَرْبَعٌ لَا يَجُزْنَ: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوَرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، وَالْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ ظَلْعُهَا، وَالْكَسِيرَةُ الَّتِي لَا تُنْقِي. قُلْتُ: إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ فِي الْقَرْنِ نَقْصٌ، وَأَنْ يَكُونَ فِي السِّنِّ نَقْصٌ. قَالَ: مَا كَرِهْتَهُ فَدَعْهُ وَلَا تُحَرِّمْهُ عَلَى أَحَدٍ. (النسائي: ٤٣٦٩).

وقت ذبح الأضحية:

وقت ذبح الأضحية صباح يوم العيد بعد الصلاة، أي صلاة العيد فلا تجزئ قبله أبدًا.

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ نَحَرَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنْ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ". (البخاري: ٩٦٥).

وعن جُنْدَب بْن سُفْيَانَ قَالَ: شَهِدْتُ الْأَضْحَى مَعَ رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ فَلَمْ يَعُدْ أَنْ صَلَّى وَفَرَغَ مِنْ صَلَاتِه سَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَرَى لَحْمَ أَضَاحِيَّ قَدْ ذُبِحَتْ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ مِنْ صَلَاتِه، فَقَالَ: مَنْ كَانَ ذَبَحَ أُضْحِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ أَوْ نُصَلِّيَ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ كَانَ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللَّه. (مسلم: ١٩٦٠).

ويستمر الذبح إلى غروب شمس آخر أيام التشريق، وهي الأيامُ الثلاثةُ بعد يوم العيد؛ عن جُبير بن مُطعم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل أيام التشريق ذبحٌ». (رواه أحمد: ٨/٤، ونصب الراية: ٦١/٣).

أفضل الأضحية:

أفضلها: ما كانت كبشًا أقرن فحلاً أبيض يخالطه سواد حول عينيه وفي قوائمه، إذ هذا هو الوصف الذي استحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحى به.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ ضَحَّى رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ بِكَبْشٍ أَقْرَنَ فَحِيلٍ يَأْكُلُ فِي سَوَادٍ وَيَمْشِي فِي سَوَادٍ وَيَنْظُرُ فِي سَوَادٍ. (النسائي: ٤٣٩٠).

وعن يُونُس بْن مَيْسَرَةَ بْن حَلْبَس قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ أَبِي سَعِيدٍ الزُّرَقِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّه صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى شِرَاءِ الضَّحَايَا، قَالَ يُونُسُ فَأَشَارَ أَبُو سَعِيدٍ إِلَى كَبْشٍ أَدْغَمَ لَيْسَ بِالْمُرْتَفِعِ وَلاَ الْمُتَّضِعِ فِي جِسْمِهِ، فَقَالَ لِي: اشْتَرِ لِي هَذَا كَأَنَّهُ شَبَّهَهُ بِكَبْشِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (سنن ابن ماجه: ٢٥٥٢).

ومعنى: «أدغم» هو الذي يكون فيه أدنى سواد، خصوصًا في أذنه وتحت حنكه.

من أراد أن يضحي فلا يأخذ في العشر من شعره:

عن أم سلمة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل العشرُ وأراد أحدُكم أن يضحي فلا يمسَّ من شعره ولا بشره شيئًا». (صحيح سنن النسائي: ٢٥٦٥).

وعنها أيضًا رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم هلال ذي الحجة، فأراد أن يُضحي، فلا يقربنَّ له شعرًا ولا ظفرًا». (صحيح سنن ابن ماجه: ٢٥٦٦).

وعنها أيضًا رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا رأيتم هلال ذي الحجة، فأراد أن يضحي، فلا يقربنَّ له شعرًا ولا ظفرًا». (صحيح سنن ابن ماجه: ٢٥٦٦).

وعنها أيضًا رضي الله عنها أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إذا رأيتم هلال ذي الحجة، فأراد أن يُضحي، فلا يقربنَّ له شعرًا ولا ظفرًا». (صحيح سنن ابن ماجه: ٢٥٦٦).

وعنها أيضًا رضي الله عنها أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا رأيتم هلال ذي الحجة، وأراد أحدكم أن يُضحِّي فليمسك عن شعره وأظفاره». (مسلم: ١٩٧٧/٤١/٣/١٥٦٥).

ويستحبُّ لمن يُحسنُ الذبحَ أن يذبحَ أضحيته بيده، تأسيًا برسول الله صلى الله عليه وسلم: عن أنَس قَالَ ضَحَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ فَرَأَيْتُهُ وَاضِعًا قَدَمَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا يُسَمِّي وَيُكَبِّرُ فَذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ. (متفق عليه).

الذبح بالمصلى:

عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يذبح بالمصلى. (صحيح سنن ابن ماجه ٢٥٧٦).

الأكل من لحوم الضحايا:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ مِنْ كُلِّ جَزُورٍ بِبَضْعَةٍ فَجُعِلَتْ فِي قِدْرٍ، فَأَكَلُوا مِنَ اللَّحْمِ، وَحَسَوْا مِنَ الْمَرَقِ. (صحيح سنن ابن ماجه: ٢٥٧٣).

أجرة جازرها من غيرها:

لا يعطي الجازر أجرة عمله من الأضحية:

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَقُومَ عَلَى بُدْنِهِ وَأَنْ أَتَصَدَّقَ بِلَحْمِهَا وَجُلُودِهَا وَأَجِلَّتِهَا، وَأَنْ لاَ أُعْطِيَ الْجَزَّارَ مِنْهَا. قَالَ نَحْنُ نُعْطِيهِ مِنْ عِنْدِنَا. (متفق عليه).

جلود الأضاحي:

حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يقسم بدنه كلها لحومها وجلودها وجلالها للمساكين. (صحيح سنن ابن ماجه: ٢٥٧٢). ومعنى: «جلالها» الجل للدابة، كالثوب للإنسان تصان به.

قسمتها:

يستحبُّ لأهل البيت الذين ضحَّوا أن يأكلوا منها، وأن يهدوا منها، وأن يتصدقوا منها، قال صلى الله عليه وسلم: «كلوا وادَّخروا وتصدقوا». (البخاري: ٥٥٦٩، ومسلم: ١٩٧١).

فاتقوا الله عباد الله وانبذوا عن أنفسكم الشح، وضحوا وأنفقوا من مال الله الذي آتاكم، «وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (المزمل: ٢٠).

تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال.

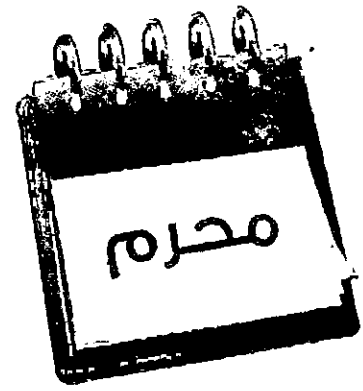

وقفة مع النفس في نهاية عام

إعداد: عبده الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن اقتفى آثارهم وسار على هديهم والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعدُ:

إخواني: إنكم في هذه الأيام تودعون عامًا ماضيًا شهيدًا، وتستقبلون عامًا مقبلاً جديدًا، فليت شعري ماذا أودعتم في العام الماضي من أعمال صالحة؟! وماذا تستقبلون به العام الجديد؟! فليحاسب العاقل نفسه، ولينظر في أمره، فإن كان قد فرَّط في شيء من الواجبات فليتب إلى الله وليتدارك ما فات، وإن كان ظالمًا لنفسه بفعل المعاصي والمحرمات فليقلع عنها قبل حلول الأجل والفوات وتمنى الرجعة ولكن هيهات هيهات.

قال الله تعالى: «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (المؤمنون:٩٩، ١٠٠)، وقال تعالى: «يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ» (الأعراف:٥٣)، وقد تضمنت هذه الآيات التي ذكرنا، وأمثالها في القرآن أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند حضور الموت، ويوم النشور ووقت عرضهم على الله تعالى، ووقت عرضهم على النار.

رحم الله من قال: كلنا قد أيقن الموت، وما نرى له مستعدًا، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى له خائفًا، فعلام تفرحون؟ وما عسيتم تنتظرون؟ الموت؟ فهو أول وارد من أمر الله بخير، أو بشرٍّ؛ فيا إخوتاه: سيروا إلى ربكم سيرًا جميلاً.

> كلنا قد أيقن الموت، وما نرى له مستعدًا، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى له خائفًا.

أيها الغافلون اتعظوا! فإليكم يُوجه الخطاب! أيها النائمون انتبهوا قبل أن تُناخ للرحيل الركاب! قبل هجوم هادم اللذات ومفرق الجماعات، ومشتت الأحباب، فيا له من زائر لا يعوقه عائق ولا يُضرب دونه حجاب، ويا له من نازل، لا يرحم صغيرًا ولا يوقر كبيرًا ولا يخاف عظيمًا ولا يهاب، إنه جدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده؛ أن لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تأهب إلا له، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا انتظار ولا تربص إلا له.

إن حال البعض إذا ذُكر بالموت والضرورة إلى الاستعداد والتهيؤ له سَوَّف ووعد نفسه وقال ما مضى إلا القليل إلى أن تكبر ثم تتوب وتقبل على الطاعة فلا يزال يُمنّي ويسوِّف من الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة أو إلى رجوع من السفر أو

إلى فراغه من تدبير شؤونه أو شؤون أولاده أو نحو ذلك من الأماني التي يتلذذ بذكرها ولا تُجدي شيئًا لكنه يرتاح لها، فلا يزال يُمني نفسه بما يوافق هواها ولا يزال يُغالط نفسه في الحقائق ويتوهم البقاء في الدنيا إلى أن يتقرر ذلك عنده ويظن أن الحياة قد صفت له.

وعَنْ عَبْد اللّه بن عباس رَضِيَ اللّه عَنْهما قَالَ خَطَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللّه عَلَيْه وَسَلَّمَ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا في الْوَسَط خَارجًا منْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صغَارًا إلَى هَذَا الَّذي في الْوَسَط منْ جَانبه الَّذي في الْوَسَط، وَقَالَ هَذَا الإنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحيطٌ به أَوْ قَدْ أَحَاطَ به، وَهَذَا الَّذي هُوَ خَارجٌ أَمَلُهُ، وَهَذه الْخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا. (البخاري: ٦٤١٧).

فالمؤمن يسعى لصلاح حاله، بحيث يكون غده خيرًا من يومه، ويومه أفضل من أمسه، وعامه الجديد أفضل من عامه الماضي، والكيس من حاسب نفسه عند دخول العام الجديد، وراجع حساباته، وفتح صفحة جديدة من حياته، فبدأ جادًا في إصلاح نفسه، وتغير مجرى حياته، وحياة أسرته من الشرّ إلى الخير، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن التفريط والتهاون والإضاعة إلى التوبة والإنابة.

> المؤمن يسعى لصلاح حاله، بحيث يكون غده خيرًا من يومه، ويومه أفضل من أمسه، وعامه الجديد أفضل من عامه الماضي.

عَنْ عَبْد اللّه بْن عُمَرَ رَضِيَ اللّه عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْه وَسَلَّمَ بمَنْكبي، فَقَالَ: "كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَريبٌ، أَوْ عَابرُ سَبيل"، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظرْ الصَّبَاحَ، وَإذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ منْ صحَّتكَ لمَرَضكَ وَمنْ حَيَاتكَ لمَوْتكَ". (البخاري: ٦٤١٦).

فالعاقل من حاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله، يقول الحسن البصري رحمه الله: إن أيسر الناس حسابًا يوم القيامة الذين حاسبوا أنفسهم لله في هذه الدنيا فوقفوا عند أعمالهم فإن كان الذي هموا به لله مضوا فيه، وإن كان عليهم أمسكوا، وإنما يثقل الحساب يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور فأخذوها من غير محاسبة فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر.

وفي انقضاء العام؛ تذكر بانقضاء العمر وسرعة مرور الأيام، تذكر بقرب الرحيل من هذه الدار، وحبذا ليلتان اثنتان يجعلهما المرء في مخيلته؛ ليلة في بيت أهله منعمًا سعيدًا في عيش رغيد، وفي عافية ومسرة يُضاحك أولاده ويضاحكونه، والليلة التي تليها في القبر وحيدًا فريدًا، قال صلى الله عليه وسلم: «يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاَثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ». (متفق عليه).

فيا إخواني: فلنحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب، فما كان من طاعة الله فاستقيموا عليه، وما كان من معصية الله فانزعوا عنه واعلموا أن التوبة مبسوطة، وأن ترك الذنب أيسر عليكم من طلب التوبة، ولا تدعوا ذنبًا يخلف ذنبًا، والخير كله بحذافيره في الجنة فأدلجوا في السير إليها، والشر كله بحذافيره في النار، فاجتهدوا في الهرب منها، وزكوا أنفسكم بالأعمال الصالحة من دون السيئات.

فالحياة ميدان فسيح لصالح الأعمال، وها أنتم تزدلفون إلى عام جديد، وقد ودعتم عامًا من عمركم مضى بما أودعتموه من عمل، والسعيد من استودع مدة عمره صالحًا من عمله، والشقي من شهدت عليه مدة عمره بقبيح زلله، فاحفظوا أيام عمركم قبل خلوكم في قبوركم، واغتنموا أيام حياتكم قبل الفوات إخواني: التوبة التوبة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء:١٨). اللهم ردنا إلى دينك ردًّا جميلاً، «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك».

ذنب كبير وعقاب أليم

الحمد لله، وأصلّي وأسلم على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فهذا ذنب من كبائر الذنوب اقترفته أمة من الأمم القديمة فاستحقت أن يدمر الله عليهم ويهلكهم؛ فكانوا بذلك عبرة في الأولين ومَثَلاً للآخرين، هذا الذنب الكبير؛ هو الآفة الكبيرة التي ارتكبها قوم شعيب عليه السلام، في غابر الأزمان، وقصّ علينا القرآن قصتها في غير موضع من سوره؛ أن هؤلاء غالوا في تطفيف الكيل وبخس الميزان، فكانوا من أخبث الناس معاملة؛ يبخسون الميزان، ويطففون المكيال، كانوا كما قيل عنهم: يأخذون بالزائد ويعطون بالناقص.

إعداد: عبده أحمد الأقرع

ويتضح خبث من يفعل ذلك ودناءته إذا علمت أنهم أشد على الناس من اللصوص؛ لأن السارق لا يستطيع أن يتحايل على الناس، ولا يجد ما يستر به جريمته فهو في نظر الناس سارق على أيّ وضع يكون عليه، أما هؤلاء فيرتكبون جريمتهم تحت ستار المعاملة الحرة وبأداة العدل: «الكيل والميزان»؛ لذلك أعد الله تعالى لمرتكبي هذه الجريمة ما أعده من العذاب والنكال.

والتطفيف كما هو معلوم يكون بالبخس في الكيل والميزان، وهو نقص يخون به صاحبه في كيل أو وزن، وهو ضرب من الخيانة وأكل لأموال الناس بالباطل، وهو علة العلل وآفة الآفات في ميدان البيع والشراء، وقد قصّ الله علينا في القرآن الكريم خبر نبي الله شعيب عليه السلام مع قومه حين استفحل فيهم واستشرى في مجتمعهم جريمة التطفيف، وعدم الوفاء في الكيل والميزان، فقال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا

وَاذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ » (الأعراف: ٨٥- ٨٦).

نبَّه نبي الله شعيب عليه السلام قومه إلى مجموعة من الأمور لا يصلح أن تكون فيهم ولا أن تصدر منهم؛ لأن بها محقَ البركة وذهابَ الثروة، وكل الدلائل تشير إلى أنه يتمنى لهم الخير لأن الله أرسله إليهم،

فأولاً: أعطوا الناس حقهم كاملاً بالوزن الذي تزنون به والكيل الذي تكيلون به،

وثانيًا: لا تأخذوا من الناس شيئًا ولا تظلموهم في البيع والشراء،

وثالثًا: لا تعملوا في الأرض بالفساد والمعاصي بعد أن أصلحها الله بإرسال المرسلين.

ورابعًا: لا تقطعوا الطريق على المارة وتخوفوهم بالقتل بغية ابتزاز أموالهم وصدهم عن هداية الله وانحرافهم عن الطريق المستقيم.

وخامسًا: اذكروا حين كنتم قلة مستضعفين فصيَّركم الله كثرةً وهي نعمة يجب لها الشكر. فاعتبروا بما نزل من عقاب للأمم السابقة انتقامًا منهم حين عصوا رسل الله، وقال الله تعالى: «وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ » (هود: ٨٤-٨٦).

كرَّر نبي الله شعيب عليه السلام نفس الدعوة على قومه كي يرجعوا عن الفعلة القبيحه ثم تراه ينبه على أمرين زيادة على ما سبق؛

الأول: أنه رآهم في سعة من الرزق وبحبوحة من العيش وكثرة من نعم الحياة، وكل ذلك يجعلهم في غنى عن نقص الكيل والميزان: «إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ» (هود: ٨٤).

والثاني: أنه ينبههم: أنَّ ما يتبقى لكم من ربح البيع والشراء خير لكم من أخذ أموال الناس عن طريق التطفيف، ورزق الله خير لكم من هذا الاعتداء على أموال الغير: «بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » (هود: ٨٦).

وفي موضع آخر يقول الله تعالى حكاية عن نبيه شعيب عليه السلام وهو يوجه قومه على ترك هذه المعصية: «أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ » (الشعراء: ١٨٤). ولكن القوم تطاولوا عليه- عليه السلام- « قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ » (الشعراء: ١٨٥- ١٨٨)، فكانت عاقبتهم كما قال الله تعالى: « فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ» (الأعراف: ٧٨)، أي: هامدين لا حراك لهم.

وقال تعالى: « وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ

يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ » (هود: ٩٤- ٩٥)، وقال الله تعالى: « فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » (الشعراء:١٨٩).

سبحان الله!! أنواع من العذاب في سورة «هود» الصيحة، وفي «الأعراف» الرجفة، وفي سورة «الشعراء» عذاب يوم الظلة، وهي أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر فيها في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: «لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا » (الأعراف:٨٨)، ناسب أن يذكر هناك الرجفة فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها.

ولما أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي أخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (الشعراء:١٨٧) قال: «فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » (الشعراء:١٨٩)، وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا. (تفسير القرآن العظيم ٢/٤٧٤).

وإذا كان قد حدث هذا لأمة سابقة فكانت عبرة ومثلاً لمن يأتي بعدهم إلى يوم الدِّين، فهل اتعظ الناس فأقلع كل غاش، وانتهى كل مطفف عن هذا المنكر؟!

إنَّ هذه الآفة تلازم الناس طالما هناك بيع وشراء، وطالما لا يخشون الله، ولا يخافون من عقابه، ومن أجل ذلك كان الأمر من الله أمرًا قاطعًا بالوفاء، قال الله تعالى: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » (الإسراء:٣٥)، كما توعد الله المطففين، ولقد أبرز القرآن هذا الوعيد الشديد في صورة عذاب أكيد في الآخرة في مطلع سورة حملت اسم هؤلاء المعتدين على حقوق الناس وأموالهم مع ما يكون لهم في الدنيا من القحط والمجاعات والأزمات الطاحنة وذهاب البركة من الزروع والثمرات وشدة الجدب، قال الله تعالى: «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » (المطففين: ١- ٦).

كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آفة التطفيف تمحق البركة وتقضي على الأمن والاستقرار، وأشفق على أصحابه الذين رياهم منها، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا معشر المهاجرين، خصالٌ خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن...»، وذكر صلى الله عليه وسلم: «ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم». (صحيح الجامع: ٧٩٧٨).

وقال نافع: كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول له: «اتق الله.. أوف الكيل والوزن بالقسط فإنَّ المطففين يوقفون يوم القيامة حتى يلجمهم العَرَقُ إلى أنصاف آذانهم».

من أجل ذلك كانت وظيفة الحسبة والمحتسب من الوظائف المهمة في المجتمع الإسلامي؛ حفظًا لحقوق الناس، ومراقبة هؤلاء الناس ومنعهم من التلاعب بأقوات الناس وأموالهم.

اللهم إني أعوذُ بك من قلبٍ لا يخشع، ومن دعاءٍ لا يُسمع، ومن نفسٍ لا تشبعُ، ومن علم لا ينفعُ، أعوذ بكَ من هؤلاء الأربع. (صحيح الجامع: ١٢٩٧).

والحمد لله رب العالمين.

أغنى الشركاء عن الشرك

إعداد: عبده أحمد الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده؛ نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أما بعدُ:

فعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ". (صحيح مسلم: ٢٩٨٥).

قال النووي رحمه الله: ومعناه: أنا غني عن المشاركة وغيرها، فمن يعمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله بل أتركه لذلك الغير، والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه، ويأثم به.

قلتُ: جاء عن أبي سعيد بن أبي فضالة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله أحدًا فليطلب ثوابه من عنده، فإنَّ الله أغنى الشركاء عن الشرك». (صحيح الجامع: ٤٨٢).

ففي هذا دلالة على رد عمل المرائي عليه، فالإخلاص للأعمال كالروح للأجسام، والأعمال معه ذاتُ كثرة وبركة، وبفقدانها له ذات قلة وإخفاق، ولقد ضرب الله تعالى مثلين لمن ينفق رئاء الناس ولمن ينفق ابتغاء مرضاة الله، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٦٤، ٢٦٥).

والمعنى في «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى» (البقرة:٢٦٤) أي: لا تحبطوا أجرها بالمنِّ والأذى.

«كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ» أي: كالمرائي الذي ينفق ابتغاء مرضاة الناس.

«وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ» أي: لا يصدق بلقاء الله ليرجو ثوابًا أو يخشى عقابًا.

«فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ» أي: مثل

ذلك المرائي بإنفاقه، كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب، يظنه الظانُّ أرضًا طيبة منبتةً.

«فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا» (البقرة:٢٦٤) أي: فإذا أصابه مطر شديد، أذهب عنه التراب فيبقى صلدًا أملس ليس عليه شيء، كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت، ولهذا قال الله تعالى: «لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا» (البقرة:٢٦٤) أي: لا يجدون له ثوابًا في الآخرة فلا ينتفع بشيء منها.

ذم الله للمرائين:

قال الله تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ» (الأنفال:٤٧).

قال الله تعالى: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» (النساء:١٤٢).

وتوعد الله تعالى المرائين بالويل؛ فقال الله تعالى: «فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» (الماعون:٤-٧).

وقال تعالى: «مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (هود:١٥، ١٦).

عن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ. قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً». (رواه أحمد: ٥/٤٢٨، والألباني في صحيح الجامع: ١٥٥٥، والصحيحة: ٩٥١).

وعن جندب عن عبد الله بن سفيان رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللَّهُ بِهِ».

(متفق عليه).

سَمَّعَ: معناه: أظهر عمله للناس رياءً.

سَمَّعَ اللَّهُ به: أي: فَضَحَهُ يومَ القيامة.

ومعنى: «مَن رَاءَى» أي: مَنْ أظهرَ للناس العملَ الصالح ليعظم عندهم «راءى الله به» أي: أظهر سريرته على رؤوس الخلائق.

فالإخلاص هو أساس نجاح العبد وفلاحه في دنياه وآخرته، فالطاعات قد تكون في ظاهرها وهيئتها سواء، ولكنها في باطنها متفاوتة، فهي خير للمخلصين، وشر للمرائين، فالنَّاس يقفون جميعًا للصلاة في مصلى واحد وخلف إمام واحد، ويركعون ويسجدون سواء، ومنهم المقبول لإخلاصه، ومنهم المردون لريائه، ويقفون في صف الجهاد تحت قيادة واحدة ويقتلون، ومنهم مَن يُقاد إلى الجنة، ومنهم مَن يُسحب على وجهه ويلقى في النار.

فالأول: جاهد إخلاصًا لله وفي سبيل الله ولإعلاء كلمة الله.

والثاني: جاهد مفاخرة ورياء ومباهاة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

أخي المسلم: عليك أن تعرف السبيل التي فيها نجاتك، فرُب مستكثر من الأعمال لا يجد إلا التعب منها في الدنيا والعذاب في الآخرة، فلتعلم قبل كل شيء ماذا يشترط للأعمال حتى تقبل، لا بد من أمرين مهمين عظيمين أن يتوافرا في كل عمل وإلا فلن يُقبل:

أولهما: أن يكون صاحبه قد قصد به وجه الله عز وجل وحده.

ثانيهما: أن يكون موافقًا لما شرعه الله تعالى في كتابه، أو بينه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في سنته.

فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل صالحًا ولا مقبولاً ويدل على هذا قوله تعالى: «فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» (الكهف:١١٠).

وإذا كان الخلقُ بهذا الضعف فلا يلتفت لمراءاتهم إلا ضعيف الدين، على أن رياء المرائي لا يخفى حتى على الخلق غالبًا.

فازهد في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: العمل من أجل الناس شركٌ، وتركُ العملُ من أجل الناس رياءٌ، والإخلاصُ أن يعافيكَ الله منهما.

وقال بعض السلف: من ترك العملَ خوفًا من عدم الإخلاص فقد ترك الإخلاصَ والعمل جميعًا.

وثمة جانبٌ آخرُ: وهو أن المسلم يعملُ العملَ وقد أخلصَ لله فيه، ثم ينشر الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين وعلى ألسنتهم فليفرح بفضل الله، وليستبشر بذلك.

فقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يعملُ العملَ من الخير يحمده الناس عليه، قال صلى الله عليه وسلم: «ذلك عاجل بشرى المؤمن». (مسلم: ٤/٢٠٣٤).

فمن أصلحَ سريرته فاحَ عبيرُ فضله، وعبقت القلوبُ بنشر طيبه، فالله الله في إصلاح السرائر فما ينفعُ في فسادها صلاحُ الظاهر.

فاعلم أيها العاقل: أن الخلق لا يكرمون أحدًا إلا بقدر ما جعل الله له في قلوبهم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث شاء». (صحيح الجامع: ٢١٤١، والصحيحة: ١٦٨٩).

وإن من خذلان الله للعبد أن يعمي بصيرته فيتقرب للمخلوقين بفعل ما يحبونه، وإن أغضب ربه واستحق مقته.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس». (صحيح الجامع: ٦٠١٠، والصحيحة: ٢٣١١).

من قصد رضا المخلوق بإغضاب الخالق حجبَ الله عنه فضله ووكله إلى نفسه.

ومن أصلح ما بينه وبين الخلق وأهمل ما بينه وبين ربه انتكس عليه مقصوده، وعاد حمده ذمًا، فلا دينًا أقام، ولا دنيا أصاب، نصبٌ بلا فائدة، وعملٌ من غير أجرٍ والله أغنى الشركاء عن الشرك.

فعلى الإنسان أن يعمل على إصلاح نيته، حتى تصدر منهُ جميع الأقوال والأفعال خالصة لوجه الله، وابتغاء مرضاته، ليس فيها شائبة رياء، أو سمعة، أو قصد نفع، أو غرض شخصي، قال الله تعالى: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ» (الزمر:٣).

وقال الله تعالى: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» (البينة:٥).

فالأعمال مع الإخلاص تنمو وتزكو ويبارك فيها وتقبل، وبدونه تقل بركتها وتضمحل وتفشل وتُرد على صاحبها.

اللهم يا حي يا قيوم ارزقنا الإخلاص في السر والعلن في الظاهر والباطن، إنك ولي ذلك والقادر عليه.

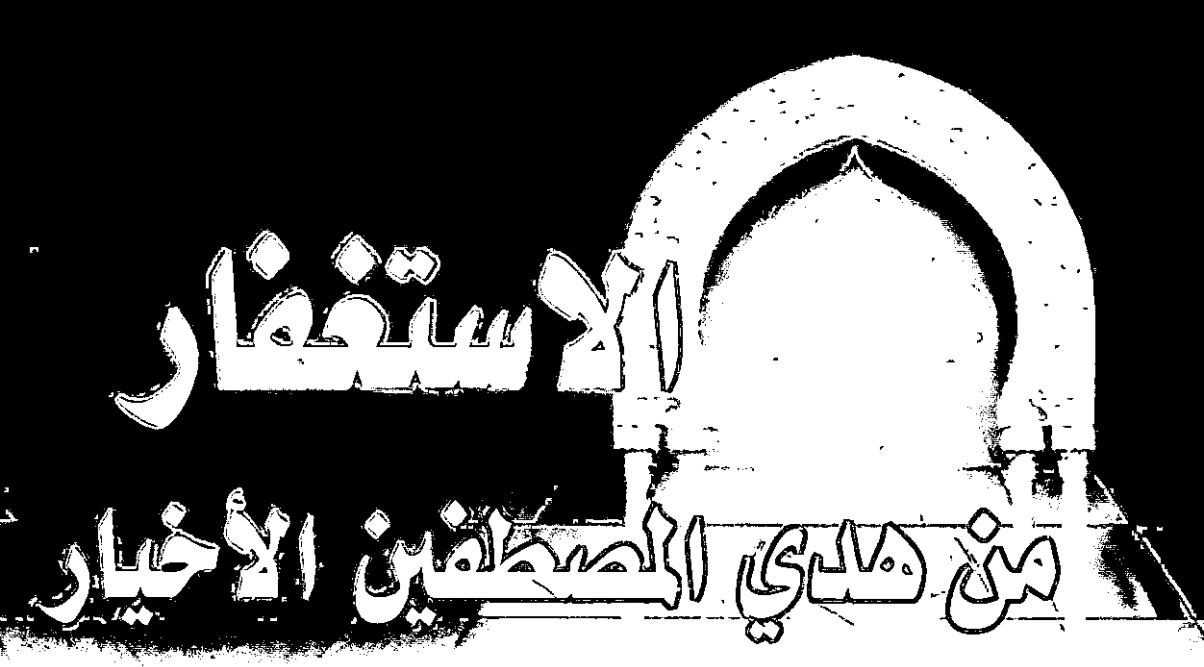

الاستغفار من هدي المصطفين الأخيار

إعداد: عبده أحمد الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده؛ نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. أما بعدُ:

فقد أخبر الله سبحانه عن ثلة من أنبيائه ورسله أن طلب المغفرة من الله رجاؤهم ومطلبهم، فقال سبحانه عن الأبوين عليهما السلام قولهما: «رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ» **(الأعراف:٢٣). قال سبحانه عن نوح عليه السلام أنه قال:** «رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ» **(نوح:٢٨)، وقال سبحانه عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال:** «رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ» **(إبراهيم:٤١)، وقال سبحانه عن كليمه موسى عليه السلام أنه قال:** «قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي» **(القصص:١٦)، وقال:** «رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ» **(الأعراف:١٥١)، وقال سبحانه عن نبيه داود عليه السلام:** «فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ» **(ص:٢٤).**

وقال سبحانه عن سليمان عليه السلام: «قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ» **(ص:٣٥).**

وأما رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة». (البخاري: ٦٣٠٧).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة: رب اغفر لي وتب عليَّ؛ إنك أنت التواب الرحيم". (صحيح أبي داود: ١٣٤٢).

وعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده قال: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن جلوس، فقال: «ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله تعالى فيها مائة مرة». (الصحيحة رقم ١٦٠٠، وصحيح الجامع رقم: ٥٥٣٤).

وكان صلى الله عليه وسلم يقول في بعض أدعية استفتاح الصلاة: «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي، وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك،

والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك». (صحيح مسلم: ٧٧١).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن». (متفق عليه). والمراد بقولها رضي الله عنها يتأول القرآن: أي يتأول قول الله عز وجل في سورة النصر: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» (فقه الأدعية والأذكار: ٢/ ١٤٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره». (مسلم: ١/ ٣٥٠).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بين السجدتين: «ربي اغفر لي، ربي اغفر لي». (صحيح ابن ماجه: ٧٣١).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته قال: «أستغفر الله، أستغفر الله». (مسلم: ٥٩١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لي ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفتُ، وما أنت أعلم به مني أنت المقدِّم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت». (مسلم: ٧٧١).

سبحان الله! الناظر في أحوال النبي صلى الله عليه وسلم يجد أن جلّ أوقاته صلى الله عليه وسلم الاستغفار وسؤال الله تعالى أن يغفر له، وهو صلى الله عليه وسلم المعصوم بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي قال الله تعالى له: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا» (الفتح: ٢)، فكيف بنا إخواني، وقد بلغت الذنوب عنان السماء: «وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا» (الإسراء: ١٧)؟ ولما قال الصدِّيق رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم: علمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال صلى الله عليه وسلم: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفورُ الرحيم». (متفق عليه).

وقد مدح الله تعالى أقوامًا، فقال تعالى عن أُولي الألباب أنهم قالوا: «رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ» (آل عمران: ١٩٣)، وقال تعالى عن فريق من عباده: «إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ» (المؤمنون: ١٠٩)، وقال تعالى عن المتقين: «كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» (الذاريات: ١٨)، والاستغفار يكون عقيب المعصية، كما قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» (آل عمران: ١٣٥) أي: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله من قريب، وقد قال الله تعالى عن أصحاب الشمال: «وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ» (الواقعة: ٤٦)، ويكون أيضًا عقيب الطاعة، قال الله تعالى: «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (البقرة: ١٩٩)، وقال الله تعالى: «فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (المزمل: ٢٠).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثًا، وقال: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام». قال الوليد- أحد رواة الحديث-: فقلتُ للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله. (مسلم: ٥٩١).

كُلُّ ذلك يدل على أهمية الاستغفار، وعظيم فضله وحاجة الناس إليه، لما له من الفوائد الدنيوية والأخروية، فمن ذلك: أنه

سببٌ لمغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، قال الله تعالى: « وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا » (النساء:١١٠)، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم». (مسلم: ٢٥٧٧).

ويقول تعالى: «يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرتُ لك ولا أبالي». (صحيح الترمذي: ٣٥٤٠).

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟». (مسلم: ١٨٨٠).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غُفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف». (صحيح الترغيب: ١٦٢٢).

ومنها: أنه سبب لنزول المطر، ونبات الزرع، والإمداد بالأموال والعيال، قال الله تعالى عن نوح عليه السلام: « فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا» (نوح:١٠-١٢).

ومنها: المتاع الحسن: قال الله تعالى على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: « وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ» (هود:٣)، ومنها: أنه سبب لحصول القوة في البدن، قال تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام: « وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ» (هود:٥٢)، ومنها: أنها دوحة الأمان، قال الله تعالى: « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » (الأنفال:٣٣)، ومنها: جلاء القلب ونقائه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صَقَلَ قلبه». (أخرجه أحمد: ٢/٢٩٧).

ومنها: قوله عليه الصلاة والسلام: «طُوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا». (صحيح الجامع: ٣٩٣٠). وقوله صلى الله عليه وسلم: «من أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار». (صحيح الجامع: ٥٩٥٥). ومنها: رفع الدرجات في الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل لترفع درجته في الجنة، فيقول: أنى لي هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك». (صحيح الجامع: ١٦١٧).

ومنها: امتثال أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى: « وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا » (النساء:٦٩). فهل بعد هذا الفضل العظيم يغفل الناس عن الاستغفار؟

فأكثروا- إخواني من الاستغفار فقد قال لُقمان لابنه: «يا بني، عَوِّد لسانك الاستغفار فإن لله ساعات لا يُرد فيها سائلاً». فأكثروا- إخواني من الاستغفار تتنزل عليكم البركات والرحمات، قال الله تعالى: « لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (النمل:٤٦). واستغفروا للمؤمنين والمؤمنات فهذا من خُلق النبيين والمرسلين وحملة العرش المقربين، قال الله تعالى: « ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ» (غافر:٧)، وقد رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات، كَتَبَ الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة». (صحيح الجامع: ٥٩٠٢).

وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين للمؤمنين فقال سبحانه: « وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (الحشر:١٠).

رب اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رمضان شهر التوبة

إعداد: عبده أحمد الأقرع

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعدُ:

فإن من أعظم نعم الله على عباده أن فتح لهم باب التوبة مهما أسرفوا على أنفسهم من المعاصي والسيئات بفعل المحرمات وترك الواجبات.

واختار لهم من الأزمان مواسم للطاعات، وإنَّ من أجلِّ هذه المناسبات زمنًا، وأعظمها قدرًا، وأبعدها أثرًا- هذه المنحة الربانية والفرصة التي ربما لا تعود- شهر رمضان، فيه مضاعفة الحسنات ورفعة الدرجات، ومغفرة الذنوب والسيئات، وإقالة العثرات، قال صلى الله عليه وسلم: «الصلوات الخمس، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفِّرات لما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر». (صحيح الجامع: ٣٨٧٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر، فقال: «آمين، آمين، آمين». قيل: يا رسول الله، إنك صعدت المنبر فقلت: «آمين، آمين، آمين». فقال: «إن جبريل عليه السلام أتاني فقال: من أدركَ شهر رمضان فلم يُغفر له فدخل النار، فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين». (صحيح الترغيب: ٩٩٧).

وقال صلى الله عليه وسلم: «ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له». (صحيح الجامع: ٣٥١٠).

لقد توهم أناس في أمر الذنب إذ لم يروا تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فينسون أنه من الذنب، ولم يعلم المغتر أن عقوبة الذنب تحل ولو بعد حين، قال الله تعالى: «مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » (النساء:١٢٣)، وإن من الحكم المأثورة الجارية مجرى الأمثال قولهم: «إن الله يُمْهِل ولا يُهْمِل». ولقد قص الله علينا قصص الذين اغتروا بإمهال الله لهم فتمردوا وعصوا مغترين بقوتهم حتى قال قوم عاد: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ » (فصلت:١٥، ١٦).

وفائدة إمهال الله الخلق وإعطائهم مهلة يمكن أن يتذكر فيها من يتذكر إقامة الحجة عليهم والإعذار إليهم، «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا » (الإسراء:١٥)، ولعل أن يتوب منهم تائب ويرجع راجع، ولو أن الله أخذ الناس بظلمهم حين يتورطون في معاصيه ويرتكبون مناهيه؛ ما ترَك على ظهرها من دابة.

قال الله تعالى: « وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا » (الكهف:٥٨).

وقال الله تعالى: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا » (فاطر:٤٥).

فعلى المسلم أن يجعل من شهر رمضان نقطة تحول، من السيئ إلى الحسن، ومن الحسن إلى الأحسن، وأن يبدأ جادًّا في إصلاح نفسه، وتغيير مجرى حياته، وحياة أسرته من الشرِّ إلى الخير، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن التفريط والتهاون والإضاعة، إلى التوبة والإنابة والطاعة، ليحصل له في دنياه وآخرته الخير والفلاح، والتوفيق والنجاح، اللهم ارزقنا التوبة النصوح، واجعلنا من عتقائك من النار ومن المقبولين، آمين.

مظاهر التوحيد.. وحج البيت العتيق

إعداد عبده الأقرع

الحمد لله المتفرد بالكمال والبقاء، والعزّ والكبرياء، له الصفات العلى وجميل الأسماء، المنزه عن الأشباه والنظراء، وأصلي وأسلم على نبينا محمد الصادق المأمون، وعلى آله وأصحابه الذين هم بهديه مستمسكون..

وبعد:

فليس الإيمان مجرد دعوى وألقاب، إنما الإيمان الحق اعتقادٌ سليم، وعملٌ صحيح، ولاءٌ وبراء، مظهر ومخبر، بذل الندى وكفّ الأذى.

وتحقيقُ التوحيد يحتاج إلى يقظة قلبية دائبة تنفي عن النفس كلَّ خاطرة تقدح في العبودية لله، ومن وقع في مهاوي الشرك الأكبر؛ فطلب من الموتى زوالَ فقر أو مرض، أو طلب منهم جلب نفع، أو دفع ضر، فقد أساء إلى جناب الربوبية، وتنقَّص من الألوهية، وأساء الظن برب البرية.

فالتوحيد الخالص: هو لبابُ الرسالات السماوية كلها، وأساس الملة، فمن أجل التوحيد خلق الله الخلق، قال الله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (الذاريات: ٥٦).

ومن أجل التوحيد بعث الله الرسل، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» (النحل: ٣٦)، ومن أجل التوحيد ترك نبي الله يوسف عليه السلام ملة قومه: «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ» (يوسف: ٣٧- ٣٨).

ومن أجل التوحيد بُني بيت الله العتيق: قال الله تعالى: «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا» (الحج: ٢٦)، وها أنت- أخي الحاج الكريم- تخطو خطواتك إلى بلد الله الحرام، راجيًا من الله محو السيئات ورفع الدرجات، فجدَّ في إخلاص العبادة لله، واعلم أن العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تكون صلاة إلا مع الطهارة، فكما أن المتطهر إذا أحدث بطلت طهارته، فكذلك العابد إذا أشرك بطلت عبادته.

فالشرك لا يصح معه عمل، ولا تقبل معه عبادة، ولهذا كثيرًا ما يأتي الأمر بالعبادة مقرونًا بالنهي عن الشرك، كما في قوله تعالى: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» (النساء: ٣٦)، وكل نبي يقول لقومه: «اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ» (الأعراف: ٥٩).

مظاهر التوحيد في الحج

نحن إذا تدبرنا تأسيس هذا البيت وجدناه قد أسس على التوحيد، كما قال الله تعالى: «وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» (البقرة: ١٢٥).

فأمرهما الله بتطهير البيت من سائر النجاسات، وأعظمها الشرك، كما قال الله تعالى: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا» (التوبة: ٢٨)، وقال تعالى: «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» (الحج: ٢٦).

إذن فهذا البيت أُسس على التوحيد، ويجب أن يبقى على التوحيد إلى أن تقوم الساعة، ولا يجوز أن يُسمح لمشرك بالوصول إليه، ولا بمزاولة شركه حوله، ولهذا لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة المشرفة دخل المسجد الحرام وفوق الكعبة وحولها ثلاثمائة وستون

صنمًا، فجعل يطعنها بالقضيب، ويقول: «جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا» (الإسراء: ٨١).

فجعلت الأصنام تتهاوى على وجوهها، ثم أمر بها صلى الله عليه وسلم فأخرجت من المسجد وأحرقت، ثم دخل صلى الله عليه وسلم الكعبة، وأزال ما رُسم على جدرانها من الصور، كل ذلك عملاً بقول الله تعالى: «وَطَهِّرْ بَيْتِيَ» (الحج: ٢٦)؛ لأن هذا البيت قبلة المسلمين، وإليه حجهم وعمرتهم، وهو ملتقى قلوبهم وأبدانهم.

وقد أمر الله بأداء الحج والعمرة خالصين له، فقال سبحانه وتعالى: «وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ» (البقرة: ١٩٦)؛ مما يدل على أن كل حج وعمرة لا يتوفر فيهما توحيد العبادة، فليسا بمقبولين عند الله سبحانه وتعالى.

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: رفع الأصوات بعد الإحرام بالتلبية لله ونفي الشريك عنه، وإعلان انفراده جل وعلا بالحمد والنعمة والملك، فيرفع الحاجّ صوته ملبيًا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك». يرددها الحجاج بين كل فترة وأخرى حتى يشرعوا في التحلل من الإحرام.

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: أن أعظم الذكر الذي يُقال في يوم عرفة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «خيرُ الدعاءِ دعاء عرفة، وخيرُ ما قُلتُ أنا والنَّبيُّون من قبلي: لا إله إلا اللهُ وحَدهُ لا شريكَ لهُ، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كل شيء قديرٌ». (الترمذي ٣٥٨٥ وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٢٧٤).

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: أن الله أمر بالطواف ببيته، فقال تعالى: «وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ» (الحج: ٢٩).

مما يدل على أن الطواف خاص بهذا البيت، فلا يجوز الطواف ببيتٍ غيره على وجه الأرض، لا بالأضرحة، ولا بالأشجار والأحجار.

ومن مظاهر توحيد العبادة في الطواف بالبيت العتيق: أن الطائف حين يستلم الركن اليماني والحجر الأسود يكبِّر الله معتقدًا أنه يستلمهما لأنهما من شعائر الله، فهو يستلمهما طاعةً لله واقتداءً برسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما استلم الحجر وقبَّله: والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبِّلك ما قبَّلتك. (البخاري ١٥٩٧، ومسلم ١٢٧٠).

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: أن الحاجّ حينما يفرغ من الطواف ويصلي الركعتين فإنه يقرأ في الأولى بعد الفاتحة سورة «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ»، وفي الثانية يقرأ سورة الإخلاص؛ لما تشتمل عليه هاتان السورتان من توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

ففي السورة الأولى البراءة من دين المشركين، وإفراد الله بالعبادة.

وفي السورة الثانية إفراد الله بصفات الكمال، وتنزيهه عن صفات النقص، وبذلك يعرف العبد ربه، ويخلص له العبادة، ويتبرأ من عبادة ما سواه من خلال هذا الدين العملي العظيم.

ومن مظاهر توحيد العبادة في السعي بين الصفا والمروة: أن العبد يسعى بينهما امتثالاً لأمر الله جل وعلا في قوله: «إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ

عَلِيمٌ» (البقرة: ١٥٨).

ومن ذلك يتعلم المسلم أنه لا يجوز السعي كعبادة في أي مكان من الأرض إلا بين الصفا والمروة؛ لأنهما من شعائر الله، وأن السعي بينهما إنما هو بأمر الله، فكل سعي في غيرهما فليس عبادة لله؛ لأنه سعي بغير أمر الله.

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: ما شرعه الله في يوم العيد وأيام التشريق من ذكره وحده، قال الله تعالى: « وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ» (البقرة: ٢٠٣).

وذكر الله في هذه الأيام يتجلى في الأعمال العظيمة التي تؤدَّى في أيام منى، من رمي الجمار، وذبح الهدي، وأداء الصلوات الخمس في هذا المشعر المبارك والأيام المباركة، كل هذه الأعمال ذكر لله عز وجل، فرمي الجمار ذكر لله، ولهذا يقول المسلم عند رمي كل حصاة: «الله أكبر»، وذبح الهدي ذكر لله عز وجل، كما قال تعالى: « لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» (الحج: ٣٤).

وقال تعالى: « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ» (الحج: ٣٦- ٣٧).

ومن هنا يتعلم المسلم أن الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، فلا يجوز أن يذبح لقبر ولا لولي ولا لجني أو أي مخلوق؛ لأن الذبح عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك.

ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: أن الله أمر بذكره أثناء أداء مناسكه وبعد الفراغ منه، ونهى عن ذكر غيره من الرؤساء والعظماء الأحياء والأموات، وزجر عن المفاخرة بالأحساب والأنساب، فقال تعالى: « فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ» (البقرة: ١٩٨- ٢٠٣).

إن الحج ليس مجرد رحلة استطلاعية، أو متعة ترفيهية، أو مجرد مظاهر وشعارات، ولكنه دروس وعِبَر، وتعليم عملي للعقيدة الصحيحة، ونبذ للعقائد الجاهلية.

فاتقوا الله -عباد الله- في أداء حجكم وسائر عباداتكم بأن تكون خالصة لوجه الله، وصوابًا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى يكون حجكم مبرورًا، فإن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة. (البخاري ١٧٧٣، ومسلم ١٣٥١).

فالمؤمن يسعى في إصلاح نفسه، ثم في إصلاح غيره؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمنُ أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه». (البخاري ١٣، ومسلم: ١٧٩).

إن الدين ينبني على أصلين:

الأصل الأول: الإخلاص لله في العبادة. والأصل الثاني: المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم، وهذان الأصلان إنما يُعرفان من تدبر الكتاب والسنة واتباعهما، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وفي اتباعهما الخير والرشاد والدلالة إلى صراط الله المستقيم.

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أنْ يتقبل من حُجَّاج بيته الحرام مناسكهم، وأنْ يجعل حجَّهُم مبرورًا، وسعيهم مشكورًا، وذنبهم مغفورًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كيف نودِّع عامنا ؟

إعداد عبده الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده، نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أما بعدُ:

فيا إخواني: إنكم بعد أيام تودِّعون عامًا ماضيًا، فليت شعري ماذا أودعتم فيه من أعمال؟! ففي مراحل العمر وتقلبات الأيام وقفات يحاسب فيها العبد نفسه فيستثقل ذنبه، ويستغفر ربه، يراجع أعماله فمن الخير يزداد، وعن التقصير يقلع.

قال الفضيل بن عياض لرجل: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ؟ فقال الرجل: «إنا لله وإنا إليه راجعون». فقال الفضيل: أتعرف تفسيره؟ تقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون؛ فمن عرف أنه لله عبد، وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول فليُعِدَّ للسؤال جوابًا، فقال الرجل: فما الحيلة، قال: يسيرة، قال: ما هي؟ قال: يُحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى؛ فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما حضر وما بقي».

ألا فليحاسب العاقل نفسه، ولينظر في أمره، فإن كان قد فرط في شيء من الواجبات فَلْيَتُبْ إلى الله، وليتدارك ما فات، وإن كان ظالمًا لنفسه بفعل المعاصي والمحرمات فليقلع عنها قبل حلول الأجل والفوات وتمني الرجعة، ولكن هيهات هيهات.

قال الله تعالى عن أقوام: «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (المؤمنون: ٩٩- ١٠٠).

وقال تعالى: «يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ» (الأعراف:٥٣)، وقال تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟

عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ » (الأنعام: ٢٧-٢٨).

وقال تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » (السجدة:١٢)، وقال تعالى: « وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ » (فاطر:٣٧)، وقال تعالى: «قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ » (غافر:١١)، وقال تعالى: «وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ » (الشورى:٤٤)، وقد تضمنت هذه الآيات التي ذكرنا، وأمثالها في القرآن أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند حضور الموت، ويوم النشور وعند عرضهم على الله تعالى، ووقت عرضهم على النار.

رحم الله من قال: «كلنا قد أيقن الموت، وما نرى له مستعدًّا، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفًا، فعلام تفرحون؟ وما عسيتم تنتظرون؟ الموت، فهو أولُ واردٍ من أمر الله بخير، أو بشرٍّ».

فيا إخوتاه! سيروا إلى ربكم سيرًا جميلاً، ويا أيها الغافلون، تيقظوا فإليكم يوجَّه الخطاب، ويا أيها النائمون انتبهوا قبل أن تُناخ للرحيل الركاب، قبل هجوم هاذم اللذات ومفرِّق الجماعات، ومشتت الأحباب، فيا له من زائر لا يعوقه عائق ولا يُضرب دونه حجاب، ويا له من نازل، لا يرحم صغيرًا، ولا يوقر كبيرًا، ولا يخاف عظيمًا، ولا يهاب أحدًا.

إنه جدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، والقبر مقرّه، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده؛ أن لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تأهُّب إلا له، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا انتظار ولا تربص إلا له، وإن بعده ما هو أعظم منه من السؤال والجواب، ووراءه هول البعث والحشر وأحواله، ألا وإن كل ما هو آت قريب، قال الله تعالى: «ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ » (الأنبياء: ١-٣).

فإنَّ حال البعض إذا ذكر بالموت والضرورة إلى الاستعداد والتهيؤ له سَوَّف ووعَدَ نفسه وقال: ما مضى إلا القليل إلى أن تَكْبُر ثم تتوبُ وتقبل على الطاعة، فلا يزالُ يُمنيَ ويسوِّف من الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة أو إلى رجوع من السفر أو إلى فراغه من تدبير شئونه أو شئون أولاده أو نحو ذلك، من الأماني التي يتلذذ بذكرها ولا تُجدي شيئًا لكنه يرتاح لها، فلا يزال يُمني نفسه بما يوافق هواها ولا يزال يُغالط نفسه في الحقائق ويتوهم البقاء في الدنيا إلى أن يتقرر ذلك عنده ويظن أن الحياة قد صفت له ونسي قول الله تعالى: «حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (يونس:٢٤).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ: «خَطَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ، وَقَالَ: هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا. (البخاري: ٦٤١٧).

وعن محمد بن كعب القرظي قال: «إذا أراد الله بعبده خيرًا أزهده في الدنيا، وفقهه

في الدين، وبصره بعيوبه، ومن أوتيهن فقد أوتي خيرًا كثيرًا في الدنيا والآخرة». (نضرة النعيم: ٦/٢٢٣٣).

فالموفق من يسعى لصلاح حاله، بحيث يكون غده خيرًا من يومه، ويومه أفضل من أمسه، وعامه الجديد أفضل من عامه الماضي، والكيِّس من حاسب نفسه عند دخول العام الجديد، وراجع حساباته، وفتح صفحة جديدة من حياته، فبدأ جادًّا في إصلاح نفسه، وتغيير مجرى حياته، وحياة أسرته من الشر إلى الخير، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن التفريط والتهاون والإضاعة إلى التوبة والإنابة والطاعة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ. (البخاري: ٦٠٥٣).

فالعاقل: من حاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله، يقول الحسن البصري رحمه الله: إن أيسر الناس حسابًا يوم القيامة الذين حاسبوا أنفسهم لله في هذه الدنيا فوقفوا عند أعمالهم، فإن كان الذي هموا به لله مضوا فيه، وإن كان عليهم أمسكوا، وإنما يثقل الحساب يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور فأخذوها من غير محاسبة فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر.

إن في انقضاء العام تذكرة بانقضاء العمر وسرعة مرور الأيام تذكر بقرب الرحيل من هذه الدار، وليلتان اثنتان ليجعلهما المرء في مخيلته؛ ليلة في بيت أهله منعَّمًا سعيدًا في عيش رغيد، وفي عافية ومسرة يُضاحك أولاده ويضاحكونه، والليلة التي تليها في القبر وحيدًا فريدًا، قال صلى الله عليه وسلم: «يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ». (البخاري: ٦٥١٤، ومسلم: ٢٩٦٠).

فيا إخواني: حاسبوا أنفسكم، فما كان من طاعة الله فاستقيموا عليه، وما كان من معصية الله فانزعوا عنه واعلموا أن التوبة مبسوطة، وأن ترك الذنب أيسر عليكم من طلب التوبة، ولا تدعوا ذنبًا يخلف ذنبًا، والخير كله بحذافيره في الجنة، فأدلجوا في السير إليها، والشر كله بحذافيره في النار، فاجتهدوا في الهروب منها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما رأيتُ مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها». (صحيح الجامع: ٥٦٢٢).

فالسعيد مَن استودع مدة عمره صالحًا من عمله، والشقي من شهدت عليه مدة عمره بقبيح زلاته، وتذكروا قول الله سبحانه: «مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ » (النمل: ٩٠)، وتدبروا قول الله سبحانه: «وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ » (الزمر: ٥٤-٥٨).

وأروا الله من أنفسكم خيرًا، فقد قال سبحانه في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». (مسلم: ٢٥٧٧).

اللهم إنا نسألك أن تجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم نلقاك. آمين.

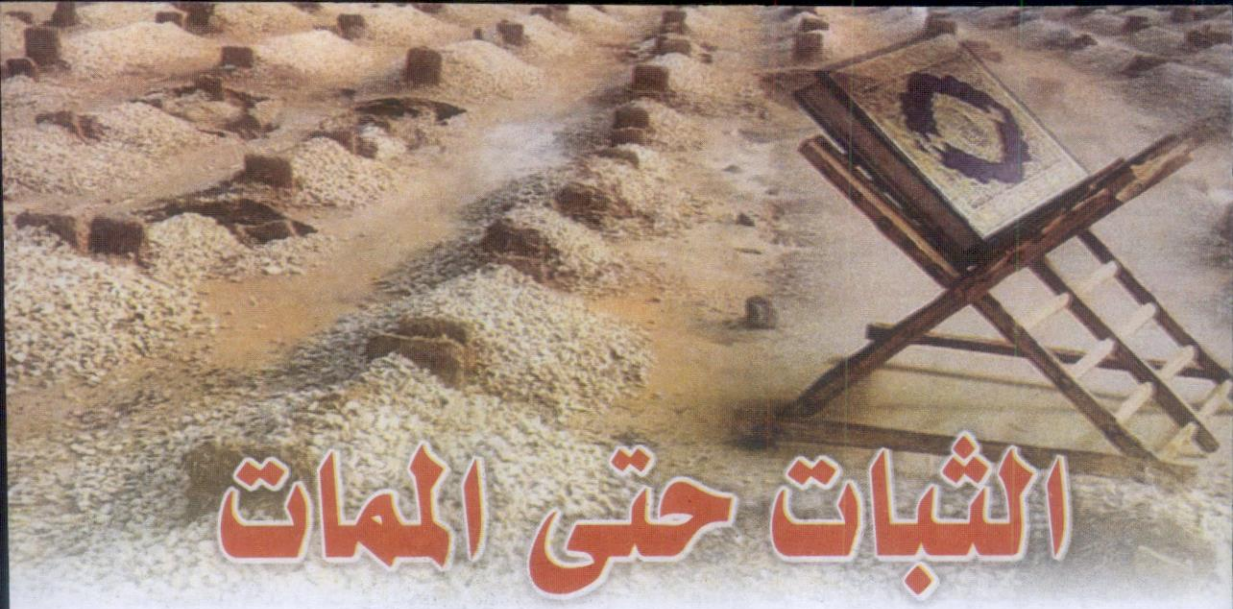

الثبات حتى الممات

إعداد عبده الأقرع

الحمد لله الذي وعد بتثبيت المؤمنين، فقال سبحانه وهو أحكم الحاكمين: « يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ » (إبراهيم: ٢٧)، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد الهادي إلى الصراط المستقيم صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين.

أما بعدُ: فإنَّ الثبات على الطريق، ولزوم الجادة حتى يأتي اليقين، آية رشد المرء، وبرهان نُضْجه، ودليل سداد رأيه، ورجحان عقله بعد توفيق الله له، وإنَّ أرفع مراتب الثبات وأعلى درجاته، وأسمى غاياته: ثبات القلب على الحق واستقامته على الدين، وسلامته من التقلب، ولذا كانت الخشية من الزيغ بعد الهدى: أدبَ أولي الألباب، ونهجَ أولي النُّهى وسبيل الراسخين في العلم الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة ويزدلفون إليه يرجون رحمته ويخافون عذابه، قال الله تعالى: « هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ۙ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ » (آل عمران: ٧ - ٨).

وإنما هذا من القوم سؤال لربهم أن يثبِّتهم على ما هم عليه من حُسن نصرتهم بالإيمان بالله ورسوله، وما جاءهم به من تنزيله، حتى يقبضهم على أحسن أعمالهم وإيمانهم، فإنه إذا فعل ذلك بهم وجبت لهم الجنة؛ لأنه قد وعد سبحانه مَن فعل ذلك من عباده أن يُدخله الجنة، وهذا المقام الذي عليه هؤلاء الراسخون في العلم مقام رفيع يدل على كمال دينهم وحسن تعبُّدهم، وقوة صلتهم بربهم وخالقهم، وتمام التجائهم إليه وتذللهم بين يديه، يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويسألونه الثبات على دينه القويم وصراطه المستقيم، وهذا تمام القدوة، وحُسن التأسِّي، وصدق الاتباع، فهذه أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر في دعائه أن يقول: «يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك». فقيل له في ذلك؟ قال: «إنه ليس آدميٌّ إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ». (صحيح الجامع: ٤٨٠١).

وهذا أنس رضي الله عنه يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». فقلتُ: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخافُ علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء». (صحيح الترمذي: ٢١٤٠).

قال البغوي رحمه الله: «فيه بيان أن العبد ليس إليه شيء من أمر سعادته أو شقاوته، بل إن اهتدى فبهداية الله إياه، وإن ثبت على الإيمان فبتثبيته، وإن ضل فبصرفه عن الهدى، قال سبحانه وتعالى: « بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ » (الحجرات: ١٧)، وقال سبحانه وتعالى إخبارًا عن حَمْد أهل الجنة: « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ۖ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ »

(الأعراف: ٤٣)، وقال الله عز وجل: « يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ » (إبراهيم: ٢٧). اهـ. (شرح السنة: ١/١٦٧).

فتبين بهذا أن الله تعالى هو الذي يتولى قلوب عباده، فيتصرف فيها بما شاء، لا يمتنع عليه شيء منها، ولا يَكلها إلى أحد من خلقه، وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خشي على هذه الثلة المؤمنة، والطليعة الراشدة مع ما بلغت من رسوخ الإيمان، وقوة اليقين، وصدق العبودية، ومع كون قرنها خير القرون، لما قال أنس رضي الله عنه: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم». فكيف بمن جاء من بعدهم من أهل العصور؟ لا سيما في هذا العصر الذي أطلت فيه الفتن وتتابعت على المسلمين، وعصفت بالقلوب ريح الشبهات والشهوات وفُتح للناس من أبوابها ما لا منتهى له، وانبعث سيل من المغريات المغويات، وراجت بين كثير من أهل جلدتنا بدعٌ محدثات أدخلت على الدين وليست منه وأضحت في أعرافهم دينًا يُتعبَّد الله به، وقربى يزدلفون بها إليه سبحانه. والله المستعان.

فالإنسان في الدنيا عُرضة للفتن المُضلة، وقد حكى ربنا العليم الخبير الفعَّال لما يريد حال أقوام آخرين، فقال سبحانه: « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ۚ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ » (الحج: ١١)، وقال سبحانه: « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ » (العنكبوت: ١٠).

وحسب الجميع قسم النبي صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق: «فوالله الذي لا إله غيره إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها». (متفق عليه).

إن من أعظم الفوائد التي يستفيدها المؤمن من هذا الحديث: الخوف من سوء الخاتمة، وعدم الاغترار بالأعمال الصالحة، ولسوء الخاتمة أسبابٌ تتقدم على الموت مثل البدعة، والنفاق، والكبر، وسائر المعاصي، ولذلك قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر كما أن القُبلة بريد الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت. (الجواب الكافي: ص٣٣).

من وسائل الثبات على الدين:

١- اللجوء إلى الله تبارك وتعالى: فعلى العبد أن يلجأ إلى الله تعالى ويكثر من قول: «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك»، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر منه، وفي هذا إعلام للأمة بأن نفسه الزكية صلى الله عليه وسلم إذا كانت مفتقرة إلى أن تلجأ إلى الله سبحانه لتثبيت قلبه فكيف الأمر بمن هو دونه؟! وكل العباد دونه، فما أحوج المسلم إلى تثبيت الله له على دينه القويم الذي هو سبب النجاة والفلاح في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

٢- ومن أسباب الثبات على دين الله العمل بالعلم، قال الله تعالى: « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا » (النساء: ٦٦- ٦٨).

«فالله تعالى يثبِّت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وُعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثباتٌ، يوفقون به لفعل الأوامر، وترك الزواجر، التي تقتضي النفسُ فعلها، وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد، فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو الرضا أو الشكر، فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين عند الموت وفي القبر». (تيسير الكريم الرحمن: ٢/٥٩، ٩٦).

٣- التمسك بالكتاب والسنة على منهج السلف الصالح، رضي الله عنهم أجمعين.

٤- الحذر من الذنوب أشد الحذر.

٥- المداومة على الأعمال الصالحة فإنها تزيد الإيمان، ومن داوم على شيء حال حياته رُجي أن يُختم له به عند مماته.

٦- محاسبة النفس قبل الموت، والاستعداد لملاقاته في أي وقت.

فالإنسان محتاج إلى بذل المساعي النافعة وسلوك المسالك الصالحة لينال رضى الله وهدايته وتوفيقه: « وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ » (محمد: ١٧).

فاللهم مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك، آمين.

المال وسيلة أم غاية

إعداد عبده أحمد الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبيَّ بعده؛ صلى الله عليه وآله وسلم، وبعدُ:

فقد جاءت الشريعةُ ببيان حقيقة المال، والحكمة من وجوده، وكيفية استخدامه، وبيَّنت منافعه وأضراره، وأنه وسيلةٌ وليس غايةً، وأن من جعل جمعه غايته على حساب دينه خسر دنياه وأخراه، ولم يأته منه إلا ما كُتبَ له، وأن صاحب المال إذا كان عالمًا عاملًا فإنه ينتفع بماله ويستخدمه في الخير والبرّ، بخلاف الجاهل فإنَّ المال قد يكون سببًا في هلاكه في الدنيا، وعذابه في الآخرة.

فالمال أصله من عند الله، ولقد أخبر الله صراحةً أن المال هو ماله سبحانه يؤتيه من يشاء، فقال جلَّ شأنه: «وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ» (النور:٣٣)، وقال سبحانه: «وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» (الحديد:٧)، وقال سبحانه: «وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم» (المنافقون:١٠)، وإذا كان المالُ مالَ الله وهو عارية في يد البشر الذين استخلفهم فيه فليس للبشر أن يتأخروا عن إنفاذ أمر الله في هذا المال، فإذا أمرهم أن يُؤتوا فئات من الناس شيئًا من هذا المال فعليهم أن يبادروا بذلك فما يُؤتونهم إلا من الله: «وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ» (النور:٣٣)، والمال وسيلة وليس غاية.

عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: كُنا نأتي النبي صلى الله عليه وسلم إذا أُنزل عليه، فيحدثنا، فقال لنا ذات يوم: «إن الله قال: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادٍ، لأحب أن يكون إليه ثان، ولو كان له واديان، لأحب أن يكون إليهما ثالثٌ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على من تاب». رواه أحمد في مسنده (٥/٢١٨)، وهو في الصحيحة رقم (١٦٣٩).

أي: إن الله سبحانه وتعالى أنزل المال وأوجده وجعله بين أيدي بني آدم، ليقيموا به شعائر الله، ويظهروا معالم الشرع من صلاة، وزكاة، وحج، وطلب للعلم، وغير ذلك من شعائر الدين، لا أن يجعلوا تحصيل المال غايتهم ثم يُنفقونه في غير طاعة الله، ولقد ذم النبي صلى الله عليه وسلم من جعل المال غايته فقال صلى الله عليه وسلم: «تعس عبد الدينار، وعبدُ الدرهم، وعبدُ الخميصة، إن أعطي رَضِيَ، وإن لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانتكس وإذا شِيكَ فلا انتقش». (متفق عليه).

والناظر في كتاب الله يجد أن الله تعالى ذكر المال وأتبعه بذكر ما هو أخير منه، قال تعالى: «ٱلْمَالُ

وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » (الكهف:٤٦)؛ فهذا إخبار عن الله تعالى أنَّ المال والبنين زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء. وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسعده الباقيات الصالحات، فثوابها يبقى، ويتضاعف على الآباء، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجدّ في تحصيلها المجتهدون، قال الله سبحانه: « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ » (آل عمران:١٤)، ثم أخبر سبحانه بأن المتقين لله، القائمين بعبوديته، لهم خير من هذه اللذات الفانية المنتهية، فلهم أصناف الخيرات الدائمة، والنعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله أكبر من كل شيء، فالعاقل يزهد في الفاني ويجتهد ويستكثر من الباقي الدائم، وقد أخبرنا رب العزة سبحانه بأن المال فتنة، فقال سبحانه: « وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ » (الأنفال:٢٨)، وحذّر سبحانه من التلاهي بالأموال والأولاد، فقال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ » (المنافقون:٩)، «وَمَنْ يَفْعَلْ ذلك» أي: يلهه ماله وولده، عن ذكر الله، «فأولئك هُمُ الْخَاسِرُونَ» للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم؛ لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال». (صحيح الترغيب: ٣٢٥٣). والمعنى: إن لكل أمة من الأمم فتنة، تختصُّ بها وتكونُ سببًا لضلالها، وأكثر سبب لضلال بعض هذه الأمة هو المال، فإن الحرص على المال يؤدي إلى تضييع حقّ الله في العبادة، والانشغال عن الواجبات كالصلوات التي من أجل إقامتها أنزل الله المال، وكم من إنسان ضيَّع الصلاة من أجل المال، ويؤدي كذلك إلى عدم حضور مجالس العلم، وقد قال ابنُ مهدي رحمه الله: «الرَّجُل إلى العلم أحوجُ منه إلى الأكل والشُّرب». حلية الأولياء (٤/٩).

ويؤدي كذلك إلى ترك العناية بتربية الأولاد، وإصلاح الأهل متى لا يجد الرجل وقتًا لتعليم أولاده وتربيتهم التربية الصالحة، فيتركهم هملًا وعرضة للانحراف والضياع، وهو المسؤول عنهم أمام الله يوم القيامة، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما ذئبان جائعان أرسلا إلى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه». (أخرجه أحمد ٣/٤٥٦).

هذا مَثَلٌ ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم لفسادَيْن يلحقان بالمسلم بسبب الحرص على المال والشرف في الدنيا، ولكن أخي: لك أن تتخيل هذا المثل؛ كيف يصنع الذئبان الجائعان مع الغنم إذا تُركا في حظيرة الغنم، انظر إلى أثر الدمار الذي سيحل بالأغنام، فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شرّ الحرص على المال والشرف في الدنيا، وكثرة المال في يدي العاصي لا تدل على الخير، قال الله تعالى: « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ » (المؤمنون: ٥٥-٥٦)، أي: أيظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليلٌ على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأنَّ لهم خيرَ الدنيا والآخرة، وهذا مقدمٌ لهم؟ كلا، ليس الأمرُ كذلك.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيت الله يُعطي العبدَ في الدنيا على معاصيه ما يحبُّ، فإنما هو استدراج». ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: « فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ » (الأنعام:٤٤). (صححه الألباني في الصحيحة رقم: ٤١٣).

فنعمة الله إن لم تُقابَل بالشكر والاعتراف بأنها من عند الله، وتنفق في طاعة الله سبحانه، فلن تغني عن أصحابها شيئًا يوم الدِّين، يقول الله تعالى متوعدًا لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بالمال والبنين فكفر بأنعم الله، وبدَّلها كفرًا، وقابلها بالجمود بآيات الله والافتراء عليها: « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا » (المدثر: ١١-١٣).

وما أمر قارون ببعيد، قال الله تعالى: « إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ » (القصص:٧٦)، وعظه قومه أن استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة، في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك

بها الثواب في الدار الآخرة، قال الله تعالى عن جواب قارون لقومه، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير «قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ» (القصص:٧٨) أي: أنا لا أفتقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني استحقه، ولمحبته لي، وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسَّع الله عليه يقول: لولا أنه يستحق ذلك لما أعطي، «فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» (القصص:٧٩).

فلما سمع مقالتهم أهلُ العلم النافع قالوا لهم: «وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ» (القصص:٨٠) أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خيرٌ مما ترون.

ولما ذكر الله تعالى اختيال قارون بماله، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقَّب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، قال جل شأنه: «فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ» (القصص:٨١) أي: ما أغنى عنه ماله، ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصرًا لنفسه، «وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ» (القصص:٨٢).

وتقرأ في القرآن قول الله تعالى عن صاحب الشمال: «مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ» (الحاقة: ٢٨- ٢٩) أي: لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه، بل خلص الأمر إلي وحدي فلا معين لي ولا مجير، فعندها يقول الله عز وجل: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ» (الحاقة: ٣٠- ٣٢)، وتقرأ قول الله تعالى: «ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ» (الهمزة: ٢- ٣).

ألهاه ماله بالنهار، هذا إلى هذا، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة، فمن كان حاله هكذا لم ينفعه ماله، قال الله تعالى: «وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ» (سبأ:٣٧)، ولكن من اتقى الله تعالى وأنفق ماله في مرضاة الله سبحانه فسينفعه؛ لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نِعْمَ المالُ الصالح للمرء الصالح». أخرجه أحمد (٤/١٩٧، ٢٠٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا بأس بالغنى لمن اتقى، والصحةُ لمن اتقى خيرٌ من الغنى، وطيب النفس من النعيم». صحيح الجامع رقم (٧١٨٢)، والمال ينفع العالم ويضر الجاهل.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما الدنيا لأربعة نفر؛ عبد رزقه الله مالًا وعلمًا فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالًا لعملتُ بعمل فلان؛ فهو بنيته فأجرهما سواءٌ، وعبد رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا، فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربَّه، ولا يصل فيه رَحِمَه، ولا يعلمُ لله فيه حقًّا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا فهو يقول: لو أنَّ لي مالًا لعملتُ فيه بعمل فلان فهو بنيته، فوزرهما سواء». (صحيح الجامع رقم ٣٠٢٤).

قَسَّمَ النبي صلى الله عليه وسلم الناس أربعة أقسام؛ خيرهم: من أوتي علمًا ومالًا فهو محسنٌ إلى الناس وإلى نفسه بعلمه وماله، ويليه في المرتبة: من أوتي علمًا ولم يُؤتَ مالًا، وإن كان أجرهما سواء فذلك إنما كان بالنية، وإلا فالمنفق المتصدق فوقه بدرجة الإنفاق والصدقة، الثالث: من أوتي مالًا ولم يُؤتَ علمًا فهو أسوأ الناس منزلة عند الله؛ لأن ماله طريقٌ إلى هلاكه، فلو عدمه لكان خيرًا له، الرابع: من لم يُؤتَ مالًا ولا علمًا، ومن نيته أنه لو كان من له مالٌ لعمل فيه بمعصية الله، فهذا يلي الغنيَّ الجاهل في المرتبة، ويساويه في الوزر بنيته، فقَسَّم صلى الله عليه وسلم السُّعَداء قسمين، وجَعَلَ العلم والعمل بموجب سبب سعادتهما، وقسم الأشقياء قسمين وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما، فعادة السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه، والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته.

اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملًا متقبلًا.

اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، وأغننا بفضلك عمن سواك.

لحوم مسمومة

إعداد عبده أحمد الأقرع

الحمد لله الذي ألّف بين قلوب المؤمنين، وجعلهم إخوةً متحابين متراحمين، على الخير متعاونين، وفي سبيل الفضائل متكاتفين، لألسنتهم وجوارحهم حافظين، وعن الغيبة والبهتان مبتعدين، وللفحش والزور مجتنبين، وعن أعراض إخوانهم ذابّين ومدافعين، وأصلي وأسلم على خاتم النبيين وإمام المتقين، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعدُ:

فمن أهم ما يميز المجتمع الإسلامي: أنه مجتمع مودة وتراحم، وتكاتف وتلاحم، ومحبة وتلاؤم، ولكن فيه من لا تحجزه مروءة، ولا يردعه دين أو أدب، جرَّد لسانه مقراضًا للأعراض بكلمات تنضح فحشًا، وألفاظ تنهش نهشًا، يسرف في التجني على عباد الله بالسخرية واللمز، فهذا طويلٌ وذاك قصيرٌ، وهذا أحمق وذاك جهول، وكأنه قد وُكِّل إليه تجريح عباد الله.

ويزداد الأمر وتعظم البلية حين ترى عليه علامات الوقار، وملامح الاحتشام، وسيما الوجاهة، وهيئات العلماء، ومع هذا وذاك فلا يتورع عن الخوض في أعراض العلماء؛ رغم أن العلماء هم مصابيح الدجى، وأعلام الهدى، هم النجومُ بهم يُهتدى ويُقتدى، وعلى خطاهم تعيش الأمم على هدى وبصيرة من أمرها بعيدًا عن البدع والخرافات ودروب الجهل الضلال، وهم وارثو علم الرسالة، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وهم مثالُ الاستقامة ومعقل الدّين، بالعلم عاملون، وعلى الحق سائرون، يهدون بالحق وبه يعدلون، استشهد الله بهم دون غيرهم من البشر على أجل مشهود به وأعظمه، « شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » (آل عمران:١٨)، وشهد سبحانه وتعالى لهم بالخشية، وأخبر سبحانه أنهم أهل خشيته، فقال تعالى: «إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟» (فاطر:٢٨).

وأمر سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يُستشهد بالعلماء على رسالته، فقال تعالى: «وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ » (الرعد:٤٣).

واستشهد سبحانه وتعالى بهم على صحة ما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: « أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ » (الأنعام:١١٤).

وجعل سبحانه كتابه آيات بينات في صدورهم، قال تعالى: « وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ » (العنكبوت:٤٨، ٤٩).

ونفى سبحانه وتعالى التسوية بين العالمين والجاهلين، فقال تعالى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ

لَا يَعْلَمُونَ » (الزمر:٩).

وأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يكتفي بشهادة أهل العلم ولا يعبأ بالجاهلين، فقال تعالى: «وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا » (الإسراء:١٠٦، ١٠٨).

وأخبر سبحانه عن رفعة درجات أهل العلم، فقال تعالى: «يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ » (المجادلة:١١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما خصَّ الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية، فَضَّلَ الله الذين آمنوا وأتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم.

وأمر سبحانه بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم، قال الله تعالى: « وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (الأنبياء:٧).

وبيَّن سبحانه أنهم أصحاب القول الفصل في الآخرة، قال الله تعالى: «وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (الروم: ٥٥- ٥٦).

وأخبر سبحانه أن المنتفعين بضرب الأمثال هم أهل العلم؛ فقال تعالى: « وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ » (العنكبوت:٤٣)، كان بعض السلف إذا مرَّ بمثلٍ لا يفهمه يبكي ويقول لست من العالمين.

وقد مدحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيَّن قدرهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياءَ لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلمَ؛ فمن أخذه أخذ بحظ وافر». (صحيح أبي داود: ٢٦٨٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «فضلُ العالم على العابد كفضلي على أدناكم». (صحيح الترمذي: ٢٦٨٥).

وفي رواية: «وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب». (صحيح الترمذي: ٢٦٨٢).

وقال الإمامان الشافعي وأحمد رحمهما الله: «إذا لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي»، ومن وصايا لقمان: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإنَّ الله يُحيي القلوبَ بنورِ الحكمة، كما يُحيي الأرضَ بوابل المطر.

ومع هذا فلم يسلم العلماء من أقوام يحطُّون من أقدارهم ويجترؤون على مقامهم، وينزعون من مهابتهم، ويرفعون الثقة بهم، يطعنون في أعمالهم وجهودهم، ويشككون في قدراتهم وكفاءاتهم، لا يُذكر عظيم إلا انتقصوه، ولا يظهرُ كريمٌ إلا شتموه، ولا يبرزُ صالحٌ إلا اتهموه، يتهمون الثقات، ويقعون في الصالحين، والأشدُّ من ذلك والأنكى، اتهامُ النيَّات، والحكمُ على المقاصد، والتطاول على السرائر التي لا يعلمها إلا الله، وهذا يقلِّل من شأن العلم الذي في صدورهم، والذي يعلّمونه الناس، فلا يقبل الناس ما يعلمونهم من العلم، وهذا ضرر على الدّين، فالطعن في العلماء ليس طعنًا في شخوصهم إنما طعن في العلم الذي يحملونه، وبالتالي طعن في الإسلام، والإسلام جاء من عند الله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

لذا قيل: إياكم ولحومَ مسمومة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من آذى فقيهًا فقد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن آذى رسول الله فقد آذى الله عز وجل».

وقال الحافظ ابن عساكر: «اعلم وفقنا الله وإياكم لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في الانتقام من منتقصيهم معلومة، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب، « فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (النور:٦٣)»، وقال الإمام الطحاوي: «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يُذْكَرُونَ إلا بالجميل، ومن ذكَرهم بسوءٍ فهو على غير السبيل».

فعليكم إخواني بتبجيل العلماء أهل الفضل والإيمان، ومن عرف لذي الفضل فضلهم فقد ولج طريق الخير، قال صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لم يُجلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه». (صحيح الجامع: ٥٤٤٣).

واحذروا التطاول على علماء الأمة، فالتجريح بغير حق لا يجوز، ورفضُ الدليل محرمٌ لا يسوغ، والمنهجُ الحقُ الأخذُ بالدليل مع وافر الحرمة والتقدير لأئمة العلم والدين، ومن كانت له منهم نادرة ينبغي أن تُدْفَن في بحر علمه، وتُنْسَى في جانب عظيم فضله.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله: «لو أنا كلما أخطأ إمامٌ في اجتهاد في آحاد المسائل خطأ مغفورًا له، قمنا عليه، وبدَّعناه وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحقّ، وهو أرحمُ الراحمين، ونعوذ بالله من الهوى والفظاظة». اهـ.

ومن ظفر بخطأ عالم فلا يفرح، ولا يتّبع العثرات، ولكن ليصحّح الخطأ، وليبيِّنه إلى الصواب، بالحكمة والموعظة الحسنة، وليحذر التشهير والتشنيع، يحيط ذلك سياجٌ من الخلق الفاضل، في لسانٍ عفيف، ونظر متورِّع، وقبل ذلك وبعده هو بحاجة إلى إخلاص القصد لله وحده، والتجرد للحق، ومجاهدة النفس، والثناء على كل محسن بإحسانه، والتماسُ العذر للمقصر عند تقصيره، وبخاصة أولئك الأعلام الذين يعلمون الناس الخير، وينصرون دين الله، فيجب رفع الملام على الأئمة الأعلام، وألا يظن بهم إلا خيرًا، «لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا» (النور:١٢)، فقد أحسنت نملة حين أحسنت الظن بنبي الله سليمان عليه السلام: «حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (النمل:١٨)، اعتذرت عنهم، إنهم إن حطموكم، فليس عن قصد منهم، ولا شعور- سبحان الله- هذه نملة أحسنت الظن، فلا تكن- أخي أقل منها في إحسان الظن.

ولا سيما بأهل العلم ورثة الأنبياء، ومن كانت له نادرة ينبغي أن تُدفن في بحر علمه، وتُنسى في جانب عظيم فضله، فالعصمةُ غيرُ مضمونة لأيِّ عالم، ولكن المضمون لهم- إن شاء الله- الأجرُ على اجتهادهم- أصابوا أو أخطؤوا، ومن ظفر بخطأ عالم فلا يفرح، ولا يتبع العثرات، ولكن ليصحح الخطأ، وليبينه إلى الصواب، يحيط ذلك سياجٌ من الخُلق الفاضل، في لسانٍ عفيفٍ، ونظرٍ متورع، وقبل ذلك وبعده هو بحاجة إلى إخلاص القصد لله وحده، والتجرد للحقّ، وليحذر التشهير والتشنيع، ألا فليتق الله من أشغل نفسه بتجريح العلماء وطلبة العلم والتحذير منهم، والأولى أن ينشغل هو بعيوبه التي ربما بلغت عنان السماء، وكَسَتْهُ من مَفْرِق رأسه إلى أخمص قدميه؛ فليعمل على التخلص منها قبل أن ينزل به هازم اللذات فينادي ويقول: «رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ» (المؤمنون:٩٩، ١٠٠)، فيجاب عليه: «كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (المؤمنون:١٠٠).

ويوم القيامة يوم الحسرة والندامة حين يرى حسناته، إن كان له حسنات؛ قد نقلت إلى صحيفة من وقع في تجريحهم، والغوص في أعراضهم، والنيل منهم وهو أحوج من غيره إلى تلك الحسنات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قَالَ هَلْ تَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. قَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ؛ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا؛ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» (مسند أحمد:٨٠١٦).

ووقتها «يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا» (الفرقان: ٢٧- ٢٩).

فيا إخواني: هيا بنا نلتف حول علمائنا، ونسمع منهم ونتعلم عنهم العلم النافع؛ فإن حياة العلماء فرصة، قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبقِ عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جُهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» متفق عليه.

اللهم احفظ علماء الأمة الأحياء، وارحم الأموات، واحشرنا وإياهم في الفردوس أعلى درجات الجنات مع نبينا سيد ولد عدنان.

اللّه هو الرزاق

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعدُ:

عبده أحمد الأقرع

فمما يجب على الإنسان الإيمان به؛ أن يؤمن إيمانًا جازمًا لا ريب فيه أن الله تعالى وحده هو الرزّاق، أي: المتكفّل بأرزاق العباد، القائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها، قال الله تعالى: «وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا» (هود:٦)، وبيَّن سبحانه أن الرزق مكتوب في السماء وهو وَعدُ الله وحكمه في القضاء قبل أن يكون واقعًا مقدورًا في الأرض، فقال سبحانه: «وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» (الذاريات:٢٢)، بل أقسم سبحانه بربوبيته على ذلك، فقال تعالى: «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ» (الذاريات:٢٣).

أي: أقسم بربِّ السماء والأرض إن ما توعدون به من الرزق والبعث والنشور لحقٌّ كائن لا محالة مثل نطقكم، فكما لا تشكّون في نطقكم حين تنطقون فكذلك يجب ألا تشكُّوا في الرزق والبعث، وهذا على سبيل التشبيه والتمثيل أي رزقكم مقسوم في السماء كنطقكم فلا تشكوا في ذلك، وهذا كقول القائل: هذا حق كما أنك ههنا، وهذا حقٌّ كما أنك ترى وتسمع.

فالرزق لا يفارق الشخص في حال من الأحوال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله». (صحيح الجامع: ١٦٣٠).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لو فرَّ أحدكم من رزقه، أدركه كما يدركه الموت». (صحيح الترغيب: ١٧٠٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى تمرةً عائرة (أي: ساقطة لا يُعرف لها مالك)، فأخذها فناولها سائلاً، فقال: «أما أنَّك لو لم تأتها لأتتك». (صحيح الترغيب ١٧٠٥).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قامَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فدعا الناس فقال: «هلموا إليَّ». فأقبلوا إليه فجلسوا، فقال: «هذا رسولُ ربِّ العالمينَ، جبريلُ صلى الله عليه وسلم نفث في رُوعي: أنه لا تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها وإن أبطأ عليها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله، فإنَّ الله لا يُنال ما عنده إلا بطاعته». (صحيح الترغيب: ١٧٠٢).

فالأرزاقُ مقسومة ولن يُعجِّل الله شيئًا قبل حله أو يؤخر شيئًا عن حله، قالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّه، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ. (مسلم: ٤/٢٠٥٠).

وفي هذا بيانُ أنَّ الذي قدره الله من الرزق والأجل سيكون في الوقت الذي قدره الله سبحانه قبل أن تخلق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ أحدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أمِّه أربعينَ يومًا نُطفةً، ثُمَّ يكونُ عَلَقةً مثلَ ذلكَ، ثُمَّ يكونُ مُضغةً مثلَ ذلكَ، ثُمَّ يَبعثُ اللهُ ملكًا فيُؤمرُ بأربعِ كلماتٍ، ويُقالُ لهُ: اكتُبْ عملَهُ، ورزقَهُ، وأجلَهُ، وشقيٌّ أو سعيدٌ». (متفق عليه).

فالمتفرد بالرزق هو الله وحده لا شريك له، قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ» (فاطر:٣).

وقال تعالى: «قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ» (سبأ:٢٤)، وأنكر الله تعالى على المشركين عبادتهم للأوثان، فقال تعالى: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ» (النحل:٧٣)، وتحدَّى سبحانه أي مخلوق أنه يصله رزقه من غيره سبحانه وتعالى، فقال تعالى: «أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ» (الملك:٢١).

وقال تعالى في إبطال الشرك: «ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (الروم:٤٠).

وقال تعالى: «وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ

رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (العنكبوت:١٦-١٧)، فالله وحده متكفل برزق جميع المخلوقات، قال تعالى: « وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » (العنكبوت:٦٠)، والمعنى أي: لا تُطيقُ جمعه ولا تحصيله، ولا تدخره شيئًا لغد، (الله رزقها)، أي: يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها، فيبعثُ إلى كلِّ مخلوق من الرزق ما يُصلحه حتى الذر في قرار الأرض والطيرُ في الهواء، والحيتانُ في الماء. (تفسير ابن كثير: ٤٢٠/٣).

ولما كان هذا هو الحق الذي لا ريب فيه، فعلى الجميع أن يثقوا ويطمئنوا بما عند الله من الرزق وإنه من المحال أن يؤثر رزق أحد على آخر وليثق الوالدان أن الله تعالى تكفَّل برزقهما ورزق أبنائهما، فقال تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ» (الأنعام:١٥١)، وقال تعالى: « وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » (الإسراء:٣١).

تأمل- أخي لطائف التعبير القرآني، في الحالة الأولى بيان أن رزقكم مضمون وحاصل ورزقهم معكم، وفي الحالة الثانية رزقهم مضمون ورزقكم معهم: سترزقون بسببهم فلا خوف إذن من الحاضر ولا المستقبل، وفي قوله سبحانه: « نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » (الإسراء:٣١) بدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله، ولذا لما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك». قيل: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَم معك». قيل: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»؛ ثم تلا صلى الله عليه وسلم: «وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » (الفرقان:٦٨).

ثم إن الله تعالى لم يختصَّ برزقه مَن آمن في الحياة الدنيا، وإنما كان الرزق في الدنيا للجميع، للمؤمنين والكافرين، وهذا من عظيم لطفه ورحمته بجميع خلقه، قال الله تعالى: «ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ » (الشورى:١٩)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ؛ يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ» متفق عليه.

الحكمة من تفاوت الأرزاق

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن فاوت بين خلقه في الرزق كما فاوت بينهم في الخَلق والخُلق وهو سبحانه العليم الحكيم، فهو أعلم بما يُصلح خلقه، فمن الناس من لا يصلحه إلا الفقر ولو اغتنى لفسد، ومنهم من لا يصلحه إلا الغنى، ولو افتقر لفسد، قال الله تعالى: « إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا » (الإسراء:٣٠).

وقال تعالى: « وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ » (الشورى:٢٧).

مفاهيم الغنى والفقر وعلاقتها برضا الرب وسخطه

فعليك بالرضا تكن أغنى الناس، قال صلى الله عليه وسلم: «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس». (صحيح الجامع: ١٠٠).

وحسبك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا» (صحيح الجامع: ٦٠٤٢).

وقوله صلى الله عليه وسلم: «قد أفلح مَن أسلم، وكان رزقه كفافًا وقنَّعه الله بما

آتاه». (مسلم: ١٠٥٤).

الوسائل المعينة على الرضا بالأرزاق

ومما يعينك على الرضا أمور: منها: يقينك أنَّ الله تعالى وحده المتكفل بالرزق كما قال الله سبحانه: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ» (فاطر:٣)، وقال الله تعالى: «أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ» (الملك:٢١). والمعنى: أي: من هذا الذي إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده؟ أي: لا أحد. فرزق الجميع على الله وحده، فعلق قلبك بالله وحده، فأنت فقير وغير فقير: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ» (فاطر:١٥)، ومنها: أنك لن تموت حتى تستوفي رزقك وأجلك كاملين: «أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها». (صحيح الجامع: ٢٠٨٥).

ومنها: أن الرزق الذي قدَّره الله لك هو أصلح لحالك: «إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا» (الإسراء:٣٠)، فإن الإنسان يُحمى من فضول الدنيا رحمةً به وإحسانًا إليه، فإنَّ توسيع الرزق قد يكونُ مضرةً على صاحبه، وتقديرهُ قد يكون رحمة لصاحبه، «وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (النور:١٩).

ومنها: أن تنظر لمن هو دونك، قال صلى الله عليه وسلم: «انظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن تزدروا نعمة الله عليكم». (صحيح الجامع: ١٥٠٧).

فمن نظر إلى من هو أسفل منه رأى نفسه ملكًا، فحمد الله، وقنع بما آتاه، وحسبك حال أفضل الخلق بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فعَنْ جَابِرٍ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ نَتَلَقَّى عِيرًا لقُرَيْشٍ، وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ، لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً، قَالَ: فَقُلْتُ كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ قَالَ: نَمُصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ، ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنْ الْمَاءِ، فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ، وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ". (صحيح الترغيب: ٣٣٠٩). ومعنى: «الخبط» ورق شجر معروف تأكله الإبل.

ومنها أن تأخذ بالأسباب المشروعة، قال الله تعالى: «هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ» (الملك:١٥).

وحسبك من ذلك تقوى الله سبحانه المتمثلة في امتثال أوامر الله سبحانه واجتناب نواهيه، فإن تقوى الله وطاعته سببٌ عظيمٌ للرزق والبركة فيه، قال سبحانه: «وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» (الطلاق: ٢-٣). أي: من جهة لا تخطر بباله.

وقال الله سبحانه: «أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ» (الأعراف:٩٦).

والحقيقة الرزق الذي يُعولُ عليه هو الرزق الدائم الذي لا ينقطع ولا يزول، قال الله تعالى: «هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٩ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ» (ص:٤٩-٥٤).

وقال تعالى: «وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا» (الطلاق:١١).

«رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ» (البقرة:٢٠١).

آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

نعمة الصحة والعافية

إعداد: عبده أحمد الأقرع

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعدُ:

فإن من أجلّ النعم نعمة عظمى، ومنَّة كبرى، بعد نعمة الإيمان والإسلام، يغفل عنها كثيرٌ من الناس، ويُقصِّرُ في شكرها خلقٌ كثير وجمّ غفير، تلكم هي نعمة الصحة التي لا يُحس بها إلا مَن فقدها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس؛ الصحة، والفراغ». (صحيح: الجامع ٦٧٧٨).

وقال صلى الله عليه وسلم: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، مُعافًى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها». (صحيح الجامع: ٦٠٤٢).

والصحة خيرٌ من الغنى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا بأس بالغنى لمن اتقى، والصحة لمن اتقى خيرٌ من الغنى، وطيبُ النفس من النعيم». (صحيح الجامع: ٧١٨٢).

لذا كانت الصحة أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة من النعم، قال صلى الله عليه وسلم: «إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نُصحّ لك جسمك، ونُرَوِّيك من الماء البارد؟» (صحيح الجامع: ٢٠٢٢).

فالصحة مغنم ، وقد حثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على استثمارها واغتنامها بالعمل الصالح، قبل أن تحل بالإنسان العوائق، قال صلى الله عليه وسلم: «اغتنم خمسًا قبل خمس». وذكر منها: «وصحتك قبل سقمك». (الحاكم في المستدرك ٤/٣٤١).

فيا أيها الأصحاء: احمدوا الله تعالى واشكروه على نعمة الصحة والعافية، والبدار البدار إلى استثمار صحتكم في مرضاة الله، قبل الفوات، وقديمًا قيل: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى».

ويا من ابتليتم بالمرض: احمدوا الله على كل حال، قال صلى الله عليه وسلم: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له». (مسلم: ٢٩٩٩).

يُبتلى المؤمن ليُهَذَّب لا ليُعَذَّب، والمكروه قد يأتي بالمحبوب، والمرغوب قد يأتي بالمكروه، قال الله تعالى: «وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ» (البقرة:٢١٦).

قال ابن الجوزي: «من أراد أن تدوم له السلامة والعافية من غير بلاء، فما عرف التكليف ولا أدرك التسليم».

سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبْتَلَى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة ابتلاه الله على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة». (صحيح

الترغيب: ٣٤٠٢).

وها هو سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه:

عن أبي سعيد رضي الله عنه: أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موعوك عليه قطيفة، فوضع يده فوق القطيفة، فقال: ما أشد حُماك يا رسول الله، قال: «إنا كذلك يُشدَّ علينا البلاءُ ويُضاعف لنا الأجر». ثم قال: يا رسول الله، من أشد الناس بلاءً؟ قال: «الأنبياء». قال: ثم من؟ قال: «العلماء». قال: ثم من؟ قال: «الصالحون.. ولأحدهم كان أشد فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء». (صحيح الترغيب ٣٤٠٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك، فقلتُ: يا رسول الله إنك توعك وعكًا شديدًا، قال: «أجل إني أوعك كما يُوعَك رجلان منكم». قلتُ: ذلك أن لك أجرين؟ قال: «أجل ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها، إلا كفر الله به سيئاته، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها». (متفق عليه).

فيا أخي المريض: اصبر- عافاك الله- فإن كتمان المصائب والأوجاع من شِيَم النبلاء، فصابر هجير البلاء فما أسرع زواله، وغاية الأمر صبر أيام قلائل، والصابرون مجزيون بخير الثواب، قال الله تعالى: «وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (النحل:٩٦)، وأجورهم مضاعفة، قال الله تعالى: «أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا» (القصص:٥٤)، بل وبغير حساب، قال الله تعالى: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ» (الزمر:١٠)، والجنة دارهم ومستقرهم.

عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلتُ: بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف فادع الله لي، قال: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك». فقالت: أصبرُ. فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي ألا أتكشف. فدعا لها. متفق عليه.

وربما كان الصبر على المرض يبلغ صاحبه أعلى المنازل في الجنة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل، فما يزال يبتليه بما يكره حتى يُبَلِّغه إياها». (صحيح الترغيب: ٣٤٠٨).

فاصبر أخي المريض واحتسب واحذر التشكي إلى الناس، رأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته، فقال: يا هذا، والله ما زدت أن شكوت مَن يرحمك إلى مَن لا يرحمك!، والعارف إنما يشكو إلى الله وحده.

قال الله تعالى حكاية عن نبيه أيوب عليه السلام: «وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ» (الأنبياء: ٨٣-٨٤).

علق عليه السلام قلبه بالذي بيده كشف الضر وحده، فقد قال الله تعالى: «وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (الأنعام:١٧)، وأما الشكوى للناس فلا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين، فقال: انظروا ما يقول لعواده، فإن هو إذا جاؤوه حمد الله وأثنى عليه رفعًا ذلك إلى الله عز وجل وهو أعلم، فيقول: لعبدي عليَّ إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن شفيته أن أبدله لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه وأن أكفر عنه سيئاته». (صحيح الترغيب: ٣٤٣١).

واعلم أخي المريض-عافك الله- أن المرض دليل المحبة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط». (صحيح الجامع: ٢١١٠).

ومع الصبر والرضى أن تأخذ بأسباب الشفاء بإذن الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد، الهرم». (صحيح سنن أبي داود: ٤٦١/٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى لم يُنزل داءً إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله إلا السام، وهو الموت». (صحيح الجامع: ١٨٠٩).

وهكذا يقوّي النبي صلى الله عليه وسلم الأمل في نفس المريض، ويفتح له باب الرجاء في الشفاء بإذن الله، فالله تعالى هو الشافي ولذلك قال

الخليل إبراهيم عليه السلام: «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» (الشعراء:٨٠)، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى مريضًا أو أوتي به إليه، قال عليه الصلاة والسلام: «أذهب الباس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاءك، شفاءً لا يغادر سقمًا». متفق عليه.

فالشافي هو الله سبحانه والأخذ بالأسباب سبب، ومن أسباب الشفاء- بإذن الله تعالى-:

أسباب الشفاء:

أولاً: القرآن الكريم: قال الله تعالى: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» (الإسراء:٨٢)، وقال تعالى عن القرآن: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ» (فصلت:٤٤)، قال ابن القيم رحمه الله: «فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء يعني: الأمراض». اهـ.

قلتُ: ولا سيما فاتحة الكتاب أم القرآن، فإنها كافيةٌ شافية، قال ابن القيم رحمه الله: «فانطلق فجعل يتفل ويقرأ: «الحمد لله رب العالمين»، حتى لكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي ما به قَلَبَة» (أي: ألم وعلة).

قال: «فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء وأزاله، حتى كأنه لم يكن، وهو أسهل دواء وأيسره، ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرًا عجيبًا في الشفاء، ومكثت بمكة مدة يعتريني أدواءٌ ولا أجد طبيبًا ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرًا عجيبًا، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألمًا، فكان كثيرًا منهم يبرأ سريعًا». (الجواب الكافي ص٥).

وكذلك المعوذات: «قل هو الله أحد»، و«قل أعوذ برب الفلق»، و«قل أعوذ برب الناس»، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث. متفق عليه.

ثانيًا: العسل: قال الله تعالى عن العسل: «شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ» (النحل:٦٩)، وقال صلى الله عليه وسلم: «الشفاء في ثلاثة: في شرط محجم، أو شربة عسل، أو كيَّة بنار، وأنهى أمتي عن الكي». (البخاري: ١٠/١٣٧).

ثالثًا: الحجامة: قال صلى الله عليه وسلم: «إنْ كان في شيء مما تداويتم به خيرٌ فالحجامة». (فتح الباري: ٥٧٠٢).

وعن سلمى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كان أحد يشتكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعًا في رأسه إلا قال: «احتجم». ولا وجعًا في رجليه إلا قال: «اخضبهما». (صحيح سنن أبي داود: ٣٨٥٨).

وقال صلى الله عليه وسلم: «من احتجم لسبع عشرة وتسع عشرة، أو إحدى وعشرين، كان شفاء من كل داء». (صحيح سنن أبي داود: ٣٨٦١).

رابعًا: الحبة السوداء: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام». يعني: الموت. البخاري (١٠/١٤٣).

خامسًا: القسط الهندي، (العود الهندي): قال صلى الله عليه وسلم: «عليكم بهذا العود الهندي، فإن فيه سبعة أشفية». (فتح الباري: ٥٦٩٢).

سادسًا: ألبان البقر: قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له شفاء، فعليكم بألبان البقر، فإنها ترم من كل الشجر». (صحيح الجامع: ١٨٠٨).

سابعًا: ماء زمزم: قال صلى الله عليه وسلم: «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم فيه طعام من الطعم، وشفاء من السقم». (صحيح الجامع ٣٣٢٢).

ثامنًا: الماء: قال صلى الله عليه وسلم: «الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء». (البخاري: ١٠/١٧٤).

تاسعًا: العجوة: والعجوة ضرب من أجود تمر المدينة النبوية، قال صلى الله عليه وسلم: «في العجوة العالية شفاء». (مسلم: ٢٠٤٨).

عاشرًا: التلبينة: قال صلى الله عليه وسلم: «إن التلبينة تُجمّ فؤاد المريض، وتذهب ببعض الحزن». (فتح الباري: ٥٤١٧).

ولا تنسى الصدقة، قال صلى الله عليه وسلم: «داووا مرضاكم بالصدقة». (صحيح الجامع: ٣٣٥٨).

وأخيرًا: شفاك الله وعفاك- أخي- وأبشرك بأن ثواب عملك الصالح الذي كنت تؤديه في حال صحتك لا ينقطع، قال صلى الله عليه وسلم: «إذا مرض العبد أو سافر كُتِبَ له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا». (صحيح الترغيب: ٣٤٢٠).

فاللهم اشفِ مرضى المسلمين، آمين.

علاماتُ محبة العبد لربه

الحمد لله وحده، وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعدُ:

فإن النفوس جُبلت على حُبّ مَن أحسن، وإحسانُ الله إلى العباد لا يدنو منه إحسان، وحسبنا قول الله تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام: «إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ» (الشعراء:٧٧-٨٢)، فكل نعمة نحن فيها فهي من الله سبحانه؛ قال الله تعالى: «وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ» (النحل:٥٣)، ونِعَم الله لا تُحصَى ولا تُعَدُّ، قال تعالى: «وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» (إبراهيم:٣٤).

إعداد: عبده الأقرع

حبُّ الله سبحانه فرض عين على كل إنسان، وقد توعَّد الله سبحانه الذين يُحبون غيره مثل حبّه، فقال تعالى: «وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ» (البقرة:١٦٥).

وقال سبحانه: «قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ» (التوبة:٢٤)، فوجب علينا أنّ نفرد الله سبحانه بالمحبة؛ لأنه المستحقُّ لذاته، وكل ما سواهُ فإنما يحبُّ من أجله سبحانه، فإن من كمال الحب أن يُحب المحب كل ما يُحبه المحبوب، وأن يُبغض كل ما يبغضه.

ولكن حبَّ الله ليس مُجرد كلمات تُقال، وإنما الحب طاعة وامتثال كما حدث مع خَليل الله إبراهيم، وفلذة كبده إسماعيل عليهما السلام، قال الله تعالى: «رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» (الصافات:١٠٠-١٠٧).

هذا هو الحب الحقيقي، خضوع وانقياد واستسلام لأمر الله، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حبًّا شديدًا، وهو خليل الرحمن، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه، بابنه إسماعيل، أراد الله تعالى أن يصفي وُده ويختبر خُلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه، حُب ربه، فلما قدم حُب الله وآثره على هواه وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه، فلهذا قال تعالى: «إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» (الصافات:١٠٧) أي: صار بدلاً منه ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم فكان عظيمًا من جهة أنه كان فداءً لإسماعيل ومن

جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قربانًا وسُنة إلى يوم القيامة. (تيسير الكريم الرحمن: ٦/ ٣٩٠).

فحب العبد لربه سبحانه وتعالى طاعة وامتثال، وليس قولاً وادعاءً، فكم من إنسان قد يظنُّ أنه يحبُّ الله سبحانه وتعالى وهو ليس كذلك، وقد يُظن أنه قريبٌ من الله وهو منه بعيد، فهناك علاماتٌ لذلك الحب تُفرق بين الصادق والكاذب، فمن أحب الله حقًا ظهرت عليه علاماتُ الحب، فإن الحب في القلب ولكن تظهر آثاره على البدن كله، لذلك يكون حب الله عز وجل اعتقادًا بالجنان، وقولاً باللسان وعملاً بالأركان يزيد بالطاعة وينقصُ بالمعصية، فمن هذه العلامات:

علامات حب الله تعالى:

منها: اتباع النبي صلى الله عليه وسلم:

أمر الله سبحانه بامتثال أوامر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، واجتناب نواهيه، قال الله تعالى: «وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ » (الحشر:٧)، وجعل الله سبحانه اتباع النبي صلى الله عليه وسلم عنوان محبته سبحانه، قال الله تعالى: « قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (آل عمران:٣١).

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل مَن ادَّعَى محبة الله وليس على الطريقة المحمدية فإنه كاذبٌ في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمديَّ والدِّين النبويَّ في جميع أقواله وأفعاله وأحواله». اهـ.

وقال الحسنُ البصري رحمه الله: «زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم -أي: امتحنهم- بهذه الآية: « قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ » (آل عمران:٣١)، وكانوا يسمونها آية المحبة. أي: (الاختبار والامتحان)، فإن صدقوا في دعواهم واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبهم الله عز وجل، وذلك أعظمُ لهم من أن يحبوه، قال بعضُ السلف: «ليس الشأنُ أن تُحبَ ولكن الشأن أن تُحبَّ». أي: ليس الشأن أن تُحبَّ الله، لأنه قد يكون حُبّك هذا ادعاءً، ولكن الشأن أن يُحبّك الله، فاتباع النبي صلى الله عليه وسلم، واقتفاء أثره والتمسك بسنته هو شاهدُ صدق العبد في محبته، وكلما عظم الحب زاد الاتباع، وكلما نقص الحب نقص الاتباع.

فكلُّ من يرجو الله واليوم الآخر، يجعلُ الرسول عليه الصلاة والسلام قدوته، وأسوته، فقد أمر الله تعالى بذلك، حيث قال: « لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا » (الأحزاب:٢١).

وأهل الإيمان الحقّ يستمدون من الهدي النبوي كل أمورهم، فلا تستوي الأمور، وتستقيم السبل إلا بذلك، فبهداه عليه الصلاة والسلام يهتدون، وعلى ضوء سنته يسيرون، فاتباع النبي صلى الله عليه وسلم سبب كل خير، سبب الهداية التي هي أعظم غاية، قال الله تعالى: «وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (الأعراف:١٥٨)، وسبب رحمة الله تعالى الواسعة، قال الله تعالى: «وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ » (الأعراف:١٥٧).

وسبب الفلاح: قال الله تعالى: «فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » (الأعراف:١٥٧)، فاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم عنوان محبة الله سبحانه، فمن لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم متبعًا لم يكن لله تعالى محبًّا، ولقد أحبَّ سلف هذه الأمة سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فعملوا بها، ودَعَوْا إليها، وذبُّوا عنها، فكان هذا برهانًا ساطعًا على حبهم لله عز وجل.

فهذا صديق الأمة رضي الله عنه، يقول: «لست تاركًا شيئًا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملتُ به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ». (الإبانة: ١/ ٢٤٦).

وهذا فاروق الأمة رضي الله عنه يقول عن الحجر الأسود: «إني أعلم أنك حَجر لا تَضُرّ ولا تنفع، ولولا أني رأيتُ النبي يُقبّلك ما قبلتك». متفق عليه.

وهذا ابن عمر رضي الله عنهما، عن مجاهد، قال: «كنا مع ابن عُمر رضي الله عنهما فمر بمكان فحاد عنه، أي: تنحى عنه، وأخذ يمينًا أو شمالاً، فسُئل لمَ فَعَلْتَ؟ فقال: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل هذا ففعلتُ». (صحيح الترغيب: ٤٦).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أنه كان يأتي شجرةً بين مكة والمدينة، فيقيلُ تحتها، ويُخبر أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك». (صحيح الترغيب: ٤٧).

«يقيل»: من القيلولة. وعن ابن سيرين، قال: «كنتُ مع ابن عمر بـ«عرفات» فلما كان حين راح رُحتُ معه حتى أتى الإمام فصلَّى معه الأولى والعصر، ثم وقف معه وأنا وأصحابٌ لي حتى أفاض الإمام فأفضنا معه، حتى انتهينا إلى المضيق دون المأزمين، فأناخ وأنخنا، ونحنُ نحسبُ أنه يريدُ أن يصلي، فقال غلامه الذي يُمسك راحلته: إنه ليس يريد الصلاة، ولكنه ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما انتهى إلى هذا المكان قضى حاجته، فهو يحب أن يقضي حاجته». (صحيح الترغيب: ٤٨).

سبحان الله، ما أعظم الاتباع، وما أصدق حب الله!!

ومنها: قراءة القرآن: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَن سرَّه أن يحبَّ الله ورسوله فليقرأ في المصحف». (صحيح الجامع: ٦٢٨٩).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله فليعرض نفسه على القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله فإنما القرآن كلامُ الله». وكان رضي الله عنه إذا أُهدي إليه المصحف يفرحُ به ويقولُ: «كلام ربي، كلامُ ربي».

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم».

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «كفى بالله حبيبًا، وبالقرآن مؤنسًا، وبالموت واعظًا، ومن لم يتخذ الله صاحبًا والقرآن مؤنسًا فلا آنس الله وحشته».

سبحانَ الله، أين المسلمون اليومَ من هذا القرآن العظيم؟

ومنها: الحب في الله، ولذلك قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله». (صحيح الجامع: ٢٠٠٩).

وبه كمالُ الإيمان، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان». (صحيح الجامع: ٥٩٦٥).

ومنها: الرضا بقضاء الله وقدره:

قال علقمة: المصيبةُ تصيب الرجل فليعلم أنها من عند الله فيسلّم لها، والرضا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط». (صحيح الجامع: ٢١١٠).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «وأسألك الرضا بعد القضاء». (صحيح الجامع: ١٣٠١)؛ سأل الرضا بعد القضاء؛ لأنه حينئذ تبين حقيقة الرضا، وإنما الرضا بعد القضاء فإنه عزمٌ من العبد على الرضا، وإنما يتحقق الرضا إذا وقع القضاء.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إن الله إذا قضى قضاءً أحب أن يُرضَى به». وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أصبحت ومالي سرورٌ إلا في مواقع القضاء والقدر فمن وصل إلى هذه الدرجة كان عيشه كله في نعيم وسرور، قال الله تعالى: « مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً » (النحل:٩٧)، ومنها: الإكثار من ذكر الله تعالى: المؤمن لا يفتر لسانه عن ذكر الله، قال الله تعالى: «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ» (البقرة:١٦٥)، وقد أمر الله تعالى بالإكثار من ذكره، فقال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا» (الأحزاب:٤١)، قال الطبري: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذكرًا كثيرًا، فلا تخلو أبدانكم من ذكره في حالٍ من أحوال طاقتكم ذلك. (جامع البيان: ٢٢/١٧). اهـ.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأتي عليه وقت إلا وهو ذاكرٌ لربه، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يذكر الله تعالى على كل أحيانه». رواه مسلم.

وحسبك قول الله تعالى: «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» (البقرة:١٥٢). قيل: ليس العجب قوله: «فاذكروني»، ولكن العجب كله من قوله: «أذكركم»، فمحبة الله تعالى ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل، بحيث يكون هو وحده سبحانه المهيمن على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا، والنعيم الذي لا يُشبهه نعيم، وهو قُرة عين المحبين، وحياة العارفين، تعلق القلب بالله وحده واللهج بذكره والقناعة: أسبابٌ لزوال الهموم والغموم، وانشراح الصدر والحياة الطيبة، فإن نطق فبالله، وإن تكلم فعن الله، وإن سكن فمع الله، والضد بالضد، فلا أضيق صدرًا، وأكثر همًا، ممن تعلق قلبه بغير الله، ونسي ذكر الله، وقد قال الله سبحانه: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ» (طه: ١٢٤-١٢٧).

ومنها: حب الصلاة:

فتستشعر القلوب رهبة الوقوف في الصلاة بين يدي الله، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل عندما يشتغلون بمناجاة الجبار جل جلاله، وحينئذ تكونُ الصلاة راحة قلبية، وطمأنينة نفسية، وقرة عين حقيقية، كما كان حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة». (صحيح سنن النسائي: ٣٦٨٠).

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة». (صحيح سنن أبي داود: ٤١٧١).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاةُ خرج إلى الصلاة». (البخاري: ٦٧٦).

وربما ترك أحب الناس إليه من أجل صلاته بالليل، فعن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فقال عُبيد بن عمير: حدثينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبكت، وقالت: "قام صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي فقال: يا عائشة، ذريني أتعبد لربي، قالت: قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرُّك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجْره، ثم بكى. فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض، وجاء بلال يؤذن بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ لقد أُنزلت عليَّ الليلة آية، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ» (آل عمران:١٩٠). والحديث في صحيح الترغيب رقم (١٤٦٨).

ومنها: الشوق للقاء الله:

وكان من جملة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مُضرة، ولا فتنة مضلة». (صحيح الجامع: ١٣٠١). والشوق إلى لقائك. قال ابن القيم رحمه الله: جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا وهو النظر إليه. اهـ. وأطيب ما في الآخرة وهو النظر إليه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس اشتياقًا لربه؛ حيث قال عليه الصلاة والسلام في خطبته: «إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ. فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، فَعَجِبْنَا لِبُكَائِهِ أَنْ يُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَبْدٍ خُيِّرَ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخَيَّرَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا». (البخاري: ١٢/٧).

اللهم إنا نسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، إنك ولي ذلك والقادر عليه.

علامات محبة الله تعالى للعبد

إعداد: عبده أحمد الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده؛ نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبعدُ:

فقد تحدثنا بفضل الله تعالى في العدد الماضي عن علامات محبة العبد لربه، وحتى تكمل الفائدة بإذن الله تعالى أذكر نفسي وإخواني ببعض علامات محبة الله للعبد؛ راجيًا ربي سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أهلها، فنقول- وبالله تعالى التوفيق-:

إن لحبِّ الله لعباده علامات وهي كالبشرى العاجلة لهم لتطمئن بها قلوبهم، وتسعد بها نفوسهم، فيا سعادة من وُفِّق وكانت فيه هذه العلامات أو بعضها، ويا فرحة من أكرمهُ الله بحبه وأسعده بقربه؛ فقد قيل: «ليس الشأن أن تُحِبَّ، ولكن الشأن أن تُحَبَّ». أي ليس الأمر أن تظن أنك تحب الله، ولكنَّ الشأن العظيم أن يُحبَّك الله، وحسبك من حب الله تعالى لك النجاة من النار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله؛ لا يُلقي الله حبيبه في النار». (صحيح الجامع: ٧٠٩٥).

فمن هذه العلامات: محبة الناس لك:

يُلقي الله محبة حبيبه في قلوب عباده، كما قال الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي» (طه:٣٩).

وقال تعالى عن المؤمنين: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا» (مريم:٩٦)، «هذا من نعمه على عباده، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن يجعل لهم ودًّا أي: محبة و ودادًا في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإنما جعل الله لهم ودًّا لأنهم ودوه، فودَّدهم إلى أوليائه وأحبابه». (تيسير الكريم الرحمن ٥/ ١٤٠).

وفي الحديث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الله إذا أحبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إنِّي أحبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ». (متفق عليه).

فمحبة الناس لعبد ما، ولا سيما أهل الصلاح والتقوى أمارة على حب الله لهذا الإنسان المحب؛ لأنه لا يقدر على تأليف القلوب إلا الله وحده، ولذلك قال الله لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: «هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (الأنفال:٦٢، ٦٣)، وتأمل أيها المسلم قول الله

تعالى: «لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» (الأنفال:٦٣)، من ذهب وفضة وغيرهما، دل ذلك على عظيم الأمر وأنه لا يقدر عليه إلا الله وحده، كما أن ثناء الناس على إنسان بالخير عاجل بشرى المؤمن إنه من أهل الجنة- إن شاء الله تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أهل الجنة من ملأ الله تعالى، أذنيه من ثناء الناس خيرًا وهو يسمع، وأهل النار من ملأ الله تعالى، أذنيه من ثناء الناس شرًا وهو يسمع». (صحيح الجامع: ٢٥٢٧).

فاهتم أخي الحبيب بهذا الجانب، واسمع ماذا يقول الناس عنك، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنتم شهداء الله في الأرض». (متفق عليه).

وقال صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد إلا وله صيت في السماء، فإذا كان صيته في السماء حسنًا وُضِعَ في الأرض حسنًا، وإذا كان صيته في السماء سيئًا وضع في الأرض سيئًا». (صحيح الجامع: ٥٧٣٢).

ومنها: ما جاء في هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ». (البخاري: ٦٥٠٢).

ذكر رب العزة سبحانه في هذا الحديث الإلهي ست علامات تدل على محبته سبحانه لعبده:

الأولى: «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ».

والمعنى: أني أسدده في سمعه، فلا يسمع إلا ما يرضي الله، فالذي يحبه الله يحفظ عليه سمعه، فلا يسمع إلا ما يحبه الله ويرضاه، قال الله تعالى في وصف عباد الرحمن: «وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا» (الفرقان:٧٢)، فهم لا يحضرون مجالس الكذب، والغيبة، والنميمة، والخوض في آيات الله، والاستهزاء بها، ومجالس الغناء، واللهو، وغير ذلك مما حرم الله الاستماع إليه؛ لأن جليس القوم شريكهم وإن لم يشاركهم، قال الله تعالى: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ» (النساء:١٤٠)، وقال تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (الأنعام:٦٨)، فاعرض نفسك أخي على ما ذكر وغيره مما حرم الله سماعه، فإن كنت تسمع شيئًا من ذلك فلو كان الله يحبك لحفظ عليك سمعك، كما قال الحسن البصري رحمه الله: «هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحدٌ». كما قال الله تعالى: «وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ» (الحج:١٨).

الثانية: «وبصره الذي يُبصر به».

والمعنى: أسدده في بصره، فلا يبصر إلا ما يحب الله، والبصر نعمة من أجلّ وأعظم نعم الله علينا، ومن عظيم قدرها أن أبدل الله عز وجل مَن سُلبَ منه بصره فصبر الجنة، عن أَنَس بْن مَالك رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّ اللَّه قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْه فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّة». (البخاري: ١٦٣، ١٦٤)، يريد عينيه.

وقال صلى الله عليه وسلم: «يقول الله: إذا أخذتُ كريمتي عبدي فصبرَ واحتسب، لم أرضَ له ثوابًا دون الجنة». (صحيح الترغيب: ٣٤٥٢).

فنعمة البصر من أعظم النعم ونعم الله لا تستخدم إلا في طاعته سبحانه، أما إذا كانت خلاف ذلك، فإنها تكون سببًا للحسرة في الدنيا، والندامة في الآخرة، ولذلك جاء الأمر الإلهي للمؤمنين كافة بغض البصر وحفظه، قال تعالى: «قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» (النور:٣٠).

وهذا أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضّوا من أبصارهم عما حرَّم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، فإن العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بغض البصر وضمن الجنة لمن غض بصره، فقال صلى الله عليه وسلم: «اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة». وذكر منها: «واحفظوا فروجكم

وغضوا أبصاركم». (صحيح الجامع: ١٠١٨).

وقد عدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم النظر نوعًا من الزنا، فقال صلى الله عليه وسلم: «كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدركٌ ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظرُ». (متفق عليه).

وكان الصالحون من عباد الله يتواصون بغض البصر، قال وكيع بن الجراح رحمه الله: «خرجنا مع سفيان الثوري في يوم عيد، فقال: "إن أول ما نبدأ به في يومنا غض أبصارنا". وقد قيل: "من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته".

ومما يعينك أخي على غض بصرك تذكر قول الله تعالى: «يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ» (غافر:١٩)، فاعلم أنَّ الله يراك، واحذر أن تكون ممن قال الله فيهم: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا» (النساء:١٠٨)؛ فغض طرفك أخي عن كل حرام، وغض طرفك عن كل مفضول، قال الله تعالى: «وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ» (طه:١٣١)، أي: ولا تمد عينيك معجبًا، ولا تكرر النظر مستحسنًا إلى أحوال الدنيا والمتمتعين بها، من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الناضرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المجملة، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجابًا بأبصار المعرضين، ويتمتع بها القوم الظالمون، ثم تذهب سريعًا، وتمضي جميعًا، وتقتل محبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختبارًا، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملاً كما قال تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا» (الكهف: ٧، ٨)، «ورزق ربك» العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة والآجل من النعيم المقيم والعيش السليم في جوار الرب الرحيم «خير» مما متعنا به أزواجًا في ذاته وصفاته «وأبقى» لكونه لا ينقطع، أكلها دائم وظلها كما قال تعالى: «بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ» (الأعلى: ١٦، ١٧)، وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحًا إلى زينة الدنيا، وإقبالاً عليها أن يذكر ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا. (تيسير الكريم الرحمن: ٢٠٢/٥).

الثالثة: «ويده التي يبطش بها»:

أي: لا تمتد يده إلا إلى ما يحبه الله ويرضاه، ويكفها عما حرم الله، وقد ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة لمن كفَّ يده عن الحرام، فقال صلى الله عليه وسلم: «اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة». وذكر: «وكفوا أيديكم». (صحيح الجامع: ١٠١٨).

فمن علامات حب الله للعبد: أن يحفظ عليه يده عن كل حرام فلا يسفك دمًا حرامًا، ولا يزهق نفسًا بريئة، ولا يضرب بيده من لا يستحق الضرب تأسيًا بالنبي صلى الله عليه وسلم، قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط بيده، ولا امرأة ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيءٌ قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى». (مسلم: ٢٣٠٩).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنكر على مَن ضرب إنسانًا، عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: «كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من خلفي: اعلم أبا مسعود. فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو يقول: اعلم أبا مسعود أن الله أقدرُ عليك منك على هذا الغلام. فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا». (مسلم: ١٦٥٩).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجل فقعد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إن لي مملوكين يكذبونني، ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم،

اقتُصَّ لهم منك الفضل. فتنحى الرجل، وجعل يهتف ويبكي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما تقرأ قول الله تعالى: «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين». فقال الرجل: يا رسول الله! ما أجد لي ولهؤلاء شيئًا خيرًا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم. (صحيح الترغيب: ٢٢٩٠)، فأعتق العبيد الذين عنده، حتى لا يُسأل عنهم يوم القيامة.

ويحفظ يده فلا تمسّ جسم امرأة أجنبية قط، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خيرٌ من له أن يمس امرأةً لا تحل له». (الصحيحة: ٢٢٦).

«المخيط»: هو ما يُخاطُ به كالإبرة والمسلة ونحوهما، فالمعصوم من عصمه الله، ومما يعينك أخي على حفظ يدك من كل شر أن تتذكر قول الله تعالى: « ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ » (يس:٦٥)، وقوله تعالى: « إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » (النبأ:٤٠)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده». (متفق عليه). فإن أحبك الله حفظ عليك يديك.

الرابعة: «ورجله التي يمشي بها»:

فلا يمشي إلى ما حرم الله من الأعمال والأماكن، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والرِّجل زناها الخطا». متفق عليه، فإذا أردت أخي أن تمشي سل نفسك أولاً إلى أين تذهب؟ وتذكر شهادة الأرض يوم القيامة، قال الله تعالى: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» (الزلزلة:٤)، وقد فطن لذلك الصحابي الأنصاري رضي الله عنه وكان لا يُعلم أنَّ أحدًا أبعد من المسجد منه، وكانت لا تخطئه صلاةٌ، فقيل له: لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء، وفي الرمضاء، فقال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعتُ إلى أهلي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد جمع الله لك ذلك كله». متفق عليه، فمن أحب الله فلا يمشي إلا لما يرضي الله عز وجل، فيكون مسددًا في أقواله وفي أفعاله.

الخامسة: «وإن سألني لأعطينه»:

فأي كرم أعظم من هذا الكرم؟ العبد المحبوب عند الله تعالى له منزلةٌ عظيمة عنده، إذا سأله الله شيئًا أعطاه الله، وإن دعاه أجابه، فيصير مجاب الدعوة.

وقد كان كثير من الصحابة والتابعين معروفين بإجابة الدعوة، أكتفي بذكر الصحابي أنس بن النضر رضي الله عنه، كان إذا أقسم على الله أبرَّ قسمه.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: كسرت الربيع بنت النضر ثنية جارية، فطلبوا الأرش (الأرش: هو الدية التي تدفع في الجراحات)، وطلبوا العفو، فأبوا، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فأمرهم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله؟ لا والذي بعثك بالحق لا تُكسر ثنيتها، فقال صلى الله عليه وسلم: «يا أنس كتاب الله القصاص»، فرضي القومُ وعفَوْا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره». (البخاري: ٢٧٠٣).

السادسة: «ولئن استعاذني لأعيذنه»:

من أحبه الله أعاذه الله من كل شر ومكروه، وحسبنا قول الله تعالى حكاية عن امرأة عمران: « إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ » (آل عمران:٣٥، ٣٦)، فاستجاب الله لها ذلك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود يولد إلا مسَّه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مسه إلا مريم وابنها». يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: «وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» (البخاري: ٣١٥٩/٨، ومسلم: ٢٢٤/٢).

فهذي بعض علامات محبة الرب سبحانه لعباده، فاعرض نفسك أخي عليها هل أنت منهم.

اللهم اجعلنا من أحبابك وأوليائك إنك سميع الدعاء.

للصائم دعوة لا ترد

إعداد: عبده الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

فالدعاء شأنه عظيم، ومكانته سامية، ومنزلته عالية؛ إذ هو أجلّ العبادات، وأعظم الطاعات وأنفع القُرُبَات.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الدعاء هو العبادة». ثم قرأ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر:٦٠).

ولهذا جاءت النصوص الكثيرة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم المبيِّنة لفضل الدعاء والمنوهة بمكانته وعظيم شأنه، والمرغبة فيه والحاثة عليه، قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٥- ٥٦)، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (غافر:٦٥).

وقد أثنى ربنا سبحانه على المؤمنين الصادقين الذين استجابوا لربهم ونعتهم فقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٥-١٧)، فكما صلوا في الليل، ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم الله من جنس عملهم، فأخفى أجرهم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحثّ على الدعاء ويرغّب فيه؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء». (صحيح الترغيب: ١٦٣٤).

وبيّن صلى الله عليه وسلم أن الدعاء من أقوى الأسباب في دَفْع المكروه، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيدُ في العمر إلا البرّ». (صحيح الترغيب: ١٦٣٨).

كما بَيَّنَ صلى الله عليه وسلم أن الله مع من دعاه فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يقول: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني». (مسلم: ٢٦٧٥).

وإن من دعا الله غفر له، قال صلى الله عليه وسلم: «قال الله عزوجل: ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي». (صحيح الجامع: ٤٣٣٨).

وقد أنكر الله تعالى على أقوام ابتلاهم ليدعوه فلم يفطنوا لذلك؛ فحقت عليهم كلمة العذاب، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٤٢-٤٥).

وفي هذا وعدٌ ووعيدٌ؛ فالواجب على كل مبتلى أن يتضرع إلى الله، فالله يبتلي العباد ليسمع دعاءهم وتضرعهم فإن هم فعلوا نفعهم هذا؛ هذا هو الوعد؛ قال الله تعالى عن قوم يونس عليه السلام: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (يونس:٩٨).

وهذا يبين لنا عظيم شأن الدعاء، وأنه أساس العبودية وروحها، وعنوان التذلل والخضوع والانكسار بين يدي الرب سبحانه، وإظهار الافتقار إليه، لذا توعد الله من استكبر عن دعائه، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر:٦٠)، وهذا من لطفه بعباده، ونعمته العظيمة؛ حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه، دعاء العبادة، ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد

من استكبر عنها؛ فقال: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » (غافر:٦٠) أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جزاءًا على استكبارهم. (تيسير الكريم الرحمن: ٦/٥٤٠).

فالله عز وجل يحب من عبده أن يسأله ويدعوه، ويغضب على من لم يسأله ولم يدعُهُ، قال صلى الله عليه وسلم: «مَن لَمْ يسأل الله يغضب عليه». (الصحيحة: ٢٦٥٤).

ولهذا فإن العبد كلما عظمت معرفته بالله وقويت صلته به كان دعاؤه له أعظم، وانكساره بين يديه أشد، ولهذا كان أنبياء الله ورسله أعظم الناس تحقيقًا للدعاء وقيامًا به في أحوالهم كلها وشؤونهم جميعها، وقد أثنى الله عليهم بذلك في وصفهم: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ » (الأنبياء:٩٠)، وقد انتفع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأدعيتهم؛ فهذا نبي الله آدم عليه السلام وزوجه لما دعوا الله وقالا: «رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ » (الأعراف:٢٣)؛ استجاب الله له «فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ » (البقرة:٣٧).

وهذا نبي الله نوح عليه السلام انتفع بدعائه لما «قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (الشعراء: ١١٧- ١١٨)؛ استجاب الله دعاءه، قال الله تعالى: «فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ » (الشعراء:١١٩- ١٢٢)، وهذا نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام انتفع بدعائه لما قال: «رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ » (الشعراء:٨٣-٨٤)، قال أهل العلم: قد أجاب الله دعاء نبيه إبراهيم الخليل عليه السلام، فوهب له من العلم والحكم ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبًا مقبولاً معظمًا مثنى عليه في جميع الملك في جميع الأوقات. (تيسير الكريم الرحمن: ٥/٢٢٥)، «وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ » (الشعراء:٨٤) أي: اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر، وقد استجاب الله تعالى له، فمن أركان الصلاة التشهد وفيه نقول: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». متفق عليه.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصبح وإذا أمسى قال: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين». (صحيح الجامع: ٤٦٧٤).

وإذا أمسى يقول: «أمسينا..»؛ فبسبب الدعاء جعل الله لخليله إبراهيم عليه السلام هذه المراتب العلية والثناء الحسن.

وهذا نبي الله يونس عليه السلام نفعه دعاؤه فنجاه الله من الغم، قال الله تعالى: «وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ » (الأنبياء: ٨٧- ٨٨).

نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فكم استجاب الله دعاءه!، فمن ذلك أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة والنبي يخطب على المنبر، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغثنا، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا». قال أنس رضي الله عنه: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب، ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، فلا والله ما رأينا الشمس ستًّا، ثم دخل رجلٌ من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب، فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السُّبُل، فادع الله يمسكها عنا، قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال: «اللهم

حوالينا، ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر». قال: فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس. (متفق عليه).

ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأم أبي هريرة بالهداية للإسلام فاستجاب الله له، قال صلى الله عليه وسلم: «اللهم اهد أم أبي هريرة». (مسلم: ٢٤٩١). ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك رضي الله عنه: «اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته». متفق عليه، يقول أنس رضي الله عنه: فوالله إن مالي لكثيرٌ، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادُّون على نحو المائة اليوم. (مسلم: ٨٤١).

وقوله صلى الله عليه وسلم: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك؛ بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام». (صحيح الترمذي: ٣٦٨١)، فهدى الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

دعوة الصائم مستجابة

إن دعوة الصائم مُجابة لا ترد، فيا أخي الصائم، يا أختي الصائمة الدعاءَ الدعاء لا تملوا ولا تكلوا منه، فإن الدعاء سبب سعادة المرء في دينه ودنياه، في حياته وبعد مماته، ولا سيما إذا تحرى الإنسان أرجى أوقات إجابة الدعاء، من ذلك يوم الجمعة، قال صلى الله عليه وسلم: «يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة، فيها ساعة لا يوجدُ عبد مسلم يسأل الله شيئًا إلا آتاه إياه فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر». (صحيح الترغيب: ٧٠٣).

ومنها بين الأذان والإقامة: قال صلى الله عليه وسلم: «الدعاء لا يُرَدُّ بين الأذان والإقامة». (صحيح الجامع: ٣٤٠٨).

ومنها حال السجود، قال صلى الله عليه وسلم: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء». (مسلم: ٤٨٢).

ومنها بين صلاتي الظهر والعصر من كل يوم أربعاء: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا في مسجد الفتح ثلاثًا: يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، فاستُجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعُرِفَ البِشْرُ في وجهه، قال جابر: فلم ينزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة، فأدعو فيها فأعرفُ الإجابة. وفي رواية: فاستجيب له بين الصلاتين- الظهر والعصر- من يوم الأربعاء. (صحيح الترغيب: ١١٨٥).

يقول شيخنا الألباني رحمه الله: «لولا أن الصحابي رضي الله عنه أفادنا أن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت من يوم الأربعاء كان مقصودًا-والشاهد يرى ما لا يرى الغائب وليس الخبر كالمعاينة- لولا أن الصحابي أخبرنا بهذا الخبر لكنا قلنا: هذا قد اتفق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دعا فاستجيب له، في ذلك الوقت من ذلك اليوم، لكن أخذ هذا الصحابي يعمل بما رآه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا ووقتًا ويستجاب له. إذن هذا أمرٌ فهمناه بواسطة هذا الصحابي وأنه سنة تعبدية لا عفوية». (صحيح الأدب المفرد: ٢/ ٢٨٠).

ومنها: جوف الليل الآخر: سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الدعاء أسمع؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «جوف الليل الآخر، ودُبُر الصلوات المكتوبات». (صحيح الترغيب: ١٦٤٨).

فهذه بعض الأوقات التي ترجى فيها إجابة الدعاء فاغتنموها عباد الله، مع الأخذ بآداب الدعاء، ومنها: رفع اليدين: قال صلى الله عليه وسلم: «إن ربكم حيي كريم، يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه فيردهما صفرًا- أو قال: خائبتين».

أنه يبدأ بحمد الله وتمجيده والثناء عليه، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم ليصل على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ليدع بما شاء». (صحيح الجامع: ٦٤٨).

ومنها: أن يجزم الدعاء، ويوقن بالإجابة قال صلى الله عليه وسلم: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة». (صحيح الجامع: ٢٤٥).

وإذا أردت أن توفق للدعاء فقل: «اللهم أعنِّي على ذِكْرك وشكرك وحُسن عبادتك». (صحيح أبي داود: ١٣٤٧).

هذا، والله تعالى أسأل أن يتقبل منا ومنكم.

الغايةُ العليةُ من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم

إعداد: عبده أحمد الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده؛ نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعدُ:

فالأخلاق الحميدة جزء أساس من الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وهي جزء أساس كذلك من شرع الله وعبادته اللذين جاء بهما الإسلام، وتعبّدنا الله بهذه الأخلاق كما تعبّدنا بسائر العبادات، وفهمنا لهذه الأخلاق والتزامنا بها مرتبط بفهمنا والتزامنا لمعنى العبودية لله تعالى.

لذا امتن الله على البشرية بخير البرية صاحب الأخلاق العليّة والصفات الزكية لينهض بالأمة بمزيد من الأخلاق السوية فحدد صلى الله عليه وسلم الغاية العظمى من بعثته والمنهاج المبين في دعوته، فقال صلى الله عليه وسلم: «إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق». (الصحيحة: ٤٥).

ومما يدل على أن للأخلاق الحسنة مكانة عظيمة: أنَّ المؤمنين يتفاضلون في الإيمان، وأن أفضلهم فيه أحسنُهم خُلُقًا:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءه رجلٌ من الأنصار، فَسَلَّمَ على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خُلقًا». (ابن ماجه: ٢/١٤٢٣).

ومن ذلك أن المؤمنين يتفانون في الظفر بحبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرب منه يوم القيامة، وأكثرهم ظفرًا بحبه والقرب منه صلى الله عليه وسلم الذين حسنت أخلاقهم. قال صلى الله عليه وسلم: «إنَّ من أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا». (صحيح الجامع: ٢٢٠١).

لذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرغِّب في مكارم الأخلاق ويحثُّ عليها ويبين لهم فضلها.

فأخبر صلى الله عليه وسلم أن حُسن الخُلق عنوان كمال الإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا». (صحيح الترمذي: ١١٦٢).

وأخبر صلى الله عليه وسلم أنَّ حُسْن الخُلُق من موجبات الجنة، سُئِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحُسْنُ الخُلُق». (صحيح: الترمذي ٢٠٠٤).

قال ابن القيم رحمه الله: جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين تقوى الله وحُسن الخلق؛ لأن تقوى الله تصلحُ ما بين العبد وربه، وحُسن الخلق يصلحُ ما بين العبد وبين خلقه، فتقوى الله توجبُ له محبة الله، وحُسن الخُلق يدعو الناس إلى محبته.

وأخبر صلى الله عليه وسلم أنَّ حُسن الخلق يبلغ صاحبه درجة الصائم القائم، قال صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن ليدرك بحُسن خلقه درجة الصائم القائم». (صحيح أبي داود: ٤٧٩٨).

وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة القائم بالليل، الظامئ بالهواجر». (صحيح الترغيب: ٢٦٤٤).

«درجة الصائم القائم»: أي: قائم الليل في الطاعة، وإنما أعطي صاحب الخُلق الحسن هذا الفضل العظيم لأنَّ الصائم والمصلي في الليل يجاهدان أنفسهما في مخالفة حظهما، وأما

من يحسن خُلُقه مع الناس مع تباين طبائعهم وأخلاقهم فكأنه يجاهد نفوسًا كثيرة فأدرك ما أدركه الصائم القائم فاستويا في الدرجة. (عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٣/ ١٥٤).

وأخبر صلى الله عليه وسلم أنَّ حُسن الخلق يرفع صاحبه أعلى درجات الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: «أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حُسن خُلُقه». (صحيح أبي داود: ٤٨٠٠).

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن أحسن الناس إسلامًا أحسنهم خُلقًا؛ فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كنت في مجلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم وسمرة وأبو أمامة، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلامًا أحسنهم خلقًا». (صحيح الترغيب: ٢٦٥٣).

وأخبر صلى الله عليه وسلم أنَّ خيار الناس أحاسنهم أخلاقًا؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «أطولكم أعمارًا، وأحسنكم أخلاقًا». (صحيح الترغيب: ٢٦٥١).

وأخبر صلى الله عليه وسلم أنَّ أحبَّ عباد الله إلى الله أحسنهم خلقًا؛ فعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم كأنما على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس فقالوا: مَنْ أحبُّ عباد الله إلى الله تعالى؟ قال: «أحسنهم خلقًا». (صحيح الترغيب: ٢٦٥٢).

وأخبر صلى الله عليه وسلم أنَّ خير ما أعطى الإنسان حُسن الخُلق؛ فعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: سُئل النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له: يا رسول الله، ما خيرُ ما أعطي الإنسان؟ قال: «حُسن الخُلق». (البخاري في الأدب: ٢٩١).

ومما لا شك فيه أنَّ حُسن الخلق منَّة من الله يمنُّ به على مَن يشاء من عباده، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ» (آل عمران:١٥٩).

قال السعدي رحمه الله: «أي برحمة الله لك ولأصحابه منَّ الله عليك فألنت لهم جانبك وخفضت لهم جناحك، وترفقت لهم، وحسنت لهم خلقك فاجتمعوا عليه وأحبوك وامتثلوا أمرك، «وَلَوْ كُنتَ فَظًّا» (آل عمران:١٥٩) أي: سيئ الخلق، «غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ» (آل عمران:١٥٩) أي: قاسيه، «لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ» (آل عمران:١٥٩)؛ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام بهذا الخُلق السيئ.

فالأخلاقُ الحسنة تجذبُ الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخالص.

والأخلاق السيئة تنفر الناس عن الدِّين وتُبغضه إليهم، مع لصاحبه من الذم والعقاب الخالص. اهـ تفسير السعدي (١/ ٤٤٤).

ولحسن الخلق تأثير هائل في الدعوة إلى الله، وله عظيم الأثر في نفوس المدعوين، فإذا كان للشخص رصيدٌ طيب من حُسن الخُلق كانت دعوته أنفع وأنجع وأولى بالقبول عند الناس، ومن ثَمَّ أثار رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا من هذا الرصيد في بداية بعثته، ألا وهو صدقُهُ صلى الله عليه وسلم في الحديث، فقال للمشركين: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً يخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. (البخاري: ٤٨٠١، ومسلم: ٢٠٨).

لذا وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الأمة بالحلال والحرام العالمَ الفقيهَ معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ فقال له صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلق حَسَن». (صحيح الجامع: ٩٧).

فخيار المسلمين من حسُنت أخلاقهم وكرمت صفاتهم، أما من ساءت منهم الأخلاق وقبحت الصفاتُ فأولئك مع الأشرار، وإن كانوا يصلون ويصومون ويحجون، فإن صلاتهم ليست بصلاة الخاشعين، وصيامهم مجاراة، وحجهم رياء، ولو كان ذلك منهم بإخلاص لأثمر بلا مراء كرام الأخلاق، فإن الصلاة الحقة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصيام الخالص داعيةُ الصبر والكرم، والحج المبرور يُثمر خُلق الصبر، وحسن

العشْرة والمعونة، فبرهانُ الصدق في العبادات والإخلاص فيها كرمُ الأخلاق، وآية التقصير فيها سوءها. (الأدب النبوي: ١٦٠).

فحسن الخلق عنوان قبول الأعمال، وسوء الخُلُق يحبط الأعمال، قال صلى الله عليه وسلم: «وإن سوء الخلق ليفسد العمل، كما يُفسد الخَلّ العسل». (صحيح الجامع: ١٧٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، إن فلانة تُذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تُؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في النار». قال: يا رسول الله، فإن فلانة تذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها وأنها تصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «هي في الجنة». (صحيح الترغيب: ٢٥٦٠). معنى: «الأثوار» جمع ثور وهي القطعة من الأقط، ومعنى «الأقط» شيء يُتَّخذ من مخيض اللبن الغنمي.

فديننا الحنيف لا ينظّم علاقة الإنسان بخالقه فقط، وإنما ينظم علاقة الإنسان بخالقه والناس أجمعين مؤمنين وكافرين، ويدعو الدِّين إلى أن يكون الإحسانُ هو أصل علاقة الإنسان بربه والناس أجمعين، قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (البقرة:١٧٧).

فما أحوجنا جميعًا أن نعيد النظر في أنفسنا أين نحن من مكارم الأخلاق؟ أين نحن من التأسي بنبينا صلى الله عليه وسلم الذي كان خُلُقه القرآن.

قال الحسن البصري رحمه الله: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علْم لهم بتأويله، وما تدبُّر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا وقد -والله- أسقطه كله ما يُرَى القرآن له في خُلُق ولا عمل». (الزهد ص٢٧٦)، ما أحوجنا أن يُرى أثر القرآن في مكارم أخلاقنا مع الصغير والكبير، والقريب والبعيد.

«إن نهوض الأمة وصلاح المجتمع إنما يتحقق بالتخلّي عن رذائل الأخلاق، والتحلي بفضائلها، وإن علاج أمراضنا الاجتماعية يتطلبُ إصلاحًا أخلاقيًّا يكفل الانسجام والائتلاف بين طبقات الأمة، ويوجِّهُ النفوس إلى الخير المفطور فيها، ويُخلصُ القلوب من أدران الحقد والأنانية، فجاهد نفسك أخي لاكتساب الأخلاق الفاضلة؛ فإن مَن يتطلع إلى معالي الأمور لا بد له أن يدفع ثمنها المناسب، ويسعى في تحصيلها، ومن ذلك استعراض ما في القرآن الكريم، فما وجدت فيه من أوامر وتوجيهات فخُذْ به، وما وجدت فيه من نواهٍ فابتعد عنه، لذا لما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خُلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت للسائل: «ألستَ تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإن خُلُق نبيِّ الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن». رواه مسلم.

والمعنى: فما حث القرآنُ الكريمُ على اعتقاد ولا عبادة ولا معاملة إلا وتخلَّق به رسول الله صلى الله عليه وسلم، واقرأ سيرة خير البرية فقد بلغ ذروة المثالية في كل أحوال البشرية، وكن مع الناس كالنحل الذي قع على أحسن الزهور وأطهر الزروع فيجتني منها ما يفيده، وما يخدم به الناس.

ومشكورًا غير مأمورًا ضع هذه الوصية النبوية بين نصب عينك لتسعد إن عملت بها وكنت من أهلها بخيري الدنيا والآخرة. قال صلى الله عليه وسلم: «مَن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يُؤْتَى إليه». (مسلم).

وليكن أقل حظ المؤمن منك ثلاثٌ: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه».

اللهم حسِّن أخلاقنا، وجمِّل أفعالنا، اللهم كما حسَّنت خَلْقنا فَحَسِّن بمَنِّك أخلاقنا، اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنها سيئها إلا أنت». آمين.

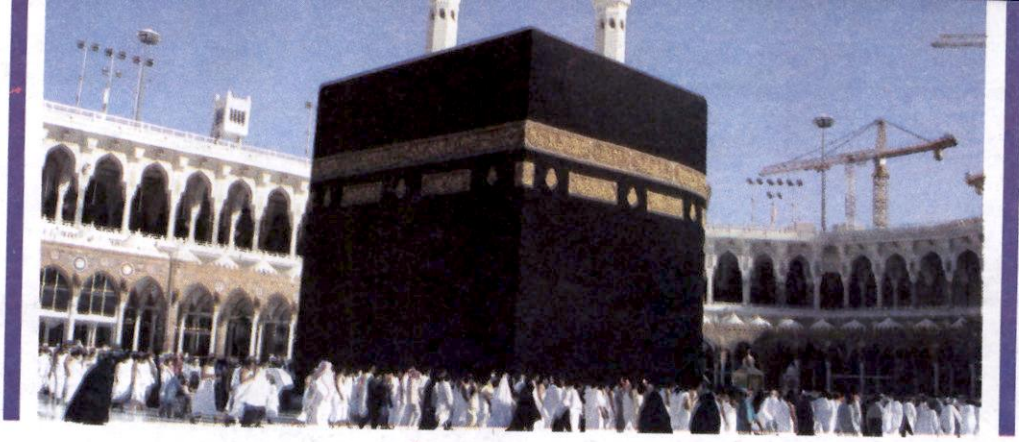

رسول البشرية صلى الله عليه وسلم
خيرُ مُعَلِّم ومُفْتٍ في الحجّ

إعداد: عبده أحمد الأقرع

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبينا المصطفى ورسولنا المجتبى سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، أما بعدُ:

في مثل هذه الأيام من كل تستقبل أمة الإسلام مناسبة عظيمة وعبادة جليلة من أجل العبادات؛ من أداها محا الله عنه السيئات، وأدخله الله الجنات، تُرى ما هي هذه العبادة؟ إنها فريضة الحج. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والحجُّ المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة». متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من حج فلم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». متفق عليه.

والحج المبرور هو الذي يقوم على العلم والعمل معًا، والاستعداد للحج بالعلم النافع، والفقه في الأحكام، وسؤال أهل العلم عما يُشكل فلا يجوزُ أن يُعبد الله على جهل، أو تؤدَّى المناسك على غير هُدًى، وذلك أمرٌ ينبغي أن يُعنى به الحجاج أيما عناية، ونهيب بشركات السياحة أن يكون مع كل حملة عالم يعلمهم ومُفْتٍ يفتيهم اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتركك أخي لتقف على ما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في رحلته المباركة لأداء فريضة الحج:

١ - التعليم:

ومن تأمل حجه صلى الله عليه وسلم وجد أنه هو ذلك المعلّم الموصوف بعينه صلى الله عليه وسلم: «ما رأيت معلّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه». (صحيح مسلم: ٥٣٧). إذ أمر بأن يؤذن في الناس قبل الحج بأنه صلى الله عليه وسلم يريد الحج، ليسهل على من يريد مرافقته السفر معه، ومكث خارج المدينة بذي الحليفة يومًا كاملاً ينتظر من يريد اللحاق به صلى الله عليه وسلم. (صحيح البخاري: ١٥٥١). فقدم المدينة بشرٌ كثير، ولحقت به أعداد غفيرة كل واحد منهم يلتمس أن يأتم به ويأخذ عنه. (صحيح أبي داود رقم: ١٦٧٦)، حتى بلغوا مائة ألف. (مختصر السيرة لابن عبد الوهاب: ٥٧٢).

فاختلط صلى الله عليه وسلم بالناس وأشرف لهم، وبرز طوال الموسم، وكان لا يُصرَف أحدٌ عنه ولا يُدفَع، ولم يكن حوله ضَرْب ولا طَرْد ولا قول: إليك إليك (صحيح سنن ابن ماجه رقم ٢٤٦١).

وحرص صلى الله عليه وسلم على البلاغ وإقامة الحُجَّة على الخلق فحفَّزهم على التعلم، وشحذ هممهم، وشد انتباههم إلى ما يقول ويفعل، بتنويع أساليب الخطاب وطرق التعليم، وبأمره لهم بأخذ المناسك عنه لاحتمال أن تكون حَجَّته الأخيرة، واتخاذه من يُنْصت الناس ويُسكتهم، كما في حديث بلال رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له غداة جَمع: «يا بلال، أسكتِ الناس». أو:

«أنصت الناس». ثم قال: «إن الله تَطَوَّل عليكم في جمعكم هذا فوهب مسيئكم لمحسنكم، وأعطي مُحسنكم ما سأل، ادفعوا باسم الله». (صحيح سنن ابن ماجه: ٢٤٦٨). وتَطَوَّل: أي: تفضَّل ومنَّ.

ولم يقتصر صلى الله عليه وسلم على البلاغ والتعليم بنفسه، بل جعل صلى الله عليه وسلم حين خطب الناس بعرفة- ربيعة بن أمية- رضي الله عنه يصرخ خلفه في الناس يُسمعهم خطبته. (السيرة النبوية لابن كثير: ٣٤٢/٤).

وفي معنى جعل صلى الله عليه وسلم عليًا رضي الله عنه يعبِّر عنه، ويردِّد كلامه، والناس بين قاعد وقائم. (صحيح سنن الترمذي، رقم ٧٠٠).

وقد كان صلى الله عليه وسلم أحيانًا يمزج تعليمه بتلطف ومداعبة، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أغيلمة بني عبد المطلب على حُمُرات لنا من جَمْع فجعل يلطح أفخاذنا ويقول: أبيني، لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمسُ». (صحيح سنن ابن ماجه رقم ٢٤٦٩). معنى: «أغيلمة» الصبيان.

معنى: «حمرات» جمع حمر أو جمع حمار.

معنى: «اللطح» الضرب بالكف وليس بالشديد.

معنى: «أبيني» هو تصغير بُني.

ولم يقتصر تعليمه صلى الله عليه وسلم على الأصحاء والكبار، بل علَّم المرضى ووجَّه الضعفة، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لأم سلمة رضي الله عنها حين اشتكت إليه أنها وَجِعة: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة». (صحيح البخاري رقم ٤٦٤).

وأمره صلى الله عليه وسلم للظُعُن والضعفة أن ينفروا عن جَمْع بليل. (صحيح البخاري: ١٦٧٩).

كما شمل تعليمه صلى الله عليه وسلم الصغار والأطفال، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما وهو غلام غداة العقبة، وهو واقف على راحلته: «هات، القُط لي». يقول ابن عباس: «فلقطت له حصيات هُنَّ حصى الخَذف، فوضعهن في يده، وجعل يقول بهنَّ في يده: «أمثال هؤلاء فارموا». (صحيح سنن النسائي رقم ٢٨٦٥).

واستنهض الهمم للعمل بذكر مراتب بعض الأعمال وفضائلها، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير». (صحيح سنن الترمذي رقم ٢٨٣٧).

وقوله صلى الله عليه وسلم: «مسحُ الحجر والركن اليماني يحط الخطايا حطًا». (صحيح الترغيب: ١١٣٩).

وقوله صلى الله عليه وسلم: «من طاف بالبيت وصلى ركعتين، كان كعتق رقبة». (صحيح سنن ابن ماجه رقم ٢٣٩٣).

وأبرز الأمور التي اهتم بها صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم الناس إياها، هي: أحكام المناسك: حيث جمع فيها صلى الله عليه وسلم بين البيان النظري والتطبيق العملي، فإنه صلى الله عليه وسلم «لما كان قبل التروية بيوم، خطب الناس فأخبرهم بمناسكهم». (صحيح الجامع رقم ٤٧٧٤).

ومن ذلك بيانه صلى الله عليه وسلم منزلة أركان الإسلام وقواعده الكبار، إذ قال في إحدى خطبه في الموسم: «اتقوا ربكم وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمرمكم، تدخلوا جنة ربكم». (صحيح الترمذي: رقم ٥١٢).

ومنها: عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ مَن أمنه الناسُ على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب». (السلسلة الصحيحة رقم ٥٤٩).

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا» (صحيح البخاري: رقم: ٦٧).

ومن ذلك: بيانه صلى الله عليه وسلم بعض الأحكام الشرعية، ككيفية غسل الميت مُحرمًا وتكفينه، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما رجل واقف بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته، قال النبي صلى الله عليه وسلم: اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه، ولا تخمروا رأسه، فإنه يُبعث يوم القيامة ملبيًا». (صحيح الجامع: ١٠٧٩)، وبما أنا نرى اليوم الملايين من البشر في الحج تتوافد على الديار المقدسة عامًا بعد آخر، فإن

الفرصة متواتية لأن يتصدى أهل العلم لتعليمهم أصول الدِّين وتفضيههم بأحكامه.

ثانيًا: الإفتاء:

من أهم أحوال النبي صلى الله عليه وسلم في الحج مع الناس تبيين المُشكل عليهم من الأحكام، والجواب عن أسئلتهم.

ولعل من أشهرها: «أنَّ امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله، إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج، وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فحجي عنه». (صحيح مسلم رقم: ١٣٣٥).

وقوله صلى الله عليه وسلم لكل من سأله عن التقديم والتأخير في أعمال يوم النحر: «افعل ولا حرج». (صحيح البخاري رقم ٨٣).

والملاحظ في إفتائه صلى الله عليه وسلم في الموسم أمور عدة، من أوضحها: وقوفه صلى الله عليه وسلم للناس وبروزه لهم لكي يروه ويسألوه، كما يدل لذلك حديث جابر رضي الله عنه قال: «طاف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالبيت في حجة الوداع على راحلته، يستلم الحجر بمحجنه، لأن يراه الناس، وليُشرف، وليسألوه، فإنَّ الناس غشوه». (صحيح مسلم: ١٢٧٣).

ومنها: جنوحه إلى التيسير في فتاويه، والتخفيف عن ذوي الحاجات، والشواهد على ذلك كثيرة، منها: عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل النبي صلى الله عليه وسلم على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله، إني أريد الحج وأنا شاكية؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: حُجي، واشترطي أنَّ محلي حيث حبستني». (مسلم رقم ١٢٠٧).

ومنها: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: استأذن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته، فأذن له. (صحيح البخاري: ١٦٣٤).

ومنها: عن عاصم رضي الله عنه قال: «رخَّص رسول الله صلى الله عليه وسلم لرعاء الإبل في البيتوتة، أن يرموا يوم النحر، ثم يجمعوا رَمي يومين بعد النحر فيرمون في أحدهما- قال مالك: ظننت أنه قال: في الأوَّل منهما، ثم يرمون يوم النفر». (صحيح سنن ابن ماجه رقم: ٢٤٨١).

معنى: «البيتوتة» أي: في شأن البيتوتة بمنى.

ومنها: حرصه صلى الله عليه وسلم على الإقناع لمن يستفتيه، كقوله صلى الله عليه وسلم لرجل قاله له: «يا رسول الله، إني أبي أدركه الإسلام، وهو شيخ كبير، لا يثبت على راحلته، أفاحج عنه؟ قال: أرأيت لو كان عليه دَيْن فقضيته عنه، أكان يُجزيه؟ قال: نعم. قال: فاحجج عن أبيك». (المسند للإمام أحمد رقم ١٨١٢).

ومنها: صبره صلى الله عليه وسلم على السائلين واحتمالهم، ورحمتهم، والرفق بهم، والشواهد الدالة على ذلك كثيرة: منها: حديث جابر رضي الله عنه الطويل، وفيه: «ثُمَّ ركب القصواء، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت على مد بصري بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومَن خلفه مثل ذلك». (صحيح مسلم رقم: ١٢١٨).

ومنها: إفتاؤه صلى الله عليه وسلم في شأن الحج، وهو الغالب، ومن ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم لأسماء بنت عميس رضي الله عنها لما ولدت، وهي معه بذي الحليفة، فأرسلت إليه تسأله: كيف تصنع؟ قال: «اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي». (صحيح مسلم رقم: ١٢١٨).

ومنها: أنه صلى الله عليه وسلم كان أحيانًا يمزج فتواه بترغيب في العمل، ومن ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم لامرأة بالروحاء رفعت إليه صبيًّا، فقالت: «ألهذا حج؟ قال: نعم، ولك أجر». (مسلم رقم: ١٣٣٦).

ومنها: تعدُّد مواطن فتاويه، وإفتاؤه صلى الله عليه وسلم الناس في كل موطن؛ إذ أفتى الحجيج عند الإحرام بذي الحليفة، وفي البيت الحرام، وفي عرفة، ومزدلفة، ومنى، وأثناء التنقل بين المشاعر، وفي طريق العودة إلى المدينة، فما أحوجنا لمن يقوم بهذا الأمر مع كل حملة من حملات الحج من كافة اللغات، والبروز لهم في طرقاتهم ومواضع إقامتهم، للإجابة على أسئلتهم، وحل إشكالاتهم، ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢).

وصلى الله وسلم وبارك عليك يا سيدي، يا رسول الله، اللهم امنن علينا بحج بيتك الحرام.

خصائص يوم عرفة

إعداد: عبده أحمد الأقرع

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبعدُ:

فإنَّ يوم عرفة يومٌ عظيم من أيام الله المباركة، ومجمع كبير من مجامع الخير والإيمان، وموسمٌ جليل من مواسم الطاعة؛ يومٌ تكثر فيه العبرات، وتتوالى فيه الدعوات، وتتنزل فيه الرحمات، وتُقال فيه العثرات، وتُغفَر فيه الزلات، إنه يومٌ كريم مبارك، وقد خُصَّ بمزايا كريمة، وخصائص عظيمة، إنه اليوم الذي أكمل الله فيه لهذه الأمة الدِّين، وأتم فيه لهم النعمة؛ إذ فيه نزل قول الله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» (المائدة:٣)؛ فعن طارق بن شهاب قال: «جاء رجلٌ من اليهود إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: وأي آية؟ قال: قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» (المائدة:٣)، فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التي نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم: عشية عرفة في يوم جمعة». (البخاري: ٤٦٠٦، ومسلم: ٣٠١٧).

إنه اليوم الذي رغَّب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في صيامه لغير الحاج؛ فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم عرفة؟ قال: «يُكفِّر السنة الماضية والباقية». (مسلم: ١١٦٢).

إنَّ يوم عرفة آكد أركان الحج، قال صلى الله عليه وسلم: «الحجُّ عرفة». (صحيح الجامع: ٣١٧٢).

لذا فإن الحاجَ يتهيأ لهذا اليوم تهيئة روحية، منذ أن يخرج من بيته يؤمّ بيت الله الحرام.

إنه اليوم الذي يباهي به الله ملائكته بأهل عرفة؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الله عز وجل يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة، فيقول: انظروا إلى عبادي شعثًا غُبرًا». (صحيح الترغيب: ١١٥٣)، فأيّ فضل ونبل يسمو إليه الحاج مثل هذا؟ فيسمو على مستوى البشرية، ويرقى إلى أعلى درجات الإنسانية، فيباهي به الله ملائكته، وهنا يتذكر الإنسان

قول الله تعالى للملائكة: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (البقرة:٣٠).

إنه اليوم الذي يكثر فيه عُتقاء الله من النار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟» (مسلم: ١٣٤٨).

قال ابن عبد البر رحمه الله: «وهذا يدل على أنهم مغفورٌ لهم؛ لأنه لا يباهي بأهل الخطايا والذنوب إلا من بعد التوبة والغفران». (التمهيد ١/ ١٢٠).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنتُ جالسًا مع النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد منى، فأتاه رجلٌ من الأنصار ورجل من ثقيف، فسلَّما، ثم قالا: يا رسول الله. جئنا نسألك. فقال: «إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه فعلتُ، وإن شئتما أن أمسك وتسألاني فعلتُ». فقالا: أخبرنا يا رسول الله. فقال صلى الله عليه وسلم: « جِئْتَني تَسأَلُني عن مَخْرَجِكَ من بَيْتِكَ تَؤُمُّ البيتَ الحرامَ، وما لكَ فيه، وعن رَكْعَتَيْكَ بعدَ الطَّوافِ وما لكَ فيهما، وعن طَوافِكَ بينَ الصَّفا والمَروةِ وما لكَ فيه، وعن وُقوفِكَ عَشيَّةَ عَرَفةَ وما لكَ فيه، وعن رَميِكَ الجِمارَ وما لكَ فيه، وعن نَحْرِكَ وما لكَ فيه، مع الإفاضةِ؟ فقال: والَّذي بَعثَكَ بالحقِّ، لَعَنْ هذا جِئْتُ أسألُكَ. قال: فإنَّكَ إذا خَرَجْتَ من بَيْتِكَ تَؤُمُّ البيتَ الحَرامَ، لا تَضَعُ ناقَتُكَ خُفًّا، ولا تَرْفَعُهُ؛ إلَّا كَتَبَ اللهُ لكَ به حسنةً، ومَحا عنكَ خطيئةً. وأمَّا رَكْعَتاكَ بعدَ الطَّوافِ؛ كعِتْقِ رَقَبةٍ من بني إسماعيلَ. وأمَّا طوافُكَ بالصَّفا والمروةِ؛ كعِتْقِ سبعينَ رَقَبةً. وأمَّا وُقوفُكَ عَشيَّةَ عَرَفةَ؛ فإنَّ اللهَ يَهْبِطُ إلى سماءِ الدُّنيا فيُباهي بكُمُ المَلائكةَ، يَقولُ: عِبادي جاؤُوني شُعْثًا من كلِّ فَجٍّ عميقٍ يَرْجُون رحْمتي، فلو كانتْ ذُنُوبُكُمْ كعددِ الرَّملِ، أو كقَطْرِ المطرِ، أو كزَبَدِ البحرِ؛ لغَفَرْتُها، أفيضوا عِبادي مغفورًا لكُم، ولِمَن شَفَعْتُم لهُ. وأمَّا رَمْيُكَ الجِمارَ؛ فلكَ بكلِّ حصاةٍ رَمَيْتَها تكفيرُ كبيرةٍ منَ المُوبقاتِ. وأمَّا نَحْرُكَ؛ فمَدْخُورٌ لكَ عندَ ربِّكَ. وأمَّا حلاقُكَ رأسَكَ؛ فلكَ بكلِّ شَعرةٍ حَلَقْتَها حسنةٌ، وتُمْحى عنكَ بها خطيئةٌ. وأمَّا طَوافُكَ بالبيتِ بعدَ ذلكَ؛ فإنَّكَ تَطُوفُ ولا ذَنْبَ لكَ، يأتي مَلَكٌ حتَّى يَضَعَ يَدَيْهِ بيْنَ كَتِفَيْكَ، فيَقولُ: اعمَلْ فيما تَستَقبِلُ؛ فقد غُفِرَ لكَ ما مَضى». (صحيح الترغيب: ١١١٢)، فأي فضل بعد هذا الفضل؟! وأي كرم بعد هذا الكرم؟! اللهم اجعلنا من هؤلاء يا كريم.

إنه يوم الدعاء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خيرُ الدعاءِ دعاءُ يوم عرفة، وخيرُ ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير». (صحيح الجامع: ٣٢٧٤).

فيوم عرفة يوم الدعاء، والدعاء من العبادات العظيمة بل هو أجل أنواع العبادة وأفضلها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدعاء هو العبادة». (صحيح الجامع: ٣٤٠٧). والدعاء شأنه عظيم، وفضله كبير، وبه يتحصل العبد على سعادة الدنيا والآخرة، أمر الله به عباده، فقال سبحانه: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً» (الأعراف:٥٥)، وقال سبحانه: «هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» (غافر:٦٥)، وقال سبحانه: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» (البقرة:١٨٦)، وقال سبحانه: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» (غافر:٦٠)، وحثَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الدعاء ورغَّب فيه، فقال صلى الله عليه وسلم: « إن الدعاءَ ينفعُ ممّا نزَلَ ومما لم يَنْزِلْ فعليكم

عبادَ اللهِ بالدعاء». (صحيح الترغيب: ١٦٣٤).

وقال صلى الله عليه وسلم: « لا يردُّ القضاءَ إلا الدعاءُ، ولا يزيدُ في العمرِ إلا البرُّ». (صحيح الترغيب: ١٦٣٩). فالدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، وهو أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يُدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخفّفه إذا نزل. ولهذا فإن العبد كُلَّما عظمت معرفته بالله وقويت صلته به كان دعاؤه له أعظم، وانكساره بين يديه أشدَّ، ولهذا كان أنبياءُ الله ورسله أعظم الناس تحقيقًا للدعاء في أحوالهم كلها وشئونهم جميعها، وقد أثنى الله عليهم بذلك، فقال سبحانه: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ» (الأنبياء:٩٠)، فالدعاء هو روح هذا الدِّين، وزاد المؤمنين المتقين، وعنوانُ التذلل والخضوع لربِّ العالمين، وعليه فإنه ينبغي على حجاج بيت الله الحرام وغيرهم أن يغتنموا يوم عرفة في الدعاء؛ فقد عظَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم شأن الدعاء فيه وبيَّن فضله؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «خيرُ الدعاء دعاءُ يوم عرفة». (صحيح الترغيب: ١٥٣٦).

قال ابن عبد البر رحمه الله: «وفيه أنَّ- أي: هذا الحديث- من الفقه أنَّ دعاء يوم عرفة أفضل من غيره.. وفي الحديث دليل على أنَّ دعاء يوم عرفة مجابٌ كله في الأغلب». (التمهيد: ٦/ ٤١).

فأروا الله من أنفسكم خير يوم عرفة وعليكم بالدعاء، واجتهدوا فيه فإن حاجة المسلم إلى الدعاء ماسةٌ في أموره كلها وضرورته إليه ملحة في شئونه جميعها، ومَن أقبل على الله بصدق، وألح عليه بالدعاء، وأكثر من سؤاله أجاب الله دعاءه، وحقق رجاءه، وأعطاه سُؤْلَه، وفتح له أبواب الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فهو سبحانه لا يُخيب عبدًا دعاه، ولا يردُّ مؤمنًا ناجاه، وهذا من لطفه سبحانه بعباده وعظيم إكرامه لهم وإحسانه، فهو القائل سبحانه: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا على صعيد واحد، فسألوني فأعطيتُ كل واحدٍ مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلاَّ كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر». (مسلم: ٢٥٧٧).

وهذا من باب المبالغة في عدم النقص؛ لأن كل واحدٍ يعلم أنك لو أدخلت المخيط وهو الإبرة الكبيرة في البحر ثم أخرجتها فإنها لا تنقص البحر شيئًا ولا تغيره، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَمِينُ اللهِ مَلأى لا يَغِيضُها نفقة سَحّاءُ اللَّيْلَ والنَّهارَ، أرَأَيْتُمْ ما أنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّماءَ والأرْضَ، فإنَّه لَمْ يَغِضْ ما في يَمِينِهِ». (متفق عليه).

فاجتهدوا- عباد الله- في الدعاء يوم عرفة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افعلوا الخيرَ دهرَكم، وتعرَّضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحاتٍ من رحمته يصيبُ بها من يشاءُ من عباده». (السلسلة الصحيحة: ١٨٩٠).

وتذكروا قول النبي صلى الله عليه وسلم: «خيرُ الدُّعاءِ يومَ عَرفةَ، وخيرُ ما قلتُ أنا والنَّبيُّونَ من قبلي: لا إلَه إلّا اللهُ وحدَه لا شَريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ ولَهُ الحمدُ وَهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ». (أخرجه الترمذي: ٣٥٨٥). هذه الكلمة الطيبة وهي العروة الوثقى، وكلمة التقوى، وأصل الدِّين وأساسه، ورأس أمره؛ لأجلها قامت السماوات والأرض، وخُلقت الخليقة وأُرسلت الرسل، وأُنزل الكتب، إن لهذه الكلمة العظيمة مدلولاً لا بد من فهمه، وغاية لا بد من تحقيقها، قال الله تعالى: «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (الزخرف:٨٦).

أي: إلا من شهد بـ«لا إله إلا الله» وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما شهدوا به بألسنتهم؛

إذ إن هذه الكلمة العظيمة تعني إخلاص العبادة كلها لله وعدم الإشراك به، والإقبال على الله وحده لا شريك له خضوعًا وتذللاً وطمعًا ورغبًا، وإنابة وتوكلاً ودعاءً وطلبًا، فصاحب «لا إله إلا الله» لا يصرف شيئًا من العبادة لغير الله.

وأنت أخي الحاج قدوتك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعد أن صلى الظهر والعصر جمعًا وقصرًا أتى الموقف واستقبل القبلة، فلم يزل واقفًا يدعو حتى غربت الشمس، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: كُنتُ ردفَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بعَرفاتٍ فرفعَ يديه يَدعو فمالَت به ناقتُهُ فسقَطَ خطامُها فتَناولَهُ بيدِه وَهوَ رافعٌ اليَدَ الأُخرى. (صحيح سنن النسائي: ٢/٣٤٤)؛ ومع هذا يُرى من الحجيج مَن ينشغل يوم عرفة بأجهزة الاتصال والكلام الذي لا فائدة فيه؛ فيضيع أنفس الأوقات وأثمن اللحظات، فيا له من غبن ليس له نظير!

إنَّ يوم عرفة على صعيد عرفات ذلكم الجمع العظيم الذي يشهده جميعُ الحجاج مشهدٌ تذوب فيه الفوارق، وتُرفع فيه الحواجز، فتتوحد الأجناس، وتتحد الأقطار، فلا ارتفاع لغني ولا انخفاض لفقير في لباسهم يستوون، وتساويهم في اللباس يذكر بتساويهم جميعًا في لباس الأكفان بعد الموت، فإن الكل يُجرَّدون من ملابسهم ويُلفُّون بلفائف بيضاء لا فرق فيها بين غنيٍّ وفقير، والحاج عندما يتجرد من لباسه في الميقات ويلبس ملابس الإحرام يتذكر هذه الحال ويتوارد على ذهنه هذا المآل ويتذكر الموتَ الذي به تنتهي الحياة الدنيوية وتبتدئ الحياة الأخروية، وكم هو عظيم ونافع للعبد أن يتذكر الرحيل من هذه الدار، وأن يتذكر مفارقة الحياة وأنه ليس له من ماله إلا الأكفان، ثم مآلها إلى البلى.

نصيبُك مما تجمعُ الدهرَ كله
رداءان تُلوى فيهما وحنوط.

إن يوم عرفة وفيه الجموع الكثيرة الوافدة من شتى أقطار العالم يُذكِّر المسلم بالموقف الأكبر يوم القيامة الذي يلتقي فيه الأولون والآخرون، قال الله تعالى: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ» (الواقعة: ٤٩-٥٠).

فلله ذاك الموقف الأعظم الذي
كموقف يوم العرض بل ذاك أعظم

في ذلك اليوم العظيم يجمع الله جميع العباد، قال سبحانه: «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ» (النساء:٨٧)، ولن يتخلف عن هذا الجمع أحدٌ، قال سبحانه وتعالى: «وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا» (الكهف:٤٧).

فالوقوف على صعيد عرفات يذكِّر بيوم الحشر وانشغال كل إنسان بنفسه، والمتأمل في آيات الحج في سورة البقرة يجد أنها خُتمت بقول الله سبحانه: «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» (البقرة:٢٠٣).

فتذكر أخي الحاج أنك ستحشر إلى الله، وأن الله سبحانه يحاسبك ويجازيك على ما قدَّمت في هذه الحياة، وإذا كان العبدُ على هذا العلم والإيمان واليقين بأنه إلى الله يُحشر، فإن علمه هذا ويقينه يكون عونًا له في صلاح عمله والاستعداد لذلك اليوم، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل؛ قال الله سبحانه: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (آل عمران:١٨٥).

جعلنا الله وإياكم من عباده المتقين، وأعاذنا جميعًا من خزي يوم الدين، وجعلنا بمنه وكرمه يوم الفزع من الآمنين، ورزقنا وإياكم حج بيته الحرام، اللهم آمين.